الصليحيون

والحركة الفاطمية في اليمن

(من سنة ٢٦٨ هـ إلى سنة ٦٢٦ هـ)

تأليف

حسين بن فيض الله الهمداني

اليعبري الحرازي

بالاشتراك مع

الدكتور حسن سليمان محمود الجهني



الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م

الإهـداء

«ربِّ أوزِعْني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ
وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخِلْني برحمتك في عبادك الصالحين»

إلى والديَّ

اللذين أدين لهما بوجودي وتنشئتي
أطال الله في عمرهما وغفر لي ولهما
كما ربّياني صغيراً.

حُسين الهَمْـدَاني

شكر

نرى لزاماً علينا أن نقدم جزيل شكرنا لصديقنا الأديب الدكتور حسين نصار على قراءة التجارب المطبعية بعد سفر الأستاذ مصطفى السقا إلى الخارج قراءة دقيقة وتزويدنا بملحوظاته الثمينة.

وجدير أن ننوه بجهد تلميذنا الرشيد الدكتور حسن سليمان محمود في تقديمه لنا عوناً وعيناً في إخراج الكتاب إلى حيز الوجود ـ حينما رفضت الجهات الشريفة والوطنية، التي كنا نعتمد عليها مساعدتنا في طبعه ـ وإشرافه على طبع الكتاب وترتيبه فهارسه.

ونشكر للأستاذ فؤاد السيد بدار الكتب المصرية كل الشكر مراجعة قائمة المصادر وإضافة المعلومات القيمة إليها.

ونختتم بشكر السيد عبد الحميد علي حسن المشرف على مطبعة الرسالة لحسن رعايته الكتاب في مراحل طبعه.

المؤلف

تصـــديـر

بقلم الأستاذ مصطفى السقا

أستاذ الأدب الأندلسي بكلية الأدب بجامعة القاهرة

هذه صفَحات رائعة مشرِقة من تاريخ الحركة الفاطمية في اليمن، وتاريخ دولـة من أعظم دولهـا أثراً، وأبقـاها ذكـراً، وهي دولة «الصُّلَيْحِيِّـين»، الذين لبست اليمن على أيديهم حُلّة قشيبـة من المجد لا تُبليهـا الأيام، إذِ انـتـظمت مخاليفَها وَحْدَةٌ جامعة، خَفَقَ عليها علم العدْل والأمْن والسلام، حِقبة من الزمان، وخاصة في عهد مؤسسها عليّ بن محمد الصُّلَيحِيّ، وعهد السيدة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية، اللذين يذكر لهما اليمن حتى وقتنا هذا أطيب الذكريات.

كان حكم الصُّلَيحيين في اليمن طِرازاً جديداً من الحكم، وأول ما يتميز به من سِمات: القصدُ إلى وحدة الشعوب اليمنية، وجمعها تحت راية سيـاسية واحدة، تظِلُّهم بـالسلام والعمـل لإسعاد البـلاد، لا يبغِي بعض على بعض، ولا يجفو صاحب اعتقاد أو مذهب دينيّ أخاه في الوطن؛ فقد أطلق الصُّلَيحيون لأصحاب المذاهب الدينية: من سنية وزيدية وفاطمية، حرية الاعتقاد والعمل، فكان ذلك أقوى دِعامة قامت عليها تلك الدولة الجديدة.

وإذ كانت دولة الصُّلَيْحيين فاطمية الشعائـر، أخذوا في إعـلان شرائعهم وشعائرهم للناس، ليظهروا حقيقتها، وأنها لا تختلف في الـواقع عن المـذاهب الأخـرى الموجـودة، كما يتضـح من الباب التـاسع من أبـواب هـذا الكتـاب، وليقولوا للناس: إن التشيع الفاطميّ، ليس كما صوره كثير من أعدائه، من السياسيين

المغرضين، والفقهاء المأجورين، وإنما هو صفحة نقية من اجتهاد أهل بيت النبيّ، وبلائهم في إقامة دولة سياسية إسلامية، لاستخلاص حقهم في الخلافة، الذي اغتصبه العباسيون وغيرهم من أيديهم، مع احتفاظهم بما ورثوه عن آبائهم من أحكام في الدين، وفتاوى في القضاء، لا تُخرِج المستمسك بها عن جملة المسلمين. فأما الاعتقاد في الله، والإيمان بالنبوات وبرسالة محمد ﷺ، وبالكتاب المنزَّل عليه، فليس بينهم وبين جميع المسلمين في ذلك أدنى خلاف، وإن اختلفوا في تأويل بعض الآي، استناداً إلى ما ورثوه عن آبائهم الأوَّلين، من توجيه مأثور.

وليس الفاطميون وحدهم الذين انفردوا بالتأويل لبعض الآيات التي تحتمل التأويل، فالاختلاف في تفسير آي القرآن وتأويلها، ظاهر في كتب المفسرين الأوَّلين، الذين سبقوا الإمامَ محمد بن جرير الطبريّ، وكان تفسيره الجامع مَحْكمة علمية، للترجيح بين مذاهبهم. وخلاصة هذا كله أن المذهب الشيعيّ الفاطميّ الرسميّ، مذهب صحيح، خالص من الابتداع، بعيد عن الزندقة والإلحاد وتعطيل الشريعة، وغير ذلك من الاتهامات التي وصفه بها المغرضون.

وإذا كان بعض فرق الفاطمية، كالنِّزارية والدُّروز والقرامطة وغيرهم، قد غلا في مذهبه،وابتدع أموراً ليست في أصل المذهب، حتى سَوَّغ لأعداء الفاطميين أن يرميَهم جميعاً بالزيغ والضلال، فليس ذلك ذنب المذهب الفاطميّ الرسميّ، في أصوله النقية التي احتفظت بها دَعوة الصُّلَيحيين، وإنما إثمه على الذين ابتدعوا ذلك من زعماء تلك الفرق الغالية، المنسوبة إلى جملة المذهب الفاطميّ، وإثمه كذلك على الكتاب الذين يأخذون المطيعَ بجريرة العاصي، ويُعَممون الحكم على الأمور، حين يقتضيهم الواجب التخصيص.

وليس التستر والكتمان الذي تميَّز به المذهب الفاطميّ في ماضيه، إلَّا أثراً من آثار الاضطهاد والظلم، الذي استُقْبلت به الدعوة الشيعية عامة والفاطمية خاصة،

وهو ضرب من التَّقِيَّة أمام حَمَلات السياسيين والفقهاء في كل قطر وأرض، مما اضطر أصحاب التشيُّـع الفاطميّ إلى كتمان أحوالهم وأخبارهم جملة وتفصيلاً عن عامة الناس، فلم يبوحوا بشيء منها إلاَّ لمن أراد الدخول في المذهب، بعد الاحتياط والحذر الشديد. ولما استقر حكم اليمن في أيدي دعاة الفاطميين من آل الصُّليحيّ اليمنيين، جهروا بمذهبهم اعتقاداً وعملاً، واستفاد الناس من هذا الجهر فوائد تاريخية عظيمة، إذ بدت لهم صفحة هذا التشيع بريئة نقية مما ابتدعه المبتدعون، وغلا فيه الغالون، فتقرر في الأذهان أنه لا فرق بين المذهب الفاطميّ الأصيل، وغيره من مذاهب التشيع المعتدل، الخالي من الغلو والابتداع والانحراف، إلاَّ في شيء من الفروع والأحكام، لا في أصل الاعتقاد بالله، والإيمان برسالة محمد، وبالقرآن الكريم.

وكان من آثار الـجَهر بالعقيدة الفاطمية الأصلية، أن خفقت راية الاتحاد على أهل اليمن، وأظلتهم حكومة واحدة قوية الدعائم، تنشر الحبّ والعدل، والثقافة والحضارة، بين أهل الوطن الواحد بالقسطاس المستقيم.

* * *

هذا بعض ما تركته في نفسي قراءة هذا السفـر النفيس في تاريـخ دولة الصُّليحيـين، وتاريخ الدعوة الفاطمية في اليمن. وقد ترك في نفسي آثاراً أخرى كثيرة، لا يتسع لها هذا التصدير الموجز، ولكني أقول في غير مصانعة ولا إسراف: إنَّ هذا الكتاب قد غير رأيـي في أشياء كثيرة، وبدد من نفسي أوهاماً علقت بها مما قرأته عن المذهب الفاطميّ خاصة، ومذاهب التشيع عامة، في مصادر غير موثوق بمعرفة أصحابها لحقائق المذهب، وتاريخه الصحيح.

والصورة المحقَّقة التي رسمها هذا الكتاب بمنهجه ومادته لدولة الصُّلَيحيين وتاريخ الدعوة الفاطمية في اليمن، صورة علمية جديرة بالتقدير، لا تزيُّد فيها ولا مُدَاجاة، ولا غش ولا تدليس، وإنما هي إثبات حقائق تاريخية تستند إلى منهج تاريخيّ

علميّ دقيق، لا يُثْبت ولا ينفي شيئاً، إلاّ بالدليل المُقْنع، والحجة الدامغة، التي لا تقوم لها الشبهات، ولا تثبت أمامها الأوهام. والمسلمون في مسيس الحاجة إلى أن يدرسوا تاريخهم السياسيّ والاجتماعيّ والعقليّ، في ضوء هذا المنهج العلميّ المستقيم، وهم إذا استمروا على ذلك، واصلون ولا ريب إلى تغيير كثير من الآراء والأحكام المقررة، التي صدرت عن أصحاب الأهواء والأغراض، مما امتلأت به أسفار التاريخ.

* * *

تتجلى في صفحات هذا السِّفر النفيس شخصية مؤلفه الدكتور حسين الهمدانيّ، وما أتيح له من فرصة يندُر أن تُتاح لغيره من الـمَعْنِيِّين بشئـون اليمن، كما يَتجلى روحه الإنساني العالي، ورغبته الوثيقة في إنهاض بلاده.

فالدكتور الهمدانيّ قد استفاد من ثقافته الواسعة، وخبرته الـواعية، هـذا الأسلوب التحقيقيّ، الذي جعله دعامة لتأليفه تاريخ الصليحيين، فكل صفحة من الكتاب تشهد لمؤلفه الفاضل أن له إلماماً واسعاً بتاريخ بلاده، وبمصادره الأصيلة، وأنه ثقة وحجة في استنطاق النصوص، واستخبار الآثار، عما تنطوي عليه من حقائق، تمتاز بالصدق والبعد عن التزيد والغلوّ، والتشيع الذي تورط فيه كثير ممن كتبوا التاريخ. وجملة الأمر أن الدكتور الهمدانيّ رسم لمشروعه خِطة محكمة، أعانته عليها ثقافته الواسعة، وشيء آخر يكاد ينفرد به دون غيره، ممن يعرضون لتاريخ اليمن أو تاريخ الدعوة الفاطمية فيه، ذلك هو النصوص التاريخية والوثائق التي استحوذ عليها، ولا يوجد لها نظير إلاّ عند قلة قليلة من العلماء في اليمن وفي مصر وغيرها من البلاد، وبعضها مما لا يعرفه أحد غيره، لأنه من تُراث آبائه وأجداده، من يعابر همدان، فأكثر المستندات والسجلات والوثائق التي يستشهد بها، كانت ملكاً خاصاً لجده سَيِّدي محمـد علي اليعبـريّ الهمدانيّ وقـد آلت من بعـده إلى أبنـائـه وأحفـاده وورث الدكتور حسين الهمداني منها كنزاً من كنوز المعرفة الخاصة بتاريخ الصليحيين.

وكان من حسن التوفيق أن أعدَّ الدكتور حسين الهمداني هذا الإعداد العلمي الخاص، لينتفع بتراث آبائه، وبما تحت يده من ذخائر علمية نفيسة، وليكون كشف الستار عن تاريخ اليمن الحقيقي في القرون الرابع والخامس والسادس على يديه. وبعض هذه الوثائق التاريخية قد نقل إلى الهند، حيث توجد طائفة كبيرة من أتباع الدعوة في مقاطعة غجرات، ولكن كثيراً منها لا يزال باقياً عند أولي الدعوة باليمن، أو في مصر في مكتبة الدكتور محمد كامل حسين أستاذ الأدب المصري في كلية الآداب بجامعة القاهرة، وهو ينشر كثيراً من هذه الوثائق، ويفيد منها فوائد عظيمة في أعماله وتآليفه الكثيرة. وللأستاذ الدكتور حسن سليمان محمود في ميدان هذا البحث آراء حسنة ونشاط مشكور في بحثه الذي قدمه للحصول على الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة القاهرة، وهو بهذه المشاركة يعد من كتّاب التاريخ الذين يعملون في الحقل اليمنيّ، لإبراز حقائقه، وإزالة الرمال عن كنوزه ونفائسه.

* * *

والدكتور الهمدانيّ حين يشيع هذا الكتاب بين الصفوة من العلماء في الشرق والغرب، يهدف إلى أمور:

الأول: إثبات حقيقة تاريخية عن الحركة الفاطمية في اليمن إثباتاً علمياً خالصاً، وهذه الحقيقة كانت غامضة لما يكتنفها من شكوك، بسبب قلة المصادر الأصيلة في أيدي العلماء.

والثاني: أنه أراد أن يحفِزَ همم الكتاب إلى كتابة تاريخ اليمن في عصوره المتتابعة على أساس علمي سليم، ونهج مستقيم، تتجنب فيه العصبيات الدينية والقَبَلية؛ لأنه لا يوجد بين أيدي اليمنيين حتى اليوم، تاريخ محرّر لدولهم السياسية القديمة والمتوسطة والحديثة، على هذا النحو الدقيق، وهم في مسيس الحاجة إلى مثله، كما فعل المؤلف في إبراز الصورة الحقيقية لتاريخ الصليحيين والحركة الفاطمية، حُبًّا في تقرير الحقيقة لذاتها، دون أن يكون له غرض شخصيّ أو طائفيّ من هذا البحث.

والثالث: رغبته الشديدة في إيقاظ اليمن، وطنه الذي استأثر حبه بقلبه وملك عليه نواحيّ نفسه، لتنبعث الحياة الجديدة في أوصاله، وليساير ركب الحضارة العالمية، فلا يوصف بالتخلف، وليكون قوة يعول عليها في بناء المجتمع الإسلامي الحديث.

والرابع: أن يعمل أهل اليمن أجمعون، على جمع الشمل والتعاون، واتجاه الجميع لغاية واحدة، على إسعاد الوطن، وتخليصه من الخلافات المذهبية، التي تعوق المجتمع اليمنيّ من الأخذ بأسباب التقدم والعزة والكرامة.

واليمنيون اليوم جديرون أن يقتدوا بأسلافهم العظام، الذين شيدوا مجد اليمن القديم. فلو تتبعنا تاريخ اليمن منذ أقدم العصور، لوجدنا أن الشعب اليمنيّ قبل الإسلام كان من أعظم الشعوب بأساً، وأعرقها في الحضارة وتأسيس الممالك الضخمة، والمدائن العظيمة، مثل سبأ ومعين ومأرب وصنعاء، وإليهم ينسب سد مأرب، وإرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد.

وقد كانت شجاعة اليمنيين هي الدِّعامة التي ارتكز عليها الإسلام عند ظهوره، فهم الذين آوَوْا النبيّ ونصروه في حروبه وغزواته، حتى ثبت دين الله في الأرض. وكان اليمنيون أكثر مادة الجيوش التي افتتح بها العرب ملك كسرَى وقَيْصَر، في فارس والعراق والشام ومصر وإفريقية والأندلس. وظهر كثير من رجالات اليمن في تاريخ الثقافة والحضارة الإسلامية، وفي الإدارة والحكم والقضاء في العصور المختلفة، وبعضهم ممن له شهرة عالية عند أهل الشرق والغرب اليوم، كالخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي (ت ١٧٠) أعظم علماء العربية على الإطلاق، والكنديّ (ت ٢٤٦) فيلسوف العرب، والحسن بن أحمد الهمداني (ت ٣٣٤) صاحب الإكليل وصفة جزيرة العرب، ونَشْوان بن سعيد الحميريّ (ت ٤٧٣) صاحب الموسوعات الضخمة في اللغة والأدب، وابن خلدون (ت ٨٠٨) صاحب التاريخ والمقدمة ومبتدع علمي الاجتماع وفلسفة التاريخ. ومن المتأخرين من نوابغهم السيد محمد مرتضى

الزَّبيديّ (ت ١٢٠٦) صاحب تاج العروس، أكبر معاجم اللغة، وأعظمها شأناً. وقد أنجبت اليمن أكبر شعراء العربية على الإطلاق، امرأ القيس الكنديّ، والمتنبيَ الـجُعفيّ، وأبا العلاء الـمَعَريّ التنوخيّ. وفي عصرنا هذا ينتسب إلى اليمن أساتذة أجلاء نالوا حظاً كبيراً من الثقافة الغربية في شتى نواحيها، وهم الحجة الناطقة بأن هذا الشعب اليمني لا يزال محتفظاً بكثير من الصفات الممتازة القوية، التي ميزت نابغيه في الماضي، من الذكاء، وسعة العقل، والميل إلى الابتكار والاستقصاء، في كل ما يتناولونه من عمل ماديّ أو فكريّ. وفي الشرق القريب والبعيد جاليات من اليمنيين والحضارمة، ركبوا البحار، ومارسوا الأسفار والأخطار، ونجحوا في ميادين المال والاقتصاد، نجاحاً يُؤْذِن بحظوظهم القوية من الذكاء، والشجاعة، والثقة بالنفس في كثير من بقاع الأرض.

لكن بلاد اليمن اليوم ـ وإن لم تحرمْ حظَّها الكبير من ذكاء أبنائها، وحسن استعدادهم للنبوغ في شتى الميادين، كما نبغ أسلافهم العبقريُّون ـ لا تزال تعيش في الماضي، أكثرَ مما تعيش في الحاضر، مع أنها لا ينقصها عن بلوغ شأو الأمم الكبيرة والدول العظيمة، إلاَّ أن تخلع عن منكبيها كل قديم بال من أساليب الحياة، وتستبدل به الجديد القشيب، الذي يلائم العصر وأممه الحيَّة، وهي لو فعلت هذا، لبلغت في الزمن القريب، الشأوَ البعيد، وليس مطلب من مطالب الحياة الحديثة ببعيد على من بَنَوا العَرِم، وشيدوا مأرِب وإرَم. والله الموفق، وهو المستعان؟.

مصطفى السقا

رموز واصطلاحات

اتعاظ	اتعاظ الحنفا للمقريزي.
افتتاح	افتتاح الدعوة للقاضي النعمان.
إكليل	الإكليل لأبي محمد الحسن الهمداني.
أنباء / دار	أنباء الزمن. مخطوط بدار الكتب المصرية.
أنباء / ماضي	أنباء الزمن. تحقيق عبد الله ماضي.
إيفانو	Guide to Ismaili Literature
بغية	بغية المستفيد لابن الديبع.
البلدان	معجم البلدان لياقوت الحموي.
ت	توفي.
ج	جلد أو جزء.
حور	الحور العين لنشوان الحميري.
د	ديوان.
ر	رسالة.
رسائل القمي	مجموع الرسائل لحسين بن علي بن القم.
السجلات	مجموع السجلات المستنصرية.
سلوك / كاي	السلوك للجندي. مختصر كاي (Kay).
ص	صفحة.
صح	الصحاح للجوهري.
صفة	صفة جزيرة العرب لأبي محمد الهمداني.
طبري	تأريخ الأمم والرسل والملوك للطبري.
عبر	العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون.
عبر / كاي	العبر لابن خلدون. مختصر كاي.

عقود	العقود اللؤلؤية للخزرجي.
عمارة / كاي	تاريخ اليمن لعمارة. مختصر كاي.
عيون	عيون الأخبار لإدريس عماد الدين القرشي.
فهرست إسماعيل	فهرست كتب الدعوة لإسماعيل بن عبد الرسول.
ق	القاموس المحيط للفيروزابادي.
قرة	قرة العيون لابن الديبع.
كشف	كشف أسرار الباطنية للحمادي.
كفاية	الكفاية والإعلام للخزرجي.
ل	لسان العرب لابن منظور.
مقتطف	المقتطف في تاريخ اليمن للجرافي.
م. م. هـ.	مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
نزهة	نزهة الأفكار لإدريس عماد الدين القرشي.
نفسه	المرجع نفسه.

BSOS	Bulletin of the School of Oriental Studies, London.
EI	Encyclopoedia of Islam.
JA	Journal Asiatique.
JAOS	Journal of the American Oriental Society.
JRAS	Journal of the Royal Asiatic Society of Gt. Britain.
JRCAS	Journal of the Royal Central Asian Society, London.
IC	Islamic Culture. Hyderabad (Dn.).

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

ومنه العون، وبه الحول والقوة، وله الحمد في الأولى والآخرة، في صلاة وتسليم على محمد وصحبه وعترته الطاهرين.

وبعد، فإن التاريخ مدرسة الدهر، يعلمنا ما لم نكن نعلم، وهو كما قال ابن خلدون في مقدمته: «في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق... يؤدِّي إلينا شأن الخليقة كيف تقلّبت بها الأحوال، واتّسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمَروا الأرض، حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال. وفي باطنه نظرة وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، وجدير بأن يعدّ في علومها وخليق». ففي التاريخ عبرة لمن اعتبر، وفكرة لمن افتكر. لذلك رأينا أن نهتدي بعبر التاريخ، لتنير الطريق للحاضر وللأجيال القادمة. وهذه عبر مطوية يقدمها هذا البحث في صحائف موجزة من سفر يتناول دوراً هامّاً من حياة اليمنيين، الذين كانوا وما يزالون يدينون بالولاء للأئمة الفاطميين.

ونظراً إلى أن الحركة الفاطمية حركة عالمية، كان الغرض منها قلب النظام السياسيّ المسيطر على العالم الإسلامي، فقد اتجهت أنظار الفاطميين إلى الأقطار الإسلامية النائية، وكانوا يعملون على تحقيق هذا الهدف السياسيّ، لبلوغ أوج الزعامة في العالم الإسلاميّ.

وكانت بلاد اليمن محطّ أنظارهم وقبلة آمالهم. وسترى في هذا الكتاب ما نذكره خاصاً باهتمام الفاطميين ببلاد اليمن في القرن الثالث، وأنهم كانوا يريدون إقامة دولتهم في تلك البلاد، ولكن لأسباب نبيّنها، اتجهوا إلى بلاد المغرب. ومع ذلك ظلّت بلاد اليمن موالية للفاطميين، ولم تنقطع دعوتهم فيها حتى وصلت إلى القمة في عهد الدولة الصُّلَيحية. وبقيت هذه الحركة إلى يومنا هذا في اليمن وغيرها.

وهذا الجانب من تاريخ الحركة الفاطمية في اليمن، لم يُدرس درساً وافياً،

بل كل ما وجدنا عنها من معلومات، إنما جاءت في كتب التاريخ العامّة على شكل فقرات مبعثرة هزيلة، تحتاج إلى البسط والتوسّع[1].

ولحسن الحظ وجدنا في مكتبة جدنا المقدس العلامة الشيخ محمد علي الهمدانيّ اليَعْبريّ مجموعة من المخطوطات والوثائق ساعدتنا على كشف غموض هذا الموضوع. وبفضل المادّة التاريخية التي استقيناها من هذه المصادر، تمكنا من تأليف تاريخ هذه الحركة، وبخاصة من عهد الدولة الصُّليحية وعلاقتها بمركزها الرئيسيّ بالقاهرة.

وعلى هَدْي ما قرأنا، قررنا أن يكون نظرنا لهذا الموضوع، كما سترون، نظرة خالصة مجردة، لا تصدر عن عاطفة ولا هوى. بل كان رائدنا دائماً الإنصاف والتحقيق، في حدود المصادر التي بين أيدينا. وكنا نريد أن نكون أكثر دقة في هذا الموضوع، لو أن إخواننا في اليمن والهند قد تفضلوا بتزويدنا ببعض المراجع الهامة، التي تأكد لدينا وجودها هنالك، وحاولنا الاتصال بهم للحصول عليها خدمة للعلم، ولكن ذهبت محاولاتنا أدراج الرياح؛ لذلك اكتفينا بما كان لدينا من مراجع مخطوطة بالمكتبة المحمدية الهمدانية، وأخرى مطبوعة ومخطوطة بدار الكتب المصرية وغيرها من خزائن الكتب.

ويلاحظ المشتغلون بدراسة اليمن أن كثيراً من المسائل التي تتعلق بتاريخ هذه البلاد يكتنفها الغموض، ومردّ ذلك إلى قلة المعلومات عنها، واضطراب مصادر

---

(١) يسمي الفاطميون أنفسهم باسم «أهل الدعوة» أو «المسلمين المؤمنين» ودعوتهم بـ «دعوة الحق» و «الدعوة الهادية». وهم لا يعترفون بالأسماء والألقاب التي نسبت إليهم، مثل الفاطمية والإسماعيلية والباطنية والسبعية وغيرها، ولا توجد هذه الألقاب في كتبهم. وقد نسب إلى نفسه الشيخ أبو حاتم الرازي ـ وهو من كبار علماء الدعوة ـ في كتاب الزينة، كلمة أهل السنة والجماعة. وقال المؤيد في الدين، باب أبواب الإمام المستنصر (د المؤيد ٨٨):

يا سائلاً تسألني عني اعلم بأني رجل سني
أحب أصحاب نبي الهدى ديني على حبهم مبني

وقد أطلقت كلمة الفاطمية على أهل الدعوة عامة في هذا البحث، لولائهم للأئمة الخلفاء الفاطميين، كما تطلق كلمة الزيدية على أتباع الإمام زيد بن علي رحمة الله عليه.

التاريخ وبلبلتها، وأحياناً إلى تناقض المؤرخين أو الكتاب في سرد الحوادث. ولا يقتصر هذا على أحوال اليمن في العصور الحديثة، بل تبدو الحالة أكثر غموضاً إذا كان موضوع البحث يتعلق بالقرون الوسطى والغابرة. وذلك كما نعتقد يرجع لعدة أسباب، منها: تمزيق البلاد إلى دويلات صغيرة متنافسة، وانشغالها بالحروب المتتالية، ثم انهيارها بهلاك منشئيها وأصحابها؛ ولأن اليمن لم تتحد تحت راية حكومة قوية مستقلة، إلاّ مدة وجيزة من الزمن، أو في جزء أو منطقة منها. وقد دأب المؤرخون لهذه الدويلات، على أن يصوّروا منافسيهم في الحكم والعقيدة بأبشع صورة، وكانت المنافسات تأخذ في تلك العصور صبغة دينية، وينشأ عن ذلك حزازات ومنافرات، تؤدي إلى تأليب جماعات المسلمين بعضهم على بعض، وإلى تمجيد أصحاب المقالات، ثم إلى كتمان أمورهم وكتبهم، والتزام التقية والتستر من أن تقع أسرارهم وكتبهم في أيدي المنافسين الأقوياء. ثم لم تدوَّن تواريخ بعض هذه الدويلات، التي عاشت لمدة قصيرة وفي منطقة ضيقة، وأهمل ذكر أحوالها وأصحابها، ما عدا أسماءهم وما جاء ضمن الكلام عن بعض الحوادث والحروب، مثل اليعافر وسلاطين هَمْدان في صنعاء، كأنهم لم يكونوا، أوليس لهم أهمية تستدعي ذكراً وافياً؛ فلذلك نعتقد أن من المناسب أن تدرس حِقبة من تاريخ اليمن، أو دولة من دول هذه البلاد على حدة، قبل تدوين التاريخ الشامل.

وقد اقتصرنا في هذا الكتاب على بحث تاريخ الصُّليحيين في اليمن، لأننا نعتبر هذا العهد من تاريخ اليمن حلقة مهمة. فإن بلاد اليمن جميعها جبالها وسهولها، سادت عليها دولة قوية، امتد نفوذها إلى حضرموت وعدن في الجنوب، والحجاز في الشمال، وهذا ما لم يحدث في الجاهلية ولا الإسلام، كما حكاه القاضي عمارة اليمني. ثم إن هذه الدولة نشأت نتيجة لتيارات قوية كانت تسود في العالم الإسلامي خلال تلك القرون، واستطاعت أن تكتسح من أمامها كل الدويلات القائمة في اليمن. وبطبيعة الحال يجب أن نذكر ببعض التفصيل تاريخ الحوادث التي أدت إلى ظهور الملك علي بن محمد الصُّليحي في أفق اليمن، وتاريخ الدولة الفاطمية الأولى التي أنشأها منصور اليمن، والحركة الفاطمية التي مهدت سبيله إلى الحكم، وأن نذكر أيضاً

تاريخ المنظمة التي أوجدها الصليحي ومن بعده السيدة الملكة الحرة الصليحية أروى بنت أحمد، والتي احتفظت بثروة عظيمة في الأدب الفاطميّ، والتي بقيت إلى يومنا هذا في اليمن وفي غير اليمن، بعد انقراض الدولة الصليحية. وقد وقفنا عن تسجيل تاريخ الدعوة عند ظهور دولة آل رسول، لأن منظمة الدعوة دخلت في مرحلة جديدة في علاقاتها بهذه الدولة اليمنية العظيمة، وتأييدها وتعضيدها، ونرجو أن تظهر عاجلاً أو آجلاً دراسة تاريخ المنظمة وفروعها إلى أيامنا هذه.

وقد اعتمدنا في هذا البحث على مؤلفات الداعي إدريس عماد الدين القرشيّ المتوفى سنة ٨٧٢. وقد ورد ذكر كثير من الأحداث التي صاحبت هذه الحركة في الأجزاء الخامس والسادس والسابع من كتاب عيون الأخبار[١]، وفي الجزء الأول والثاني من كتاب **نزهة الأفكار**[٢]. وهذا الكتاب الأخير هو الوحيد الذي يبين بصورة واضحة تاريخ الدعوة الفاطمية في اليمن متصلاً من أيام منصور اليمن

---

(١) والجزء الخامس يصف الحوادث التي أدت إلى قيام الخلافة الفاطمية في شمال إفريقية وينتهي حتى آخر حكم المنصور بالله. والسادس يعطينا فيه المؤلف صورة واضحة عن حكم الخلفاء: المعز لدين الله، والعزيز بالله، والحاكم بأمر الله، والظاهر لإعزاز دين الله، والمستنصر بالله. والسابع يصف لنا حكم المستنصر بالله وقيام الدولة الصليحية باليمن على يدي علي بن محمد الصليحي، كما يصف لنا حكم الملكة العظيمة أروى بنت أحمد في بلاد اليمن، ويصف كذلك حكم الخليفة المستعلي بالله وقيام النزارية وحكم الخليفة الآمر بالله ووصيته بأن يتولى الإمامة من بعده ابنه الطيب وقيام الدعوة له في اليمن تحت رياسة الداعي المطلق الذؤيب بن موسى الوادعي. وهذا الكتاب مهم جداً بالنسبة لبحثنا، فهو الأساس الذي اعتمدنا عليه وبه اهتدينا. ونظن أن إدريس بدأ في تأليفه بعد أن انتهى من تأليف كتاب زهر المعاني (انتهى منه سنة ٨٣٨) وكذلك انتهى من كتاب العيون قبل أن يبدأ في تأليف كتاب النزهة. ورد ذكر الكتاب في الفهرست للشيخ إسماعيل ص ٩٦ ـ ١٠٤؛ موجود في م. م. هـ.

(٢) فهرست إسماعيل ص ١٠٤ ـ ١٠٥؛ موجود في م. م. هـ. يبدأ الكتاب بمقال عن الدور الذي لعبه الهمدانيون في الحركة العلوية ببلاد اليمن من أيام علي بن أبي طالب. ويقرر إدريس فيه أن الدعوة العلوية لم تتلاشَ نهائياً من بلاد اليمن. ففي الجزء الأول ذكر إدريس الحوادث من أيام قيام الدعوة على يد الداعي الذؤيب بن موسى، حتى أيام جده عبد الله. وفي الجزء الثاني استمر في ذكر الحوادث التي جاءت في الشطر الأخير من حياة الداعي عبد الله. وقد ساق الحوادث فيه حتى سنة ٨٥٣.

حتى أيام إدريس عماد الدين، وهما من مؤلفات إدريس[1]. ولذلك جعلنا مؤلفاته أساساً لبحثنا، واعتمدنا عليها كثيراً على الرغم من تأخره، إلاَّ أن معلوماته كانت مستقاة من روايات منقولة ومن اتصالاته الشخصية بالرواة، ومن أصول معاصرة لعهد الصليحيين وما سبقه من العهود في تاريخ الدعوة في اليمن، ولا غرو، فإن المؤلف كان وارثاً لتقاليد الدعوة من عدة قرون، محتفظاً بكتبها، وإن كانت كتاباته لا تخلو في بعض الأحيان من المحاباة والتحيز، ومن الحب المفرط والكراهية الشديدة، مما يترتب عليه أحياناً طمس الحقيقة، وتحريف الوقائع، وحذف بعض الحوادث. وقد تبينا هذا من مقارنتنا لبعض الأحداث التي ورد ذكرها في المصادر الأخرى. وعلى الرغم من ميوله السياسية أو الدينية، يرى الباحث أن المؤلف ألمَّ إلماماً كبيراً بتاريخ الدعوة اليمنية، وكانت له معرفة واسعة بحوادثها وتواريخها. ولعل ذلك يرجع إلى ظروفه التي مكنته من الاطلاع على كثير من الروايات المنقولة إليه، والوثائق المحفوظة بجبال حراز المنيعة المحروسة. ولا يقتصر حكمنا على مؤلفات إدريس عماد الدين على مجرَّد قيمتها التاريخية، بل يزيد تقديرنا لها أنه كان الوحيد الذي أرَّخ لهذه الهيئة تأريخاً مبنياً على مشاهداته الخاصة، واشتراكه الفعلي في حوادث أيامه، كما كان له ولأسرته وأسلافه قسط كبير في حفظ كيان الدعوة وصياغة تاريخها.

ويمكننا أن نعتبر الجزء الأول من كتاب **افتتاح الدعوة الزاهرة**[2] تأليف القاضي النعمان المتوفى سنة ٣٦٣ قاضي قضاة مصر أيام المعز لدين الله مرجعاً مفيداً

---

(١) وله أيضاً كتاب روضة الأخبار، وهو يختلف في الاسم عن نزهة الأفكار، إلاَّ أنه تكملة له في حوادثه. فهو يبدأ من سنة ٨٥٤ ويستمر في ذكر الحوادث حتى سنة ٨٧٠. ويعتبر هذا الكتاب من أهم المراجع لتاريخ اليمن تحت حكم الطاهريين، لأن إدريس كان حليفاً لهم. والكتاب أيضاً مصدر هام لتاريخ حياة إدريس، والدور الذي لعبه كرئيس للدعوة الطيبية في بلاد اليمن. ومنه مخطوط مؤرخ بتاريخ سنة ٩٩١ محفوظ بمكتبة جامعة ليدن، ومنه صورة شمسية بمكتبة حسين الهمداني.

(٢) فهرست إسماعيل ٨٦؛ م. م. هـ.

لأنه أعطانا صورة للأحداث والظروف التي أدت إلى وصول أبي القاسم منصور اليمن سنة ٢٦٨ وإنشاء دولة موالية لبني فاطمة في بلاد اليمن.

وتعتبر **مجموعة السجلات المستنصرية**[١] من أهم المصادر وأثمن الوثائق لثبت تاريخ الدولة الصليحية، وعلاقاتها بالخلافة الفاطمية بمصر. وقد وجدنا هذه المجموعة من الرسائل التي وجهها الخليفة المستنصر بالله إلى السلاطين الصليحيين باليمن. وقد حفظها أهل الدعوة في حراز مركز الدعوة باليمن طوال هذه القرون، كما حفظوا كثيراً من التراث العلمي الفاطمي، الذي ضاع بمرور الزمن، أو أباده أعداؤها في مصر وغيرها من البلاد.

وكذلك وجدنا نسخة خطية من مجموعة أخرى من الوثائق المعاصرة، وهي **مجموعة الرسائل**[٢] للشاعر المنْشيء الحسين بن علي القِميّ اليماني، رئيس ديوان الإنشاء في عهد الصليحيين. وبعض هذه الرسائل كتبها القِمي بلسان السلاطين الصليحيين موجَّهة إلى الفاطميين بمصر. وقد استطعنا بفضل هذه الوثائق أن نقرر مصير الأمور وتواريخ بعض الحوادث التي اختلفت فيها المصادر تقريراً نهائياً.

وكذلك رجعنا إلى عدة مصادر تاريخية منها المخطوط ومنها المطبوع في هذا البحث، ونحن نذكر أهم المصادر التي أخذنا عنها في دراسة موضوعنا.

ولا ريب أن كتاب **السلوك** الذي ألفه أبو عبد الله بهاء الدين بن يوسف بن يعقوب المعروف بالهاء الـجَنَدي المتوفى سنة ٧٣٢ يتضمن معلومات مفيدة عن الفترة التي أعقبت وفاة منصور اليمن مباشرة.

---

(١) مخطوط هذه الرسائل محفوظ الآن بمكتبة مدرسة الدراسات الشرقية بلندن. انظر مقال حسين الهمداني في B.S.O.S. 1934. وقد نشر أخيراً صديقنا الفاضل الدكتور عبد المنعم ماجد «السجلات المستنصرية» من النسخة المحفوظة بلندن المشار إليها، وبذلك قدم خدمة جليلة للعلم والتاريخ. وقد نقلنا في الملاحق السجلات التي أوردها إدريس عماد الدين في الجزء السادس والسابع من كتاب عيون الأخبار، والتي لم ترد في مجموعة السجلات لأنها تكملة لما ورد في المجموعة. ومن المؤسف أن المخطوط المحفوظ بلندن حديث العهد ومليء بالأخطاء كما أشار إليه المحقق. فنرجو أن نهتدي إلى نسخ أخرى في اليمن، وبالخصوص في مكتبات حراز، حتى نستطيع أن نقارن بين هذه المخطوطات، وأن نكملها بالسجلات التي وردت في العيون.

(٢) وقد اعتمدنا على نسخة خطية منها بالمكتبة المحمدية الهمدانية.

ويعتبر كتاب **تاريخ اليمن** للفقيه الشاعر نجم الدين عمارة بن أبي الحسن علي الحَكَمي اليمني المشهور بعمارة اليمني، المتوفى سنة ٥٦٩، من أقدم المراجع لتاريخ الصليحيين وأهمها وأكثرها فائدة. وعمارة كما هو واضح من الجزء السابع من كتاب **عيون الأخبار** مرجع هام اعتمد عليه إدريس عماد الدين[١] في سرد الحوادث عن الصليحيين. وقد نشر كاي (Henry C. Kay) كتابي عمارة والجندي يليهما كتاب العبر لابن خلدون. واستفدنا من مجموعة الكتب هذه ومن تعليقات كاي وتحقيقاته الثمينة.

ويلاحظ أن كتاب **كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة** للفقيه محمد بن مالك الحمادي اليماني المتوفى في أواسط القرن الخامس الهجريّ - بالرغم من أنه أعلن الحرب على الصليحيين، وتعصّب تعصباً دينياً شديداً - من المراجع المعاصرة التي اعتمدنا عليها في تحقيق بعض الحوادث، وبخاصة عند كلامنا عن حالة بلاد اليمن قبيل الصليحيين من الناحية الدينية، كما أشرنا إليه في بيان قيام علي بن محمد الصليحيّ بثورته في جبل مسار سنة ٤٣٩.

وكذلك استفدنا من كتاب أنباء الزمن في أخبار اليمن ليحيى بن الحسين ابن القاسم، المتوفى في الشطر الأول من القرن الحادي عشر، في ثبت بعض الحوادث كان فيها يظهر، كابن الديبع الزبيدي المتوفى سنة ٩٤٤ في كتابيه **قرة العيون وبغية المستفيد**، يعتمد على ما سجله عمارة اليمني.

ولا يفوتنا أن نذكر أن لكتاب **الكفاية والإعلام فيمن ولي اليمن وسكنها في الإسلام** لأبي الحسن علي بن الحسن الخزرجي المتوفى سنة ٨١٢ أهمية خاصة في بحثنا، فقد جاء في الباب الثامن منه بعض المعلومات التي تؤيد تفاصيل أوردناها في معالجة موضوعنا.

وكانت هذه الكتب بمثابة أضواء تنير لنا طريق البحث عن تاريخ الدولة

(١) ومن المصادر التي أخذ عنها إدريس وذكرها في السبع السابع من العيون: كتاب المفيد لجياش، وسيرة المكرم، وملوك اليمن لعمارة اليمني، وكنز الأخبار للشريف إدريس عماد الدين، والدول المنقطعة. راجع أيضاً كاي المقدمة ١٢.

الصليحية والدعوة الفاطمية باليمن، واستفدنا أيضاً من كتب أخرى نوردها في آخر الكتاب، ونشير إليها عند الضرورة في مواضعها.

ونضع أمامك أيها القارىء هذا الكتاب، لتعرف شيئاً عن تاريخ الدولة الصليحية، وكانت من ألمع الدول في تاريخ اليمن، وعن منظمة الدعوة التي أنشأها الصليحيون، وعن الثروة العلمية التي تركتها هذه الدعوة، لأننا نرى أن الصليحيين وأهل الدعوة اليمنيين مظلومون في سفر التاريخ. وإذا كان هذا الظلم أوجدته الخلافات المذهبية في عصور كان المؤرّخون يعملون غالباً لما يرضي نزواتهم وميولهم حينئذ، فإننا نرى ونحن في القرن العشرين أنه من الواجب أن نميط اللثام عن حقيقة هذه الحركة، وأن ندرس تاريخها كما يُدرَس تاريخ الحركات التقدّمية الأخرى، التي قامت بها المعتزلة والمتصوّفة إن صحّ لنا هذا التعبير.

وإذا كنا قد اعتبرنا أن التاريخ فيه دروس تعلمنا محاسن الشعوب ومساويها، وأن نحتفظ بالثمين منها، ونترك الغثّ، وإذا كنا قد رأينا أن هذه الخلافات المذهبية قد أدّت إلى تأخر شعب من الشعوب وعاقته عن التقدّم، بل رجعت به القهقرى، فجعلته متخلفاً عن غيره، أليس من العقل أن ينسى هذا الشعب تلك الأحقاد، وأن يترك الدين للديّان، ويعمل الجميع على تدعيم الوحدة القومية في البلاد، ويعيشوا متكانفين لرفع شأن الأوطان والمجتمع؟ وإنك أيها القارىء سترى في هذا الكتاب أن اليمنيين عاشوا طوال هذه القرون في حروب أهلية مضنية، سبّبتها الخلافات المذهبية أو القبلية، التي لم تكسب البلاد منها إلاّ الغرم والخراب والتقهقر والانحطاط. فتخلفت اليمن تبعاً لذلك عن ركب الحضارة، واضطر أولو الدعوة الفاطمية التي نحن بصدد الكلام عنها في هذا الكتاب أن يعتصموا بالمعاقل والحصون والجبال للدفاع عن كيانهم وبقائهم. وكان أهل الدعوة يلاقون أشد المعارضة وأنكد الاضطهاد، وكانت أملاكهم وأموالهم تنهب، ودماؤهم تسفك ومنازلهم ومساجدهم ومقابرهم تهدم، وخزائن كتبهم تسلب، وأولادهم وأفلاذ أكبادهم ترهن، وحرماتهم تهتك؛ فضعف أمرهم، وافترقت كلمتهم، واغتربت جماعات منهم عن الأوطان اليمنية. وكان هذا الكفاح مريراً شاقاً، أدّى إلى ضياع

الكثير من المواهب الظاهرة والمكتومة من الشعب.

وخدمة للوطن، وحرصاً على مصالح المواطنين، وتمشياً مع الصالح العام، يجب أن يسدل الستار قوياً على الماضي بآلامه، وتنسى الحزازات الفردية والطائفية والإقليمية، لأننا في عصور تتقدم بسرعة، ولا يكون هذا التقدم محققاً لشعب من الشعوب إلاّ إذا تعاضد كل المواطنين في بناء صرح هذا الوطن، وفي رفع شأن الأمة اليمنية.

وهذا الكتاب هو نتيجة دراسات لسنين طويلة قدمناه للقرّاء لما فيه من الفائدة. فإذا وجدوا فيه شيئاً من الخير، فهذا يرجع إلى ما بأيدينا من المراجع. وإذا كان فيه شيء من الخطأ، فمرجعه إلى قصورنا وقلة بضاعتنا وقصر باعنا.

لا يتناول هذا البحث عقائد الدعوة الفاطمية، بل هو مجرّد محاولة لتسجيل الحوادث التاريخية من الناحية السياسية، غير أن الدعوة قبل أن تصبح دولة في اليمن كانت منظمة دينية أساسها وهدفها العقيدة. فلذلك اضطررنا أن نتحدث عن نشاط الدعاة في مضمار العقيدة والدين. وقد عالج بعض العلماء المعاصرين موضوع العقائد بنشر نصوص كتب المؤلفين الفاطميين، ونخصّ بالذكر ما قام به الأستاذان محمد كامل حسين والمستشرق شتروطمان بمجهود مشكور في هذا الصدد.

وإننا راعينا أن نتبع الطريقة التاريخية بدون تحيّز إلى أي فئة كانت على عهد الصليحيين باليمن، وإن كان قد يضطرنا الحال إلى نقل عبارات بعض المؤلفين بنصها، وقد لا تخلو من بعض التحامل بطبيعة الميول والنزعات الدينية والسياسية في تلك الأزمان. فنرجو من القارىء ألاّ يفهم أن ذلك كان بدافع من الميل إلى مذهب ديني أو سياسي، وقد لاحظنا تجنّب ما فيه ذلك حسب الطاقة، حرصاً على جمع كلمة اليمنيين.

وإننا نعتبر أن هذا البحث لا يخلو من الجفاف، ومن سرد الحوادث، وذكر الأسماء مجرداً عن التحليل والتعليق. وذلك يرجع أحياناً إلى عدم توافر المصادر، وأحياناً إلى عدم وجود الأبحاث السابقة، أو القضايا المسلّمة، وأحياناً إلى حرصنا

على ألاَّ يتكلم إلاَّ المصدر وحده بدون تعليق. ونكون لكم أيّها القراء من الشاكرين لو تفضّلتم بإفادتنا عـمَّـا عنَّ لكم من نقد بنائيٍّ لهذا الكتاب.

وبعد، فإننا نرجو أن ننوّه هنا عن بحث أخينا الفاضل الدكتور حسن سليمان محمود الجهني، الذي تقدم به لنيل درجة الدكتوراه في جامعة القاهرة، في موضوع تاريخ الصليحيين وعلاقاتهم بمصر. وقد ضمن هذا الكتاب معظم ما و د في البحث من تحقيقاته ونظرياته الثمينة. وقد خدم زميلنا وصديقنا الدكتور حسن سليمان محمود بذلك ناحية مجهولة من تاريخ العلاقات في القرن الخامس في عهدي الصليحيين والفاطميين خدمة بارعة. وإننا نرى لزاماً علينا أن نشير إلى قسطه الوافر في هذا البحث، بفضل اهتمامه ونشاطه وتفانيه في خدمة تاريخ مصر واليمن.

وقد استقينا معلومات كثيرة من رسالة ولدنا العليم عباس الهمداني، التي قدمها لنيل درجة الدكتوراه في جامعة لندن، كما هو واضح في هذا الكتاب، تستحق منّا أن نذكر تقديرنا وشكرنا على تحقيقاته وإن اختلفنا معه في بعض آرائه.

هذا. ونرجو أن نقدم ها هنا وافر شكرنا إلى جميع الذين يرجع إليهم الفضل في مساعدتنا على إخراج هذا الكتاب، ونخص بالذكر منهم السيد علي المؤيد وزير اليمن السابق بمصر، الذي تفضل بقراءة أصول الكتاب، وزوّدنا بمعلومات مفيدة عن الحوادث التاريخية، وتحديد بعض الأماكن والبلدان باليمن، كما نقدم خالص شكرنا للأستاذ العلام مصطفى السقا، الذي تفضل مشكوراً بإبداء ملاحظاته اللغويـة والنحوية عند قراءة ملازم الطبع وتصحيحها.

وقد طلبنا من الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين مقالاً وافياً ضافياً عن «عقائد الدعوة الفاطمية»، وقد تفضل بموافاتنا بآرائه الثمينة عن عقائد الدعوة، وبعض المسائل التاريخية، وقد ذكرناها في مواضعها المناسبة من الكتاب. فله منا جزيل شكرنا.

ونحن لا نستطيع أن نوفي الأستاذ المنعام المفضال عمر الدسوقيّ واجب شكرنا، لاحتضانه هذا الكتاب في مطبعة الرسالة العامرة، حتى ظهر بهذا المظهر.

وفي أثناء استعدادنا لتقديم أصول الكتاب إلى المطبعة، زار القاهرة المعزّية، شيخنا العلامة القاضي محمد الحَجْريّ، وقد عرضنا عليه أصول هذا الكتاب، فأبدى لنا بعض الملاحظات الثمينة، وساعدنا في تحقيق كثير من المواضع والأماكن التي وردت في هذا البحث، فنشكره لتفضله بإعارتنا بعض وقته خدمة للعلم.

ونشكر أيضاً جميع الإخوان الذين ساعدونا بإعارة كتبهم وملاحظاتهم العلمية في حلّ المشكلات التي اعترتنا من حين إلى حين في هذا البحث.

وفقنا الله لخدمة العلم والتاريخ، والله ولي التوفيق.

المعهد الهمداني للدراسات الإسلامية
القاهرة في ١ أغسطس ١٩٥٥

حُسين الهمداني

البَابُ الأول

حركة الشيعة في اليمن قبل ظهور منصور اليمن

نشاط اليمنيين الأحرار في العصر الأول

أثبت التاريخ أن اليمنيين، سواء أكانوا في داخل وطنهم أم في خارجه، هم مثال للنشاط والإخلاص. ولهذا لما ظهر الإسلام قبلوا دعوتـه، وآمنوا بـه عن صدق وإيمان، وأصبح في قلوبهم عقيدة راسخة ثابتة متصلبة، فتكيَّفوا بكيفيته، وتلوَّنوا بلونه. فذهبوا ينشرونه في مشارق الأرض ومغاربها، حتى قامت بمساهمتهم أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ.

ويعتبر ما حدث في أيام الخليفة عثمان من أهم الأحداث التي فرقت بين المسلمين، وقسمتهم إلى معسكرات. وكان من الطبيعيّ ـ بعد أن آثر اليمنيـون الإسلام على أنفسهم ووطنهم، وتناسوا معه العصبية الجاهلية ـ أن يشتركوا في تلك الأحداث، وأن تجترفهم التيّارات المتضادة، وتنحرف بهم أعاصير السياسة، فذهب من ذهب منهم مع الإمام علي، وهم الكثير، وانضم منهم فريق آخر إلى معاوية، وتعصَّب كل فريق لصاحبه.

ظل الأمر كذلك في داخل اليمن. ثم لم نعرف بعدُ على وجه الصحة أنهم، أي اليمنيين، كانوا يؤمنون بمذهب معين، أو ينتمون إلى نِحْلة قائمة. وربما كان السبب في ذلك، النزعة اليمنية، التي تدعو دائماً إلى حرية الرأي واستقلال الفكر. ونرى أن هذا الأمر دام إلى القرن الثالث والرابع، برغم دخول الحركات الشيعية والسنّية وانتشارها واستقرارها في اليمن. فقد ثبت أن سلاطين آل حاتم الهمدانيين وملوك آل يعفر، بقُوا أحراراً، غير مقيدين بمذهب من المذاهب. ويعتبر أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني صاحب الإكليل، ونَشْوان الحميري من الأمثلة البارزة للدلالة على ذلك.

لقب الشيعة

فقد تغلغلت المذاهب في اليمن، ورسخت أقدامها، وبخاصة الحركات الشيعية. فما الأسباب التي أدَّت إلى رواج هذه الفكرة؟ وما العوامل التي ساعدت على نموِّها وانتشارها؟.

سنحاول أن نعالج هذا الموضوع ونجيب عن هذا السؤال فيما يلي:

بدأ أنصار علي بن أبي طالب يتكوَّنون في أيام الرسول ﷺ من شيعته ومحبيه. والشيعة، كما قال أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازيّ[1]: «هو لقب لقوم كانوا قد أَلِفُوا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في حياة الرسول ﷺ وعُرِفوا به، وهم: سلمان الفارسيّ، وأبو ذر الغِفَاريّ، والمقداد بن الأسود، وعمَّار بن ياسر وغيرهم، وكان يقال لهم شيعة علي. وقال فيهم النبي ﷺ: الجنَّة تشتاق إلى أربعة: سلمان، وأبي ذر، والمقداد، وعمَّار». وقال نشوان الحميريّ[2]: وإنما سمّيت الشيعة شيعة لمشايعتهم عليّ بن أبي طالب.

سفارة الإمام علي إلى اليمن

ومن ذلك نرى أنّ عليًّا كان له مريدون ومحبّون من الصحابة في عهد الرسول ﷺ. ولم يقتصر وجود هؤلاء على المدينة وحدها، بل أخذ عددهم يزداد كلّما اتسعت رقعة الإسلام، وزاد عدد المسلمين وبخاصة في بلاد اليمن، لأنها حظيت بإرسال عليٍّ إليها في عهد الرسول. وزار أمير المؤمنين عليه السلام اليمن ثلاث مرات، وفي المرة الأخيرة وصل إلى عدن أَبْيَن. وذكر ابن هشام[3] أنه ﷺ قد بعث سنة تسع (عام الوفود) بعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى أهل نجران، ليجمع صدقتهم، ويقدم عليهم بجزية. وقال ابن كثير ما معناه إن

---

(١) كتاب الزينة ٢١٩.

(٢) حور ١٧٨.

(٣) ابن هشام: سيرة ٩٦٥.

النبي ﷺ أرسل عليًا إلى اليمن قبل حجّة الوداع - أي في نهاية سنة ١٠. فقدم عليّ إلى صنعاء، وصلّى برجالها، وجمع قبائل همدان، وقرأ عليهم كتاب النبي ﷺ، فأسلمت همدان جميعها في يوم واحد. ولما وصل الخبر إلى النبي ﷺ خرَّ ساجداً، ثم رفع رأسه فقال: «السلام على همدان، السلام على همدان». وقال عليّ في ذلك: بعثني رسول الله ﷺ وأنا حديث السنّ، فقلت: تبعثني إلى قوم يكون بينهم أحداث ولا علم لي بالقضاء. قال ﷺ: إن الله سيهدي لسانك، ويثبّت قدمك. قال عليٌّ: فما شككت في قضاء بين اثنين[1]. وقبل أن يعود علي من اليمن عمّر مسجداً بصنعاء عرف باسمه[2]. وذكر ابن الديبع[3] أن عليًّا دخل عدن أبين، وخطب على منبرها خطبة بليغة، وذلك قبل رجوعه إلى المدينة.

ومما لا شك فيه أن هذه الاتصالات الشخصية باليمن قد تركت أثراً في نفوس الناس هناك. ذلك الأثر هو حبّ عليّ وآل بيت النبيّ؛ بقي هذا الحب يزداد ما بقيت الأيام، حتى إن الإمام الفاطمي المستور الحسين بن أحمد[4]، حين أرسل أبا القاسم الحسن بن فرج بن حوشب بن زادان الكوفيّ[5] داعياً إلى اليمن، أمره أن ينزل عدن لاعة، لأن بها بعض من يدين بدعوته، ولأن الله عزَّ وجلَّ قسم

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٥/١٠٤ - ١٠٥.

(٢) أنباء / دار ٨.

(٣) قرة ٥. لم نعثر على هذه الرواية في المصادر التي تحت أيدينا.

(٤) أبو المهدي عبد الله بن الحسين، ويدعى الحسين المقتدى أحياناً (إدريس: زهر المعاني ٦٣) وهو الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق. وقد اختلفت المصادر اختلافاً شديداً في أسماء أجداد المهدي عبد الله. وذلك يرجع إلى الستار الذي فرضه الأئمة المستورون على أنفسهم وإلى اختيارهم أسماء غير أسمائهم الحقيقية كما رواه الشيخ جعفر بن منصور اليمن في كتابه المسمى بالفرائض وحدود الدين (انظر الباب التاسع في فصل عن مؤلفات جعفر بن منصور اليمن).

(٥) كذا ورد اسمه في افتتاح (٣ - ٤). وفي الحور ١٩٧ جاء: أبو القاسم أبو الحسن بن فرج بن حوشب بن زادان الكوفي. واشتهر باسم منصور اليمن، بعد أن فتح هو وعلي بن الفضل الجيشاني اليمن.

لليمانية ألَّا يتم أمر في هذه الشريعة إلَّا بنصرهم[١]، فوصل إليها حيث وجد كثيرين ممن يدينون بالولاء لعلي وآل بيته[٢].

كثر عدد المحبين لعليّ في اليمن بعد هذه الزيارة. وأخذ هؤلاء يعملون على اكتساب الأنصار المحبين لعليّ ويَرَوْن أن عليًّا وحده أهل للخلافة، وأولى الناس بمقام رسول الله بعده، وأحقهم بالإمامة والقيام بالأمر في أمته[٣]، وأن الخلفاء الذين سبقوه قد انتزعوا حق الإمامة منه. ويدل امتناع بعض الصحابة عن مبايعة أبي بكر بالخلافة[٤] على أن الأمة قد آذنت بالانقسام إلى معسكرين من المسلمين، ولكن السياسة الرشيدة التي نهجها أبو بكر وعمر قد ساعدت على كبح جماح هذا الانقسام إلى حدٍّ كبير، إلَّا أن التشيُّع ظلّ منتشراً في بلاد اليمن وغيرها، وتجلَّت مظاهره فيها في مواقف كثيرة.

رحلة ابن سبأ إلى مصر والفتنة الكبرى

فلمَّا رحل عبد الله بن سبأ الصنعاني[٥] إلى مصر بعد أن طاف بالكوفة والبصرة والشام، التف حوله المسلمون هناك، لأنه حمل على سياسة الخليفة عثمان التي كانت مثاراً للسخط في العالم الإسلامي في ذلك الوقت، ونادى بحب علي لأنه أولى من غيره بالخلافة؛ فانضم إليه في مصر عدد كبير، كان في مقدمتهم محمد بن أبي بكر، وقد ساعد انضمامه على نجاح ابن سبأ في دعوته لعليّ بن أبي طالب.

ولا نكون مخطئين إذا قلنا إن سبب رواج دعوة ابن سبأ في مصر يرجع إلى وجود عدد كبير من اليمنيين، الذين جاءوا مصر من أيَّام الفتح الإسلامي واستقرُّوا فيها[٦]. وأنّ هؤلاء اليمنيين كانوا ممن يحبون عليّا وآل بيته.

(١) حور ١٩٨.
(٢) انظر الباب الثاني من هذا الكتاب.
(٣) حور ١٥٤.
(٤) كالعباس عم النبي وطلحة والزبير الذين اتحدوا مع علي بن أبي طالب.
(٥) كان هذا يهودياً من أهل صنعاء، دخل في الإسلام في سنة ٢٩ في خلافة عثمان، وكان من أقوى العوامل لإثارة الناس على عثمان (طبري ١/٢٨٥٩).
(٦) كان معظم جيش الفتح الذي اعتمد عليه عمرو بن العاص في فتح مصر من اليمنيين. =

ومما يدل على مبلغ تحمّسهم لدعوته أن الخليفة عثمان عندما أرسل عمّار بن ياسر[1] إلى مصر، ليصلح بينه وبين محمد بن أبي حُذيفة، استطاع الثائرون على عثمان استمالة عمار إلى رأيهم. وإنّ انضمام هذا الصحابيّ الجليل إلى صفوف الناقمين على عثمان ليدل على مبلغ السخط الذي أثارته سياسة الضعف التي سار عليها هذا الخليفة.

من هذا نرى أن ابن سبأ قد نجح في خُطّته، وهي تأليب العالم الإسلامي ضد عثمان. وتنفيذاً لهذه الـخُطة كاتب ابن أبي حذيفة أهل البصرة والكوفة، ودعاهم إلى الذهاب إلى المدينة. وخرج كل وفد في ستمائة رجل، حتى وصلوا إلى خارجها. وجاء في الوفد المصري من اليمنيين: عبد الرحمن بن عديس العلويّ، وكنانة ابن بشر التجيبيّ، وسودان بن أبي رومان الأصبحيّ، ودرع بن يشكر بن أبرهة. ويقول الكنديّ: إن هؤلاء هم الذين قتلوا عثمان، وبايعوا علياً، وعادوا إلى مصر[2].

وعلى الرغم من أن اليمنيين، كما يبدو، لم يلعبوا دوراً إيجابياً في هذه الفتنة، إلاّ أن الحقيقة الملموسة توحي بأن اليمنيين كان لهم القسط الأكبر فيها. فإن العلاقة بين ابن سبأ الصنعاني وبين المجيبين لدعوته في الأمصار المختلفة، وبخاصة مصر، تدل دلالة واضحة على أن اليمنية كانت لهم اليد الفعّالة في قتل الخليفة عثمان؛ وذلك بسبب حبهم وولائهم لعليّ وآل بيته.

= فكان فيه جند من علك وغافق (ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٥٦) ثم لحق بهم جماعة من لخم وراشد (المصدر نفسه ٥٨). وأن الذي يرجع إليه الفضل في اقتحام حصن الفرما هو سميفع بن وعلة السبئي السيوطي: حسن المحاضرة ١/٧٦). وأن اليمنيين أبلوا بلاءً حسناً عند حصار حصن بابليون (فتوح مصر ٦٢). ولم ينقطع وصول اليمنية إلى مصر، بل ظلوا يفدون إليها في مدة طويلة. ففي خلافة معاوية بن أبي سفيان كان بالإسكندرية سبعة وعشرون ألفاً من العرب الذين كانوا بالشام، وهم يمنية وبعض الأزد، ثم جاءهم جماعة من لخم (المقريزي: البيان والإعراب ٣٥) وسكن بصعيد مصر جماعة من أولاد ربيعة (نفسه ٤٨) وسكنت جهينة أسيوط وما بعدها (نفسه ٣٦). (ملخص من محاضرة الدكتور محمد كامل حسين التي ألقاها في جمعية الاتحاد اليمني بالقاهرة).

(١) كان عمار من محبي علي أيام الرسول، وكان من الأربعة الذين بشرهم الرسول بالجنة وكان تقياً ورعاً. قال النبي: اقتدوا بالذين من بعدي: أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدي عمار (الإصابة ٤/١٢٢٠).

(٢) الكندي: الولاة والقضاة ١٧.

جهاد همدان مع الإمام علي

ومما ساعد على انتشار التشيّع في اليمن جهاد همدان مع سيدنا علي بن أبي طالب في حروبه. ويعتبر ما قاله أمير المؤمنين نفسه دليلاً واضحاً على ذلك. فقد قال أيام صفّين: «يا معشر همدان! أنتم درعي ورُمحي، والله لو كنت بوّاباً على باب جَنّة لأدخلتكم قبل جميع الناس، وما نصرتم إلاّ الله تعالى، وما أحببتم غيره». فقال سعيد بن قيس وزياد بن كعب: «أحببنا الله وإياك، ونصرنا الله وإياك، وقاتلنا معك من ليس مثلك، فارم بنا حيث شئت»[1].

فهذا القول هو من غير شكّ شهادة طيبة من الإمام لهمدان؛ ولا عجب، فقد كانوا جلّ أنصاره وخيرة رجاله الذين ضحّوا بأنفسهم في سبيل نصرته مدفوعين بعامل حبهم لله وحبهم لعليٍّ، وكرههم للظلم والظالمين. وليس أدل على حب الإمام لهم وحسن تقديره لجهودهم من هذه القصيدة التي مدحهم بها وقد جاء فيها[2]:

ولما رأيت الخيل تُقرع بالقنا ... فوارسُها حمر النحور دوامي
ونادى ابن هند ذا الكلاع ويحْصُب ... وكندة مَعْ لخم وحيّ جذام
تيمّمت همدانَ الذين هُمُ هُمُ ... إذا ناب أمرٌ جُنّتي وسِهامي
وناديتُ فيهم دعوة، فأجابني ... فوارس من همدان غير لئام
فوارس ليسوا في الحروب بُعزّل ... غداة الوغى من شاكر وشِبام
ومن أرحب الشمّ المطاعين بالقنا ... ونِهْم وأحياءِ السّبيع[3] ويام
ووداعة الأبطال يخشى مصالها ... بكلّ رقيق الشفرتين حسام
ومن كل حيٍّ قد أتاني فوارس ... كرام لدى الهيجا وأيّ كرام
جزى الله همدان الجنان فإنهم ... سمام العِدا في يوم كل سمام

(١) نزهة ٩/١؛ راجع أيضاً إكليل ١٠/٤٦ - ٥٠.

(٢) نزهة ٩/١ - ١٠ وهي قصيدة طويلة كلها مدح وتعداد لمآثر همدان وبلائها في حروب الإمام علي.

(٣) قبيلة موجودة إلى الآن في حاشد.

رجـال يحبـون النبيَّ ورهـطه لهم سالفٌ في الدين غير أثامِ
همُ نصرونا والسيـوف كـأنها حـريق تلظّى في هشيم ثمام
فلو كنت بوّاباً عـلى باب جنّـة لقلت لهمـدان ادخلوا بسـلام

مالك الأشتر النخعيّ

ويعتبر مالك الأشتر النخعي اليماني[1] من الأمثلة البارزة التي لعبت دوراً هامّاً في حروب عليٍّ وأبلت بلاءً حسناً معه في موقعتي الجمل وصفِّين. ويدل موقفه من التحكيم على مقدار إخلاصه وتفانيه في الحصول على النصر. فقد قال الأشتر عندما رفع جند معاوية المصاحف ووافق جند العراق على التحكيم:

«يا أهل العراق! يا أهل الذُّلِّ والوهن! أحين ظنَّ القوم أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها، وهم والله قد تركوا ما أمر الله به فيها، وسنَّة من أنزلت عليه، فامهلوني فقد طمعت في النصر. . . وأنتم الآن إذا أمسكتم عن القتال مبطلون أم أنتم الآن محقون؟».

قالوا: «دعنا منهم يا أشتر». قال: «خُدعتم فانخدعتم». واستمر يحثهم، ولكن بدون جدوى[2].

(١) قـال ابن حـزم (أنسـاب العـرب ٣٨٩): إبـراهيـم بن الأشـتر واسـمـه مـالـك وهـو من بني مالك بن النخع بن عامر بن عمرو بن علة بن جلد بن مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، ومنهم: «عمرو بن زرارة النخعي أول من خلع ولاءه لعثمان بالكوفة». وليس إبراهيم اسمه مالك كما قال ابن حزم، بل إبراهيم ابن لمالك الأشتر. واشترك إبراهيم ابن مالك مع المختار في حروبه وقتل عبيد الله بن زياد.
وقد اعتبر المبرد (الكامل ٢٦٦ ـ ٢٦٧) النخع من قبائل مضر حينما قال: النخع وثقيف إخوان من إياد، وإياد بن نزار بن معد بن عدنان. ونسب المبرد إلى أخت الأشتر أبياتاً تبكي فيها أخاها، وهي:

وبعـد الأشـتر الـنـخعي تـرجـو مـكـاثـرة ونـقـطع بـطن واد
وتصحب مـذحجا بـأخـاء صـدق وإن نـنـسـب فـنـحـن ذرى إيـاد
ثـقـيـف عـمـنـا وأبـو أبـيـنـا وإخـوتـنـا نـزار أولـو الـسـداد

قـال الـنـويـري (نهاية الأرب ٣٠٢) مـا معنـاه: النخـع بن عمـرو القبيلة المشهـورة من عمـرو ابن علة بن جلد بن مذحج اهـ. وهذه القبيلة موجودة إلى الآن في أبين شرقي عدن.
(٢) ابن الأثير: الكامل ١٧٣/٢.

البراء الهمداني

وقد كان البراء بن وفيد العذريّ الهمداني[1] من الأمثلة الواضحة التي تدل على حب اليمنيين لإظهار كلمة الحق، وإغاثة المظلومين والضعفاء. فقد حارب هذا مع معاوية في موقعة صفّين، مما يدل على أن بعض اليمنيين قد انضم لمعاوية كما انضم البعض الآخر لعليّ[2]، ولكن البراء نقم على معاوية منعه للفرات من أصحاب علي لما سبق عليه بصفين، فقام إلى معاوية، فقال: «سبحان الله العظيم، حين سبقتموهم إلى الفرات تمنعونهم الماء، وإن فيهم العبد والأجير والأمة ومن لا ذنب له؛ هذا والله أول الجور، لقد بصرت المرتاب، وشجعت الجبان، وحملت من لا يريد قتالك على كتفيك». فقال معاوية لعمرو بن العاص: «اكفني صديقك الهمداني، لا يفسد عليّ عسكري». فقام إليه عمرو، فأغلظ له. فأنشأ البراء يقول:

لعمرُ أبي معاوية بن حرب ... وعمرو ما لأيّهما وفاءُ
سوى طعن يحارُ القيل فيه ... وضرب حين تَبتاع الدماءُ
فلستُ بتابعٍ دينَ ابن هند ... طوال الدهر ما أرسى حِراء

---

(١) يقول محب الدين الخطيب: إن البراء هذا ليس له ذكر في كتب التراجم المتداولة في أيدي أهل السنة والشيعة، مع أن ما وصفه به المؤلف (صاحب الإكليل) من الدهاء والزهد، وما ذكره له من خبر وشعر، وكونه من قتلى صفين، كان يقتضي ألا يغفل ذكره في الكتب المشهورة ولا سيما كتب الشيعة (إكليل ١٠/٦٣ هامش (٢)).

(٢) جاء في الطبري (٣/٣٣٠٠): إن الأشتر زحف يوماً (في أثناء موقعة صفين) فاستقبله معاوية بعك والأشعرين. فقال الأشتر لمذحج: اكفونا عكا؛ ووقف في همدان وقال لكندة: اكفوني الأشعرين. فاقتتلوا اقتتالاً كثيراً، وأخذ يخرج إلى قومه فيقول: إنما هم عك فاحملوا عليهم. فيبحثون عن الركب ويرتجزون.

يا ويل أم مذحج من عك ... هاتيك أم مذحج تبكي

فنرى اليمنية في جيشي معاوية وعلي، مما يدل على أن خلاف علي ومعاوية لم يكن مبنياً على العصبية الإقليمية. وكان المسلمون يختارون أحد الفريقين على حسب ميولهم الشخصية أو مبادئهم الدينية. فنجد المضريين والقحطانيين في كلا المعسكرين بصرف النظر عن يمنيتهم أو مضريتهم، ولكن الأغلبية من اليمانية، وبالخصوص المتحمسون منهم، كانوا ينتمون إلى حزب علي، لأسباب سبق أن بيناها. فلا ريب أن اليمن صارت بعد هذا معقلاً منيعاً للتشيع، وأرضاً خصبة لزرع بذور الحركات الشيعية كما سنرى فيما بعد.

فقد ذهب العتاب، فلا عتاب | وقد ذهب الولاء، فلا ولاء
وقولي في حوادث كل أمر | على عمرو وصاحبه العفاء
ألا لله درك يا ابن هند | لقد ذهب الحياء، فلا حياء
أتحمون الفرات على رجال | وفي أيديهم الأسَل الظماء
وفي الأعناق أسياف حداد | كأنّ القوم عندكم نساء
أترجو أن يجاوركم عليّ | بلا ماء وللأحزاب ماء

ثم وطىء لما جنّه الليل في متن فرسه، فلحق بعلي، فقاتل معه حتى قتل[1].
ونرى أن البراء قد عزَّ عليه أن يرى بني جلدته، بل وبني عمومته يشتركون في تأييد الباطل والظلم والغدر، فدفعته الحمية أن يلتحق بعلي.

سعيد بن قيس الهمداني

وكان سعيد بن قيس[2] خاصّاً[3] بعلي بن أبي طالب وصاحب همدان بالعراق، وهو أحد فُرْسان العرب المعدودين، وأحد الدهاة الخمسة وهم: معاوية وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وقيس بن سعد بن عبادة، وسعيد بن قيس، ومن الأجواد والذبابين[4]. وقد كان جالساً يوماً عند علي بن أبي طالب؛ فلما أن قام قال علي: هذا والله كما قال القائل:

مَن قَوْلُه قول، ومن فعله | فعل، ومن نائله نائل[5]

---

(١) إكليل ١٠/٦٤ ـ ٦٥.
(٢) سعيد بن قيس بن زيد الهمداني، ولهم بقية هم السعيديون ببيت زود (صفة ١٩٠) من ظاهر همدان، وقد قال فيه حارثة بن بدر أشعاراً كثيرة (إكليل ١٠/٤٦ ـ ٤٩).
(٣) قال محب الدين الخطيب: هذه الصفة لم يطلقها المسلمون إلاّ على النبي ﷺ وإخوانه من الأنبياء، ولعلها من عمل المؤلف ليغطي بذلك ما يؤاخذه به العدنانيون من الإفراط في العصبية القحطانية (نفسه ١٠/٤٦ هامش (١)).
(٤) نفسه ١٠/٤٦.
(٥) نفسه ١٠/٤٦.

وسعيد هذا الذي قتل عمر بن الحُصين السَّكُونيّ[1] في بعض أيام صفين، كما قتل المشمرح فارس ذي رُعَين[2] مبارزة، وفي ذلك يقول شعراً:

لقد فجعت بفارسها السَّكُون | كما فجعت بفارسها رُعَين
غداة أتى أبا حسن عليّا | ووسط النقع مِرْداة طحون
فأطعنه وقلت له: خُذْنها | مسوّمة يخف لها القطين[3]

ومآثر همدان كثيرة ومواقفها الحميدة من علي وآل بيته عديدة، أجملها صاحب النزهة في قوله:

وهم جاهدوا أعداء آل محمد | وهم نصروا آل النبيّ الأطائب
وهم نصروا المنصور[4] في كل وقعة | وحاطوا عداه من جميع الجوانب

محنة شيعة عليّ في ولاية بُسر بن أرطأة

وقبل أن ينتهي النزاع بين علي ومعاوية أرسل معاوية من قبله بُسْر بن أرطأة العمري والياً على اليمن سنة أربعين[5]، وسيّر معه ثلاثة آلاف جنديّ، وأمره معاوية بأن يقتل شيعة عليّ هناك. فلمَّا كان قريباً من صنعاء، وعلم به عبيد الله ابن العباس والي الإمام عليّ على بلاد اليمن[6]، جمع عبيد الله هذا أهل صنعاء وخطب فيهم وحرَّضهم على القتال. فلمَّا يئس من نصرتهم استخلف عمرو

---

(١) قد تكفل هذا لمعاوية أن يفتك على غرة بعلي. فحين كان علي في شغل بقتال القوم والصولة عليهم حمل السكوني على أمير المؤمنين من خلفه، ولكن سعيد بن قيس قصم ظهره بالرمح قبل أن يقوم بعمله (نزهة ١/ ١٠).

(٢) وكانت ذو رعين اليمنية تحارب مع معاوية في صفين.

(٣) نزهة ١/ ١٠ - ١١.

(٤) يريد بذلك منصور اليمن أبا القاسم (نفس المرجع ١/ ١١ - ١٢).

(٥) يقال له بشر أيضاً؛ ذكر صاحب الإكليل ٦٦ أن اسمه بسر.

(٦) كان يعلى بن منبه والياً على صنعاء، وعبد الله بن ربيعة على الجند، وذلك في أيام عثمان. فلما جاء علي خلعهما وولى عبيد الله بن العباس على صنعاء وأعمالها، وسعيد بن سعد بن عبادة الأنصاري على الجند (الطبري حوادث سنة ٣٤ ص ٣٠٥٧).

ابن أبي أراكة الثقفيّ على عمله وسار حتّى بلغ الكوفة يريد عليّاً، وترك ولدين صغيرين له عند أمّ سعيد. فلمَّـا قدم بسر صنعاء استدعى الولدين فقتلهما، وقيل ذبحهما بيده، ثم قتل عمرو بن أبي أراكة، ثم قتل اثنين وسبعين رجلاً كانوا قد تشفّعوا في الطفلين. وكان قتل هؤلاء جميعاً على باب المصرع[١]، فدفن الولدان حيث قتلا، وبنى عليهما مسجد، وهو مشهور هناك باسم مسجد الشهيدين[٢].

وكان بسْر هذا أوّل جبّار دخل صنعاء اليمن في الإسلام، فعسف بأهلها وعاث في الأرض فسادا. ولـمّا بلغ أمير المؤمنين عليّا هذا الخبر، جهز ألفي فارس من الكوفة، ومثلها من البصرة، وسيَّرها بقيادة حارثة بن قدامة السعديّ، وأمره بدخول اليمن ومتابعة بسر حيث كان ومؤاخذته على ما ارتكب من الفساد. ولـمّا وصل حارثة اليمن هرب بسر وتفرّق أصحابه، ولكنّه بعد أن ترك جماعة من أتباعه لزمهم حارثة ونكل بهم، ثم عاد إلى مكة، وهناك سمع بوفاة أمير المؤمنين، فأخذ البيعة من أهل اليمن والحجاز لمن بايع له أصحاب علي[٣].

نستخلص من هذه الحوادث أن الصراع بدأ بالفعل بين المعسكرين من المسلمين: شيعة عليّ وأنصار الأمويين، وأخذت ضحايا هذا الصراع تتوالى على حساب المسلمين. وأخذ كل فريق يرى أن الحق بجانبه، ويستميت في الدفاع عن عقيدته، كما نستنتج أن وجود مسجد الشهيدين تحت أنظار أبناء اليمن الموالين لعليّ يعتبر من العوامل الفعَّالة التي ساعدت على تكتلهم وتربُّصهم بعمَّال بني أميَّة كلما أتيحت لهم الفرصة. ولما تولّى معاوية الخلافة دأب على اتباع سياسة سبّ علي وأهل بيته على المنابر، ممَّا أثار حنق الشيعة عليه، وسبَّب ذلك اضطرابات كثيرة في البلاد الإسلامية، وبخاصة الكوفة التي أرسل أهلها إلى الحسين بن علي يدعونه إليهم، فأجابهم إلى ذلك[٤].

---

(١) باب المصرع ذكره الهمداني في إكليل ١٠/٦٦ صفة ٢٤٣.
(٢) أنباء / دار ١٣.
(٣) أنباء / دار ١٣.
(٤) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ٣/٣ - ٤.

ثورة التوّابين

وكانت فاجعة كربلاء الأليمة لمقتل الحسين بن علي في عهد يزيد بن معاوية. وكان لمقتله أثر بعيد في إذكاء نار التحمُّس في نفوس الشيعة وتوحيد صفوفهم، فصاحوا صيحة واحدة: الأخذ بثأر الحسين! وغدا العداء بين الأمويين والعلويين شديد الخطر. ولم يسكت الشيعة عن دم الحسين، بل تحرّكوا بالكوفة سنة ٦٥ في عهد الخليفة الأموي مروان بن الحكم، وتابوا عن تقصيرهم في حق الحسين، فسُمُّوا التّوابين، وحزموا أمرهم، وقادهم سليمان بن صُرَد لمحاربة عبيد الله بن زياد، ولكنهم هزموا في موقعة عين الوردة وقتل قائدهم[١].

ثورة المختار وقائده إبراهيم بن مالك الأشتر

وما لبثوا أن انضووا بعد ذلك تحت لواء المختار بن أبي عبيد[٢] الذي طرد عامل الكوفة من قبل ابن الزبير، وأرسل بعد ذلك جيشاً بقيادة إبراهيم ابن مالك الأشتر النخعي لقتال ابن زياد والأخذ بثأر الحسين بعد أن عجز التوّابون عن ذلك. فسار إبراهيم هذا حتى لقي ابن زياد ومن معه من أهل الشام على نهر الخازن[٣]، فدارت الدائرة على ابن زياد، وقتل هو وكثير من أهل الشام.

«فكان بلاؤهم بالمختار وقائده إبراهيم بن الأشتر عدلاً لا رحمة فيه ولا نحسب قسوة بالآثمين سلمت من اللوم أو بلغت من العذر ما بلغته قسوة المختار»[٤]. وكان من أثر انتصار ابن الأشتر على ابن زياد أن ازداد تعلق الشيعة بالمختار، والتفَّ حوله كثير منهم.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٧٣/٤ ـ ٧٩.

(٢) ظهر في ميدان السياسة سنة ٦٦، وتقلب في كثير من الأحزاب، فانضم إلى الشيعة، واستغل ثورة التوابين على بني أمية، واستولى على الكوفة، ونال من بني أمية ولكنه قتل سنة ٦٧ بالقريب من الكوفة (طبري ٦٧١/٢؛ حور ١٨٢).

(٣) هو نهر يصب في الدجلة ما بين الزاب الأعلى والموصل.

(٤) عباس العقاد: أبو الشهداء ١٦٣.

عمر بن عبد العزيز يأمر بمنع سبّ عليّ

ولما تولّى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة تسع وتسعين أقرَّ ولاية وهب بن منبِّه على بلاد اليمن، وأمره بالامتناع عن لعن أمير المؤمنين عليّ في جميع الآفاق[١]، ووصل الأمر بذلك إلى صنعاء، فخطب الخطيب بجامعها، وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ الآية، بدلاً عن اللعن، فقام إليه ابن محفوظ، وقال: «قطعت السُّنة، والله لأنهضَنَّ إلى الشام، فإن وجدت عمر عازماً على قطع السُّنة، لأضرمنَّ عليه الشام ناراً». فخرج ابن محفوظ من صنعاء، فلحقه أهلها في الموضع المسمّى بالمنجل، فرجموه بالحجارة حتى غمروه وغمروا بغلته، وهو يرجم بالحجارة إلى الآن[٢].

وإنا نرى من جهة أن عمل الخليفة عمر بن عبد العزيز يدلّ على أنه صادف هوىً في نفوس أهل اليمن، فعبروا عن ذلك بقتلهم لابن محفوظ، ورجموا مكان قتله بالحجارة، ومن جهة أخرى نرى أن هذا العمل ليس بغريب على هذا الخليفة الذي اشتهر بالصلاح والتقوى. ولا عجب فقد سار عمر سيرة أبيه عبد العزيز في مصر، فقد أثر عنه أنّه كان إذا وصل إلى ذكر أمير المؤمنين عليّ عليه السلام تتعتع. فلما قال له ابنه عمر: لِـمَ فعلت ذلك؟ قال: يا بنيّ اعلم أن العوامّ لو عرفوا من علي بن أبي طالب ما نعرفه نحن لتفرّقوا عنّا إلى ولده. فلما تولّى عمر بن عبد العزيز الخلافة قطع السبّ وجعل مكانه الآية المذكورة.

استتار الشيعة في العهدين الأموي والعباسي

ظلّ التشيُّع مستتراً في بلاد اليمن، واستمر المتشيعون في ولائهم لعليّ وبيته مهما وقع من ضغط الولاة من بني أميَّة وبني العبّاس. وبقيت هذه الطائفة تعمل في الخفاء والظهور كلّما ساعدتها الظروف طوال هذه المدة.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ١٦٧/٢ - ١٦٨.

(٢) الفخري: الآداب السلطانية ١١٧.

ومما يدلّ على بقاء هذه الطائفة في بعض جهات اليمن وعلى وجه خاص في منطقة عدن لاعة قول السيّد الحميريّ حيث قال[1] للإباضية تعريفاً لنفسه:

إن تسألين بقومي تسألي رجلاً — في ذروة العزّ من أحياء ذي يمن
حولي بها ذو كلاع في منازلها — وذو رُعَين وهمدان وذو يَزَن
والأزْد أزد عُمانَ الأكرمون إذا — عُدَّت مآثرهم في سالف الزمن
بانت كريمتهم عنّي فدارهُمُ — داري، وفي الرحب من أوطانهم وطني
لي منزلان بلَحْجٍ منزلٌ وسط — منها، ولي منزل للعزّ في عدن[2]
ثم الولاء الذي أرجو النجاة به — من كَبَّة النار للهادي أبي الحسن

ولعل انتشار التشيع والمتشيعين سرّاً وعلانية في بلاد اليمن كان من أهمّ الأسباب التي دعت الإمام المستور الحسين بن أحمد إلى إرسال أبي القاسم منصور اليمن إلى تلك النواحي من اليمن سنة ثمان وستين ومئتين كما سبق أن ذكرنا، كما كانت من أهمّ الأسباب التي حملت بعض قبائل اليمن إلى دعوة الإمام الهادي[3] سنة ثمانين ومئتين للوصول إليهم. في ذلك يقول صاحب الأنباء[4]: «وأقرّ له الناس بالطاعة إذ كان خروجه باستدعائهم، فلبث مدّة يسيرة حتّى ظهر له منهم الخلاف لأوامره... فانقلب راجعاً إلى الحجاز. ولـمّا ارتبكت بلاد اليمن بسبب الفتن والقحط عاد اليمنيون وتضرَّعوا له، فرجع في صفر سنة ٢٨٤؛ وإن سبب رجوعه أن بني فطيمة من خولان صعدة خرجوا إلى الهادي إلى الرَّسِّ من أرض الحجاز لاستدعائه للخروج».

---

(١) الأصبهاني: الأغاني ٧/٨.

(٢) المقصود هنا عدن لاعة.

(٣) ورد نسبه في جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٢٨ على الوجه الآتي:
يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. ويقول نشوان (حور ١٩٦): ولقبه الهادي إلى الحق، ولد هذا الإمام سنة ٢٤٥ وتوفي سنة ٢٩٧، وكان عالماً جليلاً وخطب له بمكة سبع سنين راجع اتعاظ ١٢.

(٤) أنباء / ماضي ٨.

وإنا نرى أن سبب رجوعه إلى اليمن بالإضافة إلى ما قاله صاحب الأنباء هو رغبة اليمنيّين في أن يتولّى أمر دينهم ودنياهم أحد الأئمة من أهل البيت، ونظن أن الذي شجّعه على قبول دعوة اليمنيين نجاح سفارة منصور اليمن وتأسيسه في اليمن دولة موالية للأئمة الفاطميين. ولما كان الإمام الهادي ينتمي إلى بيت النبي وجد أهل اليمن فيه كلّ ما يرجونه من أمل، فدعوه إلى بلادهم، وولّوه عليهم، فاستقرَّ في صعدة وبقيت سلالته في اليمن إلى يومنا هذا؛ كما استطاع منصور اليمن أن يحرز نجاحاً باهراً بفضل دعوته إلى الأئمة من نسل فاطمة الزهراء.

وكذلك بدأت في أواخر القرن الثالث المنافسة بين الدعوتين الشيعيتين الفاطمية والزيدية اللتين اشتبكتا في صراع دمويّ بل في حرب إبادة للقبض على ناصية الحكم طوال القرون التالية، بالرغم من أنهما كانتا تهدفان إلى تأسيس دولة موالية لأهل بيت النبي.

نجد اليمن مستودع التشيع

من هذا العرض التاريخي الموجز يمكننا أن نقرّر أن نجد اليمن صار حصناً من حصون الشيعة بل مستودعاً من مستودعاتها، لأن أهله برهنوا في مواقف عديدة على حبهم لعليٍّ وبنيه. ويعتبر انتشار التشيّع في تلك البلاد بالإضافة إلى ضعف الحكام ووَهْن الرِّباط الذي كان يربطها بالعبّاسيين من أهمّ العوامل التي هيّأت الظروف إلى نجاح سفارة الفاطميين في بلاد اليمن. وهذا ما سنعالجه في الباب التالي.

البابُ الثاني

الدولة الفاطمية الأولى في عهد منصور اليمن

(٢٦٨ - ٣٠٣)

الحالة السياسية والدينية عند ظهور منصور اليمن

كانت اليمن تابعة للدولة العبّاسية، وكان الولاة يتعاقبون عليها من قبلهم، واتخذوا صنعاء حاضرة لهم، ولكن الأمور فيها لم تكن مستقرّة استقراراً تاماً، لأن السلاطين والأمراء اليمنيين كانوا يتنافسون لتولّي الحكم من قبل خلفاء بني العباس. كذلك كانت الأمور في جزيرة العرب بصفة عامة غير مستقرّة بسبب الثورات التي قام بها العلويّون في بلاد الحجاز واليمن، وبسبب ظهور القرامطة في بلاد البحرين وبسط سلطانهم على اليمامةِ وعمان، وبسبب نشاط دعاة الفاطميين في نشر دعوتهم لقلب النظام الموجود في العالم الإسلاميّ.

وكان لهذه الأحداث أثر غير مرضيٍّ في الجزيرة بأسرها، فصارت في شبه عزلة كما تأخرت مادياً وعلمياً. ولم تكن ببلاد اليمن بصفة خاصة وحدة سياسية، تجمع شمل الولايات التي نهكتها المنافسات الداخلية والاختلافات المذهبية، تحت لواء واحد، وتقود الجميع نحو هدف واحد. وكانت الولايات في هذه البلاد شبه مستقلة عن الدولة العباسية إدارياً وسياسياً لضعف الخليفة عن حربها، ولكنها لم تستطع الاستقلال عنه دينياً، لأنَّ الولاة كانوا لا يستغنون عن بيعة الخليفة

لتثبيت سلطانهم[1]. فكان بنو زِياد[2] في زبيد، وبنو يَعفر[3] في صنعاء يعترفون بالسيادة لبني العباس؛ ثم دخل بنو يعفر تحت سيادة بني زياد حيث استمرّ الحكم في دولتهم، حتى خلع أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم (٢٨٩ - ٢٩١) طاعة العباسيين، وحلت في عهده عوامل الاضطراب التي أدّت إلى عدم الاستقرار وفقدان الوحدة السياسية، ومن أهمها ظهور الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم الرسِّي سنة ثمانين ومئتين حين نزل صعدة لنشر دعوة الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، واتّبعه عدد غير قليل من القبائل التي كانت تميل إلى التشيُّع. فصارت الزيدية من يوم ظهوره من أهم العناصر في حياة اليمنيين. وهكذا أصبح في بلاد اليمن بعد ظهور منصور اليمن في سنة ٢٦٨ أربع ولايات، وهي الدولة الزيادية في زبيد، ودولة بني يعفر في صنعاء، ودولة بني الرسِّ في صعدة، والدولة الفاطمية تحت قيادتي أبي القاسم منصور اليمن وعلي بن الفضل الجيشاني.

وقد أدّى هذا الاضطراب السياسيّ إلى كثرة النزاع بين الولايات، بل بين زعماء كل ولاية، مما زاد الطين بلة، ومهَّد لقيام الدعوة الفاطمية[4] التي ظهرت في اليمن سنة ٢٦٨ على يد أبي القاسم (منصور اليمن) وزميله علي بن الفضل.

ونتيجة لظهور هذه الدعوة واستيلاء الداعيين فيما بعد على معظم بلاد اليمن، بالإضافة إلى ما قام به أتباع الأئمة الزيدية من الحروب، اضطربت الأطراف على أبي الجيش، وخرج زعماء البلاد كل في جهته، ولم يسع أبا الجيش أمام هذه الاضطرابات إلاَّ مهادنتهم واعترافه بما تحت أيديهم خضوعاً لسياسة الأمر الواقع.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٢١٣/٩.

(٢) من ولد عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان، وقد ولي محمد بن زياد اليمن من قبل الخليفة المأمون العباسي سنة ٢٠٣ (تاريخ ابن المجاور ١/ ورقة ٥٢).

(٣) قامت دولتهم في اليمن في آخر عهد المتوكل، وكان جدهم عبد الرحيم بن إبراهيم الحوالي نائباً عن جعفر بن سليمان بن علي الهاشمي الذي كان والياً للخليفة المعتصم على نجد اليمن، ولما توفي عبد الرحيم خلفه ابنه يعفر وهو رأس الدولة وباعث استقلالها سنة ٢٤٧، واستمر أعقابه في صنعاء حتى سنة ٢٨٧ وهو من أولاد التبابعة من حمير، كما حكاه عمارة/ كاي ٤.

(٤) أنباء / دار ٢٤.

ولم يكن بُعْد بلاد اليمن عن بغداد حاضرة الدولة العباسية بأقل أهمية من العوامل السابقة، لأن جماعات الشيعة كانت تلجأ في نشر دعوتها ومبادئها إلى الاستتار والبعد بقدر الإمكان عن أعداء الدعوة، باتخاذ الأقطار البعيدة مزرعة لإنضاج هذه المبادىء. وقد وجد دعاة الفاطميين في بُعد اليمن عن مركز الخلافة في بغداد وسيلة لتنفيذ مشروعاتهم، حتى يمكن القول بأن هذا البعد بالإضافة إلى وعورة الطريق وطبيعة بلاد اليمن الجغرافية المعقّدة، كانت من أهم الأسباب التي حالت بين خلفاء العباسيين وبين توجيه الجيوش إلى اليمن لإنقاذها من دعاة الفاطميين. واكتفى الخلفاء بأن يعهدوا إلى ولاتهم من جهة، وتكليف زعماء البلاد من جهة أخرى القضاء على هذا التيّار الجارف ـ تيّار الدعوة الفاطمية. ولكن ضعف الولاة وتنازعهم الدائم مع زعماء البلاد المتنافرين كان من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الدعوة الفاطمية فيها. لهذا حق لابن الفضل اليماني أن يقول عندما عرض عليه الإمام الفاطمي الحسين بن أحمد أبو المهدي عبد الله أن يقوم ببثّ الدعوة باليمن: «والله إن الفرصة ممكنة في اليمن، وإن الذي تدعون إليه جائز هنالك، وناموسنا يمشي عليهم. وذلك لما أعرف فيهم من ضعف الأحلام وقلّة المعرفة بأحكام الشريعة المحمدية»[1].

في هذا الجوّ السياسي المضطرب وفي هذه البلبلة الدينية ظهر أبو القاسم منصور اليمن في بلاد اليمن فتمكّن في فترة وجيزة من أن ينشىء دولة موالية للخليفة الإمام المهدي عبد الله بن الحسين.

سفارة الفاطميين في بلاد اليمن

كان لدعاة الفاطميين الأقدمين خبرة ودراية باختيار الرجال، واتخذوا مواعيد الزيارة بالكوفة حيث قبر الإمام الشهيد الحسين بن علي وسيلة لبثّ مبادئهم

---

(١) ولعل ما أشار إليه الحمادي في الكشف ٢٢ بخصوص ضعف الأحلام في اليمنية على لسان علي بن الفضل الجيشاني القحطاني البحت يكون بعيداً عن الصواب مع علمنا بافتخار ابن الفضل بقحطانيته وتعصبه لبني جلدته.

وعقائدهم، ودليلاً على مقدار إخلاص أهل الدعوة إلى صاحب المقام.

وكان الأئمة والدعاة الأقدمون يبذلون كل جهدهم في تحويل أكبر عدد من الرجال النافعين للدعوة إلى مبادئهم، خصوصاً من كانوا يلمسون فيهم نبوغاً، فقد ظفروا بأبي القاسم الحسن بن فرج بن حوشب بن زادان الكوفي هناك وهو من ولد عقيل بن أبي طالب، وكان من أهل بيت علم وتشيُّع، قرأ القرآن وطلب الحديث والفقه[1]، وكان يدين بمذهب الإمامية الإثنا عشرية، وتمكّن الإمام الحسين بن أحمد من تحويله إلى مذهبه؛ ويقول أبو القاسم: «وكان الإمام يخصّني ويقرّبني ويرمز بقرب الأمر ودنوّ العصر»[2]، فقال له: «يا أبا القاسم! البيت يماني والركن يماني والدين يماني والكعبة يمانية، ولن يقوم هذا الدين ويظهر إلّا من قبل اليمن... يا أبا القاسم! هل لك في غُربة في الله». قلتُ: «يا مولاي! الأمر إليك، فما أمرتني به امتثلته». قال: «اصبر، كأني برجل قد أقبل إلينا من اليمن، وما لليمن إلّا أنت». فقلتُ: «أستعين بالله على ما يرضيك»[3].

من هذا نرى أبا القاسم قد أصبح مهيّئاً للأمر الذي أراده الإمام، وأصبح موضع ثقته، وأمله الذي يرجوه، ونرى أيضاً أن الإمام كان على علم بوصول عليّ بن الفضل الجدني الخنفري الجيشاني[4]، بطريق رئيس الدعوة في اليمن من قبل هذا الإمام، في الوقت الذي كان فيه ابن الفضل لا يعرف شيئاً عن الإمام المستور حسين بن أحمد ولا عن دعوته.

وصل علي بن الفضل إلى الكوفة سنة سبع وستين ومئتين بعد أن أدّى

---

(١) افتتاح ٣. وينسب إليه رسالة الرشد والهداية نشرها محمد كامل حسين بمجلة Collectanea ج ١ (١٩٤٨) ص ١٨٥ وما بعدها.

(٢) نفسه ٩؛ عيون ٥/٤٠.

(٣) افتتاح ٩.

(٤) جدن من ذي جدن. وجيشان مدينة باليمن. وفي قرة ١٣ قال: إنه ولد خنفر بن سبأ الأصغر. كان في أول أمره لا شهرة له. وقد تعلم أصول الدعوة في الكوفة، ثم رجع إلى اليمن. وقال القاضي النعمان (افتتاح ٩): وكان ابن الفضل شاباً جيلاً من أهل بيت تشيع ونعمة ويسار. ويقال له أبو الحسن علي بن الفضل. خرج حاجاً من جيشان في جماعة من أهلها.

فريضة الحجّ في مكة، وأخذ يبكي عند قبر الإمام الحسين بن علي وينتحب ويعدّ مناقبه ويذكر فضله(١)، مما جعل الفاطميين ودعاتهم يحرصون على استمالته إلى دعوتهم.

وبالرغم من اختلاف المؤرخين في الشخص الذي عهد لأبي القاسم وابن الفضل بالسفر إلى بلاد اليمن ويمكننا أن نقرر هنا اعتماداً على ما قاله القاضي النعمان(٢)، أن الإمام الحسين بن أحمد هو الذي قام بهذا الأمر لأن الإمام بعد أن أخذ المواثيق على أبي القاسم ووصل ابن الفضل عنده قال: «. . . يا أبا القاسم! هذا الذي كنا ننتظره فكيف رأيك في الذي عرضته عليك من أهل اليمن؟» فامتثل أبو القاسم لأوامر الإمام التي قال له فيها: «. . . إلى عدن لاعة فاقصد، وعليها فاعتمد، فمنها يظهر أمرنا، وفيها تعز دولتنا، ومنها تفترق دعاتنا»(٣). ثم أمره بالاستتار والاعتماد على التأويل، واتخاذ التشيع وسيلة لتحقيق أغراضه، وأن يقول بقرب ظهور المهديّ(٤). ثم قال له: «واجمع المال والرجال، والزم الصوم والصلاة والتقشف، واعمل بالظاهر، ولا تظهر الباطن، وقل لكل شيء باطن، وإن ورد عليك ما لا تعلمه فقل لهذا من يعلمه وليس هذا وقت ذكره»(٥)؛ كما أوصاه بعلي بن الفضل خيراً فقال له: «هو شابّ قريب عهد بالأمر، فانظر كيف تسوس أمره»(٦). ثم توجّه إلى علي بن الفضل فقال له: «إن هذا الرجل الذي نبعث به معك بحر علم،

---

(١) افتتاح ١٠.

(٢) نفسه ١٢/؛ ولكن إدريس (عيون ١١٩/٥) يروي عن صاحب سيرة الإمام المهدي أن الإمام الحسين قبل أن يتوفى استكفل أخاه أبا علي الحكيم وهو محمد بن أحمد المكنى بسعيد الخير إلى ابنه المهدي وكان عم الإمام المهدي. وهو الذي أنفذ أبا القاسم إلى اليمن بعد وفاة الإمام الحسين بن أحمد. ويحتمل أن يكون الإمام حسين هو الذي أخذ المواثيق على أبي القاسم وزميله، ولكنه توفي قبل أن يسافر السفيران إلى بلاد اليمن، ومهما يكن من أمر فإن السفارة قد أرسلت إلى اليمن في شخصي أبي القاسم وابن الفضل.

(٣) افتتاح ١٢.

(٤) Quatremere: Memoires J, A. 1836 ص ١٨٤.

(٥) افتتاح ١٣.

(٦) نفسه ١٤.

فانظر كيف تصحبه»[1]. ثم قال: «الله بصاحبك، وقِّرْه واعرف له حقه، ولا تخالفه فيما يراه لك، إنه أعرف منك وإنك إن خالفته لم ترشد»[2]. ثم قال لهما: «أبعثكما إلى اليمن، تدعوان إلى ولدي هذا، فسيكون له ولذريته عزّ وسلطان، وإن الله عزّ وجلّ قسم لليمانيين ألاّ يتمّ أمرٌ في هذه الشريعة إلاّ بنصرهم»[3].

سير السفيرين إلى اليمن

خرج السفيران من الكوفة إلى القادسيّة في نهاية سنة سبع وستين ومئتين ويقول أبو القاسم «ولما ودّعت الأهل والأحبة متشوقاً إلى إقطاع الغربة توجهت، فلما خرجت من القادسية أوجست خيفة. فسمعت حادياً يقول:

يا حادِيَ العيس مليحَ الزَّجْرِ   بَشِّرْ مطاياكَ بضوء الفجر[4]

فسررت واستحسنت ذلك الفأل لما سمعته، ووافيت مكة في حين قدوم الحجاج من اليمن»[5]. وبعد أن أدّى مناسك الحج تابع مع زميله السير جنوباً حتى وصلا إلى غلافِقَة في أول سنة ٢٦٨ وكانت في هذا الوقت بندراً لمدينة زبيد على ساحل البحر الأحمر. ثم افترق الداعيان بعد أن اتفقا على أن يتصل كل واحد منهما بصاحبه ليتعرف أحواله، فاتجه أبو القاسم إلى مدينة الجَنَد، وكانت غايته عدن لاعة[6]، لأنها كما يقول الإمام الحسين لأبي القاسم «أقوى لأمرك وأمضى لناموسك»[7]. وقد وصل إليها عن طريق بعض تجار هذه المدينة من بني موسى، تقابل معهم في عدن أبين ولما وصل لاعة أخبره من بها من أهل الدعوة

---

(١) افتتاح ١٤.

(٢) كشف ٢٣.

(٣) إدريس: زهر المعاني ٦٥.

(٤) افتتاح ١٤؛ عيون ٣٥/٥.

(٥) افتتاح ١٤؛ عيون ٣٥/٥.

(٦) وجاء في العيون ٣١/٥ ـ ٣٣: أخذ أبو القاسم يتنقل من مخلاف بني طريف من ناحية صعدة إلى الظاهر، ثم وصل إلى نقيل عجيب ثم دخل صنعاء، وخرج منها حتى وصل إلى الجند، وكانت غايته عدن لاعة.

(٧) افتتاح ١٢؛ كشف ٢٤.

أن الداعي أحمد بن عبد الله بن خليع كان قائماً بالدعوة، ولكن الأمير ابن يعفر قبض عليه، وتوفي الداعي في السجن منذ عهد قريب، فنزل أبو القاسم في دار من دور ابن خليع، وتزوّج ابنته[1]، وتقلّد مقاليد الدعوة هناك.

أما علي بن الفضل فقد اتجه إلى بلاد يافع الجبلية، بالقرب من الجَنَد.

نشاط منصور اليمن الحربي

نهج السفيران منهجاً واحداً في نشر نفوذهما في بلاد اليمن، وقد اتخذا الدين وسيلة لنشر هذا النفوذ. فأظهر كل منهما الزهد والتقشّف والصلاح ابتغاء الوصول إلى غايته[2]، وعملا بوصية الإمام الحسين بن أحمد إليهما[3]، كما تظاهر كل منهما بالتفقه في الدين والتضلع في المذاهب السنية، وكانا يأمران بالمعروف، وينهيان عن المنكر. فمال إليهما كثير من أهل اليمن، وأقبلوا عليهما من كلّ فجّ؛ وبخاصة بعد أن أظهرا دعوتهما علناً في سنة سبعين ومئتين، بعد أن قام كل منهما بدعوته سرّاً لمدة سنتين. فأصبح لكل منهما جماعة كبيرة، تخلص له الإخلاص كله. وبعد أن قوي حزب كل منهما في جهته عمل على الحصول على الأموال، لتنفيذ أغراضه، وللدفاع عن أتباعه. وكانت الزكاة هي السبيل المستقيم الذي يتفق وأمور الدين. فأمر أبو القاسم من جهةٍ أتباعه بجمعها، واستعمل عليها منهم ثقات وعدولاً، يقبضون أعشارهم (أعشار أموالهم) على ما يوجبه الفقه[4].

ولما هوجم أبو القاسم، وقتل بعض أصحابه، أشار عليه بعض مشايخ الدعوة بالاتحاد، وتدبير الدفاع عن كيانهم، كما سيأتي ذكره. وقال صاحب العيون[5]: «إنَّ أبا القاسم طلب من أتباعه ألف دينار، فأعانه بها خمسة منهم. فاستعد بها، وصعد عبر محرم، وسكن به، وأسكن معه خمسين رجلاً من وجوه أهل

---

(١) افتتاح ١٧، ١٢؛ عيون ٣٨/٥.

(٢) أنباء / دار ٢٠.

(٣) افتتاح ١٣؛ انظر ص ٣١.

(٤) كشف ٢٥.

(٥) عيون ٤١/٥؛ قرة ورقة ١٢.

دعوته». وبينما ترى أبا القاسم يقوم بتنفيذ هذه الخطة إذا بابن الفضل يسلك نفس الطريق، فيأمر أتباعه المخلصين ببناء حصن فوق جبلهم، ويتم له ذلك في جهة سرو يافع[1]. ونحن نرى أنه كان لبناء هذه الحصون غرضان: فالغرض الأول الظاهر هو حفظ أموال الزكاة؛ ولكن الغرض الحقيقي هو اتخاذها قواعد ارتكاز يبسط منها الدعاة نفوذهم السياسيّ والمذهبيّ.

وقد ساعدهم على هذا النجاح المستمر الظروف المحيطة. وقد قتل محمد بن يعفر في سنة سبعين ومئتين، واختلف أهل بيته فيما بينهم. تلا ذلك خطوة عملية جديدة، وهو دور الحرب، وتكوين الدولة المنشودة - دولة المهدي. فأبو القاسم لم يصعد عبر محرم إلاّ عندما هجم عليه إسحاق بن طريف بجيش جرّار، فقتل من أتباعه اثني عشر رجلاً. يقول إدريس[2]: «فضاق الأمر على أصحابه. فاجتمع إليه المشايخ من أهل الدعوة، وسألوه حسن النظر والتدبير لهم. فعرفهم أن ذلك لا يكون إلاّ بحصن يلجئون إليه ويمتنعون فيه، فعرضوا عليه حصون البلد، فاختار منها عبر محرم»، واحتله كما سبق أن ذكرنا.

ولا بد أن يكون أبو القاسم قد اتفق مع بني العَرْجي سلاطين همدان، أصحاب هذه البلاد، على استعمال بعض الأماكن والحصون في بلادهم، لأن هذا الاحتلال يبعد أن يكون قد حصل قهراً، لأنه يتنافى مع ما كان يدعو إليه من عدم التعدي على حقوق الغير، كما أن قوته لم تكن قد نظّمت تنظيماً كافياً، وأن أصحاب هذه الجهات لم يخرجوا عليه في يوم من الأيام.

ومهما يكن من شيء، فقد احتل أبو القاسم عبر محرم، ثم جمع جمعاً من أتباعه، واستولى على جبل الجميحة، ثم هاجم بيت رَيْب (وهو رأس مَسْوَر) ثلاث مرات، حتى استولى عليه. فأثار ذلك حنق رؤساء الدويلات، وأشعلوا نار الحرب في وجهه، ولكنها كانت حرباً همجية، كان مآلها الفشل في الوقت الذي كان أبو القاسم وأتباعه يحاربون تنفيذاً لمبدئهم ونصرة لإقامة دولة أهل بيت النبيّ.

(١) كشف ٢٨.

(٢) عيون ٥/٤٠.

وكانت هناك رأس مفكرة تقودهم من نصر إلى نصر. ففي سنة سبعين ومئتين امتد نفوذه كثيراً، فتسمّى «المنصور باليمن»[1] واستولى على جبل مَسْور من أعمال صنعاء اليمن، باتفاقٍ عمله مع مأمور الحوالي بجبل مسْور. فدخل الحصن الواقع بمسور، ومعه ثلاثة آلاف رجل، وحصنه ودربه، وبنى فيه داراً للهجرة ليلجأ إليها أتباعه. وأصبح هذا الجبل القاعدة الحربية التي كانت تسير منها الحملات إلى الجهات المجاورة.

فاستولى على جميع مخاليف المغرب: مغرب اليمن؛ فأخذ بلاد عِيّان وبني شاوِر[2] وحملان، ثم استولى على ذُخار[3] وملك شِبام حمير[4] وجبلها كوكبان. وما زال يحوز المعاقل ويملك مدن اليمن الجلائل، وأقبل الناس إليه طوعاً وكرهاً؛ فدخل كثير من بني يعفر وملوك حمير في الدعوة طائعين وكارهين، وقويت في أرض اليمن دعوته وعلت كلمته[5]. وكان هذا النصر سبباً في أن استعمل الداعي الطبول والرايات، وكان يقول: «والله ما أخذت هذا الأمر بمالي ولا بكثرة رجالي؛ وإنما أنا داعي المهدي الذي بشر به النبيّ ﷺ». فانتقل إليه الناس بأموالهم وأولادهم، ودخلوا في بيعته ومذهبه[6]. ولم يقف نشاط أبي القاسم الحربيّ عند هذا الحدّ، بل أرسل جيشاً قوياً لمساعدة عليّ بن الفضل سنة تسع وتسعين ومئتين حين أحيط به في مخاليف البيض[7] في تهامة. وكان من أثر هذه المساعدة أن عاد ابن الفضل سالماً إلى بلاده.

فتوح علي بن الفضل

أما عن اتساع نفوذ عليّ بن الفضل، فقد هجم بجيشه على بلاد ابن

---

(١) افتتاح ٣؛ قرة ورقة ١٢.
(٢) تسمى الآن كحلان تاج الدين.
(٣) تسمى الآن ضلع كوكبان.
(٤) وهو شبام كوكبان.
(٥) عيون ٥/٤١ ـ ٤٢.
(٦) قرة ورقة ١٢.
(٧) وفي رواية: البياض.

أبي العلاء سلطان لحج وأبين، بحجة أن في ذلك جهاداً لأهل المعاصي؛ ووجد أتباعه أن في هذا العمل فرصة لجمع الثروة، فاندفعوا في صفوفه لتحقيق أغراضهم. ثم أن ابن الفضل استغل وجود نزاع بين ابن أبي العلاء وبين كاتبه جعفر ابن إبراهيم المناخي[1] حاكم أبين لسيده. واتفق ابن الفضل وجعفر على قتال ابن أبي العلاء واقتسام الغنائم مناصفة. ودارت الحرب في خنفر[2] وكان النصر في النهاية للحليفين، وغنم ابن الفضل من خزائن ابن أبي العلاء سبعين بدرة[3]. وكان من أثر هذا النصر أن دخل في طاعته قبائل مذحج وغيرها، كما كان هذا النصر خطوة لاشتباكه مع حليفه بالأمس. ذلك لأن علي بن الفضل بعد أن اقتسم الغنائم في حضور العساكر والقبائل، وسلّم أحد الشطرين منها إلى سفير المناخي، قال يخاطب الجمع: «إن جعفراً أرسل إليّ لما بيني وبينه من العهد بقسيمة ما غنمت، وقد أحضرتكم شهوداً على تسليمه إليه، لأني لا رغبة لي في المال، إنما أنا قمت لنصرة الإسلام». ثم قال للسفير: «انصرف إلى صاحبك ليلتك، وقل له يستعد لحربي». وأرسل معه كتاباً إلى المناخي قال فيه: «بلغني ما أنت عليه من ظلم المسلمين، وأخذ أموال الناس بغير حق؛ وأنا قمت لأردّ الحق لأهله، وإن أردت إتمام ما بيني وبينك، فردّ الظلامات إلى أهلها، وادفع لأهل دلال دية ما قطعت من أيديهم»[4]. وذلك أن المناخي كان قد قطع أيدي ثلاث مئة رجل من أهل دلال[5] على حجر بالمذيخرة. وقد يكون ابن الفضل اتخذ هذه الحادثة وسيلة لمحاربة المناخي، أو يكون على حق فيما ادّعاه من انتصار للحق. ومهما يكن من شيء فإن الحرب دارت بين الفريقين. فأظهر ابن الفضل دراية حربية ومعرفة

---

(١) يقول يحيى بن الحسين (أنباء/دار ٢٠): وهو الذي ينسب إليه مخلاف جعفر، وقد ملك جعفر هذا خمسين سنة كما ملك أبوه إبراهيم ثلاثين سنة؛ راجع صفة ١٠٠؛ ولكن ابن الديبع (بغية ورقة ٩) يقول: إن مخلاف جعفر ينسب إلى جعفر مولى ابن زياد؛ كذا ورد في تاريخ ابن المجاور ١/ورقة ٥٤. وهو الآن معروف بالعدين والحبيش.

(٢) صفة ٥٣، مدينة في أبين.

(٣) البدرة بها عشرة آلاف درهم (قرة ورقة ١٢).

(٤) كشف ٢٩.

(٥) دلال بلدة في بعدان من أعمال إب.

فائقة بأساليب الحرب، لأنه على الرغم من هزيمته أول الأمر عاد ليلاً وهزم عدوه شر هزيمة، ودخل المذيخرة سنة أربع وتسعين ومئتين، ثم دخل حصن التعكر، وتتبع جعفر المناخي حتى قتله في وادي نخلة سنة ٢٩٤. فقوي بذلك مركز ابن الفضل كثيراً. فاتجه بأتباعه إلى بلاد يَحْصُب[١]، فدخل مَنْكَث[٢] وأحرقها ثم هجم على صنعاء، ودخلها لأول مرّة من ناحية الشهابيين[٣]، وذلك في سنة ثلاث وتسعين ومئتين[٤]. وقد حاول أسعد بن أبي يعفر مراراً استرجاع صنعاء، وبقيت المدينة مكان تجاذب، حتى استقر له الأمر فيها سنة تسع وتسعين ومئتين[٥]. ولم يقف طموح ابن الفضل عند هذا الحد، بل استمر في فتوحاته، حتى دان له معظم تهامة بعد أن استولى على زبيد، وقتل واليها المظفر بن حاج، الذي فقدت بغداد بقتله أكبر ممثل لها في اليمن.

ثقة المهدي بمنصور اليمن

استمر السفيران يعملان في أول الأمر لهدف واحد، وهو بناء دولة المهدي، حتى أصبح الجزء الأكبر من اليمن خاضعاً لنفوذهما. وتمكن منصور اليمن، كما يقول برنارد لويس[٦]، «عن طريق الدعوة، ولأول مرة، من تكوين دولة إسماعيلية في اليمن». وسر الإمام كثيراً عندما وردت إليه الهدايا من اليمن، وقال لابنه: «هذه أول ثمرة أيامك، وبركة دولتك»، وتمثل بقول الشاعر:

الله أعطاك التي لا فَوْقَها   وكم أرادوا مَنْعها وعَوْقها

(١) نشوان: شمس العلوم ٤٩، ٩٣؛ والآن تعرف باسم يحصب العليا ويحصب السفلى. وهي قريبة من ظفار حمير، وفيها آثار الحميريين. والقرية معروفة بكرم أهلها، ولا يزال يسكنها جماعة من آل الصليحي.

(٢) وهي مدينة السخطيين (صفة ٥٥).

(٣) ينسبون إلى شهاب بن عاقل بن قضاعة (شمس العلوم ٥٨).

(٤) أنباء / ماضي ٤٤ - ٤٥.

(٥) سلوك / كاي ١٤٥؛ ولقد اختلف المؤرخون في أمر استيلاء ابن الفضل على صنعاء. فقال صاحب الأنباء/ماضي ٤٤ إن هذا الاستيلاء تم سنة ٢٩٣. وقال الجندي (سلوك/كاي ١٤٥): إن ابن الفضل استولى على صنعاء سنة ٢٩٩. ونرى أن ليس هناك تناقض في هذا لأن ابن الفضل دخل صنعاء سنة ٢٩٣، ولكن لم يستقر أمره نهائياً فيها إلّا بعد سنة ٢٩٩.

(٦) B. Lewis: Orgins of Ismailism ص ٩٥.

عنـك، ويـأبى الله إلا سَـوْقهـا   إليك حتى طوَّقـوك، طوقهـا[1]

ولثقة رؤساء الدعوة بأبي القاسم لقبوه بالمنصور، وشبهوه بفجر الدعوة الذي مهد لشمسها بالظهور، فقالوا فيه: «كان أبو القاسم بمثابة الفجر المتنفس، وبه كشف الله عزّ وجل عن الأولياء الغمة، وأنار حنادس الظلمة»[2].

ويدلنا على مبلغ ثقتهم به أنهم كلفوه إرسال الدعاة إلى الجهات المختلفة، لأنه ليس من المعقول أن يقوم أبو القاسم من تلقاء نفسه بهذا الأمـر. فبعث ابن أخيـه الهيثم داعياً .إلى السنـد حيث استجاب إليـه الكثـير من أهلهـا[3]، وأرسـل أبـا محمـد عبـد الله بن العبـاس داعيـاً إلى مصـر[4]، ووزع الـدعـاة في سـائر البلدان بـاليمن، وإلى اليمامـة والبحرين[5]، والسنـد والهند، ومصـر والمغرب[6]. ولما أرسل الإمام داعيه أبا عبد الله الشيعيّ الصنعانيّ[7] إلى منصور اليمن، قال له: «امتثل سيرته، وانظر إلى مخارج أعماله، ومجاري أفعاله، فاحتذها، وامتثلها، فاعمل عليها»[8]. فأقام عنده يشهد مجالسه، ويخرج معه في غزواته، لا يفارقه، حتى بعثه إلى أرض المغرب[9]، وأرسل معه ابن أبي الملاحف الذي ما لبث أن عاد لمرض والدته، فسير مكانه إبراهيم بن إسحق الزبيدي[10] وكان أبو القاسم قد أرسل الداعيين الحلواني وأبا سفيان إلى بلاد المغرب من قبل. وكان هؤلاء الدعاة، كما يقول العينيّ[11]، يدعون إلى محمد الحبيب والد عبيد الله، وكان يسمى الهادي[12]، وكان بسلمية. ولما علم أبو القاسم بوفاتهما (أي الحلواني وأبي سفيان)

---

(1) افتتاح ١٨.   (٣) افتتاح ١٨؛ عيون ٥/٣٨.

(2) الخطاب: غاية المواليد ٤٨، ٤٩.   (٤) عيون ٥/٣٨.

(5) وجه أبو القاسم نظره إلى اليمامة، وذلك بسبب قيام دولة بني الأخيضر العلوية (ابن حزم: أنساب العرب ٤٨)، واعتقد أن أهلها سيرحبون بالعودة الفاطمية، لذلك بعث إليها الدعاة لنشر الدعوة الفاطمية (القلقشندي: صبح الأعشى ١/١١٩ - ١٢).   (٦) افتتاح ١٩.

(7) واسمه الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا، وكان ذا علم وعقل ودين وورع وأمانة ونزاهة (افتتاح ٣٢).

(8) افتتاح ٣٢؛ المنصوري: زبدة الفكرة ٥/١٥٤.

(9) افتتاح ٣٢؛ الخطاب: غاية المواليد ٤٩؛ عيون ٥/٤٢.

(10) عيون ٥/٥١. (١١) عقد الجمان ١٣/١٥٣. (١٢) انظر الباب الأول، ص ١٤، هامش رقم ٤.

قال لأبي عبد الله الشيعي: «إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلوانيّ وأبو سفيان، وقد ماتا، وليس لها غيرك، فبادر، فإنها موطأة ممهدة لك»[1].

وكان المنصور دعامة من دعائم الفاطميين، بل كان «ملكاً مسدداً»، كما وصفه الـجَنديّ[2]، أو قل: إنَّ تأسيس الدولة الفاطمية قام على أكتافه، ثم خلق من اليمن مستودعاً من مستودعات الدعوة الفاطمية.

سبب امتناع المهدي عن قصد اليمن

لهذا كله استقر رأي الإمام على أن تكون هجرته إلى اليمن، ويقول جعفر الحاجب[3]، وكان في صحبة المهديّ حين فراره من سلمية: «وأمرنا المهديّ بأخذ أهبة السفر والخروج معه، وأظهر لنا أنه يريد اليمن». ويؤكد القاضي النعمان المغربيّ[4] أن المهديّ لما وصل إلى مصر كان يأمل أن يقصد اليمن، وأن الذين صحبوه كانوا جميعاً على هذا الاعتقاد، وأن الداعي منصور اليمن أكد لليمنيين أن المهدي سيظهر في بلادهم. ولم يثنه عن عزمه إلّا انحراف علي بن الفضل الـجَدَنيّ عن الدعوة الفاطمية[5]. من ذلك نرى أن الإمام كان يرغب في الذهاب إلى اليمن رغبة أكيدة، ولكن ما قاله ابن الأثير[6] من أنه لما شاع خبره عند الناس أيام المكتفي العباسي (٢٨٩ ـ ٢٩٥) فهرب هو وولده أبو القاسم نزار، وخرج معه خاصته ومواليه يريد المغرب، وما قاله الـجَنَدي[7] من أن الإمام لما بلغه نجاح أبي القاسم في نشر دعوة المهديّ في اليمن قال: «هذه دولتك قد قامت لكن لا أحب ظهورها إلّا من المغرب»، يبعد عن الحقيقة، لأنه من المحتمل أن يكون السبب الذي دفع الإمام لتغيير رأيه يرجع إلى ما بلغه من أبي القاسم من أخبار انحراف علي بن الفضل ـ لا الاستقلال علناً ـ عن الدعوة الفاطمية.

---

(١) المنصوري: زبدة الفكر ١٥٤/٥.

(٢) سلوك / كاي ١٤٣.

(٣) سيرة جعفر الحاجب ١١٠؛ عيون ١٢٨/٥.

(٤) افتتاح ١٣٧، ١٣٨.

(٥) نفسه ١٣٨؛ كشف ٢٣؛ اتعاظ ٦٩.

(٦) الكامل ١٢/٨.

(٧) سلوك / كاي ١٤٢.

وإننا نعتقد أن أبا القاسم بصفته رئيس الدعوة في اليمن كان دائم الاتصال بالإمام، وأنه كان يبعث له بتقارير عن أحوال الدعوة والمستجيبين من حين إلى حين. ولا بدَّ من أنه أخبر الإمام بما وجد في ابن الفضل من إهمال في أداء واجباته، وميله إلى الاستقلال، وعدم امتثاله لأوامره (أبي القاسم). وحدث هذا الانحراف عن جادة الدعوة قبل وصول الإمام إلى مصر، مما جعله لا يرحب كثيراً بفكرة إقامة الدولة الفاطمية المنشودة في اليمن. ومن المحتمل أن يكون المهدي قد غير وجهة نظره بعد وصوله إلى مصر، لأنه يعلم أن العباسيين كانوا جادين في طلبه، وأنهم أرسلوا عيونهم إلى كل الجهات التي يحتمل أن يكون المهدي قد هرب إليها، وبخاصة إلى اليمن التي فشا خبر احتمال ذهاب المهدي إليها، كما لا يبعد أن يكون ما جاء في رواية سيرة جعفر الحاجب[1] عن الداعي ابن العباس، له الأثر في امتناع المهديّ عن قصد اليمن، فقد قال ابن العباس للنوشريّ[2] عامل العباسيين على مصر حين سأله عن حقيقة المهديّ المختفي عنده: «أما الرجل النازل عليَّ فوالله لا وصل إليه شيء إلَّا ما يصل إليَّ، لأنه رجل هاشميّ شريف، تاجر من وجوه التجار، معروف بالفضل والعلم واليسار، والذي أتى الرسول في طلبه قد أعطيت خبره أنه توجه إلى اليمن قبل ورود هذا الرسول بمدة طويلة». أما ما قاله الحماديّ[3] والقاضي النعمان[4] والمقريزيّ[5] من أنه لم يثنه عن عزمه في الذهاب إلى اليمن إلَّا خروج ابن الفضل، فإننا نقول: إنَّ ابن الفضل مال إلى الاستقلال قبل قيام الإمام برحلته، ولكن خروجه كان بعد فرار فيروز[6] إلى اليمن. فقوى في ابن الفضل هذه

(١) سيرة جعفر الحاجب ١١٣؛ عيون ١٢٧/٥.

(٢) عيسى النوشري، أول وال ولي على مصر من قبل العباسيين بعد زوال الدولة الطولونية، وكانت مدة ولايته عليها خمس سنين وشهرين ونصف (٢٩٢ - ٢٩٧) (الكندي: الولاة ٢٥٨ - ٢٦٧؛ المقريزي: خطط ١٢٤/٢ - ١٢٥؛ اتعاظ ٣١ هامش رقم ٢).

(٣) كشف ٢٣.

(٤) افتتاح ١٣٨.

(٥) اتعاظ ٦٩.

(٦) وهو داعي دعاة المهدي وباب أبوابه، وقد أحزنه مسير المهدي إلى المغرب، فقال الإمام: عجبت لرجلين من شيعتنا: أحدهما تغمه مفارقتنا، والآخر تغمه صحبتنا! وذلك أن الداعي أبا علي المقيم بمصر رغب في الذهاب مع الإمام، ولكن الإمام طلب منه البقاء في مصر إلى أن يتهيأ قدومه (عيون ١٢٨/٥ - ١٢٩).

النزعة الاستقلالية، وفي ذلك يقول إدريس[1]: «إن فيروز أحزنه مسير الإمام إلى الغرب، واستبعد المسافة فتخلف بمصر؛ ثم سار إلى اليمن، فوصل إلى داعي اليمن أبي القاسم، الذي أحسن لقاءه وأكرم مثواه لما كان يعرف له من القرب من الأئمة. . .، ثم أن فيروزاً أراد أن يضله ويغويه فوجد نيته في ولاء الأئمة قوية. . . فلما لم يجد منه حيلة توجه إلى علي بن الفضل، فوجد منه مراده، واستفزهما الشيطان، وصارا من أهل الطغيان والضلال، وخرجا من جملة أهل الإيمان؛ فظفر منصور اليمن بفيروز فقتله، وحارب علي بن الفضل». ولسنا نشك في أن هذا حدث بعد وصول المهديّ إلى بلاد المغرب، ويدل على ذلك ما قاله جعفر الحاجب[2]: «خرج المهدي من مصر، وخالفه فيروز قبل خروجه منها، ومضى إلى اليمن».

التقاصن على ابن الفضل

أما عن علاقة علي بن الفضل بالفاطميين فإنه لما استقر باليمن، ظل على ولائه للإمام مدة، أظهر فيها التقشف والورع؛ ويدلنا على ذلك ما قاله الحمادي[3]: «أخذ بالنسك والعبادة، فكان نهاره صائماً وليله قائماً؛ فأنسوا إليه وأحبّوه، ثم إنهم قلدوه أمرهم، وجعلوا حكمهم إليه؛ فسألوه أن ينزل من ذلك الجبل[4] ويسكن بينهم، فقال: لا أفعل هذا، ولست أسكن بين قوم جهال ضلال، إلّا أن يعطوني العهود والمواثيق ألا يشربوا الخمر؛ ففعلوا له ذلك، وأنهم ينكرون المنكر وينكرون على أهل المعاصي بأجمعهم». فحلفوا له على الطاعة، وأن لا يخالفوه بما أمر، فوعدهم خيراً[5]. من هذا نرى أن ابن الفضل ظل مدة في بلاد اليمن على ولائه للفاطميين. وهذه المدة لا تقل عن عشرين سنة إذا علمنا أنه وصل إليها سنة ٢٦٨، وأن خروجه علناً لم يكن إلّا بعد أن استولى على المذيخرة سنة ٢٩٤، فأعجبته وأظهر بها مذهبه، وجعلها مقر ملكه. واتهم المؤرخون ابن الفضل بأنه أحل لأصحابه شرب الخمر ونكاح البنات والأخوات[6]، كما أظهر المجوسية وكفر

---

(١) عيون ١٢٩/٥.
(٢) سيرة جعفر الحاجب ١١٥.
(٣) كشف ٢٩.
(٤) سرو يافع وهو ناحية باليمن أرضها جبلية منيعة (كشف ٢٨).
(٥) سلوك / كاي ١٤٣.
(٦) سلوك / كاي ١٤٣ - ١٤٤.

بما جاء من عند الله عزّ وجلّ[1]، وكان إذا خاطب نوابه استهل كتبه بعبارة: «من باسط الأرض وداحيها، ومزلزل الجبال ومرسيها، علي بن الفضل»[2] ويروى أنه لما دخل الـجَنَد خطب شاعره على منبرها، فقال:

خذي الدُّفَّ، يا هذه! والعبي	وغني هزاريك[3]، ثم اطربي
تولي نبيٌّ بني هاشم	وهذا نبيٌّ بني يعرب
لكل نبي مَضَى شِرْعة	وهذي شرائع هذا النبي
فقد حطَّ عنَّا فروض الصلاة	وحط الصيام، ولم يتعب
ولا تطلبي السعي عند الصفا	ولا زورة القبر في يثرب

وهي قصيدة طويلة[4] تدور حول محرمات الشريعة والاستهانة بها. وإننا نرى أن هذه القصيدة نسبت إلى شاعر من شعراء ابن الفضل، وقد يجوز أن قالها شاعر من الخطابية، كما حكاه نشوان. ولا تفيدنا المصادر التي تحت أيدينا عن حياة ابن الفضل وأمورمملكته إلاَّ أنه استقل من الدعوة الفاطمية، وخرج عن الدين الحنيف. وبالرغم من أنه كان شخصية بارزة، وقائداً بارعاً، وحاكماً ناجحاً، ووطنياً متحمساً، فخوراً بقحطانيته، بالغ المؤرخون في نسبتهم إليه إحلال المحارم وارتكاب الفواحش، ولم يأتوا بأدلة تثبت اتهاماتهم، إلاَّ أنَّ الحمادي[5] ـ ألدّ أعداء الدعوة ـ لم يستطع أن يطمس الحقائق عن سياسته البارعة في السلم والحرب، وعن شهامته وإقدامه، وإيفائه العهود والمواثيق، وحمايته المظلومين، ونصرته لمبادىء الإسلام ولم يستطع أبو القاسم

(١) أرندونك De Opkomst ص ٣٠٢ نقلاً عن سيرة الهادي لعلي بن محمد بن عبد الله العباسي العلوي (مخطوط بالمتحف البريطاني رقم Or. 3901) ويعتبر هذا الكتاب من الوثائق التاريخية نظراً لأن مؤلفه كان معاصراً للهادي يحيى بن الحسين. وقد أخذنا بعض هذه المعلومات من أرندونك مقدمة (ص ١١، ١٢).

(٢) سلوك / كاي ١٤٨.

(٣) الهزار: العندليب.

(٤) جاء بعضها في كشف ٣١؛ سلوك/كاي ١٤٤؛ وقال نشوان الحميري (حور ١٩٩): وغالب الظن أن قائل هذه الأبيات من الخطابية. وهذا يدل على اختلاف الرأي فيمن قال هذه الأبيات. ويرجح نشوان أن الشاعر كان من الخطابية؛ ثم نسبت الأبيات إلى شاعر من شعراء علي بن الفضل.

(٥) كشف ٢٩.

منصور اليمن أن يعزله ويطرده عن الدعوة، وهو يعلم علم اليقين ميول ابن الفضل الاستقلالية، بل ساعده في حروبه، وهنأه على انتصاراته، إلى أن أعلن ابن الفضل نفسه ثورته وخروجه عن الدعوة. ولا نتصور أن المجتمع اليمني يقبل رياسة ابن الفضل لمدة عشرين سنة بل أكثر، لو كان ارتكب في أواخر عهده، ما نسب إليه من الفواحش طوال هذه المدة. وقد يجوز أنه بالغ في يمنيته، وتطرف في قحطانيته حتى تعدى حدود الإسلام، كما فعل أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني بعده بقليل. فلذلك قيل أنه لما عاد إلى المذيخرة عاصمة ملكه، ورأى أنه أضحى سيد اليمن، عمل على التخلص من جميع المذاهب وقيودها، فنادى بقطع الحج، وقال: «حجُّوا إلى الـحَرْف، واعتمروا إلى الثلاث». (والثلاث حصن قريب من الـحَرْف).

براءة الدعوة مما قام به ابن الفضل

فإن ابن الفضل بعد هذا، في رأي الدعوة[1]، «قد نكث عهده، واستهواه الشيطان وأضله، ففارق الدعوة وخرج من الملة.. وافترى على الله وعلى أوليائه، مقتدياً بالمضلين من قبله، فكانوا له شر أسوة، واستمال الـجُّهال، فكانوا له من الأنصار والأتباع، فارتكب المحارم، ومال إلى الإباحات، أو كفر بعد إيمانه، وباء بلعنة الله».

ولا يمكننا أن ننسب ما قام به ابن الفضل إلى زميله منصور اليمن، الذي ظل على ولائه للفاطميين حتى وفاته، وكان دائم الاتصال بهم في جميع المناسبات، فظل متمسكاً بالدعوة، ولكن نسب ما قام ابن الفضل به في أواخر عهده إلى الدعوة، وهي بريئة منه كما قال الداعي إدريس[2]: «وعجباً لمن ينسب إلى أهل الدعوة من أتباع الأئمة أفعاله، وهم إلى الله وإلى أوليائه منه براء، ولا يفعلون ما يفعل، ولا يرون ما يرى، قائمون بالأعمال الشرعية من الطهارات والصوم، مؤتون الزكاة، حاجون بيت الله الحرام، متولون محمداً ﷺ وعلياً وصيه والأئمة من ذريته عليهم السلام،

---

(١) عيون ٤٣/٥.
(٢) نفسه ٤٤/٥ ـ ٤٥.

مجاهدون في سبيل الله، مجتهدون، موفون في أعمالهم وأقوالهم، مجانبون لما حرمت الشريعة الغراء، ملازمون لما فرض نبي الله محمد خير البرية...، وهم إلى الله بريئون من ابن الفضل في دائم الأحقاب والسنين، يلعنونه مع اللاعنين؛ والدين الذي ندين به هو العمل بما أتى به رسول الله ﷺ وفرضه على المسلمين من الفرائض، ولا نستحل شيئاً مما حرمه الله... ونحن أكثر الناس بحمد الله قياماً بفرائض الإسلام... حلالنا من كتاب الله وحرامنا، لا نأتي ببدعة» هذا ما قاله الداعي إدريس رئيس الدعوة في أيامه، فهو من غير شك دليل واضح على أن دعوة اليمن تعتبر ابن الفضل خارجاً على الإسلام. وليس من العدل أن يتهم المؤرخون[1] طائفة كبيرة من المسلمين بالخروج على الإسلام، لأن فرداً شاذاً قد مال إلى التطرف في ظروف سياسية خاصة أو قد يكون حاد عن سواء السبيل.

ظل ابن الفضل السياسي ينافق منصور اليمن ويخادعه، ويقول له: «إنما أنا سيف من أسيافك»، والمنصور يهابه ويخافه على نفسه، لما يرى من شهامته وإقدامه[2] وتمشياً مع هذه السياسة أظهر المنصور فرحه، لما فتح ابن الفضل صنعاء سنة تسع وتسعين ومئتين، واجتمعا وتشاورا في فتوحهما. وكان المنصور حذراً، وكان يرى أن وقف الحرب فيه مصلحة كبيرة لهما، لأن نفوذهما في البلاد التي فتحت لم يكن قد ثبت. وكان يخاف أن يدخل في حرب جديدة فتكون النتيجة خروج البلاد التي فتحت من تحت أيديهم. فقال لصاحبه: «قد ملكنا اليمن بأسره، ولم يبقَ لنا إلّا القليل، فعليك بالتأني والوقوف بصنعاء سنة وأنا بشبام، فيصلح كل واحد ما استفتح، وبعد ذلك يكون لنا نظر، فإنك إن خرجت من صنعاء خالف أهلها وفسد علينا ما ملكنا»[3]. ولكن ابن الفضل حارب مخاليف البياض بتهامة، وكاد يقع لقمة

(١) لا نتوقع العدل والإنصاف من أمثال ابن مالك الحمادي لأن كلامه عن هذه الطائفة موتور من أوله إلى آخره؛ والدليل على ذلك أنه يتهم أبا القاسم منصور اليمن ومن بعده الصليحي بارتكاب الفواحش وإحلال ما حرم الله. ومع هذا، فقد وجدنا بعض المعلومات المفيدة التي استقيناها من حديثه الموتور. وأما الجندي فمرجعه ابن مالك ويفوق أستاذه في عدائه الشديد.
(٢) كشف ٣٢.

سائغة في أيدي أعدائه، لولا ما قدمه منصور اليمن له من مساعدة كما سبق أن ذكرنا ذلك.

الصراع بين أبي القاسم وابن الفضل

ولما تمكن نفوذ ابن الفضل وأضحى سيد اليمن أعرب عما يجيش في نفسه من رغبة ملحة في تكوين دولة يمنية مستقلة عن العباسيين والفاطميين، كما فعل أبو سعيد الـجَنَّابي[1] الذي كون دولة مستقلة بالبحرين، وكتب إلى أبي القاسم منصور اليمن قائلاً: «إن لي بأبي سعيد الجنابي أسوة، وأنت إن لم تنزل إليَّ وتدخل في طاعتي، نابذتك الحرب»[2]. فكتب إليه منصور اليمن يعاتبه، ويذكره بالعهود والمواثيق التي أخذها عليه رؤساؤه، كما ذكره أيضاً بخطر التفكك، كيلا يتلاشى أمر الدعوة باليمن؛ وقال في كتابه: «كيف تخلع طاعة من لم تر خيراً إلاَّ ببركة الدعاء إليه، وقد أعطينا من العهود ما قد علمته»[3]. لكن ابن الفضل أجابه بقوله: «إنما هذه الدنيا شاة، ومن ظفر بها افترسها»[4]. وتابع منصور اليمن الرسل إلى ابن الفضل يعظه ويذكره وينهاه، ولكن هذا ما لبث أن تمادى في إنكاره، وتناهى في إصراره[5]. وكان معنى ذلك بدء الصراع بين الداعيين في اليمن، أو بعبارة أخرى بدء الصراع بين أهل الدعوة أنفسهم، الموالين للفاطميين والخارجين عليهم، كما كان معنى ذلك أن يستعد أبو القاسم، فحصّن بلاده ولا سيما جبل مسور، وعوَّل على أن يلاقي الصدمة وحده، لأن الخليفة المهدي لم يكن قادراً في هذه الأثناء على إرسال أي مساعدة، وقامت الحرب بين الداعيين سنة تسع وتسعين ومئتين.

فاستولى منصور اليمن على شبام حمير، وحاصر مدينة الظَّلمة حيث كان ابن الفضل وأتباعه، وقطع الميرة عنهم حتى أصابهم الجوع الشديد، فأكلوا لحم

---

(١) كان ظهوره سنة ٢٨٦، وقتل سنة ٣٠١ (ابن الأثير: الكامل ٦٣/٨). والجنابي نسبة إلى جنابة، وهي بلدة على الخليج الفارسي (ياقوت: البلدان).

(٢) سلوك / كاي ١٤٦.

(٣) أنباء / ماضي ٥٤.

(٤) كشف: ٣٣.

(٥) عيون ٤٧/٥.

الحمير والجلود، وأخذ يتبعهم من مكان إلى مكان، كما رواه الداعي إدريس[١]. وكان بينهما بعد ذلك وقائع كثيرة وقتال شديد في أيام كثيرة، وحمى المنصور المغرب من ابن الفضل بفضل هذه الحروب.

ثم قوي أمر ابن الفضل وملك صنعاء[٢]، فتمكن هذا في النهاية من محاصرة المنصور ثمانية أشهر حتى ملّ المقام. فلما علم بذلك المنصور طلب الصلح، فقال ابن الفضل: «لست أبرح، وقد علم أهل اليمن قصدي لمحاصرته، إلاّ أن يرسل إليّ بعض ولده، فيكون ذلك لي مخرجاً عند الناس، ويعلمون أنه قد دخل في طاعتي». فأرسل إليه ولده، ودفعه بالتي هي أحسن. فرجع ابن الفضل إلى المذيخرة، وأقام عنده ولد المنصور سنة، ثم ردّه إلى أبيه. هذا ما رواه الحمادي[٣]، وأيده في ذلك الجندي[٤] ببعض الاختلاف.

ومهما يكن من أمر، فإن هذا الصلح لم يقض على النزاع بين الطرفين، بل زادت هوّة الخلاف اتساعاً بين أتباع الدعوة في اليمن، ومن ثم أصبح الجميع هدفاً لهجمات المنافسين في الحكم.

موت علي بن الفضل

من ذلك نستطيع أن نقول أن ابن الفضل إنما خرج عن طاعة منصور اليمن مدفوعاً بتأثير داعي الدعاة فيروز، ثم بميله هو إلى الرياسة والزعامة ليستقل باليمن، ولكنه لم يتمكن من التغلب على أعدائه والانفراد بالزعامة. وبذلك لم تتحقق مطامعه، بل أخفق في تكوين دولة ثابتة الأركان. وظل كذلك حتى «أمر المهديّ رجلين من أهل دعوته وممن في حضرته، حتى وصلا مدينة صنعاء، ودخل أحدهما على ابن الفضل مدّعياً بأنه طبيب، ففصده وسمّه، وخرج من عنده، وبادر بالهرب هو وصاحبه، ومات ابن الفضل»[٥]. هذه رواية الداعي إدريس، ولكن الحمادي قال[٦]: «إن سبب موت ابن الفضل أن رجلاً من أهل بغداد يقال إنه شريف

---

(١) عيون ٥/٤٧.
(٢) نفسه ٥/٤٨.
(٣) كشف ٣٥ - ٣٦.
(٤) سلوك / كاي ١٤٦.
(٥) عيون ٥/٤٩.
(٦) كشف ٣٦ - ٣٧.

وصل إلى الأمير أسعد أبي بن يعفر. وقال للأمير: «تعاهدني وأعاهدك أني إذا قتلت هذا القرمطي كنت معك شريكاً فيما يصل إليك» فعاهده على ذلك، وكان طبيباً حاذقاً؛ فخرج إلى المذيخرة، فكان مع كبار أهل دولة القرمطي يفتح لهم العروق ويسقيهم الدواء ويعطيهم المعجونات، حتى وصفوه للقرمطيّ، بالحذق بالطب وفتح العروق، وقالوا: إن مثلك لا يستغنى أن يكون في حضرتك مثله. ثم إنه احتاج إلى إخراج الدم، فأمره أن يفصده. فعمد إلى السم فجعله على شعر رأسه. فدخل على القرمطي فسلم عليه. فأمره أن ينزع ثيابه ويلبس غيرها. ثم أخرج المبضع ثم مصّه وعلي ابن الفضل ينظر إليه. ثم مسحه برأسه فتعلق به من السم حاجته. ثم قصده وخرج من ساعته، فركب دابته ومضى هارباً. فلما أحسّ عدوّ الله بالموت أمر بقتل الطبيب، فلم يوجد، فلحقوا به دون نقيل صيد[1] بإزاء قينان[2] فقتلوه». وقد كرر هذه الرواية الـجَندي، وزاد فيها فقال: «إن وفاته كانت ليلة الخميس منتصف ربيع الآخر سنة ٣٠٣»[3]. فنستدلّ من الروايتين أن كلاًّ من الفاطميين والعباسيين ينسبون إلى أنفسهم فضل إبادة ابن الفضل ودولته.

وعلى الرغم من أن المصادر التي في أيدينا قد أجمعت على أن ابن الفضل اغتيل سنة ٣٠٣[4]، وأن وفاة منصور اليمن كانت سنة ٣٠٢[5]، إلاّ أننا نستبعد صحة هذه التواريخ؛ وقد يكون العكس أصحّ، لأن ابن الفضل، كما سبق أن ذكرنا، كانت قوته ظاهرة وسلطته كبيرة، وأن وفاة منصور قبله، واختلاف أهل بيته وأتباعه فيما بينهم، كان فيه فرصة كبيرة لابن الفضل أن يستولي على كل ما كان تحت يد منصور؛ ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، مما يجعلنا نشك في أن تكون وفاة منصور اليمن حدثت قبل وفاة علي بن الفضل، ويبرهن على إمكان

---

(١) معروف الآن باسم نقيل سماره.

(٢) تقع بوادي السحول.

(٣) سلوك / كاي ١٤٩.

(٤) كشف ٣٦؛ سلوك / كاي ١٤٩؛ أنباء / ماضي ٦٢.

(٥) كشف ٢٨؛ سلوك / كاي ١٥٠.

ما ذهبنا إليه ما قاله صاحب العيون[1] من أن «الداعي أبي القاسم استقر أمره بعد قتل هذا اللعين».

انتهاء الدولة الفاطمية الأولى باليمن

ومهما يكن من شيء، فإن ابن الفضل قد حفر قبره بيده، بسبب ثورته على رئيسه أبي القاسم. وقال الحمادي[2] «فبعد موته تولى بعده ابنه الفأفأ. فزحف الحوالي بالعسكر لحرب القرامطة، فدخل التعكر، ثم تقدم إلى جبل التومار... ثم نصب المنجنيقات على المذيخرة فهدمها سنة ٣٠٤، ودخل على القرامطة فقتلهم، وأخذ من الغنائم ما لا يُحصى، وسبى بنات القرمطيّ وكن ثلاثاً، واصطفى أسعد منهن واحدة، (اسمها معاذة)[3]، وهبها لابن أخيه قحطان، فولدت له عبد الله» وعبد الله بن قحطان هذا قام بالدعوة الفاطمية كما سنذكر في الباب التالي. وظل أبو حسان أسعد بن أبي يعفر يتتبع أنصار ابن الفضل في كل البلاد، ويقتلهم حيثما وجدوا، ثم رجع إلى صنعاء، وفي ذلك قال نشوان الحميري[4]: «فلما مات علي بن الفضل خرج الأمير أسعد بن أبي يعفر الحوالي من صنعاء في رجب سنة ثلاث وثلاثين مئة، وحارب القرامطة ودخل المذيخرة سنة ٣٠٤، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وأخذ أموالاً يقصر عنها الوصف، وسبى نساء ابن الفضل، فوهب ابنته لابن أخيه قحطان بن عبد الله ابن يعفر، فولدت له عبد الله بن قحطان أمير اليمن، وأخذ ولدين لعلي بن الفضل وجماعة من رؤساء القرامطة معه إلى صنعاء، وأمر بهم فذبحوا جميعاً، وطرحت أبدانهم في بئر في الجبانة، وأخذت رؤوسهم فبقرت، ووجه بها في أربعة صناديق إلى مكة، فنصبت هنالك أيام الموسم».

وأمّا منصور اليمن فبقي إلى آخر حياته أميناً في مهمته، وأنه ظل على ولائه للفاطميين. ومما لا شك فيه أن حركة ابن الفضل قد أثرت كثيراً على أتباع الدعوة، فأضعفت مركزها ونفوذها، واضطر المنصور إزاء ذلك إلى الالتجاء إلى مسور وغيرها من الأماكن الحصينة البعيدة عن العدوّ إلى التستر وكتمان أمره حتى وافته المنية، بعد أن قدم دليلاً آخر على صدق إخلاصه وولائه للإمام الفاطمي، فترك إليه أمر الدعوة باليمن كما سيأتي ذكره في الباب التالي.

---

(١) عيون ٥/٥٠. (٢) كشف ٣٨. (٣) الزيادة من سلوك / كاي ١٤٩ ـ ١٥٠. (٤) حور ٢٠٠.

الباب الثالث
الدعاة بعد منصور اليمن حتى ظهور الصليحي
(٣٠٣ - ٤٣٩)

وصية منصور اليمن لابنه الحسن وخصيصه الشاوري

كانت ثورة ابن الفضل على الدعوة من أهم العوامل التي أدت إلى ضعف الحركة الفاطمية في بلاد اليمن، لأن أعداء الدعوة انتهزوا هذه الفرصة وحملوا على كل أنصار الدعوة حملة شعواء؛ وزاد الحالة تعقداً خروج الحسن بن أبي القاسم منصور اليمن على الدعوة، لأن سياسة الخليفة المهدي الفاطمي في اليمن كانت ترمي إلى توجيه الدعوة باليمن لمركز الدولة الفاطمية القويّ، ولم تعترف بوراثة الملك لبيت أبي القاسم، الذي أخلص مؤسسه للمهدي وللأئمة من قبله إخلاصاً جعله موضع إعجاب الجميع. وقد دلل أبو القاسم على ولائه في كثير من المناسبات سبق أن ذكرناها. وقبيل وفاته ضرب مثلاً آخر على هذا الولاء؛ ذلك أنه لم يعين أحداً من أبنائه لرياسة الدعوة، بل ترك ذلك الباب مفتوحاً للمهدي، واكتفى بأن أشار إلى علو منزلة عبد الله بن عباس الشاوري لديه وتفضيله إياه، ثم أوصى من بعده لابنه الحسن وخصيصه الشاوري، بأن يستمرا في إقامة الدعوة للخليفة الإمام المهدي وأهل بيته، وقال في وصيته: «قد أوصيتكما بمبدأ الأمر فاحفظاه، ولا تقطعا دعوة بني عُبيد بن ميمون، فنحن غرس مّن غرسهم، ولولا ناموسهم وما دعونا به إليهم ما صار إلينا من الملك ما قد نلناه، ولا تم لنا في الرياسة حال، فعليكما بمكاتبة القائم منهم واستيراد الأمر منهم، فأوصيكما بطاعة المهدي (يعني عُبيد الله بن ميمون) حتى يرد أمره بولاية أحدكما، ويكون كل واحد منكما عوناً لصاحبه». هذا ما رواه الحمادي[1]، وزاد الـجَندي[2] فقال: «. . . فإن هذا الأمر لم آخذه بكثرة مال ولا رجال، ولم آت هذه البلاد إلا بُغْضاً، وبلغت ما لم يخف ببركة المهدي الذي بشر به النبي محمد ﷺ».

(١) كشف ٣٩.

(٢) سلوك / كاي ١٥٠.

قيام عبد الله بن عباس بأمر الدعوة

ولما توفي المنصور، وكان الشاوري قائماً بشئون الدعوة في اليمن، أسرع فأرسل إلى المهدي في بلاد المغرب يخبره بوفاة منصور اليمن، كما أخبره بأنه يقوم بأمر الدعوة له خير قيام، ويسأله عمّن يقلده هذا الأمر[1]. وفي الوقت نفسه كان الحسن بن منصور اليمن يرى أن من حقه أن يخلف أباه في تولّي هذا الأمر. فلذلك وصل إلى بلاد المغرب، وقابل المهدي وطلب إليه توليته بعد أبيه، غير أنّ المهدي كان قبيل قدومه عليه قد أقرّ عبد الله بن عبّاس الشاوري في القيام بأمر الدعوة، وبعث له بسبع رايات. فعاد الحسن إلى اليمن دون أن تتحقق رغبته[2] وإننا نستبعد ما قاله الـجَندي[3] من أن الشاوريّ أرسل كتابه إلى المهدي مع أحد أبناء المنصور[4]، لأن هذا يدلّ على سذاجة الشاوريّ وعدم حيطته؛ ولعل ما قاله الحمّادي أقرب إلى الصواب.

سياسة المهدي في تعيين الشاوري

وفي الحق أن السياسة التي سار عليها المهدي في بلاد اليمن تختلف عن السياسة التي سار عليها مع قرامطة البحرين. فقد عزل سعيداً وولّى أبا طاهر بدلاً منه، وكلاهما من بيت أبي سعيد مؤسس دولة القرامطة في البحرين. وبذلك التف القرامطة جميعاً حول أبي طاهر حليف المهدي، وعزّ على أخيه سعيد المعزول أن يثور حتى لا يهدم بيته بيده. أما هنا في اليمن فإن عَزْل أفراد بيت المنصور الذي اجتهد في خدمة الدعوة الفاطمية منذ أن استقرت فيها، قد وضع الأمر في يد غيرهم، وحزّ ذلك في نفوس كثير منهم، فلم يهدأوا أو يستكينوا لهذه السياسة[5]، ونسوا أن الشاوري كان من أحق الدعاة عند منصور اليمن وأخلصهم، ونسوا أيْضاً أن الدعوة ليست ميراثاً، بل كانت إقامة الشاوريّ بأمر الدعوة بناء على رغبة منصور اليمن.

---

(١) كشف ٤٠. (٢) كشف ٤٠. (٣) سلوك / كاي ١٥٠.

(٤) والمقصود به الحسن بن منصور الطامع في الملك.

(٥) حسن إبراهيم: عبيد الله المهدي ٢٣٧.

الشاوري من أجل دعاة منصور اليمن

ومهما يكن من أمر فإن عبد الله بن عباس الشاوريّ[1] قد تولى أمر الدعوة في اليمن، وكان من أجل الدعاة مع منصور اليمن؛ فقد أرسله، كما قال إدريس[2] إلى مصر، فاستقر فيها مدة هناك معلماً للصبيان وداعياً، فاستجاب لدعوته خلق كثير، ثم عاد إلى اليمن. وزاد الجَندي فقال: «. . وكان من أصحاب المنصور وخصيصاً به، وكان قد أرسله إلى المهدي برسالة وهدية، وصار عند المهدي منه صورة ومعرفة»، مما جعل المهدي لا يتردد في توليته عندما علم بخبر وفاة منصور اليمن.

اغتيال الشاوري

ولكن الحسن بن منصور اليمن لم يرض بتعيين الشاوريّ رئيساً للدعوة، وصار هو وإخوته يواصلونه مداراة، وهو يكرمهم ويجلهم ولا يحجب أحداً منهم، بل يدخلون عليه متى شاءوا، ومع ذلك «فإن الحسن كان يضمر الشر والعداوة والحسد لابن عباس»[3] بسبب اغتصابه أمر الدعوة والدولة منه، ولم يستمع لنصيحة أخيه الحبر التقي جعفر بن منصور اليمن حين قال له: «إن أمرنا إذن يتلاشى، ويزول ملكنا، وتفترق هذه الدعوة، ويذهب الناموس الذي نـمَسْناه على الناس، فلا تحدث نفسك بهلاكه، فتهلك»[4]. فلم يلتفت الحسن إلى قول أخيه وكتم السر في نفسه، حتى دخل على ابن عباس في بعض الغفلات فقتله غَدْراً واستولى على ما بقي من دولة أبيه.

اعتناق الحسن المذهب السني وهلاكه

ولم يكتف الحسن بما فعل، بل نهج سياسة جرّت عليه وعلى بيته ومذهبه النكبات، حين أعلن خروجه على الدعوة واعتناقه المذاهب السنية، وقد ظنَّ أن

---

(١) من شاور، وهم من قدم بن قادم بن زيد بن عريب بن جشم بن حاشد بن جشم بن حيران بن نوف بن همدان.

(٢) عيون ٣٨/٥ ـ ٣٩.

(٣) سلوك / كاي ١٥٠.

(٤) كشف ٤٠.

الأمور قد استقرت له بعد قتل الشاوريّ، فجمع الرعايا من أنحاء بلاده وأشهدهم أنه رجع عما كان عليه أبوه[1]. وكان بلاء أهل الدعوة اليمنية بالحسن عظيماً؛ لأنه تتبع أنصاره بالأمس تتبعاً لا هوادة فيه، فأباد معظمهم وشرَّدهم حتى لم يبقَ حوله إلاَّ من لا يعرف[2].

وفي الحق أن الحسن قد أخطأ بعمله هذا لأنه قضى بذلك على ما بناه أبوه، وخسر قوة كبيرة كانت تدين بالولاء والطاعة لكل الدعاة الذين كانوا يعملون على رفع لواء دعوة المهدي. ولم ينصفه بعد ذلك من طمع في نصرتهم، لأنه أصبح هو وأنصاره الذين خرجوا على الدعوة الفاطمية لقمة سائغة لأمراء المسلمين فقتلوه، وتتبعوا أبناءه وإخوته وغيرهم من الأنصار الذين ظلوا على ولائهم للدعوة، حتى إنه لم يبقَ من أتباع منصور اليمن إلاَّ من استطاع الاستتار.

هجرة جعفر بن منصور اليمن إلى المغرب

وكان من أثر سياسة الحسن الاندفاعية وعدم تقديره لعواقب الأمور، وعدم امتثاله لنصيحة العقلاء من آل بيته أن «فرَّ أخوه جعفر إلى القيروان، فوجد الخليفة المهدي قد توفّي، وقام بعده ابنه القائم سنة ٣٢٢»[3]، وأضاف إدريس فقال: «وانتهى إلى أن بلغ مبلغاً عظيماً عند الأئمة... وبلغ مراتب الأبواب الفائزين بعلوّ الدرجات»[4].

مكانة جعفر عند الأئمة الفاطميين

وقد ورد في سيرة الأستاذ جوذر[5] ما نصه: «وكان محل جعفر بن المنصور صاحب اليمن من الدولة وقربه من مولانا عليه السلام المحل القريب، ومكانه من الأستاذ المكان الأدنى الوكيد في الدين. وكان يسكن داراً بالمنصورية

(١) سلوك / كاي ١٥١؛ أنباء / دار ٣٥ ويقول إن هذا حدث سنة ٣٢١.

(٢) سلوك / كاي ١٥١.

(٣) نفسه ١٥١؛ والصواب أن هجرة جعفر كانت إلى المهدية.

(٤) عيون ٥/٥٠.

(٥) سيرة الأستاذ جوذر / كامل حسين ١٢٦.

بجوار علي بن الجنان، فسأله عليّ بيع الدار فلم يفعل. ثم احتاج إلى أن اقترض دنانير، واسترهنه الدار إلى أجل معلوم. فلما حان الأجل ولم يجد المال طالبه بالخروج من الدار، واتصل ذلك بالأستاذ، فرفع الخبر إلى مولانا عليه السلام، فصرف إليه الجواب، وهو:

«والله، يا جوذر! لقد كثر تعجبنا منه. وذلك أن علياً أوقفنا على الصك المكتوب عليه منذ يومين، فقد جاءنا من ذلك خلاف ما كنا نظن به الرجاحة والكمال، وإنه لمحقوق بما ناله وأضعافه إذ أقام نفسه مقام من يجعل زمانه بيد من لا رحمة له، فإن كان إنما ذهب في طي هذا عنا مذهب التخفيف عنا في المسألة، فمن الواجب كان عليه أن يتصور ما هو فيه، وأن الذي كلفنا الآن أعظم من سؤال الفضل (إذ كنا لا نبخل عليه) بأضعاف هذا المال الملعون، ولا يقيم نفسه مقام الشماتة، لئلا يتصل بالقريب والبعيد أن ولينا وابن أجلّ أوليائنا المسعود برضا الله ورضا مواليه السابق في الخير كل من جاراه، يكون على بابنا، وهو عندنا في أجل الرضا، محوجاً إلى ارتهان مسكنه الذي يجاورنا فيه، ولو كان أحسن مسكن، هذه ورطة نحن نخرجه وننقذه منها. فلا يعد إلى مثلها. فتسلمه إلى حوله وقوته. فقرر عنده ذلك إن شاء الله».

والواقع أن جعفراً بعد ذهابه إلى المهدية ظل على اتصال وثيق بالإمام الخليفة القائم بن المهدي. وقد بلغ الذروة في عهد المعز لدين الله (٣٤١ ـ ٣٦٥)، وصار من أهم رجال الدعوة الذين يشار إليهم بالبنان في الفضل والزُّهد، حتى بزَّ القاضي أبا حنيفة النعمان التميميّ المغربيّ نفسه، الذي كان دعامة من أهم دعائم الفاطميين في القضاء والفقه الفاطميّ، وقد ذكر عنه المعز أنه: «من أتى بعشر عشير ما أتى به النعمان ضمنت له على الله الجنة»[1]. وهذا يدلنا على مركز النعمان وثقة المعز به.

القاضي النعمان أبو حنيفة وجعفر بن منصور اليمن

ويدلنا على ما بلغه جعفر من درجة عالية ومكانة سامية عند الخليفة الإمام

---

(١) عيون ٦/٣٩ ـ ٤٠.

المعز ما قاله إدريس[1]: «من أن القاضي النعمان اعتلّ بعلّة، فزاره جميع الدعاة وأولياء الدولة وقوادها... ولما زالت علته أتى إلى الإمام المعز فسأله عمَّن زاره، فقال: كلهم زارني إلّا جعفر بن منصور، فأخذ أمير المؤمنين في حديثه، ثم أمر بكتب فأحضرت إليه. ففتح كتاباً منها، وقال للنعمان: انظر في هذا الكتاب. فلما تصفحه قال الإمام. ما تقول في هذا؟ قال: ما عسى أن أقول في قولكم؟ فقال الإمام: هذا تأليف مولاك جعفر، إعلاماً له بعالي فضله وبياناً لسامي محله. فلما خرج النعمان... قصد دار جعفر... ولما رأى النعمان جعفراً لم يتمالك أن وقع على رجلَيْه يقبِّلهما اعترافاً له بالفضل».

وقد يتبادر لذهن القارىء لأول وهلة أن مثل هذا قد يبعد عن الحقيقة لما للقاضي النعمان من مركز جليل في الدولة والدعوة، فلا يعقل أن يقبِّل رجلَيْ جعفر. ويخيل إلينا أن القاضي النعمان كانت شهرته تتعلق بعلوم الظاهر، فهو وإن كان قاضي القضاة ومؤلف كتب الفقه الفاطميّ وكتب الأخبار الكثيرة[2]، إلّا أنه لم يكن بعد قد بلغ مرتبة جعفر ودرجته، لأن جعفراً كان يعتبر حجة في علوم التأويل؛ وقد سلك بذلك مسلكاً خاصاً في تطور الآداب الفاطمية التأويلية، مما جعله في نظر المعز سيد العلماء والفقهاء[3].

إبراهيم السباعي يدعي الأمر

وقد استمر ظلم الحسن والمرتدين لأهل الدعوة إلى أن خرج إلى عبر محرم حيث لقي حتفه. وقد ذكر الحمادي[4] أن الحسن[5] خرج من مَسْور إلى

---

(١) نفسه ٦/٣٩.
(٢) انظر الباب التاسع من هذا الكتاب.
(٣) وقد ذكرنا مؤلفاته في الباب التاسع.
(٤) كشف ٤١؛ وقد وردت هذه الحوادث في الجندي ببعض الاختلاف.
(٥) اسمه سلوك / كاي ١٥٠ «الحسن» كما جاء في عيون ٧/١ أنباء/دار ٣٤، ولكن الحمادي يذكر بكنية «أبي الحسن» وفي ذلك تحريف.

عبر محرم[١]، وفيه يومئذ رجل من بني العرْجي[٢]. واستخلف الحسن على مسور رجلاً يقال له إبراهيم بن عبد الحميد السباعي الشيعي[٣] وهو جد المنتاب. فوثب ابن العَرجي على الحسن فقتله[٤]، فلما انتهى الخبر إلى إبراهيم ابن عبد الحميد لزم مسوراً وادَّعى الأمر لنفسه، وأخرج أولاد المنصور وحريمه من مسور إلى جبل بني عشب[٥]؛ فوثب عليه المسلمون من أهل المغرب، فقتلوهم: الصغير منهم والكبير وسبوا حريمهم... واتفق إبراهيم مع ابن العرجي واقتسما المغرب بينهما نصفين لكل واحد منهما ما يليه».

وقد أعلن إبراهيم بعد ذلك للملأ خروجه على الدعوة، وبنى مسجداً في بيت ريب، ونصب منبراً وخطب لبني العباس، وأعاد بعمله هذا ما فقد العباسيون من نفوذ في تلك البلاد منذ أمد طويل. ثم إن إبراهيم لم تأخذه في أهل الدعوة رأفة ولا رحمة، بل ظل، كما قال الحمادي: «يتبع القرامطة، يقتلهم ويسبي ذراريهم».

الداعي ابن أبي الطفَيل

فبقي من أهل الدعوة، قليل في ناحية جبل مسور فقام يوسف بن موسى بن أبي الطفيل بأمر الدعوة بعد وفاة الداعي عبد الله بن عباس الشاوريّ في عهد المعز لدين الله، فسمع به إبراهيم، فخرج إليه فقتله؛ وتفرق مَن بقي من أصحابه إلى نواحي عمان وقطابة، وانكتم أمرهم عن إبراهيم[٦].

(١) رواية سلوك / كاي ١٥١: «عين محرم».

(٢) سلوك /كاي: ١٥١ بني العرجاء سلاطين تلك الناحية. وفي عيون ١/٧: هم من قدم بن قادم بن زيد بن عريب بن جشم بن حاشد بن جشم بن حبران بن نوف بن همدان.

(٣) كشف ٤١؛ كان أبوه من قدم من حمير ورئيس أهل قدم ومن كبار قواد المنصور وقد قتل في مخلاف البياض وجاء اسم أبيه في أنباء/ماضي ٦١، ٦٤ «عبد الحميد بن محمد بن الحجاج المسوري». وفي سلوك/كاي ١٥١ قال: هو جد بني المنتاب الذي إليه ينسب مسور، فيقال: «المنتاب».

(٤) ورد في أنباء / دار ٣٤ أن هذا قد حدث سنة ٣٣٦.

(٥) في سلوك/كاي ١٥١؛ «جبل الحسب»، وصححها «كاي» فقال: «جبل بني أعشب». وفي أنباء/دار ٣٥: «جبل بني عشف»؛ والصواب «جبل بني عشب»، وذلك لأن المكان مشهور ومعروف باليمن الآن بهذا الاسم وهو بالقرب من كحلان عفار.

(٦) عيون ١/٧؛ كشف ١٤١؛ نزهة ٣٣/١؛ وذكر الهمداني قطابة في صفة ٦٩، ١١٢.

وبقيت زعامة الدعوة في اليمن في غير بيت منصور، وذلك لأننا لا نعرف من بقي منهم غير جعفر بن منصور الذي سبق أن تكلمنا عنه[1]. وأمعن مَن بقي من أتباع الدعوة في التخفي والتستر، ويظهر أنهم كانوا على اتصال مستمر بمركز الخلافة الفاطمية وقد قاسوا في هذه المحنة أصناف الاضطهاد من الأعداء.

الدعاة بعد ابن أبي الطفيل

وقام بعد ابن أبي الطفيل جعفر بن أحمد بن عباس[2]. واستخلف بعده الداعي عبد الله بن محمد بن بشر من وادي قطابة من قُدم[3]، وقد أقام هذا الدعوة إلى العزيز بالله[4]. ولما توفي هذا الداعي خلفه في الدعوة محمد بن أحمد بن العباس الشاوري من قُدم[5].

هارون بن محمد بن رحيم

ثم قام هارون بن محمد بن رحيم من قدم بعد ذلك بالدعوة للخليفة الإمام العزيز بالله، ثم لابنه الحاكم بأمر الله، وكان يكاتب الأئمة الفاطميين أولاد المهديّ في القيروان وفي مصر قبل أن يتولى رياسة الدعوة[6]. وقد عثرنا على نص سجل من الخليفة الحاكم إلى الداعي هارون مؤرخ في ذي القعدة سنة **٣٩١**، جاء به صاحب العيون[7]، ومنه تبين أن الخليفة قد عهد إلى داعيه هارون في اليمن بوجوب اتباع سنة رسول الله واتباع ما جاء في كتاب الدعائم للقاضي النعمان المغربي، كما عهد إليه ببعض الأعمال الأخرى. وكان الداعي لا يستقر في مكان واحد خوفاً من المنتاب بن إبراهيم بن عبد الحميد السبحي ومن عامة الناس.

---

(١) قال الحمادي (كشف ٤١): «ولم يبق للمنصور عقب يعرف».

(٢) حاشية العيون ٧/١؛ وفي رواية: يعفر؛ وأغلب الظن أنه ابن أخي الداعي عبد الله بن العباس الشاوري.

(٣) نفسه ٧/٢.

(٤) نفسه ٧/١.

(٥) نفسه ٧/١.

(٦) سلوك /كاي ١٥٢.

(٧) ٦/٢٧١ - ٢٧٢؛ نقلنا نص هذا السجل في الملحق رقم ١.

تأييد الأمير عبد الله بن قحطان للدعوة

وفي أيام الداعي هارون ظهر الأمير عبد الله بن قحطان بن يعفر بصنعاء، فلاقت الدعوة في اليمن وفي أيامه بعض الرواج لأن الأمير عبد الله بن قحطان قد قام بالدعوة للخليفة العزيز في سنة ٢٧٩؛ وبعد أن تم له فتح تهامة دخل زبيد حاضرة بني زياد وأمر بقطع الخطبة للخليفة العباسيّ في البلاد التي دخلت تحت يده، ودعا للخليفة العزيز الفاطمي، واستمر الحال على هذا حتى توفي سنة ٣٨٧ هـ في عهد الخليفة الحاكم. ولعل هذا العمل من قبل عبد الله بن قحطان يعتبر من ناحية من العوامل التي ساعدت الدعوة على أن تستعيد بعض قوتها في اليمن، وبعد ما حاق بها من محن، كما يعتبر من ناحية أخرى من الأسباب التي أدت إلى ضعف النفوذ العباسي إلى حدٍّ ما، ونشاط دعاة الفاطميين، لانصراف أمراء اليمن عن مقاومة هذا النشاط بسبب التنافس والتنازع فيما بينهم. وكان الأمير عبد الله بن قحطان هذا هو ابن معاذة بنت علي بن الفضل الجدَني[1]، فلا يبعد أن يكون هذا الأمير رغب في أن لا يعيد سياسة جده، ويحسن علاقته مع الفاطميين بعد ما رأى ما أدت إليه سياسة الخروج عليهم من تفكك واضمحلال كاد يودي بالدعوة وأهلها.

يوسف بن أحمد بن الأشج

ومهما يكن من أمر، فإن الداعي هارون بن رحيم خلفه في الدعوة بعد وفاته، يوسف بن أحمد بن الأشج[2] من أهل شبام حمير، وكان يدعو سراً إلى الخليفة الحاكم. ولم تذكر المراجع التي في أيدينا شيئاً عن نشاطه.

سليمان بن عبد الله الزواحي

ولما توفي الداعي يوسف هذا استخلف سليمان بن عبد الله بن عامر الزواحي

---

(١) سلوك / كاي؛ انظر الباب الثاني ص ٤٨.

(٢) هكذا ورد اسمه في العيون، ورواية النزهة ١/٣٣ «يوسف بن أحمد بن الأشج». وقال صاحب الكشف ٤٢: إن اسمه «يوسف بن الأسح»؛ ولكن صاحب السلوك ١٥٢ قال: إن اسمه «ابن الأسح»؛ وصححها (كاي) نقلاً عن القرة «بالأسد». وهذا كله تحريف وتصحيف، والذي ذكره إدريس في العيون قد اتبعناه.

من حمير من ضلع شبام، وكان مقامه في حصن كوكبان[1]. وقد دعا هذا إلى الحاكم والظاهر. وكان كثير المال عظيم الجاه وكلما هم أحد من الناس بقتله ردّه بقوله: «أنا رجل مسلم (أقول لا إله إلاَّ الله) كيف يحل لكم دمي، وأخذ مالي فيمسكون عنه»[2].

وقبل أن يتوفى سليمان الزواحي أوصى بكتبه وأمواله الكثيرة إلى علي بن محمد الصليحي، الذي قام بأمر الدعوة باليمن من بعده.

قائمة أسماء الدعاة

من ذلك نرى أن الحقبة التي تقع بين موت منصور اليمن وظهور علي بن محمد الصليحي (٣٠٣ ـ ٤٣٩) تعتبر حقبة مظلمة في تاريخ الدعوة الفاطمية في اليمن. وقد استقينا معلوماتنا عن هذه الحقبة من كتاب الكشف لابن مالك الحمادي، والسلوك للبهاء الجنَديّ، وعيون الأخبار ونزهة الأفكار للداعي إدريس، وإن كان ما ورد في هذه المراجع عن هذا الموضوع لم يشف الغلّة، لأنهم اقتصروا في كتاباتهم على سرد أسماء الدعاة، ولم يذكروا شيئاً عن نشاطهم الديني والسياسي. وهاك أسماء هؤلاء الدعاة كما أوردها الحمادي والجندي وإدريس عماد الدين:

---

(١) قال إدريس (عيون ٧/٢): «حصن كوكبان من الحصون القديمة البناء، وكانت مدينة شبام حمير لصاحب كوكبان، وهي من مدائن اليمن القديم عهدها، الحسن مرآها، الكثير جندها، وهي اليوم قد خربت ولم يبقَ منها إلا قليل، وفيها مسجد حسن جامع، وجدد الزواحي دار الخراطيم في كوكبان؛ وجعلها مقره في ذلك الأوان. وفي ذلك يقول بعض الشعراء في مدح السلطان علي بن حاتم بن أحمد بن عمران اليامي لما ملك كوكبان في قصيدته:

أشـرقت حجـرة الصبـاح وقـالـت ... هـكـذا كنت حجـرة لـلصبـاح
ورأى مجـلس الخـراطـيـم مـلكـاً ... مـا رآه إلاَّ بـعـصـر الـزواحـي

(٢) كشف ٤٢؛ والزيادة التي بين القوسين من سلوك/كاي ١٥٢.

	الحمادي : كشف ٢٢ و ٣٩ - ٤٢	الجندي : سلو/كاي ١٣٩ - ١٥٤	إدريس عماد الدين : عيون ١/٧ - ٢ ونزهة ١/٣٢ - ٣٣	ملاحظات :
١	أبو القاسم المنصور الحسن بن زاذان من أهل الكوفة من ولد عقيل بن أبي طالب.	منصور بن زاذان بن حوشب بن الفرج بن المبارك من ولد عقيل بن أبي طالب.	أبو القايم الحسن بن فرح بن حوشب منصور اليمن.	قدم إلى اليمن سنة ٢٦٨ وبقي قائماً بها حتى توفي سنة ٣٠٣ في خلافة المهدي بالله. وفي الحور ١٩٧ : أبو القاسم أبو الحسن بن فرج بن حوشب بن زاذان الكوفي. وجاء اسمه كاملاً في افتتاح ٢ : أبو القاسم الحسن بن زاذان الكوفي. وسمي المنصور باليمن صاحب دعوة اليمن.
٢	عبد الله بن عباس الشاوري، أبو الحسن بن منصور غيلة.	عبد الله بن العباس الشاوري، كان خصصا بمنصور اليمن، وكان قد قدم على المهدي برسالة المنصور. قتله الحسن بن المنصور في بعض الغفلات.	عبد الله بن العباس أرسله منصور اليمن أيام حياته إلى مصر لهام الدعوة.	ذكر صاحب الأنباء/دار ٢٤ أنه قتل سنة ٣٣٦. وعلى ذلك يكون قد توفي في عهد الخليفة المنصور الفاطمي.
٣	ابن الطفيل قتله إبراهيم بن عبد الله الحميد السباعي وهو جد بني المنتاب.	في رواية : ابن الطفيل قتله إبراهيم [بن عبد المجيد (الحميد)].	يوسف بن موسى بن أبي الطفيل؛ ورواية النزهة : يوسف بن أبي الطفيل.	تولى رياسة الدعوة باليمن في عهد الخليفة المعز الفاطمي.
٤			جعفر بن أحمد بن عباس.	لم يرد اسمه في النزهة، ولكن اسمه ذكر في حاشية العيون ١/٧ وأغلب الظن أنه ابن أخي عبد الله بن عباس الشاوري.
٥			عبد الله بن محمد ابن بشر من وادي قطابة من قدم قام داعياً إلى الإمام العزيز بالله بن المعز لدين الله.	

	الحمادي : كشف ٢٢ و ٣٩ - ٤٢	الجندي : سلوك / كاي ١٣٩ - ١٥٤	إدريس عماد الدين : عيون ٧/١ - ٢ ونزهة ٣٢/١ - ٣٣	ملاحظات :
٦			محمد بن أحمد بن العباس من شاور، وهم من قدم بن قادم بن زيد بن عريب بن جشم بن حيوان بن نوف بن همدان، قاله ابن ماكولا في إكماله.	الظاهر أنه أخو جعفر بن أحمد بن العباس الشاوري (٤) ولعله كان قائماً بالدعوة اليمنية في عهد العزيز.
٧	ابن رحيم في أيام المنتاب، يكاتب بني عبيد بعد خروج المعز من القيروان إلى مصر؛ يكاتب المعز ومن بعده.	ابن رحيم، وكان يكاتب أولاد المهدي إلى القيروان وإلى مصر، وفي أيامه قدم المعز إلى مصر وابتنى القاهرة.	هارون بن محمد بن رحيم من قدم، وكان في أيام الحاكم قائماً بالدعوة.	وكان الخليفة الحاكم الفاطمي أرسل إليه سنة ٣٩١ والسجل ورد في العيون ١٨٦/٦. انظر الملحق رقم ١. لعله أدرك عهدو المعز والعزيز والحاكم ولكنه تولى رياسة الدعوة في عهد العزيز وتوفي في عهد الحاكم.
٨	يوسف بن الأشج من أهل شبام حمير، كان يدعو إلى الحاكم ويبايع له على وجه السر.	يوسف بن الأشج يدعو إلى الحاكم ويبايع له سراً.	يوسف بن أحمد بن الأشج من حمير من مدينة شبام حمير، وحاشية العيون: يوسف بن محمد بن الأشج. ورواية النزهة يوسف بن أحمد ابن الأشج.	تولى رياسة الدعوة في عهد الحاكم.
٩	سليمان بن عبد الله الزواحي من حمير من ضلع شبام من الحفن، فأقام يدعو إلى الحاكم وإلى المستنصر.	سليمان بن عبد الله الزواحي من ضلع شبام.	سليمان بن عبد الله ابن عامر الزواحي من حمير، وكان له حصن كوكبان.	تولى رياسة الدعوة في عهدي الحاكم والظاهر.
١٠	علي بن محمد الصليحي وأصله من الأخروج يسبع من أسباع حراز.	علي بن محمد الصليحي من الأخروج وهو سبع من سباع حراز.	علي بن محمد الصليحي قام بالدعوة إلى الإمام الظاهر ثم إلى المستنصر.	انظر الباب الرابع.

وقد اعتمدنا على رواية إدريس في أسماء الدعاة، لأنه ذكر هذه الأسماء كاملة، مما يدل على أنه كان أكثر إلماماً من غيره في هذه الناحية؛ ولا غرو، فإنه من الدعاة الذين حصلوا على تراث الدعوة، ومنه وقف على حقيقة هذه الأسماء. ومع ذلك لم يترك لنا إلّا مجرّد هذه الأسماء ولا نعرف عن تاريخ هؤلاء الدعاة إلّا قليلاً، ولم يذكر ما حدث من الخلاف بين الحسن بن منصور اليمن والداعي عبد الله بن العباس الشاوري.

كيف احتفظت الدعوة بكيانها في فترة المحنة؟

ونرى في الختام أن بعض الأفراد والجماعات استمرت على تمسكها بالدعوة برغم الصعوبات التي حاقت بهم، وساعد على بقائهم طبيعة بلاد اليمن الجبلية الوعرة، حيث كانوا يتخذون من الحصون العالية النائية وسيلة للتستر والبعد ما أمكن عن أعدائهم، كما أن الاضطهاد الذي لاقوه بسبب عقيدتهم كان من أهم الأسباب التي حملت هؤلاء على التعاضد والمبالغة في التستر، كما ساعدت رياسة الدعوة في القاهرة على تغذية هذه المنظمة السرية باليمن بكتب الدعوة، كما يتضح ذلك من سجل الإمام الحاكم إلى داعيه هارون[1]، ومن الكتب التي تركها الزواحي لعلي الصليحي.

والنتيجة التي يمكن أن نستخلصها هي أن الأحوال في اليمن كانت مواتية جداً لظهور شخصية قوية تجمع شمل هذا التفكك والانحلال تحت لواء واحد، وتربط هذه الجماعات والقبائل والدويلات المتنافرة المتباغضة برباط متين يدين الجميع بعيش في ظل دولة موحّدة قوية. وكانت هذه الشخصية المنشودة هي شخصية علي بن محمد الصليحي، الذي أخذ يدعو في اليمن بعد أن تشبعت نفسه بتعاليم شيخه الزواحي.

---

(١) عيون ٦/٢٧١ ـ ٢٧٢؛ الملحق رقم ١.

الباب الرابع

عهد الملك علي بن محمد الصليحي

(٤٣٩ - ٤٥٩ هـ)

حالة اليمن قبيل ظهور الصليحي

كانت اليمن في الربع الأول من القرن الخامس الهجري تنحدر بخطا واسعة نحو التدهور والتفكّك؛ وذلك بسبب استيلاء الموالي واستبدادهم بالحكم في الأقاليم؛ فعلى الرغم من أن الحسين بن سلامة[١] تمكّن من المحافظة على دولة بني زياد مدة ولايته، فإن استبداد الموالي من الحبشة بالحكم مكّنهم من تأسيس الدولة النجاحية[٢] في زبيد سنة اثنتي عشرة وأربع مئة على أنقاض دولة بني زياد. وكانت لها التهائم وزبيد وأعمالها. وكان الاستيلاء من قبل الأحباش سبباً قويّاً في أن العرب تحفزوا، ودفعتهم الحمية إلى عدم الخضوع للعبيد، فتقطعت أوصال البلاد بعد موت الحسين بن سلامة، وتغلب الأمراء على جميع الجهات.

فكان مخلاف جعفر بحصونه ومخلاف المعافر بحصونه ومخلاف الجَنَد وحصن السَّمَدان[٣] لآل الكِرَنْدي[٤]، وكانت لهم مكارم ومفاخر وسلطنة ظاهرة.

---

(١) هو وصيف لرشيد مولى أبي الجيش ووصي على ابنه، وكان حسين من أولاد النوبة نسب إلى أمه سلامة. وقد اهتم رشيد بتربيته وله مآثر كبيرة في بلاد اليمن (أنباء/دار ٣٦).

(٢) تنسب إلى نجاح الذي كان وصيفاً للحسين بن سلامة، أسسها سنة ٤١٢، ولم يزل ملكاً لتهامة حتى مات سنة ٤٥٢ بالكدراء.

(٣) مخلاف جعفر من مدنه جبلة وإب والعدين والمذيخرة وذي سفال؛ ومن مخلاف المعافر تعز وجبا؛ ومخلاف الجند يشمل مخلاف جعفر ومخلاف المعافر؛ والسمدان في بلاد المعافر، والمعافر تعرف الآن باسم الحجرية؛ والحصن موجود معروف الآن، وكان لبني الكرندي إلى أن ملكه الصليحي.

(٤) وهم من أولاد الأبيض بن جمال الدين السبئي الذي كان الرسول ﷺ قد ولاه جبل الملح.

فأزالهم عنها بنو الصليحي[١].

وأما عدن وأبين ولحج وحضرموت والشحر فقد استولى عليها بنو مَعْن سنة ٤١٢ بعد موت الحسين بن سلامة، وظلت خاضعة لهم حتى استولى عليها علي بن محمد الصليحي[٢]، فأبقاهم عليها وأخذ منهم جزية سنوية.

وتغلب أسعد بن وائل على مخلاف وُحاظَة وأهم مدنه شاطح[٣]. وامتلك بنو عبد الواحد مخلاف يربوع وأهم مدنه العَمَد وبُرَع[٤] وحصن مَسَار. واستولى بنو أصبح وهم قوم الفقيه مالك الأصبحي على حصون حَبّ[٥] والشَّعر[٦] والسَّحول[٧]. وتغلب على حصن وُصَاب[٨] ومخاليفها قوم من بكيل ثمّ من همدانَ.

من هذا نرى أن بلاد اليمن لم تكن بها وحدة سياسية تجمع شمل البلاد تحت لواء واحد، بل كانت السلطة موزعة بين الأمراء والزعماء المتباغضين المتنافرين، الذين لم يرتبطوا ببغداد إلا برباط واهٍ هو إقامة الخطبة وضرب السكة باسم الخليفة.

ويعتبر ما ذكره صاحب الأنباء[٩] أصدق تمثيل للحالة في اليمن قبيل ظهور الصليحيين حيث قال: «. . . من سنة ٤٠٥ إلى سنة ٤٤٨ عم الخراب صنعاء وغيرها من بلاد اليمن لكثرة الخلاف والنزاع وعدم اجتماع المملكة الواحدة. . . وأظلم اليمن وكثر خرابه وفسدت أحواله. . . . وكانت صنعاء وأعمالها كالحرقة، لها في كل سنة أو شهر سلطان غالب عليها، حتى ضعف أهلها وانتقلوا إلى كل ناحية. وتوالى عليها الخراب وقلّت العمارة في هذه المدة حتى أصبح عدد دورها ألف دار

---

(١) عمارة / كاي ١٢.
(٢) رسائل القمي ٢١.
(٣) من حصونه دهوان ويفوز والشعر والخضراء (عمارة/كاي ١٣).
(٤) اسم يطلق على قرية أو واد (صفة ٩٦، ٩٧)، أو يطلق على جبل برع (نفسه ٧٢، ١٠٣، ١٢٥).
(٥) وحب حصن منيع يقع في جبل بعدان.
(٦) مخلاف الشعر من ناحية النادرة متصل ببعدان شرقاً.
(٧) السحول مخلاف من ناحية المخادر متصل ببعدان غرباً.
(٨) وصاب مخلاف واسع في شرقي زبيد.
(٩) أنباء/دار ٢٧ ـ ٢٨.

بعد أن كانت مئة ألف دار في عهد الرشيد. . . إلاَّ أن صنعاء تراجعت بعض التراجع في زمن الصليحيين لما اجتمع لهم ملوك اليمن».

فهذه العبارة فضلاً عن أنها تصوِّر لنا سوء الحالة في هذه الفترة في اليمن، تعتبر شهادة لا بأس بها لأعمال الصليحي فيها، وخصوصاً أنها من مؤرخ لم يكن صديقاً له.

نشأة الصليحي:

في هذا الجوّ السياسي المضطرب، وفي تلك الأحوال السياسية غير المستقرة ظهر أبو الحسن علي بن محمد بن علي الصُّليحي، وهو ينسب إلى قبيلة الأصلوح من بلاد حراز[١]. وذكر أبو محمد الهمداني[٢] قبل ظهور الصليحي بقرن تقريباً أن آل الصليحي من بني عبيد بن أوام ببيت الأخروج[٣]، ووصفهم بأنهم أنجاد كرماء. وكان علي الصليحي، كما قال ابن الجوزي[٤]: «شاباً أشقر اللحية أزرق العينين، وليس في اليمن من يماثله في ذلك». وكان أبوه القاضي محمد سنيا، شافعيّ المذهب، حسن السيرة، مطاعاً في أهله وجماعته، ولا يخرجون عن أمره[٥]. ويدل على ذلك ما قاله عمارة[٦]: «من أن أهل حراز كانوا أربعين ألفاً يدينون له بالطاعة». وكانت

---

(١) قيل: وآل الصليحي من بني عبيد بن أوام بن حجور بن أسلم بن عليان بن زيد بن عريب بن جشم الأوسط بن حاشد بن جشم الأكبر بن حيران بن نوف بن همدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود. ويلتقي الهمدانيون والصليحيون عند جشم الأوسط.

(٢) إكليل ١٠/٩٩.

(٣) وقال أبو محمد في صفة ١٠٦ عند كلامه على مخلاف حضور: «ويتصل بها ـ أي بسافلة حضور ـ بلد الأخروج بن الغوث بن سعد. ويقال نسب البلد إلى خرجة من همدان. والأخروج بين حضور وهوزن. . . وببلد الأخروج اليوم الصليحيون من همدان»؛ راجع أيضاً إكليل ١٠/٩٩، وتعليق محب الدين الخطيب. وقال لنا القاضي محمد الحجري: إنه في البلاد التي تسمى الآن بلاد الحيمة ما بين حضور وحراز، وفيها حصن يناع الذي يسكنه القاضي محمد الصليحي.

(٤) مرآة الزمان ٢/١ ورقة ٨٨ ب، ولا يؤيده أحد من المؤرخين اليمنيين في هذا الوصف.

(٥) كفاية ٤٧.

(٦) عمارة / كاي ١٤.

القرية التي يقيم بها القاضي محمد، تسمى قَتَر من أعمال حراز[1]، فنشأ ابنه عليّ على طريقته في بدايته.

نشأ نشأة طيبة في بيئة عربية حرّة، لها تقاليدها في الأخلاق الفاضلة وعلوم الإسلام وفنون العربية. ونعرف مما روي عن نشأته وأحواله في شبابه أنه لوحظ عليه مخايل النجابة[2] ودلائل الفضائل[3] وطموح النفس، وأن «الأحوال تنقّلت به في مبادي عمره من خفض إلى رفع، ومن ضرّ إلى نفع»[4].

ويروى أنه أقام يحجّ دليلاً بالناس على طريق السَّراة[5] والطائف خمس عشرة سنة، وأن الناس في أول ظهوره كانوا يقولون له: قد بلغنا أنك ستملك اليمن بأسره، ويكون لك شأن ودولة، فيكره ذلك وينكره على قائليه، مع كونه أمراً قد شاع في أقواله بأفواه الناس الخاصّة والعامّة[6].

مغامرة الأمير الشاب وشهادة الملك في مجلس القاضي

وكان الصليحيّ في أيام شبابه قد نزل إلى مدينة حَيْس لاستطلاع خبر عبدَي مرجان ـ نفيس ونجاح، فمرّ عليه بعض من يعرفه، فتجرّد عن ثيابه، ولبس ثياب السلّاط يبيع السليط في معصرة من معاصر حَيْس. وتحمل شهادة في منزل رجل يقال له السبخة. فلما ملك الصليحي مدينة زبيد وقف له عجوز بخطه، فعرفه. فركب إلى مجلس القاضي، وأدّى عنه شهادة كان تحمّلها في صباه، ثمّ تحدّث مع القاضي سرّاً، وافترقا. هذه القصة ـ كما رواها عمارة[7] ـ

---

(1) عيون ٧/٢.

(2) أنباء/دار ٣٨؛ كفاية ٤٧.

(3) عيون ٧/٣٨.

(4) عمارة / كاي ١٥؛ كفاية ٤٧.

(5) جبل السراة هو أعظم جبال العرب أقبل من قعرة اليمن حتى بلغ أطراف بوادي الشام (صفة ٤٨).

(6) عمارة / كاي ١٧؛ كفاية ١٧.

(7) عمارة / كاي ١٦ ـ ١٧. وكذا رواها إدريس في عيون ٧/١٥ ـ ١٦ نقلاً عن صاحب المفيد في أخبار زبيد. وقد علق إدريس على هذه الرواية وقال: ولم ينكر الداعي علي بن محمد على أحد مذهباً من مذاهب فرق الإسلام على تشعبها، بل أقر كل امرىء على ما كان عليه. وكان يرفع أهل العلم وذوي الديانة والفضل من أهل مذهبه وغيرهم. وكانت له سيرة عادلة وأخلاق فاضلة رواها الخاص والعام... تدل على حسن مذهبه وفضل أدبه... ولم يجحد ذلك إلا مكابر مشبه ليفضل الأوباش من أمثاله... إلخ.

تتضمن معاني سامية من اقتحام الأمير الشابّ المغامر في المخاوف وشجاعته، ثم تواضع الملك الفاتح في أوج عزّه وسؤدده، وخضوع السلطان واستسلامه للقانون، واحترامه لقداسة القضاء. ولا يخفى أن الصليحي أبقى القضاة بعد فتح تهامة في مناصبهم العالية مراعاة لأحوال رعاياه السنّيين.

زواج الصليحي من السيدة أسماء

وأحبّ الأمير الشابّ ابنة عمّه السيدة الحرة الصليحية أسماء بنت شهاب[1]. حدّثنا عمارة عن القاضي عمر بن المرجل الحنفي[2] قصة زواجه من أسماء، وقال: «كان على باب زبيد من داخل السور دار رجل من الحبشة، يقال له فرج السحرتي، وكان من أهل المعروف والصدقات الواسعة. وكان من نزل بمسجده أكرمه وأواه، ويتفكّر ويدخل المسجد يتجسّس أخبار الضيوف سرّاً من وكلائه وخدمه. فخرج ذات ليلة، فظفر برجل يقرأ القرآن، فسأله عن العشاء، فأنشد قول المتنبي:

من علّم الأسود المخصيّ مكرمة أعمامه البيض أو أخواله الصيد

فأخذه الحبشي، وطلع به إلى أعلى مكان في داره، وأكرم مثواه، واستخبره عن سبب قدومه إلى تهامة. قال الصليحي: إنَّ لي عمّاً يقال له شهاب، وله ابنة يقال لها أسماء، قليلة النظير في الجمال، معدومة المثل في الأدب والعقل، وخطبتها إليه، فأشطّ عليّ في مهرها، وأمّها تقول: لا تزوجها إلاَّ لبعض ملوك همدان بصنعاء أو ملوك بني الكرندي بمخلاف جعفر. وقد استاموا عليّ من المال مبلغاً لا قدرة لي عليه. وأنا متوجّه إمّا إلى بني معن بعدن، وإمّا إلى بني الكرندي بالمعافر. قالوا: فدفع له القائد فرج السحرتي مالاً جزيلاً أضعاف ما أدّى الصليحي، وجهز العروسين جميعاً أحسن جهاز يحتفل الملوك به لعقائلهم، وأعاده إلى عمّه، فتزوج بأسماء».

---

(١) توفيت في سنة سبع وستين وأربع مئة في عهد ابنها الملك المكرم أحمد بن علي الصليحي.
(٢) الحنفي نسباً ومذهباً، وكان من العلماء كما حكاه عمارة/كاي ١٥.

فضائل السيدة أسماء في أقوال المؤرخين

«وكانت أسماء من أعيان النساء» كما ذكرها الأزديّ[١]. قال: «وكان يثق بها ثقة تامّة لكمالها؛ فوكل إليها أمر تدبير الدولة، ولم يخالف في أغلب أمورها، ويجلّها إجلالاً عظيماً. وكانت إذا حضرت مجلساً لا تستر وجهها عن الحاضرين. وكانت من حرائر النساء».

وقال عمارة[٢]: «وكانت أسماء من الكرم والسودد، والجوائز السنية الجزيلة للشعراء، والصلات الواسعة في سبيل الله تعالى وفي سبيل المروءة والخير، بحيث يمدح أولادها وإخوتها وبنو عمّـها بمفاخرها». وفيها يقول شاعر زوجها واسمه عمرو بن يحيـى الهيثمي[٣] من قصيدة أولها:

حشمت بيضاء الأنامل حشما[٤]

ومنها:

رَسَـمتْ في السَّمـاح سنّـةَ جـود　　لم تـدَعْ من معـالم البخـل رسْـما[٥]

قلت إذ عـظّمـوا لبلقيس عـرشـاً　　دَسْتُ أسماء من ذرا النجم أسمى[٦]

وقال ابن الجوزي[٧]: «وكان يخطب لها على المنابر، فيخطب أولاً للمستنصر ثم لعلي الصليحي، ثم لزوجته، فيقال: اللهمّ وأدم أيّام الحرة الكاملة السديدة كافلة المؤمنين».

وقال الخزرجي[٨]: «وكان فيها من الكرم والحزم والتدبير ما لم يكن في أحد من نساء زمانها».

(١) الأزدي: الدول المنقطعة ورقة ٦٩.

(٢) عمارة / كاي ١٦.

(٣) عمارة / كاي ١٦: واسمه أسعد بن يحيـى الهيثمي. ولعل الصواب عمرو بن يحيى الهيثمي. ونسب الأزدي في الدول المنقطعة البيتين إلى الشاعر حسين القمي.

(٤) هامش عمارة / كاي ١٦: حشمت بيض الأنامل حشما.

(٥) رواية الأزدي: سمة جود.

(٦) وفي رواية: من زرى المجد.

(٧) ابن الجوزي: مرآة الزمان ١٢/١ ورقة ٨٨ ب.

(٨) كفاية ٤٩.

الصليحي يتلقى العلوم من شيخه الزواحي

ولما انتقلت رياسة الدعوة في بلاد اليمن إلى الشيخ سليمان بن عبد الله الزواحي[1]، شرع في ملاطفة القاضي، فكان «يركب إليه كثيراً لرياسته وسؤدده وصلاحه وعلمه»[2]. وكان الشيخ سليمان كلما وصل إلى القاضي ورأى ولده علياً، لاحظ عليه مخائل النجابة[3]، ورأى فيه دلائل الفضائل وهو في أوان الاستجابة[4]. وكان عليّ يومئذ دون البلوغ، فأخذ الشيخ يتصل به، ويطلعه على ما عنده من أخبار وآمال ومشروعات كبار، حتى استماله وغرس في قلبه ولبّه ما غرس من علومه وأدبه ومحبة مبادئه[5]. ويقال إنه كان عند الزواحي حلية الصليحي في كتاب الصور (الجفر)[6]، «وهو من الذخائر القديمة، فأوقفه منه على تنقل حاله وشرف مآله، وأطلعه على ما أطلعه عليه سرّاً من أبيه القاضي محمد وأهله جميعاً»[7].

الزواحي يجعل علياً خليفته

ولما اطمأن الزواحي لنضج تعاليمه في نفس تلميذه جعله خليفته في الدعوة بعد أن وافق الإمام المستنصر الفاطمي بمصر على ذلك[8]، «وطالع الزواحي حضرة إمامه في أمره، فأتيح له أن يفضي بمكنون سرّه»[9].

وإننا نعتقد أن الداعي الزواحي قد تمكن بما أتي من قدرة وسعة علم ولباقة فائقة وطلاوة في الحديث، من إدخال الشاب عليّ في علوم الدعوة وإقناعه بضرورة الحرص عليها، كما نعتقد أنه لم يلاق صعوبة في جذبه إليه لما أبداه عليّ من رغبة

(١) انظر جدول أسماء الدعاة بعد منصور اليمن.
(٢) كفاية ٤٧.
(٣) نفسه؛ أنباء/دار ٣٨.
(٤) عيون ٣٨/٧ ويقصد بأوان الاستجابة أوان استجابته للدعوة.
(٥) نزهة ١/٣٤؛ أنباء / دار ٣٨؛ كفاية ٤٧.
(٦) انظر تعليق (كاي) ملحوظة ٢٦ صحيفة ٢٤٩.
(٧) كفاية ٤٧.
(٨) عيون ٧/٢.
(٩) نفس المرجع.

صادقة في الاستمرار والتقرب من شيخه المفيد، وهذا بفضل ذكائه الذي ظهر في سنّ مبكرة. ثم إن عزم عليّ وجدّه وحرصه على ألّا يفلت منه هذا الأمر جعله ينكب على دراسة كتب الدعوة التي آلت إليه بعد موت الزواحي، لأن هذا، كما قال الخزرجي[1]: «كان قد أوصى قبل وفاته بجميع كتبه له، وأعطاه مالاً جزيلاً كان قد جمعه من أهل مذهبه». وهذا يدل دلالة واضحة على نضج فكرة الدعوة وأصولها في عقل هذا الشاب الذي كتب له أن يلعب دوراً هامّاً في تكوين تاريخ بلاده.

وكان ذكاء الصليحي من أهم عوامل نجاحه، فلم يكد يبلغ الحلم حتى تضلع في معارفه التي بلغ بها وبالجد السعيد غاية الأمل البعيد[2]؛ فأصبح، كما قال عمارة[3]: «عالماً فقيهاً في المذهب الفاطمي مستبصراً في علم التأويل».

الصليحي يتخذ الحج وسيلة لبث دعوته.

وقد أدى ذكاء علي الصليحي به إلى أن ينهج نهجاً جديداً، وأن يسلك طريقة تخالف طرائق من سبقه من الدعاة في اليمن في بث دعوته ونشر مذهبه. فاتخذ ميدان الحج حقلاً لغرس مبادئه وتنميتها، وصار يحج بالناس عن طريق السراة والطائف نحواً من خمس عشرة سنة، فانتشر ذكره في البلاد على لسان الخاصة والعامة.

ونرى أن هذه المدة الطويلة التي مرت من موت الزواحي إلى قيام الصليحي بثورته في مسار، وتقرب من خمسة عشر عاماً، كانت كافية لصقل علي، «لأن الأحوال تنقلت به من خفض إلى رفع ومن ضر إلى نفع»[4]، كما كانت كافية لتكوين جماعة قليلة تدين بالإخلاص له ولأمره.

---

(١) كفاية ٤٧.
(٢) نفسه.
(٣) عمارة/كاي ١٤ ـ ١٥.
(٤) عمارة / كاي ١٥.

دعوة الصليحي لعامة القوم

ولا يخفى أن طلاب السلطة يراعون دائماً جانب العامة، وهم السواد الأعظم في كل مُجتمع، فيعملون لهم كل حساب، ويتقربون إليهم بما يرضيهم. ولما كان الدين هو جامعتهم الكبرى، ومن أكبر أسباب سعادتهم، تمسّك الصليحي بالديانة الإسلامية والمثل العليا. فكان متفقهاً في عقائد المذهب السنّي، وكان لا يظهر حقيقة مذهبه إلاَّ لمن يثق به، فاتخذ الدعوة بالتي هي أحسن لتكوين مجتمعه الذي ينشده وليصل إلى ما تصبو إليه نفسه.

ولم تكن دعوة الصليحي في أول الأمر للأمراء وعلية القوم وأصحاب المصالح، لأنه كان يفهم تماماً أن هؤلاء سيحاربونه بأي حال من الأحوال؛ ولكنه اتصل بالعامة بل وبالمتحمسين منهم للدين، وهم الحجاج، فكأنه دخل بدعوته في هذا الميدان متشحاً ومتجملاً بالدين ومحاسنه، وهو متحقق أنه لا بد من أن يستميل إليه أعواناً، ولو طال به الزمن، ما دام متمسكاً بالدين.

ولما كان الصليحي من طلاب السلطة المطلقة وجد أنه لا يمكنه أن يستغني عن العامة، لأنهم السواد الأعظم في الرعية، وبهم تجبى الأموال، ومنهم تتألف الجنود، ومن استطاع كسب ثقتهم وجذب قلوبهم ملكوه. ولا يجتذب قلوب العامة في تلك العصور مثل الدين. فإذا اجتمعت السياسة والعدالة تمّت وسائط السلطة، وتولى أمور الناس أقدرهم على استرضاء العامة.

فهِمَ عليّ الصليحي هذا كله؛ ولا غرو، فإن آماله ودأبه على تحقيق هذه الآمال كفيلة بنجاحه ووصوله إلى تحقيق أغراضه.

رؤساء همدان يبايعون الصليحي على نصرة الدعوة

وكان موسم الحج من سنة ثمان وثلاثين وأربع مئة فاتحة عهد جديد

في نجاح الصليحي، حيث بايعه ستون رجلاً من قبيلة همدان[1] على الموت أو الظفر بقيام الدعوة[2]، وعلم كل واحد منهم أنه جنديّ من جنود الله، فباعوا أنفسهم بيع السماح، وتضافرت القوى على نصرة الدعوة بالأنفس والمال.

وكان هذا نصراً من غير شك، وبخاصة إذا عرفنا أن هؤلاء الذين بايعوه على نصرة الدعوة لم يكونوا ضعافاً لا حول لهم ولا قوة؛ بل كانوا في عزة ومنعة من أهلهم. وهذا لا يتعارض مع ما ذكرناه من أن اعتماد الصليحي كان على العامة. فهؤلاء العامة كانوا من قبيلة همدان القوية العزيزة الجانب، والتي كانت القبائل العربية الأخرى هناك تعمل لها حساباً.

وقد قال عمارة في أتباع الصليحي: «وما منهم إلا مَن هو من قومه في منعة وعدد كثير»[3]. فبانضمامهم للدعوة عزَّ جانبها، وقوي ساعد الصليحي، كما كان ذلك مشجعاً لمن كان متردّداً من المستجيبين على أن يحذو حذوهم.

الصليحي يستعد للثورة

تمكن علي بن محمد الصليحي بذلك من تكوين جماعة صغيرة مخلصة له، وقد أصبحت هذه الجماعة نواة لقوة كبيرة إذ تعهدتها يد العناية. ونظراً لأن أعداء الدعوة كانوا قد تسببوا في قتل ونهب الكثيرين من أتباع الدعوة، صمم الصليحي على أن يقوم بعمل حاسم نحو المعارضين باستيلائه على مسار، وتعميره وجعله مركزاً لدعوته وقاعدة لمناوراته، ولكن هذا المشروع يقتضي الاستعداد والحيطة. فبدأ يستعد للثورة، وساعدته الظروف إلى حد كبير، حتى كون جيشاً من بطون همدان «وقد اقتنع الصليحي وأنصاره بصدق الوعد الذي قدمه الله للمسلمين في القرآن

---

(١) تضم قبيلة همدان بطوناً كثيرة لم تخضع جميعها للصليحي ولم تقبل دعوته، بل دخل بعضهم في الدعوة واستمر يدين بأصولها من أيام منصور اليمن إلى أيامنا هذه. ويعتصم جماعة منهم بجبال حراز وبخاصة اليعابر وجماعات أخرى في نجران وعراس. وهم معروفون بشهامة أخلاقهم وحسن هيئتهم.

(٢) قرة ورقة ٢١؛ كفاية ٤٧.

(٣) عمارة / كاي ١٧.

الكريم بالإيمان الذي استقر في قلوبهم إلى مواجهة الصعاب عن ثقة بالله وبالإمام الذي وعدهم بالنصر أينما ذهبوا»[1].

وبهذا الإيمان القوي وبمبادئه تقدم الصليحي وأصحابه في فتوحاتهم، كما سترى، بقوة تقهر المصاعب، وتذلل العقبات، وتحل المشكلات. ولكن لكل شيء أسبابه ووسائله. وهذه الأسباب والوسائل قد تطلبت من غير شك كثيراً من الجهد والتدبير والتقدير وإعمال الرأي، لتجمع هذه القلوب المتفرقة أولاً، ولتندفع في تيار الحرب لرفع راية الإمام ثانياً. ولقد بذل الصليحي وأصحابه جهداً كبيراً في هذا السبيل لجمع الكلمة وتوحيد الهدف. فتمكن بفضل ما أوتي من شخصية قوية نادرة أن يتغلب على هذه المشكلة، بأن جعل أتباعه يعتقدون أنهم يحاربون لنصرة الإمام وإعلاء كلمة الله، وليس لأمر من أمور الدنيا. فكتب له ما تمنى من التوفيق وأخذ في الأسباب. فكاتب من جهة إمامه بمصر الخليفة المستنصر بالله وطالعه في هذا الأمر، وأخذ من جهة يعاهد أصحابه ومن صحت في نفوسهم دعوته، كما حدث أن اتفق مع الهمدانيين على الوصول إليه في يوم معلوم.

ولما شاع الخبر بأنه يستعد للثورة والقتال، وأنه ينتظر أمر مولاه، ازداد تحرش الأعداء بأهل دعوته وأتباعه. فوثب ابن جهور صاحب لِهَاب[2] على من كان بناحيته من الصليحيين وأصحابه، وأسر القاضي لمك بن مالك الحمّادي وعدداً كبيراً منهم. فضاق الأمر على الصليحي، ورأى، كما حكاه الداعي إدريس[3]، في منامه أن الإمام يقول له: «ستملك جزيرة اليمن برّها وبحرها ونجدها وغورها».

ولعل فراسة الصليحي وحسن تقديره لعواقب الأمور جعلته يتوقع ما سيجيبه به الإمام، الذي لا يمكن أن يعارض بحال من الأحوال في أمر فيه نشر لدعوته وإعلاء لكلمته ولن يكلفه ذلك إلاّ الموافقة وتشجيع الطالب على الاستمرار في

(١) حسن سليمان في رسالته.

(٢) لهاب في حراز ذكرها الهمداني في صفة ٦٨، ١٠٥.

(٣) عيون ٧/٢ - ٤.

طلبه، ولكي يبرهن الصليحي على صحة حلمه أمام مستجيبي دعوته استبشر بذلك وأظهر الفرح، وقويت عزيمته، وبثّ هذه الروح في قلوب أتباعه، وجدّ في الاستعداد لتنفيذ خطته. فأرسل إلى أهل دعوته رسلاً يحثهم على الوصول إليه، واشترى العدة واللبابيد(١)، فخف لمقابلته كبار أهل دعوته من أهل نواحي حراز(٢).

قيام الصليحي بالثورة

وقد استقر رأي هؤلاء جميعاً على أن يقوموا بهذا الأمر عند صلاة العصر من يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من شهر جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين وأربع مئة(٣)، وهي الليلة التي اتفق مع أهل دعوته على أن يوافوه فيها. واجتمع له في هذه الليلة من أرض يام (خلف صعدة)، من بلاد همدان، من نواحي صنعاء ومن أرض حمير وغيرها ثلاث مئة رجل، عدا من جاءه من نواحي حراز.

فلما صاروا بحضرته أطلعهم على ما عقد عليه عزمه، وأخبرهم بأنه أمر أهل

---

(١) الظاهر أنه جمع لبادة وفي ق/لبد قال: واللبادة كرمانة ما يلبس من اللبود للمطر.

(٢) جاءه من أهل هوزن سليمان بن أبي القاسم وعبد الرحمن بن سبا بن أبي سهيل وجاءه من لهاب قاسم والحسين ابنا عبد الله بن أحمد وخولة بن أبي القبائل وسبأ بن عباس وعبد الله بن أبي المعدل وعبد العزيز بن علي ومن بني قليد أهل شيذب عراف بن محمد ومحمد بن الحسين، ومن المقامقة سويد بن أحمد ومن الوجب أبو الجماهر وأبو العشيرة ابنا قليد البحري وأبو الحسن بن أبي العشيرة وحمير بن عبد الله ومن صعفان التبع بن محمد بن أبي يعلى وبسام بن قحطان بن أبي يعلى وأبي الحفاظ بن عبد الله بن يعلى وسليمان وعبد الله ابنا كنعان والمدرج وكفيفي ابنا أبي العشيرة ومن بني الصليحي يعلى بن المظفر الصليحي وجماعة من أهل بيته. وهؤلاء أعيان أهل الدعوة في ذلك الأوان بحراز وكبراؤهم (عيون ٤/٧ - ٥).

(٣) يقول عباس الهمداني: في رسالته ص ١٤٦ هامش ٥: «ولقد اختلفت المصادر القديمة والحديثة في السنة التي ثار فيها الصليحي، وذلك أن المراحل الثلاثة في تاريخ الصليحي لم تفهم فهماً تاماً. وهذه المراحل هي: الأولى إطلاعه بالدعوة بعد وفاة الزواحي؛ والثانية قيامه بالثورة في مسار والثالثة إعلان حكمه باليمن. كل هذه المراحل اجتازها في مدة طويلة. وهذا هو السبب في اضطراب المؤرخين. وتحت عبارة «إظهار الدعوة» اختلف المؤرخون في فهم هذه المعاني الثلاثة. أما عن قيامه بالثورة في مسار فبعض المؤرخين يقول إنه ثار في سنة ٢٩ ومنهم عمارة /كاي ١٧، إدريس: عيون ٦/٧، نزهة ٣٤/١ والخزرجي في كفاية ص ٤٧ =

دعوته في جميع النواحي بأن يوافوه في يوم معلوم، وأنه قد عزم على عمارة مسار وإظهار دعوة المستنصر بالله الفاطمي، والجهاد في سبيل الله؛ وقد استقر رأي مجلس الشورى هذا على الاستمرار في خطة الداعي، وسرَّهم هذا الرأي، وأيقنوا بالغلبة والظفر، كما استقر رأيهم على وجوب الأخذ بأسباب الاستعداد. «فجمعوا ما استطاعوا من العدة، وتواصوا ببذل النفوس والأموال في طاعة الله تعالى وطاعة رسوله وطاعة الإمام»[1].

وجاء بنو الصليحي بخمس مئة دينار، وسويد بن أحمد صاحب المقامقة بمئة دينار، وأهل لهاب بألف دينار، وبنو قليد[2] بثلاث مئة دينار، وأهل هوزن[3] بخمس مئة دينار، وبعثوا بها إلى الصليحي، فأثنى عليهم وشكر لهم سعيهم، وقال لهم: «سوف يضاعف الله لكم أضعاف ما أسلمتم، وليمكننكم الله من ديار الظالمين، ولتنالنّ ما ترومونه ببركة أمير المؤمنين»[4].

= ابن خلكان: وفيات ٧٣/٢؛ واتبعهم عدد من المؤرخين المتأخرين، مثل ابن الديبع: بغية ورقة ٤١٠؛ حسن بن نوح: الأزهار ١٣٩/١؛ بامخرمة: قلادة النحر ٢/٢ ورقة ٦٠٠، العمري: مسالك الأبصار ١/١٦ ورقة ١٩٨؛ العرشي: بلوغ المرام ٢٤. وبعضهم يقول إن ثورته كانت سنة ٤٣٩، ومنهم الحمادي: كشف ٤٢ ـ ٤٣. وإني بالرغم مما ذكره المؤرخون المؤيدون لسنة ٤٢٩ أميل إلى رأي الحمادي، وذلك لأنه معاصر للصليحي».

وقد أيده حسن سليمان في رسالته ص ٥٣ بالدليل الآتي: «ولعل عمارة كان يقصد أن علياً الصليحي كانت سنه عندما أعلن ثورته تسع وعشرين سنة. ويؤيد ذلك الرأي ما أجمع عليه المؤرخون من أن الشيخ الزواحي توفي ولم يكن علي الصليحي قد بلغ الحلم، أي أنه لم يبلغ الرابعة عشرة، ولما كان قد حج بالناس خمس عشرة سنة أخرى فتكون سنه حين أعلن أمره هو تسع وعشرين سنة. وبذلك يمكننا أن نقرر أن مولد الصليحي كان على وجه التقريب سنة ٤١٠، وأن توليته أمر الدعوة كان سنة ٤٢٤ وأن ثورته كانت سنة ٤٣٩».

ومع كل هذا فإننا لا يمكننا أن نقطع بالجزم في تاريخ قيامه بالثورة في مسار، لأننا نميل إلى الأخذ برأي كل من عمارة وإدريس والحمادي، ونتمنى أن توجد مصادر أخرى تنير طريقنا في هذه المسألة.

(١) عيون ٥/٧ ـ ٦.

(٢) كذا في الأصول، ولعلهم من قرية تسمى الآن ببيت المقلد من ناحية جبل شبام الغربية.

(٣) صفة ٦٨، ١٠٣، ١٠٥، ٢١٨ ـ وهوزن بمخلاف حراز، وهوزن سبع أسباع حراز التي تشمل: هوزن وكرار وصعفان ومسار ولهاب ومجيح وشبام.

(٤) عيون ٥/٧ ـ ٦.

استيلاء الصليحي على جبل مسار

ولما أتم علي بن محمد الصليحي استعداده للثورة أرسل من أهل هوزن أربعين رجلاً، وأمرهم أن يسيروا إلى مسار، وأن يلزموا ذروة الجبل، كما أمرهم بأن ييمموا وجوههم شطر صَعْفَان لأن أهل مسار قد تأهبوا لقتاله، وحصنوه من كل جهة إلا من جهة بني عُجَيْل[١]؛ وعلم بذلك الصليحي عن طريق بعض أعوانه الذين تسلّلوا إلى قمة مسار وعرفوا ما يجري هناك، كما علم أن بعض أهل مسار قد دخل في مذهبه وبذلك عرف كيف يرسم خطته للاستيلاء على هذه القمة العالية.

وفي نفس الوقت قام الصليحي ومن معه بعد صلاة العشاء لخمس عشرة ليلة خلت من شهر جمادي الأولى سنة تسع وثلاثين وأربع مئة ومعه حلفاؤه، وجدّ في السير خشية أن يسبقه أهل كرار في احتلال الجبل، وانتهى الصليحي إلى عَبْرَي سِهام[٢]، وطمع أهل مسار في محاربته من ناحية عبري سهام، ولكنهم لم يتمكنوا، فاتجهوا إلى قمة الجبل ليعتصموا بها، فوجدوا أهل هوزن قد ملكوها وضربوا طبولهم. فاضطر أهل مسار إلى الهرب، وصعد الصليحي وملك الجبل بغير قتال، ونشر على رأسه بنوداً ترجع إلى عهد الدعاة السابقين[٣].

فلما ملك قمة الجبل، لم ينتصف ذلك النهار الذي ملكها في ليلته، إلاّ وقد أحاط به عشرون ألف سيّاف، فحصروه وشتموه وسفهوا رأيه، وقالوا له: «إن نزلت وإلاّ قتلناك أنت ومن معك». فقال لهم: «أنا ما فعلت هذا إلاّ خوفاً عليكم أن يملك هذا الجبل غيرنا؛ فإن تركتمونا نحرسه لكم وإلا نزلنا». فانصرفوا عنه وتفرقوا[٤]. وكان رسل الصليحي الراجعون من مصر ليلة طلوعه جبل مسار

---

(١) وهم من بيت الفقيه ابن عجيل.

(٢) صفة ٦٨، ١٠٣، ١٠٥، وهي تنطق اليوم عبرى سهام بضم العين.

(٣) عيون ٦/٧، ويلاحظ أن استيلاء الصليحي على مسار يدل على أهمية الذروة من الناحية الحربية لأنها تعد من المواقع الممتازة في اليمن، ومسار وشبام هما جبلا حراز الرفيعان وطوداه المنيعان.

(٤) كفاية ٤٧.

ممسين في المهجم؛ فوصلوا إليه وهو بحصن مسار بعد يومين من طلوعه الجبل، وأوردوا جواب إمامه المستنصر بالله الفاطمي يأذن بإقامة الدعوة باليمن. فسر ذلك الصليحي وأتباعه[1]، وما لبث أن أخذ نفوذه يزداد وشأنه يرتفع بفضل اعتماده على تأييد الإمام[2]، ثم وصلته الشيعة من أنحاء اليمن، وجمعوا له أموالا جليلة[3].

ولما لم يكن بالجبل يومئذ بناء، لم يلبث الصليحي أن بدأ بعمارته ساعة وصوله، وذلك في يوم الخميس للنصف من شهر جمادى الأولى سنة ٤٣٩؛ ولم يمضِ شهر على احتلاله حتى بناه ودربه وحصنه وأتقنه[4].

خطاب الصليحي إلى أهل حراز

وبعد استيلائه على جبل مسار كتب علي بن محمد الصليحي كتاباً أمر ببثه في جوانب حراز، وهذا نصه[5]:

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمد لله الذي أورى زناد الحق، ورفع عماد الصدق، بالذين أكمل بهم الحجة على الخلق، وأنارهم ما بين الغرب والشرق، الهداة إلى الخير والأدلة، الدعاة إلى أشرف المنهاج والملة، خلفاء أنبيائه، وأمنائه وأصفيائه، وسلالة رسله من لدن آدم عليه السلام، ووصل نظامهم، وأعلى مقامهم، وفتق بالنور أيامهم، ونشر بالعدل أعلامهم؛ فهم أعلام الدين، والدعاة إلى الحق المبين، الشيعة الميامين، والسلالة الطيبين، آل طَه ويَس.

وصلواته على من ختم به الرسالة، وفتح بالأئمة من عقبه أبواب الدلالة،

---

(١) عيون ٧/٨.

(٢) المرجع السابق ٧/٨؛ كشف ٤٢.

(٣) كفاية ٤٧.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) عيون ٧/٧ - ٨.

سيدنا محمد النبيّ، وعلى أخيه ووصيه عليّ، وعلى الأئمة من نسل مولانا الحسين الزكيّ، ورثة التنزيل، وخزنة التأويل.

وأفضل صلواته وأنمى تحياته وبركاته على وارث علمهم، والقائم من بعدهم، بقية السلف، وخيرة الخلف، مولانا معدّ أبي تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى خلفه وسلفه.

أما بعد، يا أهل حراز! ألهمكم الله رشدكم، وجعل الجنة قصدكم، فلم أطلع إلى حصن مسار متجبراً باغياً، ولا متكبراً على العباد عاتياً؛ ولا أطلب الدنيا وحطامها، ولا طالباً أملك غوغاءها وطغامها، لأنّ لي بحمد الله ورعاً يحجزني عما تطمح النفوس إليه، وديناً أعتمد عليه.

وإنما قيامي بالحق الذي أمر الله عزّ وجل به، والعدل الذي أنزله في محكم كتابه، أحكم فيه بحكم أوليائه، وسنن أنبيائه؛ وأدعو إلى حجته الذي في أرضه، والقائم بفرضه. لست من أهل البدع، ولا من ذوي الزور والشّنع، الذين يعملون في الدين بآرائهم، ويحكمون بأهوائهم؛ بل أنا متمسك بحبل الله المتين، عامل بما شرع الله في الدين، وداع إلى أمير المؤمنين، عليه صلوات رب العالمين. لا أقول إلا سَدَدا، ولا أكره في الدين أحدا. فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها. وما الله يريد ظلماً للعباد.

واعلموا، يا أهل حراز! أني بكم رؤوف، وعلى جماعتكم عطوف، للذي يجب عليَّ من رعايتكم وحياطتكم. ويلزمني من عشرتكم وقرابتكم، أعرف لذي الحق حقه، ولا أظلم سابقاً سبقه، وأنصف المظلوم، وأقمع الظالم الغشوم، وأبث فيكم العدل، وأشملكم بالفضل. فاستديموا ذلك بالشكر، ولا تصغوا إلى قول أهل الكفر، الذين من بقايا أهل الكفر، فيحملونكم من ذلك على البغي والعدوان، والخلاف والعصيان، وكفر الإنعام والإحسان، تستوجبوا بذلك تغيير الإنعام وتعجيل الانتقام. وكتابي هذا حجة عليكم ومعذرة إليكم. والسلام على من اتّبع الهدى، وتجنب أمور الردى.

والحمد لله على ما أعاد وأبدا، وصلواته على من أرشد به من الضلالة وهدى، سيدنا محمد النبي وآله الأئمة الشهداء وسلم تسليماً، حسبنا الله ونعم الوكيل».

قيام جعفر العياني وجعفر الشاوري لمحاربة الصليحي

استفز ازدياد نفوذ الصليحي وانتشار أمره جماعة من زعماء اليمن، وخافوا عاقبة ذلك. فقصد الشريف جعفر بن الإمام القاسم بن علي العياني صاحب صعدة في جمع كبير من أصحابه حصن الأخروج، فقاتل أهله، وكان به الحسين بن مهلهل من أصحاب الصليحي، ومعه جماعة من همدان وبني شهاب[1]. وانتهز هذه الفرصة جعفر بن العباس الشاوري[2] صاحب مغارب اليمن الأعلى، وقام على رأس جند كثيف[3] من حراز وكرار وغيرهما من أهل البأس والشدة، وقصد عبْرَيْ أسفل جبل مسار، وأراد طلوع الجبل، فنزل أنصار الصليحي يدافعون عن بقائهم وعن نصرة مبادئهم، لأن النصر معناه البقاء لهذه الدويلة الناشئة، والهزيمة معناها الفناء والقضاء عليها. ولما كثر القوم على أنصار الصليحي وخشي الهزيمة وما يترتب عليها من سوء العاقبة نزل بنفسه ومن بقي معه، واستمد من الحرج قوة، فشد بذلك عزم أتباعه، وحمي وطيس القتال، حتى كسر الصليحي جيش ابن عباس الذي لاذ بالفرار مغلوباً على أمره؛ ولكنه ما لبث أن رجع وثبت طمعاً في النصر، فكان جزاؤه القتل هو ومن معه من أتباعه، وغنم الصليحي وأصحابه الكثير من السلاح والأمتعة والعدة. فقوي بذلك مركزهم، وزاد نفوذهم، وقويت روحهم المعنوية، وخافهم من كان يترقب من القبائل نتيجة هذه الموقعة. فاضطر الشريف حين سمع بخبر قتل حليفه ابن العباس وهزيمة جيشه أن يترك حصن الأخروج وينجو بنفسه[4].

---

(١) عيون ٧/٨ وبنو شهاب نسبهم الهمداني إلى كهلان، ثم إلى كندة، وجعلهم نشوان من قضاعة، كما حكاه لنا القاضي محمد الحجري.

(٢) قال الخزرجي في الكفاية ٤٧: «شافعي المذهب، وكان رجلاً مجاباً في مغارب اليمن الأعلى».

(٣) نفسه ٤٧: «ثلاثين ألفاً».

(٤) عيون ٧/٩.

محاربة الصليحي لابن جهور

وكانت هذه المحنة التي حاقت بالصليحيين بمثابة اختبار لقوتهم وتعاونهم وتمسكهم بمبادئهم، كما أن شخصية الصليحي وجلال قدره وحسن بلائه في تأييد أمره أسكن النفوس الغاضبة، فسار بالأمر قُدماً، واستولى على حضور[1]، وأخذ حصن بتَاح[2]، وخاف أهل حراز النزال، فقرروا الدخول في طاعة الصليحي إلا أبو النور بن جَهْوَر. فقد صمّم على الاستمرار في المكابرة، واعتصم بحصن لهاب. واضطرّ الصليحي إلى تكليف السلطان عامر بن سليمان الزواحي أن يصعد جبل شبام[3] وبيت عناد، ومعه جماعة من بني قليد وهَوْزَن وبني الـهَجَرَي[4]، ثم وصل أحمد بن المظفر الصليحي وجماعة من الحجازيين فيهم عباس بن الكرم، فعمّروا داراً في قمة جبل شبام، كما عمروا جبل بيت عناد استعداداً لمقاومة ابن جهور[5].

وبعد أن تحصنوا في هذه الناحية اتجه جيش الصليحي لمحاربة ابن جهور في لهاب، وضيقوا الحصار عليه. ففك أسر جماعة من أصحاب الصليحي منهم القاضي لمك ابن مالك الحمّادي الذي وصل إلى الصليحي وهو في حصن مسار، فسُرَّ بوصوله لما كان يتمتع به من مركز ممتاز في الدعوة. ولكن ابن جهور تمكن من أن يؤثر على أتباعه ويدفعهم إلى الاستمرار في المقاومة. ولما ضعف جيشه، ورأى أن مصيره إلى الهلاك استعان بنجاح[6]، وكانت علاقة هذا مع الصليحي حسنة، إذ كان يلاطف نجاحاً ويداريه، ولكن هذه الوساطة لم تنجح، فتمادى ابن جهور في بغيه، فحاصر

---

(١) حضور. (صفة ١٠٦).

(٢) بتاح، ثغر عدن ٢/١٥٩.

(٣) جبل شبام وشبام اليعابر (صفة ١٩٣).

(٤) بني الهجري (نفسه ٤٨٩)، وتسمى اليوم الهجرة وهي قرية قريبة من مناخة.

(٥) عيون ٧/٩.

(٦) أسس هذه الدولة النجاحية في زبيد سنة ٤١٢ هـ.

علي حصن زَبَّار[1] حتى سقط، فاضطر أبو النور إلى تسليم نفسه إليه في مسار، فأنزله الصليحي في ضيافته وأكرمه وأحسن إليه.

ويدل تسامح الصليحي مع ابن جَهْور على نبله، لأنه بالرغم من أن ابن جهور قد تسبب في إقلاق الصليحيين مدة من الزمن حتى استمات في سبيل الوصول إلى النصر وتحريض الحانقين والناقمين على الصليحي، بالرغم من هذا كله وجد الصليحي أن المعاملة الحسنة أجدى وأنفع مع كرام النفوس، وآثر أن يكسب ودّ من بقي من أتباع ابن جَهْور حتى لا تحدثهم أنفسهم بالانتقام إذا ما قتل رئيسهم. وقد تحققت سياسة الصليحي ذلك، لأن لهاب كانت منقسمة فيما بينها؛ فمنهم من انضمّ للصليحي وقدّم إليه المساعدة المادية وقدرها ألف دينار عند قيامه بمحاربة مسار، ومنهم من انضمّ لابن جَهْور واستمرّوا في عدوانهم حتى ثابوا إلى رشدهم بعد أن رأوا حسن المعاملة وكرم الأخلاق الذي غمرهم به الصليحي بعد ما أن قبض على ابن جهور وأبدى له تسامحه. ولا شك أن الصليحي أراد بهذه السياسة أن يجنب الأمة الخلاف فكبت بذلك الفتنة وردّ كَيْد الأعداء إلى نحورهم.

خطابه لأهل حراز في مؤتمر عبرى دعاس.

فعظم أمر الصليحي واستقامت له الأمور ودانت له الجماهير بحراز، فأمر بعقد مؤتمر حضره أهل حراز كافة بعبرى دعاس. وبعد أن ترك في حصن مسار من يحرسه نزل إلى عبرى دعّاس، وألقى في الاجتماع كلمة ذكرها صاحب العيون[2]. وقد جاء فيها أنه أمرهم بالصلوات وإقامة فرائض الدين، وعمارة المسجد، وإيقاد المصابيح فيها؛ . . . وذكر لهم بعد ذلك أن الأمر الذي قام به ليس هو من أمور الدنيا، ولا مراده كمراد سلاطين الدنيا، بل قام مؤثراً لأمر وليّ رب العالمين، ومجاهداً في سبيله، غير مكره لأحد في الدين، ولا طالب إلاّ رضا الله رب العالمين؛ . .

(١) زبار (صفة ١٠٨).
(٢) عيون ٧/١٠ ـ ١١.

وحذرهم الخلاف عليه والشقاق،.. وعرفهم أنه لا يسير فيهم إلا بسيرة الحق والعدل، وأنه مجبول على ذلك... وتقدم إلى العُمّال في ذلك المحضر، وأوعدهم بالتنكيل إن رفع إليه شيء مما نهاهم عنه، ووعدهم بحسن السياسة وأنه لا يخالف الكتاب والسنة، وأمر جميع الرعية أن يرفعوا إليه ما يكون من العمال من القبيح والحسن حتى ينزل بهم من إنعامه وعقوبته بحسب أفعالهم.

واقعة صوف

فبدأ الصليحي حكمه على الأسس التي أعلنها في مؤتمر عبرى دعاس، وتقدم في تنفيذ سياسته المرسومة بخطى جازمة سريعة. ثم أراد أن يتبع سياسة المهادنة إزاء سلاطين اليمن وأصحاب الدويلات المجاورة، إن نفعت هذه السياسة، وإلا فمحاربتهم وإخضاعهم تحت راية حكومته. ولما ملك الصليحيّ جبال حراز والمناطق المجاورة، وخشي ملوك تهامة والجبل بأسه الشديد وسياسته الرشيدة، وملك حصون حضُور وما جاورها، حاول بعد ذلك أن يهادن السلطان أبا حاشد صاحب صنعاء، كما هادن أباه السلطان يحيى بن إبراهيم الصحاريّ[1] من قبل. فلما تُوفي يحيى أرسل الصليحي بعض أصحابه وبني عمه إلى صنعاء لتعزية أبي حاشد في أبيه والإحسان إليه، كما أحسن إلى من كان قبله؛ ولكن أبا حاشد قد اعتبر تأدية مراسيم التعزية ومحاولاته في المهادنة تدخلاً من الصليحي في أموره. فساءت العلاقة بينهما أخيراً مما أدى إلى قيام الحرب بين الطرفين، انتهت بقتل صاحب صنعاء عند صوف هو وألف من أتباعه[2]. واستولى الصليحي على صنعاء، «ورأى الناس من عدله وفضله وحسن سيرته ما ألّف له القلوب وأرغم له أهل النخوة والمكابرة»[3].

---

(١) في كفاية ٤٧ قال: توفي السلطان يحيى بن أبي حاشد أول سنة أربعين وأربع مئة.

(٢) صوف بني سوار وهي قرية بين حضور وبني شهاب، وبهذه الواقعة يضرب المثل فيقال «قتلة صوف» (أنباء/دار ٣٩). وأما إدريس فلا يذكر قتل صاحب صنعاء، بل قال: «توجه الصليحي إلى صنعاء فتسلمها وملكها ودان له أبو حاشد بن يحيى ملكها» (عيون ١٥/٧).

(٣) عيون ١٥/٧.

واقعة نجد الجاح

فلمّا استولى الصليحي على صنعاء اضطرب الإمام أبو الفتح[1] واتصل بنجاح القائد صاحب تهامة وطلب منه إخراج الصليحي عن صنعاء وتملكها، فأدّت المكاتبات بين الإمام والقائد إلى إفساد العلاقة بين الصليحي وصاحب تهامة، كما أدّت إلى وقوع الحرب بين الصليحي والإمام المذكور في سنة أربعين وأربع مئة. وانتهت الحرب بقتل الإمام ونحو سبعين رجلاً من أتباعه بِنَجْد الجَاح[2] ببلاد رداع ومثل به فحمل رأسه إلى صنعاء، ودفنت جثته في أفيق ببلاد عَنْس.

واقعة الهرابة

ولما كان المغلوب على أمره تحدثه نفسه دائماً بشق عصا الطاعة كلما أتيحت له الفرصة، فالهمدانيون باعتبارهم أكبر القبائل التي دانت للصليحيين ممن فكروا في خلع طاعتهم، بالرغم من أن الصليحي كان لا يسير فيهم إلا بسيرة الحق والعدل والسنة.

فاتصل رؤساء بعض بطون همدان بالشريف القاسم بن جعفر بن الإمام المنصور القاسم العياني، واستنهضوه هو وأتباعه، وخرجوا جميعاً لغزو الصليحي. وكان ذلك سنة ٤٤٨، وتقابل الجمعان بالقرب من قرية الهرابة[3]، فردّهم الصليحي،

---

(١) هو الإمام أبو الفتح الناصر الديلمي بن الحسين بن محمد بن عيسى بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن علي بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب (اتعاظ ١٣؛ زبارة: اتحاف المهتدين ٥١؛ وكاي ٣٠٣). وصل إلى اليمن من الديلم سنة سبع وثلاثين وأربع مئة وانضم إليه بعض قبائل اليمن الذين دخل بهم صعدة، ثم سار منها إلى صنعاء وملكها، ثم طرده السلطان يحيى بن أبي حاشد والشريف جعفر بن الإمام المنصور القاسم العياني من صنعاء، فعاد إلى ذي بين واختط ظفار ذي بين. وقال إدريس (عيون ١٣/٧): «وكان له (أي الناصر) قذع في القول وسب للصليحي». وكان الإمام من أجلة العلماء، ومن مؤلفاته تفسير للقرآن في أربع مجلدات كبار. قال الجرافي (المقتطف (١١١): للإمام أبي الفتح ذرية في اليمن يعرفون ببني الديلمي في مدينة ذمار وغيرها، ومنهم بيت هاشم.

(٢) في اتحاف المهتدين ٥١ قال: قتله الناجم علي بن محمد الصليحي في سنة ٤٤٦ ومشهده بنجد الجاح من بلاد عنس ا هـ؛ والصواب أنه قتل بنجد الجاح ودفن بأفيق.

(٣) الكبسي: اللطائف السنية ورقة ١٦ ب قال: «الهرابة أكمة في بلاد وادعة الظاهر». وهي أكمة بين وادعة وبني غثيمة ببلاد حاشد، وإليها يشير السيد صارم الدين في بسامته بقوله: «وفي الهرابة أيام لفاضلنا»... البيت.

وحاصر الشريف الذي اعتصم هو ومن معه بالقرية سبعين ليلة، ونصب عليهم المنجنيق، فدافعوا عنها دفاع الأبطال حتى قتل كثير منهم ومات كثيرون لنفاد المؤنة. فاضطر الشريف إلى أن يسلم نفسه للصليحي، فأكرمه وخلع عليه. وكان في استطاعته أن يأمر بقتله ليكون عبرة لمن يعتبر، ولكنه آثر الحلم لأن الرجل الشهم يقدر بسالة في عدوه، ذلك أن الصليحي وجد في أهل هرابة صلابة وقوة، ولم يتمكن من إخضاعهم إلاّ بصعوبة، فرغب في أن يكسب ودّهم، فعاملهم بالحسنى في شخص هذا الشريف، حتى لا يخرجوا عليه مرة ثانية. وقد قال في أهل هرابة: «لو ملكت رجالاً كرجال هرابة لأخذت بهم العراق والروم»[1]. ولم تكن سياسة الصفح التي اتبعها الصليحي في هذه المرة، وفي مناسبات أخرى سياسة هوادة أو تردّد، بل قصد منها تسكين الثارات لأن في تسكينها لليمن ولليمنيين خيراً.

واقعة الزرائب

وتمشياً بسياسة المهادنة والملاطفة كان الصليحي يلاطف القائد نجاح صاحب الدولة الحبشيّة في زبيد تهامة التي حملت لواء السنة في اليمن بعد دولة بني زياد، ولكنه أدرك أن دولته الفتية لا يمكن أن تكون لها شخصية معنوية وكيان قوي، إلاّ إذا قُضي على أكبر منافسيه وهو نجاح. وكان الصليحي يلاطفه حتى قوى مركزه ودان له معظم الجزيرة اليمنية، ثم بدأت العلاقة تتوتر بين الطرفين بفضل مساعي الإمام أبي الفتح صاحب صعدة التي أفسدت بين الصليحي وصاحب زبيد.

فحلّت الوحشة بعد الأنس والجفاء بعد حسن الصلة. وأصدر نجاح عسكراً كثيفاً. فوافاهم الصليحي بجيشه خلفَ صَعْفان في الخَبْت المتصل بتهامة، ودارت بين الطرفين وقعات وعدّة مصادمات، وكانت الكرّة للصليحي وجيشه من العرب على جموع الحبشة، حتى اجتمع العبيد في سنة خمسين وأربع مئة[2] إلى ابن

(١) الكبسي: اللطائف السنية ورقة ١٦ ب.

(٢) عيون ١٤/٧ نقلاً عن المفيد في أخبار زبيد.

طرف ومن معهم من ملوك الحبشة، عشرين ألفاً، فسار إليهم الصليحي في ألفي فارس وسبع مئة. فالتقى الجمعان بالزرائب من أعمال ابن طرف، واستحرّ القتل أوّل يوم في العرب؛ ثم كانت الدائرة على السودان، ولم يبقَ منهم إلاّ ألف التجئوا إلى جبل يعرف بالعكْوَتين[1].

موت نجاح

ووافق ذلك موت نجاح بالكدراء في عام اثنين وخمسين وأربع مئة. ويروى أن الصليحي كان يعمل حيلة لقتل نجاح، حتى تمَّ له ما أراد على يد جارية حسناء كان قد أهداها إليه لتحقيق هذا الغرض[2]. ولكن هذا القتل لم يكن حداً فاصلاً بين الطرفين، بل كان بداية لعهد نزاع طويل بين الصليحيين والنجاحيين[3].

(١) في عيون ١٤/٧ قال: «العكوتان جبلان منيعان لا يطمع في حصارهما. وقال الراوي: وجبلا عكاد فوق مدينة الزرائب». وهما في وادي بيش شمال صبيا. وفيهما قال عمارة اليمني:

إذا رأيت جبلي عكاد وعكوتين من مكان باد
فابشري يا عين بالرقاد

وذكر عكوتان في النقش رقم ٢ في المختصر / غويدي ١٩ - ٣٠، وقد جاء فيه أن شمر يهرعش ملك سبا وذي ريدان طرد شعوب سهرت وذواوت وصحر وحرت «نحو عكوتين في الجهة الشمالية حتى إن البحر اختطفهم» (ب ع ل ى/ع ك و ت ن هـ ن/ب ك ن ف ش ا م ت/ ع د ى/ ح م ل هـ م و/ ب ح ر ن/).

(٢) عمارة / كاي ١١٦؛ عبر ٤ / ٢١٤؛ وأما إدريس فلم يذكر شيئاً عن هذه الحيلة، بل اكتفى بقوله: «مات نجاح»، كأنه مات موتاً طبيعياً.

(٣) قال حسن سليمان في رسالته: «وإن قول ابن الديبع (قرة ورقة ٢): «وكان الصليحي يدعو سراً للمستنصر، ويخاف نجاحاً في زبيد، فكان يتلطف له ظاهراً، ويعمل الحيلة في قتله»، وقول صاحب الأنباء/دار ٤٠: «إن الصليحي كتب للمستنصر سنة ٤٥٣ يستأذنه بإظهار الدعوة ووجه إليه بهدية جميلة فلما وصلت إليه أمر له برايات»، ليدل على أن الصليحي كان يدعو سراً للمستنصر قبل سنة ٤٥٢، خوفاً من نجاح صاحب تهامة، فلما تخلص منه في تلك السنة أعلن دعوته للأئمة الفاطميين. ولكننا نرى أن الصليحي كان يدعو للفاطميين سراً وجهراً قبل سنة ٤٥٢، ذلك أن الدولة الصليحية كانت تستند في هذا الوقت إلى دولة الفاطميين القوية العزيزة الجانب، وأن النجاحيين كانت تشد أزرهم أمبراطورية العباسيين المفككة المهيضة الجناح، التي بلغت من تفككها وضعفها أن أبا الحارث البساسيري أرسلان بن عبد الله التركماني مقدم الأتراك ببغداد خرج على طاعة القائم العباسي (عيون ٤٠/٧) واستطاع أن يخطب للخليفة الفاطمي

وقد اضطربت بلاد اليمن لهيبة الصليحي وعلوّ كلمته، وسمت همّته إلى تهامة. فملك المهجم. وكان سعيد بن نجاح قد استقام في ملك والده بزبيد. وتواصلت المصادمات والمناورات بين الجيوش العربية تحت راية الصليحي وجيوش الحبشة، وأظهر الصليحي براعته العسكرية بتأجيل أمر تهامة، وقرّر أن يقضي على فوضى الدويلات في اليمن الأسفل، ثم يتجه إلى عدوٍّ رئيسيٍّ بدون أن تشغله جبهة أخرى في داخل البلاد.

انتصاراته في اليمن الأسفل

فزار مسار وصنعاء زيارة قصيرة، ثم قصد بجيوشه اليمن الأسفل، واستولى على جبل صَبِر قهراً، وبلاد بني الكِرَنْدي ملوك المعافر، وحصن الدُّمْلُوَة، كما استولى على بلاد الحسين التّبعي صاحب حصن حبّ وبعدان والسّحول والشوافي[1].

ودخل الـجَنَد، «وهي يومئذٍ مدينة اليمن الأولى، ولم يكن في اليمن أشهر منها ومن مدينة صنعاء في الجاهلية وابتداء الإسلام إلى أوان الصليحي»[2]. ثم سار إلى عدن[3]، واستولى على بلاد بني معن الذين كانوا يملكون عدن. ثم هادن

= المستنصر على منابر بغداد سنة ٤٥٠. فعلي بن محمد الصليحي كان يستمد قوته المعنوية والروحية من الخلافة الفاطمية التي بلغت في الشطر الأول من عهد المستنصر أوج عظمتها (عيون ٧/٥٥). وكان لا يخاف نجاحاً، لأن سلطته كانت لا تعدو جزءاً من التهائم، في الوقت الذي كان الصليحي قد تغلب على معظم البلاد اليمنية، ولكن كان يحذره. وإذ لا يسعنا إلاّ القول بأن الصليحي كان يدعو للفاطميين سراً وجهراً قبل سنة ٤٥٢، وأن الدولة الصليحية كانت أكثر نفوذاً واستقراراً بعد قتل نجاح أكبر منافسيها في اليمن. وصارت الخطبة تقام على منابر البلاد التي خضعت للدولة الصليحية للخليفة المستنصر والملك علي الصليحي وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب، وزالت بذلك دعوة بني العباس من بلاد اليمن (بامخرمة: ثغر عدن ١/١٣٩ - ١٤٠)».

(١) المقتطف ٦٦.

(٢) عيون ٧/١٥.

(٣) ويــروى أنه لما استولى على الجند خطب في جامع الجند، وقال في خطبته: «في مثل هذا اليوم نخطب على منبر عدن إن شاء الله». قال أحد الحاضرين مستهزئاً: «سبوح قدوس»، فأمر الصليحي بحجزه. فلما كانت الجمعة الثانية وخطب الصليحي على منبر عدن، قال ذلك الرجل: «سبوحان قدوسان»، وتعالى في القول، ودخل الدعوة (عمارة/كاي ١٨؛ عيون ٧/١٥؛ وكفاية ٤٩).

بني معن، وسلّم إليهم بلادهم لما بذلوا له من السلم، وفي ذلك يقول حسين القمي على لسان الصليحي[1]: «. . . من نبأ توجّهه إلى عدن وتملكه قَسْراً، واستيلائه على عدن وأبين وأحور برّاً وبحراً بعد فرار المتغلبين عليها أجمعين، وتسليمهم لها، راغبين بما جرت عليه الحال بعد ذلك من تدبيره لأمره. . . فرأى بتوفيق الله أن يقبل ما بذل له من السلم، ويقنع بما صار إليه من الغنم، وتقاطع على تسليم عدن وفرضتها إليه. . . فَعَل ذلك وانكفأ عائداً إلى المخلاف. وأصدر المملوك[2] هذه الخدمة، وهو متوجه لمدينة صنعاء، دار الدعوة المنصورة، ومقر العساكر الموفورة، ليضم كلمتهم، ويجمع ألفتهم. وبذلك ينهض على اسم الله تعالى وبركات وليه إلى من بقي من العبيد بتهامةوقد أمن على ما يخلفه إلخ». فلا ريب أنه أراد بتسليم عدن وما والاها من البلاد بعد فتحها إلى سلاطين بني معن، كَسْب حلفاء أقوياء يعتمد عليهم عند معالجة مشكلة تهامة، كما قدم دليلاً آخر على تمسكه بسياسة المهادنة والملاطفة وعدم التعدي على حقوق الجوار، بالرغم مما رأى من بني معن من التهاون.

فتح تهامة

فشمّر الصليحي عن ساعد الجدّ في فتح تهامة، وسار إلى زبيد وافتتحها، ثم احتلّ التهائم كلها، وطرد منها أولاد نجاح الذين استقروا في جزيرة دهلك بعد هزيمتهم، «وسار في الناس بالعفو والصفح ورفع السيف وبسط العدل، ولاذت به العرب الذين كان العبيد استطالوا عليهم أيام نجاح»[4].

تحقيق الوحدة اليمنية

وكذا طوى الصليحي بلاد اليمن طيّاً، وافتتح جميعها؛ فلم يخرج سنة خمس

---

(١) رسائل القمي ١٩أ ـ ٢٢؛ هذه الرسالة من إنشاء القمي على لسان الملك علي بن محمد الصليحي موجهةً إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي.

(٢) المراد من المملوك هنا، الصليحي، وهو مصطلح عند أولي الدعوة يستعمله المتكلم للدلالة على ولائه لصاحب الزمان وهو الإمام، كما يقول أيضاً «مملوك آل محمد».

(٣) عيون ١٤/٧.

وخمسين وأربع مئة إلا وقد ملك كافة قطر اليمن: قلاعها وحصونها ومدنها وسهلها وجبلها، وامتد نفوذه من مكة إلى حضرموت. وتمنعت عليه صعدة بعض التمنع بأولاد الناصر، ولكنه ما لبث أن قتل القائم منهم وملكها[1] وأرسل الصليحي إلى السلطان معن خطاباً بعد فتح تهامة قد جاء فيه[2]: «الدولة حصينة، والصولة مكينة، والرايات منشورة، والأجناد منصورة، وسيوف الحق على الأعداء مشهورة، والحضرة بالسعود محروسة» إلخ. وهذا يدل على اطمئنانه باستقرار أمور الدولة وتوحيد كلمة اليمن.

وجعل الصليحي صنعاء عاصمة مملكته واتخذها حاضرة لدولته، وبنى فيها عدة قصور، وأسكن معه جميع ملوك اليمن تحت علم واحد؛ ورأت اليمن بعد قرون طويلة وحدة البلاد في ظل حكم عادل قوي.

إدارة البلاد وتولية الحكام

وما لبث أن أخذ الملك علي بن محمد الصليحي ينظم سياسة البلاد وإدارتها، وولى في الحصون والبلاد من ارتضاه من الوُلاة والحكام، ومن يثق فيهم[3]. فولى الصليحي على تهامة[4] الأمير أسعد بن شهاب، صِنوِ السيدة الحرة أسماء بنت شهاب زوجته، وكان الصّليحي قد أقسم ألاّ يولي التهائم إلاّ من يزن له مئة ألف دينار، ثم ندم على ذلك حين أراد أن يوليها أسعد بن شهاب. فوزنت له زوجته الملكة أسماء عن أخيها. فقال لها زوجها: «يا مولاتنا! من أين لك هذا؟» قالت: «هو من عند الله، إنَّ الله يرزق من يشاء بغير حساب». فتبسم، وعرف أنه من خزائنه، فقبضه، وقال: «هذه بضاعتنا رُدّت إلينا». فقالت له: «ونمير أهلنا، ونحفظ أخانا».

---

(١) أنباء دار ٤٠، ولم يذكر اسم القائم هذا.

(٢) رسائل القمي ٢٧.

(٣) بغية ورقة ١١.

(٤) هو أبو حسان أسعد بن شهاب الصليحي الأمير الكبير. كان جواداً كريماً عاقلاً وقوراً ولاه الملك علي الصليحي على زبيد وسائر تهامة فسار إليها سنة ٤٥٦ ويقول عن نفسه: «ثم أقمت والياً على زبيد والتهايم لم يتعلق بذمتي إلا ما لم أعلم به». وتوفي في شهر شعبان من نفس السنة.

دخل أسعد زبيد سنة ست وخمسين وأربع مئة وسكن دار شحار[١]، وأحسن السيرة في الرعية، وأذن لأهل السنة في إظهار مذهبهم[٢]، وعامل أرباب الدولة النجاحية بالحسنى[٣].

وقد استعمل الصليحي ابنه الأمير المكرم أحمد بن عليّ على الـجَنَد وعلى ما يليها، واستعمل أخاه السلطان عبد الله بن محمد بن عليّ على حصن التعكر وما والاه. فلما كان في سنة سبع وخمسين وأربع مئة اختط السلطان عبد الله بن محمد الصليحي مدينة ذي جبلة بأمر أخيه الملك علي بن محمد الصليحي[٤]. وقيل إن عبد الله بن محمد الصليحي هو الذي بنى قلعة تعز وابتدأ في تمدينها أيام أخيه علي الصليحي هو وابن أخيه المكرم أحمد بن علي الصليحي. وكان المكرم بالـجَنَد وعمه السلطان عبد الله بن محمد الصليحي في التعكر.

دخول الصليحي مكة وموقفه من الأشراف

ولم يكن اهتمام الصليحي مقصوراً على اليمن فحسب، بل كان ينظر إلى ما وراء حدود بلاده، وبالأخص إلى بلاد الحجاز والأراضي المقدسة ـ أقرب البلاد من اليمن، وأهمها في نظر المسلمين، وأحوجها إلى استقرار الحكم وحسن الإدارة فيها، فتوجّه اهتمام الصليحي إليها. وكان إخلاصه للدعوة الفاطمية، وتفانيه في رضا الإمام بمصر، يحتم عليه أن يجيب أوامره صاغراً، ويؤديها متبركاً برضاه، معتزًّا بثقته له. فلما خرجت مكة عن طاعة المستنصر[٥]، وقطعت الخطبة له من سنة ثلاث

---

(١) بناه شحار بن جعفر مولى زياد (عمارة/كاي ١٩).

(٢) قرة ورقة ٢٢.

(٣) الكبسي: اللطائف ورقة ١٧.

(٤) عيون ١٢٢/٧.

(٥) راجع محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ٩ ـ ٢٩ لما تقدم من الحوادث والأسباب التي أدت إلى تطلع الخلفاء الفاطميين إلى بسط سلطانهم على الأراضي المقدسة بالحجاز.

وخمسين وأربع مئة أرسل علي الصليحي إلى واليها الشريف شكر الحسيني[1]، وحذره مغبة خروجه، وتبودلت بين الطرفين مراسلات تنطوي على كثير من التهديد والوعيد، من ذلك قصيدة للشريف شكر بعث بها إلى الصليحي، جاء في أولها:

لتفليق الجماجم والرؤوس　　وإقحامي خميساً في خميس[2]

فأجابه الشاعر عمرو بن يحيى الهيثمي على لسان الملك علي بن محمد الصليحي ردّاً على الشريف شكر السليماني بقصيدة طويلة جاء فيها[3]:

دم الأبطال في اليوم العبوس　　مدامى لا شرابُ الخندريس
ولهوى بالنشيج إذا تلاقى الـ　　ـوشيج بمعرك حامي الوطيس
أحب إليَّ من نغمات عود　　وصادحة تغرِّد عيطموس
ولولا فضل من لَبّى وجدوى　　معدّ ذي الندى الغمر المسوس
لكنت حليف إقتار حبيسا　　بدار صريع أفيون شريس
أفق عن عيب أجدادي ومجدي　　فما بأسي بمفلول الضروس
ولا بيتي بهمدان بن زيد　　بمجهول الفروع ولا القنوس
أنا ابن حماتها وذرا قناها　　أنا ابن عنابس الحرب الضروس
أنا ابن سراتها الحكام فيها　　ذوي الأفضال مرضيّ المسيس

---

(١) فخر المعالي أو تاج المعالي أبو عبد الله شكر بن أبي الفتوح، أصله من ملوك مكة السليمانيين من بني حسن، نسبه إلى سليمان بن الحسن المثنى بن الحسن السبط (القلقشندي: صبح الأعشى ٢٦٨/٤ - ٢٦٩)؛ تولى شكر ولاية مكة بعد موت أبيه سنة ٤٣٠، وتمكن من بسط نفوذه على المدينة، وأقام الدعوة المستنصرية في الحرمين، واستمرت الحال على ذلك حتى سنة ٤٥٣ (ابن زيني دحلان: خلاصة الكلام ١٨)؛ وكان شكر هذا شاعراً محباً للأدباء يذكر له ابن الأثير (الكامل ١٢/١٠) قوله:

قوض خيامك عن أرض تضام بها　　وجانب الذل إن الذل مجتنب
وارحل إذا كان في الأوطان منقصة　　فالمندل الرطب في أوطانه حطب

(٢) عيون ١٧/٧.

(٣) وهي قصيدة طويلة جاء نصها الكامل في عيون ١٧/٧ - ١٩.

نماني كــلّ أغلب حــاشــديّ	عــدوّ للخنَــا عنــه شمــوس
بَنَــوا، وأتمّ مفخـرهم بنــائي	وقـوّى حبـل مجـدهم فـريسي
وكم ملك أسرت، وكم خميس	أبــاد ســراتَــه قتــلا خميسي
وكـم نـقــع أثــارتــه رعــالي	فخِيـل الجـوُّ منه في سُـدوسي
وكـم قــوم نعـشْـتُـهُـم وقــوم	طحنتُهُـم وحصـن من مَـرِيس
بني حسن! ألا تنهــون شكـراً	عن استمطاره سحب النحوس
أتـاني السبّ عنه، وقـال: إني	إذا أقسمت أحلف بـالمجـوس
الى قــسـم بــغــير أبي تمـيــم	وأسـرته البـدور من الشمـوس
متى أذن الإمـام بحـرب شكـر	أتتــه بـالــردى خيــلي وعيسي
بني حسن! حــذار! إذا أتتكم	جنـود الله بالخـطب الشكـوس

ولما عيل صبر الصليحي، وضاق صدره، طلب من الإمام أن يأذن له بإزالة الشريف عن مكة ليكون أمرها إليه. فأجابه الإمام ينهاه عن سفك الدماء بالحرم، فقال: «إياك أن تلقى الله بدماء بني فاطمة»[1]. فاعتمد الصليحي أمر إمامه، وصبر مدة على ما كان يجري بالبلاد المقدسة.

ثم توجه الصليحي إلى مكة في السادس من شهر ذي الحجة سنة ٤٥٤[2] وقضى فرض الحج ومعه ملوك اليمن وزعماؤها، وانتزعها من بني أبي الطيب؛

---

(١) عيون ١٩/٧.

(٢) وقد أجمع معظم المراجع على أن وصول الصليحي إلى مكة كان في موسم حج سنة ٤٥٥؛ وانفرد إدريس برأي فقال: إن حجه كان في موسم الحج سنة ٤٥٤. وإننا نؤيد قول إدريس لأن سجل الخليفة المستنصر الموجه إلى الصليحي كما ورد في عيون ١٩/٧ والسجلات رقم ٧ كتب في العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ٤٥٥ بعد أن عاد من مكة. ويؤيده ما ورد في السجلات رقم ٤ أن الخطابين اللذين أرسلهما الصليحي إلى المستنصر بعد عودته من مكة قد وصلا ـ أحدهما صدر من صنعاء في شهر شعبان سنة ٤٥٥، والآخر صدر من المجر في شوال من نفس السنة.

ذلك أن شكراً لما توفي، وخلفه ابن جعفر[١] رئيس الهواشم وزوج ابنة شكر[٢]، أوقع بالسليمانيين الهزيمة، وأخرجهم من بلاد الحجاز، واستقل بإمارة مكة، وأقام الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي[٣]. ولكنه لم يعمل على الاحتفاظ بسيادة الفاطميين على مكة؛ لأنه ما لبث أن انحرف عنهم، وأمر بذكر اسم الخليفة القائم العباسي[٤].

حسنات الصليحي في البلاد المقدسة

ولما انتهى الصليحي من فريضة الحج أخرج من الأموال والصدقات للبيت وإقامة حرمه ومناسكه ما يفوق حد التصور[٥] وعامل الناس بالحسنى وأظهر العدل والإحسان، وعمل على استمالة الناس إلى جانبه بما امتلك من الأموال[٦]، فطابت قلوبهم، ورخصت الأسعار، وأمنت الحاج أمناً لم يعرف مثله من قبل، حتى إنهم كانوا يعتمرون ليلاً ونهاراً، وأموالهم محفوظة، ورحالهم محروسة[٧]. ولم تقف أعماله هناك عند هذا الحدّ، بل إنه أدب القبائل التي كانت تعتدي على الحاج، فرد بني شيبة عن قبيح أعمالهم وأفعالهم مع الحاج، ورد إلى البيت من الحلى ما كان بنو الطيب الحسنيون قد أخذوه لما ملكوا بعد شكر وكانوا قد عروا البيت والميزاب[٨]؛ ثم أخذ يصلح ما أفسده الأشراف في هذه البلاد، وتحمل ديات القتلى من ماله الخاص، فكسب بحسن سياسته رضا إمامه وثقة كثير من أهالي البلاد الإسلامية، لما قدمه من خدمات الحجاج المسلمين عامة، وما قام به من كسوة الكعبة بالديباج الأبيض[٩]، وما جلبه من الأقوات إلى أهالي هذه البلاد فلهجت الألسن بالدعاء له في كل مكان[١٠].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/٢٧٠.
(٢) أبو الطيب: شفاء الغرام (الباب السابع والثلاثون).
(٣) ابن خلدون: العبر ٤/١٢٢.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/٢٧٠.
(٥) عيون ٧/١٩.
(٦) السجلات رقم ٧.
(٧) الفاسي: تحفة الكرام ١٨٨.
(٨) ابن الجوزي: مرآة الزمان ١٢/١ ورقة ٨٨.
(٩) الفاكهي: المنتقى ٥٤.
(١٠) العيني: عقد الجمان ٤٢١ ـ ٤٥٤ ورقة ٢٢٦.

أقام الصليحي حتى يوم عاشوراء من سنة ٤٥٥ يخطب للخليفة المستنصر في الحجاز، ويعيب على العباسيين إهمالهم شئون الدين. وفي أثناء إقامته بمكة راسله الأشراف الحسينيون المغلوبون على أمرهم، وطلبوا منه أن يختار من بينهم والياً عليهم، وبذلوا له الطاعة؛ فأقام على البلد واليها السابق محمد بن جعفر، وأعطاه مالاً وسلاحاً، وأصلح بين العساكر. ودل بهذا على حسن سياسته، لأنه لم يتعنت مع الحسنيين ولم يظلم الحسينيين، وآثر أن يحسن معاملتهم ليكسب ودهم، وخاف أن يترك البلد قبل أن تستقر الأمور فيها، فتقع في أيديهم ويستمرون في عنادهم وخلافاتهم فاستعمل معهم اللين؛ وبذلك نجح في تحقيق سياسته مؤقتاً، وقفل راجعاً إلى صنعاء.

تلون الأشراف

ولم يعمل الشريف محمد بن جعفر أمير مكة طَوال عهده (٤٥٣ ـ ٤٨٧) على تنظيم الأمور في الأراضي المقدسة وإقرار الأمن بها، بالرغم من المساعدات المالية التي كانت ترد إليه من الخليفة العباسي أحياناً، ومن الخليفة الفاطمي أحياناً أخرى، بل أساء السيرة فيها، وأصبح الحاج في أواخر أيامه لا يأمنون على أنفسهم[١]، كذلك لم يبد من هذا الشريف ما يشعر برغبته في الاستقلال عن الخلافة العباسية أو الفاطمية، بل دان لكل منهما بالطاعة في فترات متقاربة، حتى وصفه أبو المحاسن[٢]، بأنه كان متلوناً تارة مع الخلفاء العباسيين، وتارة مع المصريين الفاطميين[٣].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٨٣.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٥/١٤٠.

(٣) ويظهر من هذا أن الهواشم كانوا يلعبون بمصالح البلاد المقدسة ومصالح المسلمين جرياً وراء المال. وهناك رأي آخر أفادنا به الشريف خالد صادق، قال: «إن هذا التلون يرجع إلى دوافع سياسية وأخرى اقتصادية، وذلك لأن مكة المكرمة كان يصل إليها في موسم الحج كل عام، قوافل حجاج عظيمة برفقة جيوش مسلحة تحت إمرة أمراء الحاج، وكان كل واحد من هؤلاء الأمراء يمثل ملكاً ودولة تختلف في سياستها وقوميتها وأهدافها السياسية، بل ومذاهبها الدينية عن الأخرى اختلافاً كبيراً، فتسبب عن هذا التباين تصادم، إما في التقدم

الخليفة الفاطمي يشكر الصليحي

وبعد عودة الصليحي إلى صنعاء شكر له الخليفة المستنصر حسن صنيعه وامتثاله لأوامره بعدم إراقة الدماء فيها؛ وليس أدل على ذلك مما قاله الإمام نفسه: «إن أمير المؤمنين هو الذي ثنا عنانك، ولا وصمة عليك أن قبضت دونهم بنانك. . . وعزيز على أمير المؤمنين أن تنهك بحرم الله سطوره، أو تنعكس أموره»[1].

أما الشريف محمد بن جعفر فقد هجم على مدينة الحلى[2]، واستولى على ما بها من متاع للصليحي، وقصد بذلك إثارة الفتن وتهييج العامة[3]. وقد شكا الصليحي هذا الأمر إلى إمامه بمصر فأجابه: أما الشريف صاحب مكة «فإنك تستخير الله تعالى، وتتوخى له متقدماً للإعذار والإنذار واللين في المقال إن نجح أو أثر، وإلاّ حاكمته إلى الله جل وعلا، وهو خير الحاكمين»[4].

= في المراسيم المتبعة لدى أشراف مكة، أو في إحراز مركز ممتاز. وترتب على هذا كله تغيير موقف الأشراف هناك حسب التوازن بين القوى المتضادة. كذلك كان ضعف موارد بلاد الحجاز مما جعل الأشراف هناك يقبلون المساعدات التي كانت تقدم إليهم تأميناً لأمن البلاد وإنعاشاً لاقتصادها»

(١) السجلات رقم ٧.

(٢) معجم البلدان/ الحلى. (٣) عيون ٢٣/٧.

(٤) السجلات رقم ٤. ولم يستمر ولاء الهواشم للفاطميين طويلاً، لأن الشريف محمد بن جعفر قطع خطبة المستنصر وخطب لبني العباس في سنة ٤٥٨؛ فقامت ثورة على هذا الشريف وخلعوه بعد أن قطعت ميرة مصر عن مكة، فأعاد خطبة المستنصر مرة ثانية. ونحن نرى أن حسن سيرة الصليحي وسياسته في هذه البلاد بالإضافة إلى ما رآه الناس هناك من استتباب الأمن في البلاد نتيجة لهذه السياسة، كان لها أثر فعال في قيام الثورة على هذا الشريف. وكان من أثر ذلك أن أرسل الخليفة العباسي أموالاً جزيلة إلى مكة في موسم حج سنة ٤٦٢، فخطب له الشريف في موسم هذا الحج فقط، وكتب إلى المستنصر بمصر يعتذر إليه، ولكن السلطان ألب أرسلان السلجوقي أجزل العطاء إلى هذا الشريف؛ فأرسل إليه ثلاثين ألف دينار، وجعل له مرتباً سنوياً قدره عشرة آلاف دينار (ابن الأثير: الكامل ٢١/١٠). وفي سنة ٤٦٧ أرسل المستنصر هدية جليلة إلى الشريف محمد بن جعفر، وطلب منه إعادة الخطبة بمكة للفاطميين، وقال: «إن عهودك كانت للخليفة القائم العباسيّ والسلطان ألب أرسلان وقد توفيا»، فقطع خطبة المقتدي بعد أن خطب للعباسيين أربع سنوات وخمسة أشهر (ابن إياس: بدائع الزهور ٢٤/٢).

حالة اليمن بعد عودة الصليحي من الحجاز

وفي أثناء غيابه عن اليمن قامت الفتن والثورات في بعض أنحاء مملكته، فثار عليه قوم من عَنْس وزُبَيد، وأظهروا الخلاف والعصيان والتفوا حول رجل منهم، والتجئوا إلى جبل مَثْوة[1] وما جاوره من الجبال، وعظم شغبهم وفسادهم؛ فقصدهم الصليحي إلى معاقلهم فاقتحمها عنوة حتى دانوا له بالطاعة، بعد أن قتل منهم كثيراً في أثناء الحرب وعفا عمن بقي منهم[2].

ولاية العهد

فكر الملك علي الصليحي بعد ذلك في ولاية العهد؛ فلما بلغ الأمير محمد بن علي الصليحي أكبر أنجاله مبلغ الرجال، رغب في أن يولّيه دولته لينوب عنه في حياته وبعد مماته. فكتب إلى المستنصر بالله سنة ٤٥٦ يخبره بما استقرّ عليه رأيه. فورد إليه سجل الإمام بالموافقة على هذا داعياً للأمير بالتوفيق، ولقّبه بالأمير الأعزّ شمس المعالي[3]، وأذن له الإمام بأن يذكر هذا اللقب على منابر البلاد اليمنية، وكان وصول السجل المستنصري إلى الصليحي في مدينة صنعاء في شهر رجب سنة ٤٥٦. وتصادف أن توفّي في شهر شعبان من نفس السنة الأمير أسعد بن شهاب والي الملك عليّ الصليحي على زبيد وأعمالها[4]، فرأى الصليحي

(١) وحصن مثوة في مصانع رعين في مخلاف ذي رعين (صفة ١٠١، ١٢٥).

(٢) عيون ٢٣/٧.

(٣) وأضيف هذا اللقب إلى ألقابه القديمة وهي: منتخب الدولة وصفوتها، ذو المجدين (عيون ٧٦/٧؛ انظر الملحق رقم ٢).

(٤) وإن قول صاحب قلادة النحر ٢/٢ ورقة ٦٢٨ من أن أسعد بن شهاب تولى زبيد سنة ٤٥٦، وظل حاكماً بها خمسة عشر عاماً حتى أخرجه منها جياش بن نجاح سنة ٤٨٢، قول لا أساس له من الصحة، وقد ثبت بطلانه برواية صاحب العيون ٧٦/٧.

أن يولّي ابنه الأعزّ على ما كان لخاله أسعد، وأراد أن يتركه حرّ التصرف في إدارة شئونها لكي يختبره ويدرّبه على الحكم.

موت الأمير الأعز محمد الصليحي

ولقد وصل الأمير الأعزّ محمد بن علي الصليحي إلى زبيد في شهر شعبان من سنة ٤٥٧. وبعد خمسة أشهر من حكم تهامة سار أبوه الملك الصليحي بصحبة الملكة السيدة الحرة أسماء بنت شهاب وولدها الموفّق في شهر محرم سنة ٤٥٨ إلى زبيد، وأقاموا في ضيافة الأعزّ مدّة قصيرة، ثم عولوا على السير إلى صنعاء. فصحبهم الأعزّ مودعاً، وكان يريد أن يبلغ معهم العمد. فلما صار بالمصقع أصابته الحمّى، فأمره والده بالرجوع إلى زبيد، فرجع إليها. ودخلها ليلة الثلاثاء لعشرين ليلة خلت من المحرّم، وقد ازداد عليه المرض، فلم يمهله. فتوفي في الثاني والعشرين من المحرم سنة ٤٥٨، وعمره سبع وعشرون سنة[١]. ولـمّا وصل خبر وفاته إلى والده وهو على وشك طلوع مسار مع الملكة السيدة أسماء اشتدّ عليهما الحزن[٢]، وقفل الملك علي الصليحي عائداً إلى زبيد بجميع من معه. فوصل إليها ليلة الاثنين ولم يكن ابنه الأعزّ قد دفن، فشيّع جنازته يوم وصوله، ودفنه غربي قبر خاله أسعد بن شهاب.

وفي ذلك يقول القاضي عمران بن الفضل اليامي[٣]:

---

(١) عيون ٧٨/٧.

(٢) وقد روي عن علي بن محمد الصليحي قصة الرؤيين اللتين رءاهما بعد موت ابنه الأعز محمد. وردت القصة في الرسالة المسماة بقصة رؤيا علي بن محمد الصليحي، ويقال إنها من تأليف الصليحي. وإنما يخيل لي أنها منسوبة إليه وأنها تأليف غيره ولكنه حكاها على لسان الصليحي. وجاء في القصة أن الصليحي ناله الأسف على ابنه محمد والحزن من بعده، وأنه رأى في منامه كأنه جالس بين أيدي إمامه المستنصر في دار واسعة وهو يشكو إلى الله وإلى الإمام مما لحقه من الحزن والهم بوفاة ابنه الأعز ويقول له: «يا مولانا انظر إلى هذا الركن قد انهدم حتى أنا أنظر الصحراء من خلفه». وكان الإمام يعزيه ويسليه بقوله: «هذا الركن كان ركناً لولدك محمد. أنا أشيده لولدك أحمد حتى يعود كما كان. فلا تحزن ولا تغتم ولا والدته ولا كافة المؤمنين». ولا تخلو هذه القصة من طرافة الخيال الشعري وحقائق تاريخية.

(٣) عيون ٧٨/٧.

عالَ صبري فراقُ ذي المجدَيْن وجفاني الكرى وأسهد عيني
صاحِ إن الندى ونجل عليٍّ سكَنا في ضريحه لحدَيْن
ما رأينا ولا سمعنا بقبر قبل هذا مُضمَّنا شخصَين

كما رثاه الشاعر عمرو بن يحيى الهيثمي بقصيدة طويلة جاء فيها[1]:

فَتزلزلَتْ شُمُّ الجبال لفقده وأضلَّ سالكَه الطريقُ اللَّهْجَمُ[2]
والشمس كاسفةٌ عليه حسرةً والجوُّ في وقت الظهيرة مُظلمُ
إن تهدم الأيّام قبر محمد[3] فسناؤه فوق السهى لا يهدَمُ

وبعد أن أقام الملك علي بن محمد الصليحي العزاء على ابنه الأعز سبعة أيام يقرأ فيها القرآن أرسل رسله إلى الإمام بمصر في شهر صفر سنة ٤٥٨[4]. وفي هذه الأثناء توفيت ابنته ميمونة غمًّا على أخيها الأعزّ. وقبل أن تصل رسل الصليحي إلى الإمام كان هذا قد علم بوفاة الأعزّ، فأرسل سجلاً إلى الصليحي[5] وصله وهو في أبين في شهر ربيع الآخر سنة ٤٥٨، وفيه عزاء الإمام وتعيين الأمير المكرّم وليًّا للعهد بعد أخيه، كما كتب الإمام سجلاً[6] إلى الأمير المكرّم في شهر ربيع الأول سنة ٤٥٨ يوصيه بوالده خيراً

رد المستنصر على طلب الصليحي لزيارة مصر

أنفذ الصليحي إلى الإمام قبل وصول الرد على رسالته السابقة وفداً يتكون من القاضي عمران بن الفضل ونجيب بن عفير ويوسف بن محمد وعنتر بن غشم، وكان يبغي السماح له بالحج «ليطهّر نفسه من دنس الدنيا، ويقضي على

---

(١) عيون ٧٨/٧.
(٢) اللهجم أي الطريق الواسع المذلل قد أثر فيه السابلة حتى استتب وكأن الميم فيه زائد والأصل فيه لهج (ل/لهجم).
(٣) في رواية: عمر محمد.
(٤) عيون ٧٩/٧ ـ ٨٠.
(٥) نفسه؛ انظر الملحق رقم ٣.
(٦) انظر الملحق رقم ٤.

الفساد الذي حلّ بالحرم المعظَّم، ويقوم مناره، ويقيم للعدل عماده، ويعمر طرقه للسفر، ويطهرها من المفسدين»[1]. فوافق الإمام على طلبه وأرسل إليه سجلاً[2] بذلك مؤرخاً في شهر ربيع الأول سنة ٤٥٩، وفيه نصح لداعيه بأن يعالج الأمور في هذه الجهات بتأليف القلوب وتجنّب الحروب، وأن يؤثر الخير والعافية ما استطاع، وأن يجنب نفسه والناس الفتنة ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وقال: «وأنت خير من لحظته عين الإمامة بالاصطناع. . . وإن أمكنك ذلك المكان، بتأليف القلوب، وتجنب سورة الحروب، فوا برد ذلك على الأكباد، إنه لآية المراد، وغاية قصد القصّاد»، كذلك طلب الصليحي من الإمام أن يسمح له بالمثول بين يديه، فردَّ عليه بأنه يشفق عليه لبعد الطريق ومشقته.

ولعلَّ السبب في عدم موافقة المقام الإمامي على ذهاب الملك الصليحي إلى مصر، يرجع إلى أن حالة مصر في ذلك الوقت كانت سيئة جداً بسبب الشدة العظمى[3] التي اجتاحت البلاد. وحسبنا أن نشير إلى الفتنة[4] التي جرت في سنة ٤٥٤ بين ناصر الدولة بن حمدان وأتباعه الأتراك، وفتوح الشامي وأنصاره العبيد، حينما وردت إلى مصر هدية موجهة من الملك علي بن محمد الصليحي إلى إمامه المستنصر «عظيمة القدر لم يسمع بمثلها»، وأن نشير إلى ضعف الخليفة المستنصر

---

(١) عيون ٧/٨٠ ـ ٨٢.

(٢) ورد السجل في عيون ٧/٨٢ ـ ٨٦ (انظر الملحق رقم ٥). قد عهد الإمام المستنصر إلى الصليحي بأن يتوجه إلى حضرموت ونشر الدعوة في آفاقها. ومن أثر هذا التكليف أن دخل الصليحي في حروب مع هذه البلاد ولكنه لم يفتحها (راجع د. الإمام إبراهيم بن أبي قيس الحضرمي)، بل دخلت حضرموت بفضل مساعي الصليحي تحت نفوذ الصليحيين الديني في عهد الملك المكرم.

(٣) اجتاحت الشدة العظمى مصر في المدة ما بين (٤٥٩ ـ ٤٦٦) وتعرضت في أثنائها البلاد للنهب والسلب والخراب بسبب اختلال الأمن وانتشار الفوضى. ولما يئس المستنصر من استصلاح الحالة استوزر بدراً الجمالي فيما بين (٤٦٦ ـ ٤٨٧) وبتوليته الوزارة بدأ عصر الوزراء العظام.

(٤) عيون ٧/٦٦ ـ ٧٢.

أمام مطالبات ابن حمدان ولجاجه في السؤال. ولعلَّ المقام الإمامي خشي أن يطلع الصليحي ومن معه على حقيقة هذه الأمور، فيترك في نفوسهم أثراً غير مرضي. ويحتمل أن يكون الإمام رغب في ألا يبتعد الصليحي عن دولته فيشق عليه الأعداء عصا الطاعة إذا ما أنسوا بعد الملك عنهم. وقد أثبتت الأيام أن البلاد جميعها كادت تخرج من قبضة الدولة الصليحية حين علموا بقتل علي الصليحي سنة ٤٥٩، وقد لاقى الملك المكرم صعاباً جمة، في إعادة الحياة إلى مجاريها وتثبيت مركز هذه الدولة مرة ثانية.

قيام المكرم بأعمال الدولة

بعد أن استعد الملك عليّ استعداداً حسناً، أوصى ابنه أحمد المكرم «بالعدل وحسن السيرة والسياسة، وتقوى الله في الجهر والسريرة، والعمل بأعمال الشريعة وإقامة دعائمها، والائتمار بأوامرها والانتهاء عن محارمها»[١]. وفي العهد إلى المكرم قال القاضي الحسن بن أبي عقامة قصيدة طويلة جاء فيها[٢]:

هَنَا الدينَ والعلياءَ تَقليدُكَ الأمرا ... فقد طوق التقليد هذا وذي فخرا
لعمري لقد طال انتظارهما لذا ... وعدًّا له الأيام والحول والشهرا
إلى أن أتى تحقيق ما كان ظنّه ... وللكون فعلٌ ليس تفعله البُشرى
فلو ملكا قولاً إذن ثنيا به ... ولو ملكا بطشاً إذن سجدا شكرا

ثم غادر الملك عليّ الصليحي صنعاء، وترك فيها ابنه الأمير أحمد المكرم[٣]، ومعه السلطان أحمد بن المظفر الصليحي[٤]. وفي هذا يقول الشاعر عمرو بن يحيى الهيثمي قصيدة جاء فيها:

---

(١) عيون ٨٨/٧.

(٢) ورد نص هذه القصيدة في عيون ٨٦/٧ - ٨٨.

(٣) وسيأتي ذكره في الباب الخامس.

(٤) في عيون ٨٦/٧ جاء: ومعه خاله أحمد بن المظفر الصليحي. والظاهر أن أحمد بن المظفر لم يكن خال المكرم.

مـا لمن فـارق الأحبـة عـذر إن نهى دمعه عن الفيض صبر
إنّ سيف الإمام كالبحر ذي المو ج لـه في البلاد مَـدٌّ وجَزْرُ
ولَئِـنْ سـاءنـا فِـراقُ عـليّ فبـأحْمَد ابنـه لنا مـا يَسُـرُّ
ذاكَ بَـحْـرٌ سَقى بـه مَـكَّـةَ الله وهـذا لـوفـد صَنْعَـاء بَحْـرُ[1]

الموكب الملكي اليمني

قدم الملك علي أمامه خمسين ملكاً من ملوك اليمن المغلوبين على أمرهم، ومئة وسبعين من آل الصليحي وغيرهم، مـمّن أرادوا الحجّ معه من يام وجنب وسنحان وأهل حراز. وقد رمى من سيرهم أمامه عدم ازدحام الطريق بهم. ثم سار في ألفي فارس وبين يديه خمس مئة فرس مطهمة بالسروج المحلاة بالذهب والفضة، وخمسون هجيناً[2]، وغير ذلك من الزينة والآلات، مما لا يدخل تحت الحصر[3].

خيانة العبيد وقتل الصليحي وأسر السيدة الحرة أسماء

وكان قيامه من صنعاء في يوم الإثنين السادس من ذي القعدة سنة ٤٥٩. ولكن في هذه الأثناء كانت نار الحقد وحب الانتقام تلتهم قلوب بني نجاح بزعامة سعيد الأحول. فكانوا يتربّصون الفرص للإيقاع بالصليحي والعمل على تقويض دولتـه، التي كانت سبباً في زوال ملكهم. وكان يشجعهم عـلى الاستمرار في المطالبة بحقوقهم، ويقوي عزمهم على الأخذ بثأر نجاح، فرح الحبشي أحد عبيد نجاح، الذي أخذ يحرض العبيد الأحباش ويشد أزرهم في الخفاء. فلما وصل الخبر إلى الصليحي، استقدم فرحاً وعاقبه وذكر له إحسانه إليه وتقديمه ورفع مكانه. فأنكر فرح ما نسب إليه وحلف الأيمان المغلظة، وقرّر أنه سيذهب ليأتي برأس سعيد

---

(١) باغرمة: قلادة ٢/٢ ورقة ٦٠١؛ الأصبهاني: خريدة ٢/ ورقة ٢٧٩، وجاء في الخريدة في البيت الثالث:

ولئـن سـاءنـا فـراق عـلـي فبتـرك ابنـه لـنـا مـا يسـر

(٢) أنباء / دار ٤٠.
(٣) كفاية ٤٩.

الأحول إلى الصليحي الذي صدَّقه. ولكن فرحاً لما ذهب إلى زبيد أخذ يحرض العبيد بقوله: إنه قد اشتهر أمركم فأدركوا نفوسكم، وإلاَّ فإنه قد حان هلاككم[١]. فلما بلغ الصليحي ذلك أمر بالقبض على فرح الذي ساقه أبو السعود بن أسعد بن شهاب مكبلاً، فأمر الصليحي بقتله حين ثبت له فساده وعناده. وكان من أثر ذلك أن شق الأحباش عصا الطاعة على مواليهم بزبيد حيث وثبوا على أبي السعود وأحمد ابني أسعد بن شهاب فقتلوهما، وقتلوا من كان معهما من أهل حراز ونهبوا ما معهم من أموال وكراع[٢].

ولما قوي أمرهم عزموا على محاربة الملك علي الصليحي، فاستدعوا من كان على رأيهم من العبيد بتهامة والحجاز للقيام معهم لحرب الصليحيين. وقد وقفوا من عيونهم على أن الصليحي لم يكن معه أحد من أهل البأس والمراس، لأن رجاله قد تقدموه وجميع أمواله وأثقاله مبثوثة فيما بين هجر والمهجم، لأن البلاد قد تمهد مهادها واستقام عمادها وأمنت السبل وخضع كل عزيز وذل[٣]. ولم يكن مع الصليحي في المهجم إلاَّ ابنه الموفّق وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب وأخواه عبد الله وإبراهيم وجماعة من بني الصليحي. وكان الصليحي لـمّا علم بأن الأحباش في طريقهم لقتاله قد أنفذ عبيده لمقاتلة عدوّه. وقد عهد إليهم بهذا الأمر لوثوقه فيهم لأنّه وليّ نعمتهم، وله عليهم فضل وإحسان، فهبّوا مسرعين متظاهرين بالحماسة والإخلاص، «ولكنّهم أضمروا الخيانةَ والغَدر، لأنّهم حين التقوا في الطريق ببني جلدتهم، غدروا بسيّدهم وحرّضوا العبيد من الحبشة على قصده، ودلّوهم على موضعه وقالوا لهم: إن فاتكم غداً السبت لحق بأصحابه وعسكره وامتنع عليكم. فأصغوا إلى نصيحتهم وقويت نفوسهم وصحّت عزائمهم وساروا إليه مجدّين، حتّى فاجئوه بضيعة يقال لها أم الدهيم، وانقضوا

---

(١) عيون ٧/٨٩.

(٢) نفسه.

(٣) الفاسي: تحفة الكرام ورقة ١٨٨.

عليه في يوم السبت الحادي عشر من ذي القعدة، ومعه بنو عمه الذين أبلوا بلاء شديداً، وكان السلطان عبد الله بن محمد أشدهم يومئذ إقداماً وأعظمهم بطشاً بالأعداء»[١].

قتل الصليحي وأخواه عبد الله وإبراهيم وبعض أقاربه. أما الأمير الموفّق ابن علي الصليحي ومهنّا بن علي بن المظفّر الصليحي فقد اتجها إلى مكان السيدات لحمايته، ولكن العبيد ما لبثوا أن حاصروا هذا المكان واستمرّ حصارهم حتى يوم الأربعاء الخامس عشر من ذي القعدة. فاستأمن مهنّا، وخرج إلى الأحول، فأخذ منه ميثاقاً شديداً على الحرائر الصليحيات وعلى من بقي من بني الصليحي وسواهم، وحلف له أغلظ الأيمان بأنه سيطلق سراحهم ليسيروا إلى صنعاء، فوثق بقوله، ونقل السيدات إلى دار أخرى، وغدر الأحول بالرجال فقتلهم عن آخرهم، ونهب كلّ ما كان في الدار من أموال جليلة القدر من العين والوَرِق[٢]، وسائر ما يدخره الملوك[٣]. وكان الداعي قد أعدّها لينفق منها على الجند، وعلى صالح البيت الحرام، ويقدمه إلى إمامه[٤]. ومما غنمه ألف فرس وثلاثة آلاف جمل بعددها[٥].

وسألت الملكة السيدة أسماء بنت شهاب سعيداً الأحول أن يسمح لها، هي ومن معها من النساء بالعودة إلى صنعاء، فامتنع. ثم سار إلى زبيد ومعه النساء ورأسا الملك علي بن محمد الصليحي وأخيه السلطان عبد الله محمولان على رمحين أمام هودج الملكة أسماء. ونُصِبَ الرمحان أمام الطاق الذي تنظر منه الملكة الحرة أسماء في الدار التي حلت بها، إلاّ أن القائد بذل ما استطاع من المجهود لصيانة السيدات.

غرض الصليحي من حج البيت الحرام

وفي قيام الصليحي للحج وقتله بالطريق قال حسين القمي[٦]: «قام المملوك[٧]، قاصداً مكة لحج البيت الحرام، وتسهيل الحج لطالبي

---

(١) عيون ٧/ ٩٠.

(٢) الورق هو المال من الدراهم المضروبة، وكذلك الرقة والهاء عوض عن الواو.

(٣) أنباء / دار ٤٠.

(٤) عيون ٧/ ٩١.

(٥) عمارة / كاي ٦٤.

(٦) رسائل القمي ٤١ ـ ٤٢.

(٧) المراد منه الصليحي كما ذكرناه في ص ٨٦، هامش رقم ٢.

قصده كلّ عام. . . وعمارة ما درس من آثاره، وإبانة ما عفا من مناره، وأمان قاصديه وزوّاره، وإجراء مارقاً من أنهاره، وحط المؤن عن سفاره، ومواساة من قطن. . . راجياً أن يتجر بأربح المتاجر، ويحوز في الدنيا شكر الوارد الصادر، ويستولي في الأخرى على الأجر الكامل الوافر، ويكون من الداخلين في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّما يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوم ٱلآخِرِ﴾. واستمرّ في طريقه حتى وصل قرية العمد[1] في يوم الخميس التاسع من ذي القعدة، ثم سار من العمد وقصد سردد، فنزل بها في يوم الجمعة. ولما وصل له الخبر بخروج العبيد من زبيد أخرج الصليحي له ما كان بحضرته من عبيد «وأعلمهم بمقصوده، فحادوا عن طريق العبد عمداً. . . فلما سار العبد بإزاء سردد، خرج المملوك لاستقباله، وتخلف العبيد عن الخروج لقتاله، وأعلموا ابن نجاح بانفراد الأجل الأوحد، وأنها فرصة إن فاتته وقع في الندامة. . . وقادوه إلى الانتهاز والاغتنام. . . فاستشهد رحمة الله عليه ومن معه في الثاني عشر من ذي القعدة»[2].

من هذه الوثيقة التي أوردها القمي نرى أن الصليحي لم يقصد بلاد العراق ولا مصر لذاتها، كما قال صاحب الأنباء[3] وصاحب اللطائف[4]، ولم يكن يبغي الحج لذاته، كما قال ابن الديبع[5] وبامخرمة[6]؛ بل كان له برنامج إصلاحي حافل بالأعمال، بعضه يتعلق بالمساعي الخيرية، كتسهيل الحج وعمارة الآثار وحطّ المؤن وإجراء الأنهار، والبعض الآخر يتعلق بزيارته لإمامه. وتحقيقاً لهذا البرنامج قام الصليحي بسفارته على النحو الذي وصفناه، ولكنه ما لبث أن قتل نتيجة لخيانة عبيده وعدم اتخاذه الاحتياطات اللازمة لمواجهة العدوّ.

---

(١) العمد في أرض لعسان في بطن تهامة، ومواردها أسفل سهام وأسفل سردد، وسوقها المهجم والكدراء كما ذكره الهمداني في صفة ١٠٥ ـ ١٠٦. وقال القاضي محمد الحجري: إنها قرية من قرى همدان من مديرية آل سريح.

(٢) رسائل القمي ٤٥؛ قال إدريس (عيون ٧/٩٠): إن قتله كان يوم السبت الحادي عشر من ذي القعدة سنة ٤٥٩.

(٣) أنباء/دار ٤١.

(٤) الكبسي: اللطائف ١٧.

(٥) قرة ورقة ٢٣.

(٦) قلادة ٢/٢ ورقة ٦٠٠.

هذا وقد اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي قتل فيها علي الصليحي، كما اختلفوا من قبل في السنة التي تولى فيها. فقال بعض: إن قتله كان في سنة ٤٧٣[١]، وقال بعض آخر: إن ذلك حدث في سنة ٤٥٩[٢]. والصواب هو الأخير، كما ورد في الوثائق المعاصرة، وهي السجلات المستنصرية. وقد جاء في السجل المؤرخ في شعبان سنة ٤٦٠ الذي بعث به الخليفة المستنصر إلى أحمد المكرم ما يفهم منه ذلك، فقد أظهر فيه المستنصر أسفه الشديد على وفاة الصليحي، ثم نادى بالمكرم ملكاً من بعده[٣]، كما جاء في السجل المؤرخ في جمادى الثانية من سنة ٤٦١ الذي أنفذه المستنصر إلى المكرم على يد القاضي لمك بن مالك أن المستنصر خلع على المكرم لقب «أمير الأمراء»[٤]. ويؤيد صحة هذا الرأي ما قاله عمارة[٥]: «إن قتله كان في يوم السبت الثاني عشر من ذي القعدة سنة ٤٧٣؛ وقيل سنة ٤٥٩؛ وهي رواية صحيحة».

وقد رثاه الشاعر عمرو بن يحيى الهيثمي بقصيدة جاء فيها[٦]:

وأنشأ الحجَّ إلى مكَّةٍ	يبغي رضا اللهِ وآلِ البتولْ
وارْتجَّتِ الأرضُ له خِيفةً	بِمَنْ بها بين فُراتٍ ونِيلْ
وقام بالجيش وأضْرابِهِ	شُمِّ العرانين كرامِ الأصولْ
فصار في المَهْجَم في عُصْبةٍ	من قومِهِ غالَتْه دَهياءُ غولْ
كالليث في الغابَةِ دَبَّتْ لهُ	رَقْطاءُ ليلاً ذاتُ شَخْص ضَئيلْ
فإن يكن نِيلَ على غِرَّةٍ	فالبدر لا بُدَّ له من أُفُولْ

وقال الشاعر الحسين بن علي القمي على لسان الحرَّة الزكية السيدة تحفة بنت محمد الصليحي في رثاء أخيها الملك علي بن محمد الصليحي[٧]:

---

(١) كشف ٤٤.

(٢) عيون ٧/٨٨؛ كفاية ٤٩؛ أنباء/دار ٤١.

(٣) السجلات رقم ٤٠.

(٤) نفسه رقم ٤٢.

(٥) عمارة/كاى ٢٢.

(٦) عيون ٧/٩٢.

(٧) صورة شمسية من مخطوط المتحف البريطاني نمرة ٤٠٠٤ لديوان أبي عبد الله الحسين بن علي بن محمد القم. وفي المخطوط «تحفا» وهو تحريف.

لعَمـري ما طـارت طيـوري بـأسعُـدِ ... غـداةَ دَهَتْني الحـادثـات بـأسعَـدِ
وذكَّـرَني فَقْـدِي لأسْعَـدَ إخْـوَتي ... مُلُوك منَ الـمُسْتَشْـهَـدينَ بِسُـرْدُدِ
وقَـد فقِـدَ الأحبـابُ بعـد أحبَّتي ... وإن كـان لا مفقُـودَ مثـلُ محمّـدِ
رزيـتُ مـن الأمـلاك كـلّ متـوج ... كثيـر غبـار الجيش طـلاّع أنجُـدِ
ملوكٌ تـرى الأمـلاك حـولَ دُسُـوتهم ... صفـوفـاً عُكـوفـاً من قيـامٍ وسُجَّـدِ
أأبكي عليّـاً أم أخـاه الـذي فـدَى ... وأكـرمُ مـفـدىً هنـاك ومـفـتَـدِي
أم الثّـالثَ اللاّقي الحِـرابَ بنحـره ... وقـدْ نهَلَتْ من كـل أغْيَـد أصْيـدِ
فَـلِلَّهِ أُسْـد صُـرِّعَـتْ بـثـعـالـب ... ولِـلَّهِ أحْـرار أذِيـلَتْ بِـأعْـبُـدِ
وهـوَّن وَجْـدي أنَّهم مـا تُخُـرِّمـوا ... بغَيـر المـوَاضي والـوَشيـج المُقْصَّـدِ
أمـام الخميس الخـورُ تخفُق فـوقهم ... لـواءُ مَعَـدٍّ مـرْتضيَ آلِ أحْمَـدِ[1]

توحيد اليمن تحت لواء الصليحي

يعد عهد الملك علي الصليحي في تاريخ اليمن عهداً قل أن يجود الزمان بمثله، وذلك لأن هذه البلاد لم تجتمع لملك واحد، بل «كان الرئيس منهم إنما كان رئيساً على مخلافه ومحجره لا يجاوز ذلك، فإن نزع عنهم نازع، أو نبغ منهم نابغ، فتجاوز ذلك وإن بعدت مسافة سيره من مخلافه، فإنما ذلك منه من غير ملك له موطد، ولا لآبائه ولا لأبنائه؛ كذلك كان أمر ملوك اليمن، كان الواحد منهم بعد الآخر يخرج من مخلافه ومحجره فيصيب مما يمر به، ثم ينشمر عند خوف الطلب راجعاً إلى محجره من غير أن يدين له أحد من غير أهل مخلافه بالطاعة، أو يؤدي له

---

(١) الخور، يريد به الخيل المسرعة، يقال فرس خوار العنان، سهل المعطف لينه، كثير الجري، جمعه خور (ل/خور)؛ ومعد هو الخليفة المستنصر الفاطمي.

خراجاً»[1]، بخلاف ما قام به الصليحي، فقد تمكن من جمع اليمن كله تحت لواء واحد. ويرى عمارة[2] «أن هذا أمر لم يعهد في جاهلية ولا في إسلام»، ويبين ذلك العرشي[3] بقوله: «ولم يقع لأحد فيمن ملك اليمن ما وقع لعليّ بن محمد الصليحي فإنه استولى على اليمن سهله وجبله وشماله وجنوبه وشرقه في مدة يسيرة بعد أن قهر ملوكه». فهو لذلك لا يقل في نظرنا عن بعض القواد الفاتحين الذين لمع اسمهم على صفحات التاريخ بما أحرزه من انتصارات وما قاموا به من أعمال مجيدة وإن كان ذلك لمدّة وجيزة.

الأسس التي بنى عليها الصليحي سياسته

وعد الصليحي الرعية بأن يسير فيهم سيرة الحق والعدل، وعمل على تحقيق هذه السياسة ما وجد إلى ذلك سبيلاً، فبعد أن تم له الاستيلاء على جبل مسار ـ كما رأينا ـ كتب كتاباً نشر بين أهل حراز وقفنا منه على أنه كان يرغب في إقامة المثل العليا في حياة الشعب، ونفى عن نفسه التهم التي أشاعها عنه أعداؤه، وبين أنه «لم يكن متجبراً ولا مبتدعاً في الدين، بل متمسكاً بحبل الله المتين، وداعياً لأمير المؤمنين المستنصر بالله»[4]. ووعد أهل حراز بأنه سيكون معهم حسن السيرة والمعاملة بما يرضي الله والرسول؛ وإن قوله: «أنصف المظلوم وأقمع الظالم» لا يقل في قوته عن قول أبي بكر في خطبته يوم بايعه المسلمون: «والضعيف فيكم قويّ عندي حتى آخذ له حقه، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه»[5]. فهو وإن كان لا يقرّ أبا بكر في خلافته إلاَّ أنَّ سياسته كانت مبنية على أصول قويّة متينة.

ولما تمكن الصليحي من إخضاع ابن جهور، أمر بجمع أهل حراز في عبرى

---

(١) طبري ١/١٦٢.
(٢) عمارة/كاي ١٨.
(٣) بلوغ المرام ٢٥.
(٤) عيون ٧/٨.
(٥) ابن هشام: سيرة ٣/٤٧٣.

دعاس، ونزل لهم بعد أن ترك في مسار من يحفظه، وقام في الناس فخطبهم خطبة بليغة، أمرهم فيها، بوجوب التمسك بحبل الله، والامتثال لأوامر الإمام، ووعدهم بحسن السيرة والسياسة إذا هم عملوا بما أمرهم به.

ولما تم له فتح مكة المكرّمة ـ كما ذكرنا آنفاً[1] ـ عامل الناس هناك بالحسنى واستمالهم بما كان معه من أموال جليلة، ونشر العدل، فأدب القبائل التي كانت تتعدى على الحجاج؛ فطابت قلوب الناس هناك، ورخصت الأسعار ولهجت الألسن بالدعاء له، لما قام به من خدمات لحجاج المسلمين.

التفاف الأمراء والملوك حول الصليحي

وبتلك السياسة ازداد التفاف زعماء اليمن حوله وفضل كثير منهم الإقامة معه في مسار. فقصده عمران بن الفضل اليامي وعباس بن الكرم السنحاني ومن معهما من أتباعهما، كما توجه إليه السلطان عامر بن سليمان الزواحي هو وأهله، فأسكنهم معه في مسار، وتجمع بذلك منهم جمع كبير أجرى عليهم النفقات الواسعة.

ولما دان له جميع اليمن، بنى في عاصمته صنعاء قصوراً وأسكنها الملوك والسلاطين تحت رعايته وفي ضيافته. ولما قام لأداء فريضة الحج سنة ٤٥٩، أخذ معه هؤلاء الملوك، وهذا يدل من غير شك على مبلغ حرصه لإعلاء كلمة اليمن ورفع شأن اليمنيين في المؤتمر الإسلامي.

سياسته الإدارية:

وبعد أن ثل عروش الملوك المغلوبين على أمرهم، وقضى على دويلاتهم المفككة، ولى مكانهم ولاة يثق فيهم، فولى الأمير أسعد بن شهاب التهائم وزبيد، وكان هذا الوالي يحمل للملك عليّ بعد صرف أرزاق الجند ألف ألف دينار كل عام،

---

(١) انظر ص ٩١.

ولعله كان يأخذ الخمس من أموال الناس وفقاً للفقه الفاطمي[١]، كما ولى القضاء معه الحسن بن محمد بن أبي عقامة التغلبي من علماء السنة. وكان الأمير أسعد يثني عليه ويقول: «قام الحسن بأمور الشريعة قياماً يؤمن عيبه، ويحمد غيبه»[٢]. وولى أخاه السلطان عبد الله بن محمد الصليحي حصن التعكر[٣]، وولى الحسين بن مهلهل حصن الأخروج[٤]، وولى السلطان سبا بن أحمد الصليحي حصن أشيح[٥]، وولى السلطان عبد الله بن يعلى حصن خدد[٦]، واستعمل الأمير أحمد المكرم على الجند وما والاها.

ومن ذلك نرى أن كل هؤلاء الولاة كانوا من أنصاره المخلصين، وليس هذا بغريب فإنه رأى في ذلك خير وسيلة لتنفيذ سياسته، أو بعبارة أخرى إنَّ هذه هي السياسة الوحيدة التي كانت تصلح لضبط أمور الدولة في تلك الظروف، إلاَّ أنها كانت فيما بعد من أسباب ضعف الدولة بعد أن تغلغل نظام الإقطاع فيها.

وكان الصليحي لا يألو جهداً في أن يجمع حكام هذه الأقاليم من آن لآن كلما سمع بأن بعضهم قد حاد عن الطريق السويّ، ويتوجه إليهم بالنصح تارة والوعيد تارة أخرى، رغبة منه في صلاح الرعية على أيديهم، فهو يرى أن الله خلق الخلق بالحق، فهو لا يقبل إلاَّ الحق، فجمعهم مرة في مسار وقال لهم:

«إنَّ الذي بلغني عن قوم منكم هو يغضب الله ووليه، وأنا أغضب مما يغضب الله. فمن كان مني لم يتعدّ شيئاً من الدين، ولم يتعرض لسخط رب العالمين ولم يخالف مولانا أمير المؤمنين. ومن لم يكن مني أخرجته من جماعتي ونفيته من بلدي،

---

(١) أنباء /دار ٤٠؛ والمعروف أن الفاطميين كانوا يأخذون الزكاة ونحوها من الصدقات الشرعية والخمس فيما يجب فيها الخمس، لا أنهم كانوا يأخذون من أموال الناس مطلقاً كما يفهم من بيان صاحب الأنباء.

(٢) بامخرمة: قلادة ٢/٢ ورقة ٦٣٥؛ وكان الحسن ملقباً بمؤتمن الدولة وكان عالماً بارعاً في كثير من العلوم وله مؤلفات كثيرة وقد ولي القضاء الأكبر أيام الصليحيين ثم أيام جياش بن نجاح (عمارة: النكت ٢٨/٢؛ الأصبهاني: خريدة ٢/ ورقة ٢٨٢).

(٣) قرة ٢٤.

(٤) عيون ٨/٧.

(٥) نفسه ٥٤/٧.

(٦) خريدة ٢/ ورقة ٢٧٩.

وأجريت عليه من الحكم ما يجري على أمثاله من المعتدين». ثم قال: «لا أصدقكم حتى يلتزم كل داع بصلاح من تحت يده، ويضمن ما يجري ممن كان في جهته. فمن كابر وعاند ورفع أمره إلي أنزلت به ما يستحقه»[1]، كما حرم عليهم أن يتناولوا من مصالح دينهم ودنياهم شيئاً ولو صغيراً إلاّ بإذنه، فكأن ولاته في الأقاليم كانوا يقومون بأمر الدين والدنيا، أي أنهم كانوا مكلفين برعاية من كان تحت أيديهم من الرعية في أقاليمهم. وكان هؤلاء الولاة يسيرون في جهاتهم وفقاً لسياسة مرسومة وضعها الملك عليّ، لتكون أساساً ومنهجاً يسير على هديه كل الولاة ويكون هو مرجعهم في كل ما أشكل عليهم. وكان يدعوهم إلى مسار ويجتمع بهم من حين إلى حين، «يذكرهم ويبصرهم ويقربهم ويدينهم ويصلي بهم ويتلو عليهم بعد الصلاة بعض ما تيسّر من العلم والحكمة»[2].

من هذا نرى أن الملك عليّاً بن محمد الصليحي حكم البلاد حكماً مطلقاً كما كان في العصور الوسطى في جميع البلاد، ولكنه كان حكماً مستنيراً، فكانت أمور الدعوة والدولة مركزة في شخصه، إلاّ أنه كان مقيداً بالمثل التي قررها لنفسه «من إقامة الحق، وإقرار العدل».

الناحية الدينية في عهده

أما الناحية الدينية في عهده، فإن عليًّا الصليحي ظهر على صفحة التاريخ داعياً متمسكاً بأهداف دينه، حريصاً على ما جاء في الكتاب والسنة، غير مكره لأحد في الدين. فلم يرخص لأحد مطلقاً في التهاون بشيء من فرائض الدين[3]، ولكنه مع ذلك اتهم كما اتهم الفاطميون من قبله بالكفر والخروج على الدين الإسلاميّ، ومن عجب أن يذهب بعض المؤرخين إلى أن الصليحيين كانوا يدينون بالإباحة وتعطيل الشرائع.

فيقول الفقيه الحمادي عن مذهبهم: «. . . إنه مذهب الراحة والاستباحة، يريح

(١) عيون ١٢/٧ ـ ١٣.
(٢) نفسه ١٣/٧.
(٣) نفسه ١١/٧.

أتباعه مما تلزمهم الشرائع من طاعة الله، ويبيح لهم ما حظر عليهم من محارم الله»[1].
ويقول في مكان آخر: «وكان الصليحي الملعون شهماً شجاعاً مقداماً، فحرم الحلال وأحلّ الحرام، وناقض بجهده الإسلام، وأبطل الصلاة والصيام، والحج إلى بيت الله الحرام»[2].

وكيف يكون ذلك وقد عرفنا ما قام به من أعمال جليلة في مكة عندما حج سنة ٤٥٤؟ وكيف ننكر ما قاله الفاسي[3]: «فطابت قلوب الناس ورخصت الأسعار وأمنت الحاج أمناً لم يعرف لهم مثيل من قبل، حتى إنهم كانوا يعتمرون ليلاً ونهاراً وأموالهم محفوظة، ورحالهم محروسة»؟ وكيف ننكر كذلك ما قاله ابن الجوزي[4]: «فردَّ بني شيبة عن قبيح أعمالهم وأفعالهم مع الحاج، وردّ إلى البيت من الحلى ما كان بنو الطيب الأشراف قد أخذوه لما ملكوا بعد شكر، وكانوا قد عروا البيت والميزاب»؟ إن ما قام به عليّ الصليحي في الأراضي المقدسة كسبه ثقة كثير من أهالي البلاد الإسلامية[5]، وما جلبه من الأقوات إليها جعل الألسن تلهج بالدعاء له في كل مكان[6].

هذا ما قاله المؤرخون وهو من غير شك شهادة طيبة في حق الصليحي، ولكن بعضاً يرمونه بالخروج والمروق حقداً وحسداً، ليشوهوا سمعته، ولا يمت هذا إلى الإنصاف بسبب.

إننا نستبعد أن يكون كلام المغرضين صحيحاً، لأن تاريخ الصليحيين لا يدلنا على شيء مما ذكروا، فالصليحيون كانوا يتخذون الدين الإسلامي الحنيف، وولاءهم لأئمتهم الفاطميين بمصر، وسيلة لنشر نفوذهم وتوطيد حكمهم في البلاد التي أخضعوها لسلطانهم، كما كان دأب الحكومات والسلاطين في العالم الإسلامي في ذلك العهد، في تعلقهم وانتسابهم لخلافة بني العباس لذلك الغرض. وكيف ننكر

(١) كشف ١٢.
(٢) نفسه ٤٤.
(٣) تحفة الكرام ١١٨ أ.
(٤) مرآة الزمان ١٢/١ ورقة ٨٨.
(٥) الفاكهي: المنتقى ٥٤.
(٦) العيني: عقد الجمان المجلد من ٤٢١ - ٤٥٦ ورقة ٢٢٦.

ما قاله الصليحي نفسه لأهل حراز[1]: «... فلم أطلع مسار متجبراً باغياً ولا متكبراً على البلاد عاتياً... وإنما قيامي بالحق الذي أمر الله عز وجل به، والعدل الذي أنزل في محكم كتابه... إنما أنا متمسك بحبل الله المتين، عامل بما شرع الله في الدين».

تسامحه مع أهل السنة

وكان الصليحي يتسامح، كما كان الفاطميون بمصر يتسامحون، مع علماء السنة، حتى سمحوا لبعض فقهائهم بإقامة شعائرهم ونشر تعاليمهم في المساجد. فقد قيل إنه في سنة ٣٨٣ وثب رجل جعفريّ للجلوس في الجامع الأزهر للفتوى على مذهب أهل البيت، فشغب عليه الفقهاء من أهل الجامع، فبلغ القاضي ذلك، فقبض على بعضهم[2]. وهذا النص يدل على أنه كان بالأزهر في عهد الفاطميين فقهاء يخالفون المذهب الفاطمي، ويفتون وفق تعاليم مذاهبهم. فلما جاء هذا الفقيه للفتيا على المذهب الإمامي شغبوا عليه، فاضطر القاضي إلى إصدار الأمر بالقبض على بعضهم لا لشيء إلاّ لأنهم لم يتسامحوا مع هذا الفقيه كما تسامحت الدولة معهم.

وهذا يشبه إلى حد كبير ما كان في عهد الصليحيين. ويدلنا على ذلك ما ذكره صاحب الأنباء نقلاً عن اللَّحجي في تاريخه: «بلغني أن الصليحي لما استقرّ في صنعاء كان ينادي باجتماع المصلّين في المساجد، وشق عليه أمر صنعاء، وذلك أن المصلين كانوا إذا اجتمعوا في المساجد يذكرونه ويحتجون على ظلمه وجوره؛ وربما كفروه وسفِهوا عليه وعلى أهل رأيه. فتضرَّر بذلك، وأمسك أياماً»[3].

كذلك فعل أسعد بن شهاب لما دخل زبيد سنة ٤٥٦ والياً عليها من قبل الصليحي، «فأحسن السيرة في الرعية وأذن لأهل السنة بإظهار مذهبهم»[4].

---

(١) عيون ١٨/٧.
(٢) الكندي: كتاب الولاة والقضاة ٥٩٤.
(٣) أنباء / دار ٤٠.
(٤) قرة ورقة ٢٢.

ونشير أيضاً إلى وصية الصليحي لابنه الأمير أحمد المكرّم لما تركه نائباً عنه في البلاد حين عزم على الحج في سنة ٤٥٩. فقد أوصاه «بتقوى الله في الجهر والسريرة، والعمل بأعمال الشريعة، وإقامة دعائمها، والائتمار بأوامرها، والانتهاء عن محارمها»[(١)].

ويعتبر ما قاله المؤيد في الدين الشيرازي داعي دعاة المستنصر في قصيدة له[(٢)] من الأدلة الواضحة على تمسك أهل الدعوة بالتكاليف الشرعية:

فكيف شَرْع الأنبياء ندفعُ	وما لنا إلّا النبيَّ مرجعُ
بنوره في الدرجات نَرْتقي[(٣)]	وبالكرام الكاتبين نلتقِي
يا ربِّ فالْعَنْ جاحدي الشرائع	وارْمهمُ بأفجع الفظائع
والْعن إلهي من يرى الإبَاحَهْ	بلعنةٍ فاضحة مجتاحَةْ

وقد ساعدت هذه السياسة الدينية الدولة الصليحية إلى حدٍّ ما على حفظ الأمن في البلاد الخاضعة لها، مع وجود المعارضة القوية لمذهبها الرسمي. فانصرف الناس إلى أمور معايشهم مطمئنين، وتحير المنافسون في مقاومة هذه الدولة التي أصبح لا يمكن مقاومتها، بعد أن رأوا من حسن سياسة الملك علي وتشدّده مع الخارجين على الدين الحنيف، ورفعه لأهل العلم والفضل مهما تكن نحلتهم، وتسامحه مع أهل المذاهب الإسلامية الأخرى. «فلم ينكر على أحد مذهباً من مذاهب فرق الإسلام على تشعبها، بل أقرّ كل امرىء على ما كان عليه»[(٤)].

اهتمامه بالشعر والشعراء

عرف الملك علي الصليحي أن الشعر العربي يعتبر سلاحاً ماضياً في خدمة الدولة، وأنه من أهمّ وسائل الدعاية لها. فلم يشأ أن يترك هذا السلاح دون أن

---

(١) عيون ٧/٨٨.

(٢) القصيدة الأولى من د. المؤيد/كامل حسين.

(٣) في الديوان: نرقى. والصواب ما أثبته رعاية للوزن.

(٤) عيون ٧/١٦.

يشهره على خصومه أو يستخدمه في الدفاع عن دولته والمباهاة بفضائلها والإشادة بذكرها. فلا عجب إذا رأيناه يجزل العطاء للشعراء كما كان يفعل العباسيون والفاطميون. ومن أشهر الشعراء الذين قرضوا الشعر في عهده عمرو بن يحيى الهيثمي، والحسين بن عليّ القمي، والحسن بن أبي عقامة، وقد ذكرنا شيئاً من أشعارهم في مناسبات سبق ذكرها.

وكان الصليحي نفسه ممن يتذوقون الشعر، فصيحاً بليغاً[1]. وقد روي عنه بعض الأبيات، قالها في مناسبات. فمنها:

أَنْكَحْتُ بيضَ الهند سُمْرَ رِماحِهم فرءوسُهم عِوَضَ النِّثَارِ نِثارُ
وكذا العُلا لا يُستباحُ نكاحُها إلَّا بحيثُ تُطلَّق الأعمارُ[2]

ويروى أيضاً أن الملك عليّ بن محمد الصليحي قال في وَراخ الحصن المشهور:

ما اعتذاري وقد ملكتُ وَراخاً عن قِراع العِدا وقَوْد الرِّعالِ

وكانت له نفس طموح، فأنشد على لسان حاله:

وألذّ من قرع المثاني عنده في الحربِ: أَلْجِمْ يا غلام وأَسْرِجِ
خيلٌ بأقصى حضرموت مجالها وصهيلُها بين العراق ومَنْبِجِ

وكان الصليحي فوق ذلك «عالماً وفقيهاً مستبصراً في علم التأويل»[3]، كما كان خطيباً ممتازاً. وقد وقفنا على بعض خطبه التي ألقاها في أهل حراز وأنصار الدعوة، وهي تبين مقدار بلاغته وقدرته. ولا يبعد أن تكون الخطابة قد بلغت مركزاً مرتفعاً في عهد هذه الدولة العربية.

---

(١) بامخرمة: قلادة ٢/٢ ورقة ٦٠١.
(٢) نفسه؛ الأصبهاني: خريدة ٢/ ورقة ٢٧٩.
(٣) عمارة / كاي ١٤ و ١٥.

الباب الخامس

عهد الملك المكرم أحمد الصليحي

(٤٥٩ - ٤٧٧)

قيام المكرم بأمر الدولة

ظهر أبو عليّ أحمد المكرم بن علي بن محمد الصُّليحي الهمداني ملك اليمن على صفحة التاريخ، واتّصف بالشجاعة وكرم الأخلاق. وفيه يقول صاحب قلادة النحر[1]: «كان المكرّم ضخماً شجاعاً، وفارساً مقداماً». وقد منحه الخليفة المستنصر بالله لقب «المكرّم» في سنة ٤٥٦[2]، وأصبح وليًّا لعهد أبيه بعد وفاة أخيه الأكبر محمد الأعزّ في هذه السنة. ثم أخذ يتدرّب على إدارة شئون البلاد، حتّى عزم والده على الحجّ سنة ٤٥٩، فأنابه عنه في حكم البلاد؛ وكان قبل ذلك استعمله على الـجَنَد وما جاورها من البلاد. ولما جاء الخبر بقتل أبيه الملك علي الصليحي في المهجم، وأسْر والدته الملكة السيدة الحرة الصليحية أسماء بنت شهاب وغيرها من حرائر بني الصُّليحي، والقضاء على خيرة رجال دولته على النحو الذي ذكرناه في الباب السابق، وقع المكرَّم في حيرة؛ وكاد يُقْضى على صرح الدولة الصليحية قضاءً مبرماً، لأن أعداءها لم يقفوا عند هذا الحدّ، بل أخذ المنافقون ينقضون عهودهم حتى خرج أمر الصليحيين من كافة بلاد اليمن، ولم يبقَ لهم إلاّ التَّعكَر، وكان العبيد قد حاصروه، كما حاصروا مالك بن شهاب الصليحي في حصن مسار. وتآمرت القبائل من كحلان وهرَّان وعَنس

(١) ٢/٢ ورقة ٦٢٧.

(٢) عيون ٧/٧٦.

وزُبيْـد ويحْصب عــلى الصليحيـين، وامتــدّت العــدوى إلى صنعــاء نفسهــا حيث كان المكرَّم يقيم مع جماعة من خلصاء أتباعه لا يزيد عددهم على ست مئة من الحجازيين.

فماذا يعمل المكرّم؟ وقد أحاط به الأعداء وطمع فيه المنافقون، وظهر الناس بمظهر العداء الواضح، وغدا المكرّم في حرج. وأنى له أن يتخلص من هذا المأزِق؟ ولكن يمكن تعليل هذا الموقف بأمرين:

أولاً: أن أهل اليمن لم يألفـوا الخضوع لسلطان حكـومة مـركزيـة، وقد تمكن عـلي الصليحي من ضمّ بلاد اليمن جميعهـا تحت لوائـه؛ وأصبح ملكـه يمتـدّ من الحجاز شمـالاً إلى حضـرمـوت جنـوبـاً، كـما تمكن من ثـلّ عـروش ملوك اليمن الأقـدمـين وكبــح جماحهم وإقصـــائهم عن إمـاراتهم بجمعهم في صنعاء تحت مراقبته وتعيين ولاة ممن يثق بهم بدلاً منهم. وما استطاع الصليحي في حقبة وجيزة أن يغير عادة اليمنيين وهي استقلال الشعوب وانفرادها. وثانياً: أن خضوع اليمن كلها لسلطان الصليحي لم يكن عن رغبة من أهلها، بل كان نتيجة للحروب والرهبة والقوة الفائقة والدهاء السياسي، فكانت حالة الشعوب خضوعاً في الظاهر والقلوب لم يتمكن منها حب النظام وإطـاعة أولي الأمـــر، ورأوا أن في موت الملك علي بن محمد الصليحي فرصة تمكنهم من العودة إلى ما كانوا عليه قبل تملكه من دويلات وإمارات وولايات مستقلة.

لذلك قرر المكرّم قتال هؤلاء الذين خرجوا عن حظيرة دولته مع علمه بأن هذا الخروج كان من معظم الأمراء والرؤساء والقبائل، ولكن صدق عزيمته ذلل هذه المصاعب. ولما استعرت الأرض حول المكرّم ناراً، كان لا بدَّ له من معالجة هذه الحالة التي لم ترَ الدولة الصليحية مثلها، فاستمدّ مما نسمّيه شجاعة اليأس قدراً، وأخذ يشجّع من ظلّ من أصحابه على الولاء وملاقاة الصعاب. وقد صوّر صاحب العيـون هذا المـوقف بقولـه[1]: «..وكان المكـرّم يثبت أصحابـه على الـدين،

---

(1) عيون ٧/٩٣.

ويذكّرهم بما وعد الله به عباده الصابرين، وبما ابتلى به مواليه الطاهرين، ويتلو ما أنزل الله في كتابه المبين: ﴿آلم. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾.

واستطاع المكرّم وأعوانه أن يرفعوا عن صنعاء الحصار وتتبعوا الأعداء، فانتصروا في ناحية حضور انتصاراً تنفّسوا بعده نسيم الأمل، «وحارب الأعداء في كل مكان، والله يعطيه النصر ويبسط يده عليهم»[1].

قواد المكرم وانتصاراتهم

وكان هذا النصر مشجعاً لأنصار المكرّم على الاستماتة في الدفاع عن كيانهم. فانتصر قائده إسماعيل بن أبي يعفر الصليحي بجهة كُحْلان وهِرّان. وأخذ هذا الجوّ المظلم الذي أحاط بالدولة يصفُو، وبدأت هذه الشدة التي حاقت بها تنقشع تدريجياً بفضل شجاعة المكرم وحسن بلائه، وبسالة جيشه العربي وقوّاده الأبطال.

وبينما كان المكرم يستعد لمتابعة الأعداء وتحرير البلاد من المنافقين، كان قواده عامر بن سليمان الزواحي ومدافع بن حسن الجنبي وعمران بن الفضل اليامي والحسن بن عمر السنحاني وغيرهم في طريقهم إلى مكة لأداء فريضة الحج مع الملك علي بن محمد الصليحي[2]؛ ولكنهم قفلوا راجعين إلى صنعاء عندما سمعوا بقتل ملكهم في المهجم، وقد لاقوا في طريقهم صعاباً كثيرة من الأعداء، «فأوقعوا في طريقهم سبع عشرة واقعة، في كلها يمنحون النصر على من عاداهم، والظفر ببركة مولاهم»[3].

وصلوا إلى صنعاء في وقت كان المكرّم في مسيس الحاجة لنجدتهم، فكان

(١) رسائل القمي ٤٩.
(٢) عيون ٩٣/٧.
(٣) رسائل القمي ٥٠.

فرحه بوصولهم عظيماً، حتى إنه خرّ ساجداً لله شكراً على وصولهم. «فلما اجتمعوا به تواصوا بينهم بالصبر على قتال الباغين المفسدين، والمحاماة والجهاد عن الدين، وتواصوا ألا يطالبوا الملك المكرم بدينار ولا درهم، حتى يظفر بالعبيد، وينال منهم ثأره بمدينة زبيد، وتعاقدوا على ذلك وتعاهدوا الله سبحانه»[1].

من هذا نرى أن المكرم أخذ يلتفّ حوله قوّة من أنصاره، وأصبح لزاماً عليه أن ينظم هذه القوّة، وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا التنظيم يقتضي الكثير من التدبير وإعمال الرأي، حتى يتمكّن بهذه القوّة اليسيرة من إعادة الخارجين عليه إلى صوابهم، ويأخذ بثأره من النجاحيين بتهامة. وقد أحسن المكرم التدبير، ورأى بمساعدة خلصائه أنّ وجود والدته الملكة السيدة أسماء أسيرة في يد سعيد الأحول عدوّهم الألد لا يمكن السكوت عليه. أصبحت هذه الصورة القاتمة مرسومة في مخيلة المكرم تحزّ في نفسه وتقض مضجعه، وقد انعكست هذه الصورة في نفوس أصحابه المخلصين، فأصبحت نار الغيظ تأكل أكبادهم وتشحذ قرائحهم، وتؤجّج نفوسهم العربية الأبية. ولكن ما العمل، وعوامل الاضطراب محدقة بدولتهم في الداخل وفي الخارج، والفتن والثورات منبعثة في كل أرجائها؟ فقد شقّ عليهم عصا الطاعة كل منافق مخادع، وأصبح نفوذهم إلى الزوال أقرب. لذلك رأوا من الصواب كبح جماح كل من حدثتهم أنفسهم بالخروج عليهم، والضرب على أيدي المنافقين، وتطهير البلاد من الفتن والثورات وإعادة الأمن إلى نصابه، ثم التوجه إلى الأخذ بالثأر.

فأرسل المكرم قائده عامر بن سليمان الزواحي إلى بلاد حمير وإلى مغرب اليمن لإصلاح الفساد. وقد جاء إليه أهل هذه البلاد طائعين، ولكن القائد الزواحي قاتل المنتقضين قتالاً شديداً، وتتبعهم في السهل والوعر. وفي يوم السبت العاشر من شهر ذي الحجة سنة ٤٥٩ وصلت كتبهم إلى الملك المكرم مستجيرين[2].

وجاءه بعد ذلك كتاب من قائده إسماعيل بن أبي يعفر الصليحي يخبره

(١) عيون ٩٤/٧؛ رسائل القمي ٥١.
(٢) عيون ٩٤/٧.

بانتصاراته على أهل يحصُب ورُعَيْن بجهة كُحْلَان وهِرَّان وأنهم دانوا له بالطاعة بعد حرب سجال[1]. فسُرَّ المكرم كثيراً، وبدأ الروح المعنوي يدب في نفوس جنوده، واتخذ من هذا النصر وسيلة لدفعهم لنصر آخر، فذكرهم بما وعد الله به عباده الصابرين من النصر ولو بعد حين.

وقعة الملوى

وبينما كان المكرم وكبار رجال دولته مشغولين باتخاذ الأهبة لحفظ كيان دولتهم وتخليصها من سطوة أعدائهم، وإعادة ما تحت يد الأعداء من البلاد، ظهرت في الأفق سحابة غطت هذا الجوَّ برهة من الزمن، وشغلت المكرم وأعوانه عن متابعة الأعداء؛ تلك هي الحركة التي قام بها الأمير الداعي حمزة بن أبي هاشم بن عبد الرحمن بن يحيى الحسني[2] في سنة ٤٥٩، بعد أن التفّ حوله فريق من الناس بايعوه على القيام بدعوته. فقام هذا الداعي متحلّياً بالتوحيد مدّعياً الإمامة، وسمّى نفسه بأمير المؤمنين. فجمع إليه كثيراً من القبائل فصاروا حزباً له وحرباً للصليحي، وزحف إلى صنعاء ومعه خمس مئة فارس وخمسة عشر ألف راجل من همدان وغيرهم[3] إلى أن بلغ الملوى[4].

---

(١) عيون ٩٤/٧.

(٢) هو حمزة بن أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله (أخو الإمام الهادي يحيى) بن الحسن بن القاسم الرسي بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان قيامه بالدعوة في سنة ٤٤٩، وقتله في سنة ٤٥٩، ومشهده في بيت الجالد من بلاد أرحب (أنباء/دار ٤٠) وإليه ينسب الحمزات.

(٣) يقول إدريس في العيون ٩٥/٧: «وكان مع الشريف ثمانية آلاف راجل وعدد كبير من الخيل. وكان أصحاب المكرم لا يزيدون على ألف راجل. ويقول صاحب الأنباء/دار ٤٠: «وكان عدد جيش حمزة ثمانية آلاف وجيش علي الصليحي ألف وخمس مئة فارس وخمسة عشر ألف راجل». ويظهر بعده عن الحقيقة، ذلك لأن الداعي حمزة قتل في ٢١ ذي الحجة سنة ٤٥٩، وكان مقتل الملك علي بن محمد الصليحي قبل ذلك، فكان في يوم ١٢ ذي القعدة من نفس السنة، فتشابه على صاحب الأنباء وصاحب المقتطف ٦٦ أن قتل حمزة حدث في عهد الملك علي بن محمد الصليحي، والصواب ما جاء في العيون ٩٥/٧.

(٤) الملوى في بلاد أرحب، ومشهد الشريف حمزة في بيت الجالد على مقربة من الملوى.

وفي هذه الأثناء أرسل المكرم إلى قائده عامر بن سليمان الزواحي يدعوه من المغرب، فوصل في صبيحة الثلاثاء التاسع عشر من ذي الحجة سنة **٤٥٩** في خمس مئة من حمير، وخرج من صنعاء برفقة القائد أحمد بن المظفر الصليحي وجماعة من العسكر، وذلك في صباح يوم الخميس الحادي والعشرين من ذي الحجة من نفس السنة. فوافوا الداعي الشريف بالملوى في يوم الجمعة، ووقع القتال بين الطرفين، وكاد النصر يفلت من أنصار الملك المكرم، ولكن الدائرة دارت على الشريف وأصحابه الذين ولّوا هاربين تاركين الشريف وابنه، فقتلا مع زعماء القبائل من أهل عسكرهما. ويقول إدريس[1]: «فما انجلت الموقعة إلاّ عن ثمان مئة قتيل من أصحاب الشريف».

وفي هذا النصر، وفيما كان من أمر يحصُب ورعين، قال الشاعر عمرو بن يحيى الهيثمي[2]:

لـك الله، ذا السيفين، يكلأ نـاصرٌ فمجـدك بعد الأوْحـد الـمَلْك قاهـرُ

قمع الفتن في حراز وبلاد بكيل

وكان الأعداء يترقبون نتيجة هذه الفتنة ويرجون لها النجاح. فلما انقشعت هذه السحابة، عاد المكرم وأتباعه إلى التفكير في تصفية موقفهم مع أعدائهم، ولـم يروا من الحكمة أن يحاربوا النجاحيين في زبيد قبل أن يثبتوا أقدامهم في البلاد المجاورة المحيطة بصنعاء، ويأخذون الأمان من جميع القبائل التي يخشون خروجها في غيبتهم عن بلادهم. لذلك أرسل المكرّم من قواده: أحمد بن المظفر الصليحي وإسماعيل بن أبي يعفر الصليحي وعامر بن سليمان الزواحي إلى حراز، وكان كبار أهلها لا يزالون يدينون بالطاعة إلى سلطان الصليحيين، على حين كان الدهماء منهم يحاصرون حصن مسار حيث كان به مالك بن شهاب الصليحي. وفي طريقهم إلى

(١) عيون ٩٥/٧.

(٢) نفسه ٩٦/٧ وهي قصيدة طويلة.

هذا الحصن وافاهم جماعة من قبائل مُـجَيَّح وكَرَار[1] وقدموا فروض الطاعة وتقدم القواد إلى حصن مسار فاستولوا عليه، وأقام عسكرهم ثمانية أيام في حراز، لم يتركوها إلا بعد أن أخذوا العهود على من حولها من القبائل. ثم نهضوا لمحاربة بكيل، «وكانت شوكتهم على المنابذة قوية، وصولتهم على المحاربة شديدة، وشدتهم على الجلاد عتيدة، وآمالهم في الضلال بعيدة»[2]. وقد بلغ جيش المكرم بكيل في أول المحرَّم سنة ٤٦٠، وأمر القواد جندهم بالكف عن القتال في ذلك اليوم. وأخـذوا يراسلون بكيـلاً ويلاطفـونهم، فأبـوا إلاَّ عُتوًّا واستكبـاراً. فلما حـان وقت الظهيرة هبطت بكيل للقتال، ونشبت المعركة، وحمي وطيس القتال، وكانت الدائرة على بكيل، فقتل منهم ثلاث مئة وعشرون رجلاً من بينهم كثير من رؤسائهم وأولي النجدة منهم[3]. وبعد أن استقرت الأمور في هذه الجهات عاد القواد الثلاثة في شهر صفر إلى صنعاء غانمين ظافرين.

واقعة ذي أشرق

وفي هذه الأثناء انتهز بنو نجاح فرصة انشغال جيش المكرم في إخضاع بكيل، وأغار بلال وأبو الفتوح ابنا نجاح بعساكر عديدة من العبيد وأهل تهامة على أسعد بن عبد الله الصليحي في حصن التعكر، ووقع بين الطرفين قتال شديد دارت الدائرة فيه على العبيد بذي أَشْرَقَ من قرى المخلاف[4]، فولوا منهزمين، وغنم أصحاب الصليحي أموالاً كثيرة، ونجا بلال وأبو الفتوح بعد أن نظرا القتل عياناً[5].

قيام المكرم لحرب العبيد

لما ثبتت قدم الدولة الصليحية نوعاً بعد القضاء على الثائرين والمنتقضين واستقرت

---

(١) ذكر الهمداني مجيح وكرار من أسباع حراز (صفة ١٠٥).
(٢) رسائل القمي ٥٢.
(٣) عيون ٧/٩٦ ـ ٩٧.
(٤) رسائل القمي ٥٣؛ وذو أشرق معروفة عامرة تابعة لمديرية ذي سفال على مقربة من جبلة ويشرف عليها من شمالها الغربي حصن التعكر.
(٥) عيون ٧/٩٧؛ رسائل القمي ٥٤.

الأمور في صنعاء وما حولها من المخاليف، عوَّل المكرَّم على السير إلى زبيد. واتفق في هذه الأثناء أن بلغه في شهر صفر سنة ستين وأربع مئة من أمه الملكة أسماء كتاب لطيف[1]. وقد احتالت بإيصال الخطاب إلى سائل وجعلته في رغيف. فلما كسر السائل الرغيف وجد الكتاب، فأوصله إلى المكرم، وفيه له تنكيف[2]. وقد وجد المكرم في هذا الكتاب خير مثير لحفائظ العرب، فجمع الناس وأوقفهم على ما تضمنه كتاب أمه السيدة الحرة، فضجوا بالبكاء[3]. ولم يزل المكرم يخطب الناس في كل مكان، ويقول لهم: «من يكن يرغب في الحياة فلا يكن معنا»[4]، إلى أن صفا له من الخلصاء عدد غير كبير، فخطبهم وعرفهم بأنهم سيقدمون على الموت، فمن أراد الرجوع فليرجع. كما اتفق عند مسيره أن وصل عمران بن الفضل اليامي وحسين بن عمرو السنحاني ومنصور بن محمد اليامي في جماعة كثيرة من العرب. فانضموا إليهم وخرجوا قاصدين العبيد في زبيد يوم الجمعة التاسع عشر من شهر صفر من نفس السنة، كما انضم إليهم أحمد بن المظفر الصليحي وعامر بن سليمان الزواحي والحسين بن عمرو السنحاني وأبو الحسين بن مهلهل بن الدعام ومدافع بن الحسن الجنبي ومحمد بن علي اليامي. وأمر المكرم بألا يسير في عسكره إلا كل من آنس في نفسه البأس والصبر على الآلام وآثر الموت على الحياة ورضي بالشهادة. وترك المكرم في صنعاء إسماعيل بن أبي يعفر الصليحي نائباً عنه، ومعه جماعة من أهل الحجاز وأهل حراز. وقد أخذ قبل خروجه العهود والمواثيق على الشريف القاسم بن جعفر ابن الإمام المنصور القاسم العياني[5] وعلى أخيه ذي الشرفين محمد بن جعفر،

---

(١) قالت فيه: إنها قد صارت حاملاً من العبد الأحول، وإنه من الواجب أن ينقذها قبل أن تقع الفضيحة والعار، كما رواه عمارة/كاي ٢٣. وقد ذكر صاحب الأنباء/دار ٤١ أن العبد لم يتصل بها وأن هذا لم يحدث.

(٢) عيون ٩٧/٧؛ وفي كفاية ٥٠ قال: تلطفت إلى رجل مشرقي فرمت إليه برغيف وفيه كتاب لطيف إلى ابنها المكرم.

(٣) عمارة / كاي ٢٣.

(٤) قرة ورقة ٢٣.

(٥) الشريف القاسم هو بطل المرابة (انظر ص ٨٢ - ٨٣) الذي أكرمه الملك علي الصليحي وأبقاه لديه في صنعاء نحو عامين. وسار الشريف بعد ذلك إلى مكة فأقام بها سبع سنين، ثم عاد إلى اليمن، وأقبل على أعمال الزراعة وقتله بعض أهالي.نهم في سنة ٤٦٨ (مقتطف ١١٢).

وأحسن إليهما وأمر للشريف بكسوة فاخرة ودنانير كثيرة؛ وعاهداه على الطاعة وعدم الغدر في غيبته فشكرهم على ذلك[1].

وخرج المكرم من قرية العَمَد[2] في يوم الأربعاء لست بقين من شهر صفر في عشرة آلاف راجل وفارس[3] - «وهو أكرم عربي تمشي به الخيل»[4] - وخطبهم ووعظهم، فقال: «إننا لم ننزل لعرض من الدنيا نصيبه، ولا مال نخزنه، ولا لشيء نذهب به من متاع الدنيا، سوى إدراكنا ثأرنا من هؤلاء العبيد، واستنقاذ حريمنا، لا لقصد إضرار بأحد من الناس، ولا لتغيير شيء مما يملكون، ولا تعدٍّ على زروعهم ومواشيهم ونحن في طريقنا... وقد رجوت أن تكون سيرتكم جميلة، ولكم حسن الأحدوثة، وحميد العاقبة... ولا تتعدّوا على أحد في طريقكم، إلّا من وتَركم ونال منكم»[5].

وهذه الوصية تكشف عن فروسية المكرم وشهامة أخلاقه، كما تبين لنا أنه أراد أن يثأر لنفسه وقومه، وينقذ والدته الملكة، فنهى جنده عن الأمور التي تخل بالنظام وتسيء إلى سمعته، ورجا ألا يكون تعدي جندي سبباً في إثارة سخط الأهلين عليهم[6].

ثم قام المكرم فخطب جنده خطبة بليغة، قال فيها: «أيها المؤمنون، لا أريد

(١) عيون ٧/٩٨؛ وبالرغم مما بذل الملك علي الصليحي والملك المكرم من الجميل نقض الفاضل الشريف عهوده (انظر ص ١٢٧).

(٢) انظر ص ١٠٢، هامش رقم ١.

(٣) قال ابن الديبع في قرة ورقة ٢٣ وفي بغية ورقة ١١: «إن عدد جيش المكرم كان ثلاثة آلاف فارس غير المشاة». وخالفه صاحب الأنباء/دار ٤١ فقال: «إن جيشه كان يتكون من عشرين ألف حربة». واتفق الاثنان على أن جيش الأحول كان يتكون من عشرين ألف حربة. وفي عيون ٧/٩٩ قال: «إن عدد جيش المكرم كان عشرة آلاف بين فارس وراجل»، وقد أثبتنا رواية الأخير.

(٤) عمارة / كاي ٢٤.

(٥) عيون ٧/٩٧.

(٦) وكانت سيرة المكرم متمشية مع سيرة السلف الصالح. فالخليفة أبو بكر، لما أوصى الجيش الذي أرسله بقيادة أسامة بن زيد لحرب بني غسان، قال للجند: «... لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا... ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة (الخضري: محاضرات ١٧٣/١).

منَخم اليوم غير ما سمعتموه مني بالأمس وفيما قبله، وفيما قلته كفاية، وقد كنت أعرض عليكم الرجوع وفي المسافة إمكان؛ فأما اليوم فقد صار الخيار إلى عدوكم لأنكم توغلتم عليه، وإنما هو الموت أو العار بفرار لا يجدي»[1]، وتمثل بقول المتنبي:

وأورِد نَـفْسِـي والمهـنَّـدُ في يـدي مـوارِدَ لا يُصْـدِرْن من لا يجـادل[2]

ثم وطىء المكرم وجنوده تهامة من شرقي زبيد، فقصدوا قرية التريبة، ودخل مسجدها يوم الجمعة عند طلوع الفجر. وكان الشيخ الزاهد محمد بن علية من أهل القرية قد صلى الصبح، ووقف يتلو حتى بلغ في الختمة إلى سورة البروج أو الطارق، وإذا هو بفارس ركز رمحه وأسنده إلى الجناح الغربي، ثم قام إلى جانبه فصلى. قال الشيخ: «ما رأيت شخصاً في ولد آدم أتمّ منه خلقة ولا أحسن منظراً، وروائحه روائح الملوك». ولم يلبث الصباح أن تجلَّى، وكان المكرم واقفاً عنده، حتى ختم ودعا وأمَّن هو ومن معه على الدعاء؛ وإذا الخيل قد أقبلت عند طلوع الشمس إرسالاً؛ وكل رعيل منهم يسلم ويقف، وكانت تحيتهم له: أنعم الله صباحك، مولانا، وأدام عزك! ولا يزيدهم على الرَّد أكثر من قوله: مرحباً يا وجوه العرب، إلى أن تكاملوا ثم خرجوا من المسجد فركبوا خيولهم وقصدوا باب الشبارق[3]، وهو الباب الشرقي من زبيد.

واقعة زبيد

وحين دنا المكرم من زبيد عبّي جيشه فكان هو وأحمد بن المظفر الصليحي

---

(١) عمارة / كاي ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) كفاية ٥٠؛ بغية ورقة ١١.

(٣) يوجد بالسور الذي بناه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب حول زبيد سنة ٥٨٩ أربعة أبواب: الشرقي ويسمى باب الشبارق وينسب إلى القرية التي يطل عليها هذا الباب. والباب الثاني يتجه إلى الشام ويسمى باب سهام لأنه ينفذ إلى وادي سهام وهو وجه المدينة وغرتها. والثالث إلى المغرب ويسمى باب النخل وكان يسمى باب غلافقة وهو ينفذ إليها. الرابع ويسمى باب القريب وينفذ إلى وادي زبيد ثم إلى قرية القريب (بغية ورقة ٧ ـ ٨).

وعامر بن سليمان الزواحي وأبو الحسين بن مهلهل والحسين بن عمرو السنحاني في القلب، ومعهم قبائل نَهْد وسَنْحان وحمير. وكان عمران بن الفضل اليامي ومدافع بن الحسن الجنبي ومحمد بن علي اليامي في قبائل همدان من يام وجنب وسواهم في الميمنة. وكان مالك بن شهاب الصليحي في الميسرة ومعه الحرازيون. ثم أقبلوا على العبيد، وهم صافّون على باب الشبارق، وكانوا ستة كراديس، وعددهم ثمانية عشر ألفاً، وهم مثل العارض الأسود[1].

تقابل الجيشان في يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ٤٦٠. وقد قاتل سعيد الأحول وجيشه قتالاً شديداً حتى انطوى عليهم الجناحان، فانكسر جيشه كسرة شنيعة، وهزموا شر هزيمة[2]، فجالت عليهم الخيل جولة واحدة فانطحنوا طحن الرحى وأتى القتل على أكثرهم[3]. وكان سعيد الأحول قد أعدّ خيلاً مضمرة على الباب الغربي المسمى بباب النخل، فسار مع من سلم من خواصه إلى البحر، وقد أعدّت له سفن هنالك، فركبها من فوره، وسار نحو جزيرة دَهْلك[4]. وكان سبب نجاته انشغال المكرم ومن معه في الوصول إلى والدته الملكة السيدة أسماء. «فلم يتتبع العبد أحد، ولا أقيم له في ذلك صدّ»[5]، ودخلت العرب زبيد عنوة ولم يزل القتال إلى صلاة الظهر[6].

تخليص الملكة أسماء أم المكرم من الأسر

وكان المكرّم أول من وقف تحت الرأسين المصلوبين تحت طاقة الملكة أسماء بنت شهاب. فقال لها المكرم وكانت لا تعرفه: «أدام الله عزَّك يا مولاتنا!»

---

(١) وفي عيون ٧/٩٩ وصف تنظيم جيش الحبشة، فقال: «وكردوس ميمنة، وعن يمينه كردوس أردفوه به، وكردوس ميسرة، وعن يساره آخر، وكردوس قلب، وكردوس آخر جعلوه كميناً في الحائط».

(٢) رسائل القمي ٥٥.

(٣) كفاية ٥٠.

(٤) بامخرمة: ثغر عدن ١/٨.

(٥) رسائل القمي ٥٧

(٦) عمارة / كاي ٢٥، قال: ظهر يوم الأثنين ١٩ صفر سنة ٤٦٠.

فقالت: مرحباً بأوجه العرب». ثم سألته من هو؟ فقال لها: «أنا أحمد بن علي بن محمد». فقالت: «إن أحمد بن علي في العرب كثير، فاحسر لي عن وجهك حتى أعرفك». فرفع المغفر عن وجهه[1]. فقالت: «مرحباً بمولانا المكرّم! من كان مجيئه كمجيئك فما أخطأ، ولا أبطأ». ثم دخل رؤساء العرب فسلّموا عليها، وقد كشفت عن وجهها، وكانت هذه عادتها في أيام زوجها لسموّ قدرها عمَّن يحتجب عنه النساء[2]. وقد نزل المكرم عن ظهر جواده، وسجد لله شكراً على ما أحرزه من نصر، وعفَّر خدّه في التراب، وأحرقت الدار التي استعصم بها العبيد[3].

سيرة المكرم في الحرب والسلم

ولما دخل المكرم زبيد لم يجعل لأحد سبيلاً إلى حريم بني نجاح وأطلق من وقع في أيدي العسكر من أولاد العبيد. وقد يكون راعى في ذلك ما سار العبد من سيرة سليمة أثناء اعتقال الملكة أسماء وحرائر آل الصليحي. وقال عمارة[4]: «ونادى منادي المكرم يومئذ برفع السيف بعد الفتح وقال للجيش: اعلموا أن عرب هذه البادية يستولدون الجواري السود فالجلدة السوداء تعم العبد والحرّ».

وهنا نقف لنتساءل: لماذا لم ينتقم المكرم لأبيه وعمه وأهله بالفتك بهؤلاء الذين وقعوا أسرى في يده؟. عرف عن المكرم كما عرف عن أبيه من قبل حسن السيرة في الرعية، وقد تمسك بهذه الصفة لأنه وجد فيها الخير كله، وكان يرى أن إدراك الثأر ليس في الفتك بالأسرى، بل إنه اكتفى بتخليص أمه وأقاربه، وآثر أن يعامل الناس بالحسنى حتى يملك القلوب والأنفس، كما ملك مشاعر الناس بانتصاراته، فبر بوعده الذي أخذه على نفسه أمام جيشه، فلم يرم من وراء ذلك إلا إلى تخليص أمه، ولم يكن غرضه انتهاك الحرمات وإثارة الفتن، فكبت

---

(١) في تلك الحالة أصابه الهواء فارتعش واختلجت بشرة وجهه وعاش عدة سنين وهو ينتفض رأسه وتتحرك بشرة وجهه (عمارة/كاي ٢٥؛ كفاية ٥٠).

(٢) عمارة / كاي ٢٦؛ كفاية ٥٠.

(٣) عيون ٧/ ١٠٠.

(٤) عمارة / كاي ٢٦.

بذلك الفتنة في نفوس الأعداء، وأطلق الألسُن تلهج بالثناء عليه، واشتهر أمر المكرم بما أظهره من ضروب الشجاعة وعلو الهمة. قال عمارة[1]: «أدركت أهل زبيد إذا شتم السوقي صاحبه وقيل له أتشتم الرجل. فيقول الشاتم: الرجل والله هو الذي أخذ أمه من زبيد وقتل من الأحباش عشرين ألفاً دونه، لعمري هذا هو الرجل». وهذه الأقوال تبين مقدار مركز أحمد المكرم الصليحي في نظر اليمنيين، لأن انتصاره على النحو الذي ذكره التاريخ أكبر وأعلى من جبروت المنتصر على عدوه، وساعد على تثبيت مركز دولته؛ فأحبّه المُوالي والمعاند، وآثروا الخضوع إليه، لا خوفاً من قوة بطشه، بل رغبة في شهامته، وقال الناس فيه: «والله الذي سماه ذا السيفين لحكيم».

وقبل أن يغادر المكرم زبيد نقل الرأسين[2] من مكانهما وبنى عليهما مشهداً. وفي ذلك قال عمارة[3]: «وأنا أدركت مشهد الرأسين»، كما أقام أياماً مهد فيها قواعد البلاد، وأقام رسم الدعوة الهادية على العادة الجارية[4].

عودة المكرم إلى صنعاء

وفي يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ستين وأربع مئة خرج المكرم من زبيد يريد متابعة العبيد الهاربين، لولا أن وصل إليه في هذه الأثناء من إسماعيل بن أبي يعفر الصليحي عامله بصنعاء كتاب يذكر فيه أن الشريف قاسم بن جعفر العياني نقض العهد، وأنه اتخذ من تغيب الجيش فرصة للانتقاض على صنعاء، كما جاء في هذا الكتاب أن الوالي إسماعيل هذا قد اشتدّ عليه المرض، وأن الحجازيين وأهل حراز قد وقع بينهم النزاع وساءت العلاقات. فخاف المكرم أن ينال المخالفون من صنعاء ما سولت لهم أوهامهم. فخف مسرعاً

---

(١) عمارة / كاي ٢٦.

(٢) رأس علي الصليحي وأخيه عبد الله نقلهما من أمام دار شحار بزبيد إلى مكان الدفن في صنعاء.

(٣) عمارة / كاي ٢٦.

(٤) رسائل القمي ٢٦.

للعودة ومعه أمه الملكة أسماء والحرائر الصليحيات. وفي رجوعها إلى قصرها بصنعاء وخلاصها من الأسر قال الشاعر عمرو بن يحيى الهيثمي[1]:

أوْبةُ أسماءَ إلى قصْرها بعد فِراقِ المَلك الأوحَدِ
وبعدَ عَوْصاء الخطوب التي رَمَتْ بني قحطانَ بالمُؤْيِدِ[2]
كرجْعة الشمس وقد جَنَّها دَجْنٌ وسربال دُجىً[3] أسودِ
فيا لها من نعمةٍ أصلها بأس ابنها بانى العُلى أحمدِ

ومن هذه الحروب نلاحظ ظهور الروح الوطني واضحاً جلياً عند العرب فأخذوا يثيرون حماسة العرب على العبيد. وكان الأحباش يشعرون بأن العرب لن يتركوا ثأرهم. يتضح هذا من خطاب جياش بن نجاح لأخيه سعيد الأحول بعد قتل علي الصليحي ينصح له أن يفك أسر السيدة الملكة أسماء بنت شهاب ويردها إلى ابنها المكرم، قتل علي الصليحي ويعفو عن بقية آل الصليحي، ويكتب للمكرم ما معناه: «إنا أدركنا ثأرنا، واسترجعنا ملكنا، وقد أحسنا إليك وجملناك بصيانة والدتك والعفو عن بني عمك»، وإن فعل ذلك لم ينازعه أحد في ملك تهامة أبداً، وإن خالفه أغارت عليه قبائل العرب وطلبت بثأرها. فلم يجبه أخوه إلى طلبه وتمثل بقول الشاعر:

لا تَقطعنْ ذنَبَ الأفعى وترسلها إن كنتَ شهماً فأتْبعْ رأسَها الذنبا[4]

وفاة إسماعيل بن أبي يعفر والي صنعاء

وصل المكرم إلى صنعاء ليلة السبت السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ستين وأربع مئة، فوجد الوالي الأمير إسماعيل بن أبي يعفر الصليحي قد اشتدت علته، ولم يمهله المرض غير عشرة أيام، ثم وافاه الأجل. فحزن المكرّم لفقده،

---

(١) عيون ٧/١٠١.
(٢) المؤيد الداهية الشديدة.
(٣) الدجى جمع دجية وهي ظلام الليل.
(٤) العرشي: بلوغ المرام ٢٥ - ٢٦.

لأنه كان ركناً من أركان دولته، وكانت قبائل يحصب وعنس ورعين تدين بولائه وتخاف بأسه[1]، ثم عين مكانه ابنه عبد الله، وأطلق يده في كل ما كان يضطلع به أبوه.

قمع الفتن الداخلية

ثم أخذ المكرم بعد ذلك يعالج الأمور التي تعقدت في أثناء غيابه ويصلح ما أفسده الطامعون. وكان أول هذه الأمور الفتنة التي قام بها الشريف القاسم بن جعفر العياني[2]، لأنه نقض عهده، واستمال ذيبان[3] وبني جبْيَر[4] وبني الدُّعام[5] وحرضهم على خلاف الملك المكرم، ووعدهم بظهور عمه الحسين بن القاسم، وكانت همدان قد قتلته قبل ذلك الوقت بستين عاماً[6]، وأفهمهم بأنه سيظهر ويملأ الأرض عدلاً، فمال إليه فريق من الناس.

لذلك اتّجه المكرّم إلى ذيبان بجيشه وحاربها بحجة أنهم قد استولوا على طعام له وفعلوا أفعالاً لا يمكن السكوت عليها؛ وما زال بها حتى أصلح ما فسد منها. وقدم له كبراؤها الولاء فعاتبهم على سوء تصرفهم، وقربهم وأحسن إليهم. ولما كان يوم الجمعة الرابع والعشرون من شهر جمادى الأولى سنة ٤٦٠ عاهدوه على السمع والطاعة، وأن يخرجوا في كل مكان يخرج فيه المكرم إلا تهامة، فإنهم بالخيار، إن شاءوا خرجوا، وإن شاءوا تركوا وقعدوا، وأنهم لا يأوون الشريف القاسم ولا يوالونه[7].

---

(١) كان له حصن كحلان (عيون ١٠٢/٨).

(٢) انظر ص ٨٢ - ٨٣، ١٢٠ (هامش ٤).

(٣) هو بنو ذيبان بن عليان بن أرحب، وبلد ذيبان وجبل ذيبان ووادي ذيبان من بلد همدان ثم من أرحب، وهي بلد كثيرة الأعناب كما ذكر الهمداني (صفة ١١). وما تزال هذه القبيلة من أرحب تسمى بهذا الاسم.

(٤) بنو جبير، هكذا ورد اسمهم في عيون ١٠٤/٧، والمعروف الآن بنو جبر بضم الجيم وفتح الباء من حاشد.

(٥) الدعام هم من بني عليان بن أرحب من همدان (صفة ١١١، ٢٠١).

(٦) عيون ١٠٤/٧.

(٧) نفسه ١٠٥/٧.

قام الملك المكرم لصلاح المغرب، فانتهى إلى اللُّوميِّ[١] حيث وافاه كتاب والدته الحرة أسماء بنت شهاب تخبره بورود كتابين من أسعد بن عبد الله الصليحي ومن علي بن سويد وعبد الله بن معمر، قد جاء فيهما أن حسين بن مغيرة التُّبَّعي وأبا العباس السُّخطي وأبا إسماعيل الكلالي نزلوا إلى الحمراء[٢] بجميع أهل يحصب ورعين، وأن سعيداً الأحول طلع من تهامة بجمع عظيم عازماً صنعاء، وأن أخوي الأحول في جمع آخر مقابلون لعسكر أسعد بن عبد الله الصليحي بذي أشرق، وأنهم يستعجلون نهوض الملك المكرم. فلم يمكن المكرم الرجوع من المغرب وقد قارب جبل مسْوَر. فلذلك نهض من اللُّوميّ، فنزل بقرية مُدَع[٣]، ولقيه محمد بن إبراهيم الصليحي، وحاشد بن كديس الصليحي عامل مسور، ومشائخ أهل لاعة، ولحقه عامر بن سليمان الزواحي. ولما صار المكرم بالجبل وهو مقابل لجبل حمْلان[٤] المطلّ على كافّة بلاد المغرب، «فوجد أهل المغرب معتصمين فيه، لازمين لصياصيه»[٥]. فوقف المكرم بالجبل إلى الليل، ولما كان الصباح أمر جنده بطلوع جبل حملان من غربي الوادي تحت قيادة عامر الزواحي، ومن أعلى الوادي تحت قيادة محمد بن إبراهيم وحاشد بن كديس، وطلع المكرم بفرقة من جهة وسط الوادي. فأقبل أهل الجبل من كل حدب ينسلون ويكرون، وكان معظمهم في الناحية التي كان فيها المكرم. فنزل المكرم عن جواده، وصعد الجبل هو في مقدمتهم لا تثنيه النبال والأحجار مما اضطر أهل الجبل إلى الفرار. فلما ملك المكرم جبل حملان «جاءوا إليه من جميع المغرب مذعنين، . . فعفا وأحسن عليهم»[٦].

(١) واللومي يقع في جبل عيال يزيد من مديرية عمران.

(٢) الحمراء موضع معروف في جبل الشعر (هامش عيون ١٠٥/٧).

(٣) عيون ١٠٦/٧: قرية من قرى حمير.

(٤) في رسائل القمي ٦٠، قال: «وكان حملان معقلاً للعرب قديماً، وحصناً يلجئون إليه عظيماً». وحملان على مقربة من حجة. وفي عيون ١٠٧/٧ نقلاً عن سيرة المكرم، قال: «ومما يؤثر عن هذا الجبل أنه لم يطلع احد إليه قط ولا طمع فيه، وأن الأجل الأوحد (يعني الملك علي بن محمد الصليحي) لما جاز مسور أطاعه اهله بغير قتال».

(٥) رسائل القمي ٦٠.

(٦) عيون ١٠٧/٧.

واتصل الخبر بالمكرم أن سعيداً الأحول قد صار بـالمخلاف، وأن التبعي والسُّخطي والكلالي ويعفر بن الكرندي ويحصب ورعين قد صاروا ألبـاً واحداً في جموع عظيمة بالشوافي، يهددون سيادة الدولة الصليحية. فنهض المكـرم إلى صنعاء، ثم صار منها يريد المخلاف وانتهى إلى وادي بَيْنـون[1]، وأخضع بني صعب من عنس وبني الحارث ومذحج في طريقه حتى وصل إلى جبل الشعر الذي تحصن فيه التبعي والسخطي في معظم يحصب ورعين وعنس، وهم أهل النجدة والبأس، فقام المكرم بجميع عساكره بهجوم عنيف في الوقت المعـين على رأس الجبل معلنين بالتكبير والتهليل، فأجفل أهل الجبل مولين تاركين كثيراً من الغنم والمتـاع، وفرّ التبعي والسُّخـطي، واعتصما بحصن القـرانـح[2]. فـأمـر المكـرم بحصار الحصن وقتالهما. ولما جن الليل خرج السُّخطي يريد النجاة، فوافقه قوم من كحلان، فسيق إلى المكرم، فأكرمه وأحسن إليه. ولما علم التبعي بخذلان حليفـه، طمع في كـرم الملك وعفـوه. وسلّم نفسـه، فـأعـطاه الأمـان.

وكان من أثر هذه السياسة المرنة أن أقبل الناس على المكرم يطلبون الأمان، فأجابهم إلى مـا أرادوا، إلاّ أن ابن مغيرة التبعيّ فـرّ ولحق بسعيد الأحـول. «وفي اليوم التاسع والعشرين من رجب سنة ٤٦١ توجه المكرم إلى صنعاء، فدخلها في اليوم السابع من شعبان، وهو يكثر من حمد الله والثناء على الإمام المستنصر الذي ببركته ما تم له من فتوح»[3].

الأخذ بالثأر من سعيد الأحول والحبش

عم الهدوء أنحاء دولة المكرم بعد أن قضى على الفتن والثورات التي أقضت مضجعه منذ تولي الحكم في شهر ذي الحجة سنة ٤٥٩ إلى أن عاد إلى صنعاء في شعبان سنة ٤٦١، لأن الأعداء وجدوا فيه قائداً لا تلين قناتـه كما وجـدوا في أنصاره قوة وعزيمة وإيماناً واستبسالاً في الحروب، تدل على ثقتهم بملكهم، ففكر في أن يثأر من سعيد الأحول وبني جلدته ليستريح من شرورهم.

---

(١) بينون، واد في بـلاد المشـرق عـظيم الغيـول، كثـير المـزارع والأعنـاب (عيـون ١٠٨/٧).

(٢) القرانح، حصن مطل على مدينة الطويلة، شمالي غربي صنعاء.

(٣) عيون ١٠٩/٧.

فتح تهامة

كان المكرَّم يرى أن عدوه التقليدي لا يزال قائماً، وأن والده شهيد أم الدهيم[1]، وأن ثأره بل ثأر العرب جميعاً، لا يمكن أن تنام عنه أعين العرب. فالدم في عرفهم لا يعوض عنه إلا الدم، ولا جزاء لمهرقه غير القتل، والتبعة الأولى تقع على عاتق الأقربين، فلم يكد المكرم يستقر شهراً واحداً في قاعدة ملكه حتى قام يستنهض العرب من جديد للأخذ بالثأر من العبيد. «فأمر برسالة قرئت على أعوانه في الوعظ والتذكير وفضل الجهاد وما فيه من الثواب العظيم، واستبشر الناس بذلك وأجابوه بما أراد»[2]. وقام الشعراء يحرضون العرب على وجوب الأخذ بثأر مليكهم العظيم عليّ بن محمد الصليحي، ومن هؤلاء الشعراء الحسين بن علي القميّ[3] الذي نظم قصيدة طويلة جاء فيها[4]:

أقحطانُ هُزِّي البيضَ واعْتقلي السُّمْرَا ... ورُدِّي العَوالي من دماءِ العِدا حُمْرا
ولا تُهْدِري ثأرَ المظفَّرِ إنّهُ[5] ... بَنى لكُمُ مجْداً وشادَ لكم فخْرا
سَرَى نحو بيتِ الله، للّهِ قاصدا ... يَرومُ من الله المثُوبةَ والأجْرَا

---

(١) أم الدهيم، موضع بمقربة من المهجم.

(٢) عيون ٧/١١٠.

(٣) هو أبو عبد الله الحسين بن علي بن محمد القم. كان أبوه صاحب ديوان الخراج بتهامة، وقد ظهر شأنه في أيام الملك علي بن محمد الصليحي. ولد ابنه الحسين بزبيد وتأدب بها، وكان يعد من فضلاء اليمن ورؤساء شعرائها (الجندي: السلوك ١/ ورقة ٨٨). وقال عمارة عنه: «إنه كان شاعراً مترسلاً يكتب عن الملكة الحرة بنت أحمد» (النكت العصرية ٢/٥٦٧). وكان على صلة وثيقة بالسلطان سبا بن أحمد الصليحي وأقام معه بحصن أشيح (عمارة/كاي ١٢٧)، ومدحه وأسرته بغر قصائده. وتوجد في المتحف البريطاني أوراق منتزعة من ديوانه وشعره، وقد أورد الداعي إدريس بعض قصائده في السبع السابع من العيون. وكان رئيس ديوان الإنشاء عند الصليحيين، ويوجد في مكتبتنا المحمدية الهمدانية نسخة خطية من مجموع المكاتيب التي ألفها على لسان السلاطين الصليحيين، وأشرنا إليها في هذا البحث باسم «رسائل القمي».

(٤) عيون ٧/١١٠ ـ ١١١.

(٥) المراد من المظفر الملك علي بن محمد الصليحي.

ولما صحت عزائم العرب على القتال، بعد أن استنهضهم الملك والشعراء والخطباء، قام الملك أحمد المكـرم من صنعاء في يوم الخميس غرة شهر رمضان سنة ٤٦١ قاصداً سعيدا الأحول في زبيد، فوصل إلى العمد في يوم الأحد الخامس من ذلك الشهر، وعرض عسكره في خارج القرية، ثم وعظهم وحثهم على عدم النهب والسلب، وتأمين الناس على أموالهم وأرواحهم، وأنهم لا يريدون إلاَّ قصد عدوهم، فأطاعوه.

وفي صبيحة اليوم السابع من ذلك الشهر قصد المكرم زبيد حيث جاءته الأخبار بأن سعيدا الأحول قد تحرك في أول رمضان إلى المخلاف أو إلى عدن. فأرسل المكـرَّم قائـده عامـر بن سليمان الـزواحي في جُل من معـه من جنب وسنحان وحمير إلى جهة نقيل صيد واتجه المكرم بمن معه من همدان وأهل حراز نحو جبل الشعِر حيث كان سعيد الأحول وجيشه قد تعلقوا بالجبل[1] فملك الرعب قلوب الحبشة، وأيقنوا بالهلاك، فحمل المكرم عليهم حملة من يختار الموت على الحياة الفانية[2]، وهزم العبيد هزيمة منكرة، وأدرك رجل من شاكر[3] سعيداً الأحول فقتله عند قرية مَابَة[4]، وأتى برأسه إلى المكرَّم. وقتل بلال بن نجاح وأخوه مالك بجهة نقيل صيد على يد عامر بن سليمان الزواحي. وعاد المكرم بعد ذلك إلى زبيد، وفي يوم السبت غرة شوال صلَّـى بالناس العيد، وخطبهم خطبة أفاض فيها بالدعاء لأبيه، على ما قيضه له من الأخذ بثأره[5].

---

(١) وكان عدد جيشه ١٢ ألفاً وجيش المكرم سبع مئة رجل، وذلك لأن معظم جيشه كان مع الزواحي بجهة نقيل صيد (عيون ١١٢/٧).

(٢) نفسه ١١٢.

(٣) شاكر بن بكيل قبيلة همدانية مشهورة تسكن شمال اليمن ولها فروع (صفة ١٦٩، ١٩٤).

(٤) مابة، قرية في رأس جبل بني الحارث، ومتصلة بجبل الشعر مباشرة، وكذلك بمخلاف جعفر وهي القفل الفاصل ما بين اليمن الأعلى والأسفل، ويطل عليها حصن سلبة الذي يقول فيه أعشى همدان:

بـبعـدان أو ريمـان أو حـصـن سلبـة ... دواء لـمن يـشـكـو الـسـمـائـم بـارد
وبـالقصـر مـن إريـاب لـو بت لـيلة ... لجـاءك مـثـلوج مـن المـاء جـامـد

(٥) عيون ١١٣/٧.

ومما قاله: «اللهم وتغمد بغفرانك ورحمتك ورضوانك عبد أمير المؤمنين وداعيه الأجل الأوحد، واجزه أفضل ما جزيت داعياً عمّن دعاه، اللهم وأوزعنا شكر ما أنعمت به علينا من توحدك لنا بإدراك ثأره من الظالمين والإدالة به من أعدائه الفاسقين، حتى صاروا بأسيافنا حصيداً خامدين، فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ»[1].

ترك المكرم زبيد بعد أن ولّى عليها السلطان أبا حمير سبا بن أحمد المظفر الصليحي وأراد متابعة جياش بن نجاح؛ فوصل إلى الهجر في صبيحة يوم الجمعة ٢٨ شوال سنة ٤٦١؛ وعلم فيها بأن جياشاً هرب إلى بلاد الهند. ثم اتجه المكرم إلى الساعد بعد ما خلف على الهجر علياً ومحمداً ابني مالك بن شهاب الصليحي وجماعة من أهل الحجاز وأهل المغرب.

ثم وصلت في هذه الأثناء السجلات المستنصرية تتضمن تشريفات وزيادة في الألقاب فقرأها على الناس في يوم السبت السابع من ذي القعدة. وجاءته الشعراء مهنئين بالنصر، منهم الشاعر أحمد بن علي التهامي الذي قال قصيدة جاء فيها[2]:

---

(١) عيون ١١٣/٧؛ وقد جاء عمارة/كاي ٣٠ برأي آخر في قتل سعيد الأحول، وذكر أن قتله كان في سنة ٤٨١ في عهد الملكة الحرة أروى بنت أحمد. واتبعه في هذا الخزرجي (كفاية ٥٣) ويحيى بن الحسين (أنباء/دار ٤٢) وابن الديبع (قرة ورقة ٢٤). وهذا الرأي بعيد عن الصواب لأن قتله كان كما ذكرنا في سنة ٤٦١. وقد ظل حسين بن مغيرة التبعي صاحب حصن الشعر طوال مدة حكم المكرم عدواً للدولة الصليحية، بالرغم من أن المكرم قد أعطاه الأمان وأكرم مثواه، إلّا أنه فر ولحق بسعيد الأحول بزبيد كما سبق أن ذكرنا ذلك. وقد ذكر المؤرخون الأربعة أن حسين بن مغيرة قد انضم إلى الملكة الحرة ودخل في طاعتها وهو الذي رسم لها الحيلة التي قتل بها سعيد الأحول. إننا نستبعد أن يكون هذا المعاند المكابر في عهد المكرم، وهو عهد قوة الدولة وسطوتها، أن يصير حليفاً اليوم للملكة الحرة، فيساعدها على قتل سعيد الأحول الذي كان يتخذه ملجأ له، بل يعده أكبر مساعد له ضد هذه الدولة الخصيمة. ثم إن هؤلاء المؤرخين، قد أجمعوا على أن الملكة الحرة قد كاتبت في هذه الأثناء، أسعد بن شهاب وعمران بن الفضل اليامي، وأمرتهما بالتوجه من صنعاء إلى تهامة. وهذا الأمر يخالف الواقع لأن أسعد بن شهاب كان قد توفي في شعبان سنة ٤٥٦ (عيون ٧٦/٧). لذلك كله نرى أن هذا الرأي، لا أساس له من الصحة، وأن قتل سعيد الأحول كان في عهد الملك المكرم كما ذكر صاحب العيون.

(٢) عيون ١١٤/٧ ـ ١١٥.

نفضْتَ غُبَارَ العارِ عن ثوب يَعْرُبٍ وقد سحبت أعطافَه كلّ مَسْحَبِ
بشعواء في صنعاء قرع طبولها وريعانها بالعِرْق دون المحصَّب[1]
أدَرْتَ على دَرْب الحُصَيْبِ مع الضحى[2] رحى ذات قطب حاشديٍّ ولولب[3]
فأضْحَوْا على الأبواب صَرْعى كأنّهم قبائل عاد في الصباح العصبصب[4]
وجئت وأم المؤمنين وسِرْبُها كزينب يوم الطفِّ حول المخضّب[5]
حماها الذي أعطاك مُلْكاً كما حمى بناتِ عليّ من مسوخ وأكلب
فإن ذكرت بالفخر يوم نسابها قريش كعمرو أو كعيسى ومصعب[6]
أو الخرق عتاب أو المرء خالد أو الشهم مروان الخطيب المهذب
وإخوتنا الأزد اليمانيون إن أتوا بغرّ بني الأيام آل المهلّب
أتينا بذي السيفين أحمد إنه يفوق على الحيين أدّ ويعرب
لقد طالهم فخراً ومجداً ونجدةً كما طال كَيْوان على كل كوكب
أليس نظام المؤمنيْن أميرنا أباك وإن الفخر للمتسبب

---

(١) حاشية العيون: المحصب، موضع بالحجاز.
(٢) الحصيب، وهو نفس مدينة زبيد.
(٣) حاشية العيون: اللولب المستدير. قال الأزهري: لا أدري عربي أم معرب.
(٤) العصبصب، شديد الحر.
(٥) يريد به الإمام الحسين المخضب بالدماء.
(٦) عيسى، هو عيسى بن موسى العباسي، ومصعب، هو مصعب بن الزبير بن العوام.

وأمّــك بنت القَيْــل من آل جعفــر　　فنــاهيك من أمّ ونــاهيـك من أب
ومكنـك البـاري على لـوح عـرشــه　　طراز العلى في مفخر النسج مذهب
فـدُمْ لبني قحـطان يـا رأسَ عـزهم　　ومهيعهم في الـحــادث المـتعـصب

نقل جثتي أبيه وعمه إلى صنعاء

ترك المكرم بعد ذلك قرية الساعد في نفس اليوم، فبلغ المهجم وأمر بحمل جثتي والده وعمه في تابوتين إلى زبيد؛ ثم سار بهما إلى صنعاء؛ فقبرهما يماني الجبَّانة، وأمر ببناء مشهد جامع لهما[1]، وكتب بعض الشعراء على قبر الصليحيّ أشعاراً منها[2]:

في القبـر ليثٌ وبحرٌ زاخـرٌ وجَـدى　　جــودٍ وطَـوْدٌ وضــرغـام وصمصــامُ
فـاعجبْ بأن ضمَّ هـذا كلَّه جَـدَث　　بــدا لـه في قلوب النــاس إعـظامُ
فطُفْ به واقْضِ حَقَّ المجـد إن له　　حقًّـا على كـلّ حُــرٍّ جَــدُّه ســامُ
هذا الذي أمْسِ رُجَّتْ خَوْف سطوته　　نــجــدٌ وبغـدادُ والأحسـاءُ والــشــامُ
حتى إذا قيــلَ هـذا مــا لـه مثَــلٌ　　مــن الأنــام تــولَّتْ قــتْــلَهُ حــامُ

ولما عاد المكرم إلى صنعاء بعد دفن الجثتين جلس في مسجد كان قد بناه أبوه،

---

(١) يقول صاحب العيون ١١٦/٧: «ومشهد الصليحي اليوم قد عفى المتغلبون الظالمون آثاره؛ وهدموا مناره... فإن عنايتهم في ذلك كثيرة، وفي هدم القبور أفعال نكيرة، وذلك شيء يتحاماه الكفار والمسلمون، ويأنفون عنه، وهؤلاء يقدمون».
(٢) نفسه ١١٦/٧.

وأخذ الشعراء ينشدونه قصائدهم، ومن بينهم عمرو بن يحيى بن الحسين الهيثمي حيث قال قصيدة جاء فيها[1]:

وكيف لا نبكي ملوكاً عَنَتْ لهُمْ ملوكُ الشرق والمغربِ
دارتْ رَحَى بأسِهمُ من قُرى الشِّحْر إلى نجْدٍ إلى يثربِ
بما حوى البحرُ وشَادوا العُلى وأدركَوا ثارات آل النبيَ
لم تطلع الشمسُ على مثلهمْ من غيرهم جودا ولم تَغْرُبِ
ولم يمُتْ مجدُهُمْ إنَّما غُيِّبت الأجسادُ في التَّيْرَبِ[2]
وسعْيُ ذي السيفين يُحييهمُ ما لاحَ في الليل سَنا كوكَبِ

وفاة الملكة الوالدة أسماء

استقرَّ المكرَّم بعد ذلك في صنعاء، وأخذ يصرف أمور دولته إلى أن توفيت أمه أسماء بنت شهاب بصنعاء سنة سبع وستين وأربع مئة على ما ذكره الداعي إدريس[3]، إلاَّ أن كتب التاريخ الأخرى ذكرت أن وفاتها كانت في سنة **٤٧٩**[4]، وهذا الزعم بعيد عن الصواب إذ لم نعد نسمع بذكرها في الجزء الأخير من حياة المكرم بعد أن صارت أمور الدولة والدعوة في يد زوجته السيدة الحرة أروى بنت أحمد[5].

---

(١) عيون ١١٧/٧.

(٢) في أصل: في الترب. ولعل ما أثبتناه هو الصحيح، والتيرب والتورب من أسماء التراب، وبه يستقيم وزن البيت.

(٣) عيون ١٢١/٧؛ انظر الفصل عن فضائل السيدة أسماء ص ٦٧.

(٤) أنباء/٤٢/١١؛ قرة ورقة ٢٤؛ بغية ورقة ١٢؛ وذكر الخزرجي في كفاية ٥٣ أن وفاتها كانت سنة ٤٧٤.

(٥) عيون ١٢٢/٧.

انتقال المكرم من صنعاء إلى ذي جبلة

وقد رأت الملكة الحرة بثاقب فكرها أن تجعل ذي جبلة[١] دار قراره فأشارت على زوجها الملك المكرم بذلك، فقالت له: «يا مولانا! أرسل إلى أعمال صنعاء، ليجتمعوا أو يحشدوا». فأمر الملك المكرم بجمعهم وحشدهم فلما حضروا الميدان أشرف عليهم من قصره، فلم تقع عينه إلاّ على حامل سيف أو رمح. ثم انتقل الملك المكرم إلى ذي جبلة ومعه امرأته السيدة، فسألته أن يحشد أهلها ورعاياها. ففعل، وأشرف عليهم، فلم تقع عينه إلاّ على حامل هدية أو سائقها. فقالت له: «العيش بين هؤلاء أفضل، لأن ذلك أقر للمملكة وثبوت قواعدها وأسهل جانباً في مصادر الأمور ومواردها، وهي متوسطة بين اليمن الأعلى والأسفل، وبها يخصب العيش ويطيب المحل»[٢].

اعتكافه في حصن التعكر وتفويض أمر الدولة لزوجته

ولما اقتنع المكرم بوجهة نظرها جعل ذي جبلة له مقراً وترك صنعاء بعد أن ولّى

---

(١) اختط السلطان عبد الله بن محمد الصليحي في سنة سبع وخمسين وأربع مئة مدينة ذي جبلة بمخلاف جعفر بأمر أخيه الملك علي بن محمد الصليحي (انظر ص ٨٨). وجبلة، على ما قيل، اسم لرجل يهودي كان يسكن فيها ويعمل الفخار في الموضع الذي بنى فيه السلطان عبد الله دار العز الأولى. وهي تسمى مدينة النهرين لأنها مدينة بين نهرين كبيرين جاريين في الصيف والشتاء. ويقال في المثل المشهور إن جبلة لا يدخلها أحد إلاّ طاهر وصباحها صباح عروس. ولما انتقل المكرم إلى ذي جبلة اختط بها دار العز الثانية في ذي بور وكان حائطاً فيه بستان وأشجاراً كثيرة؛ وهو مطل على النهرين وعلى الدار الأولى. وقال عبد الله بن يعلى الصليحي في وصف ذي جبلة:

هب النسيم فبت كالحيران	شوقاً إلى الأهلين والجيران
ما مصر؟ ما بغداد؟ ما طبرية	كمدينة قد حفها نهران
خدد لها شام وحب مشرق	والتعكر السامي الرفيع يمان

«وأمرت الملكة السيدة ببناء الدار الأولى مسجداً جامعاً وهو المسجد الجامع الثاني. وبها قبر الملكة السيدة رحمها الله إلى الآن» كما حكاه عمارة/كاي ٣٠. وأضاف عمارة قائلاً: «وكان بناء دار العز الثانية الكبيرة سنة إحدى وثمانين وأربع مئة».

(٢) عيون ٧/١٢٢.

عليها عمران بن الفضل اليامي وأبا السعود بن أسعد بن شهاب[1] واستقرّا بدار العزّ التي بناها بذي جبلة جميعاً[2]. وأقام بها مدة، ثم اشتد به مرض الفالج الذي أصابه بعد تخليص أمه أسماء من الأسر بزبيد[3]، وأشار الأطباء عليه أن يحتجب عن الناس لذلك السبب[4]، فترك ذي جبلة وطلع حصن التعكر بعد أن فوّض لزوجته شئون إدارة الدولة.

عمران بن الفضل اليامي وعزله من ولاية صنعاء

وكان الملك المكرم قد ولّى على صنعاء القاضي عمران بن الفضل اليامي الهمداني[5] أحد أقطاب الدولة الصليحية أيام سكون المكرم بذي جبلة، ثم عزله عنها، وكان ذلك من الأسباب التي كانت بها المباعدة بينه وبين القاضي عمران[6] وفي ذلك يقول القاضي عمران يخاطب المكرم والأمير سبا بن أحمد الصليحي:

ولا تجرحا بالعَزْل أكباد معشر	إذا غضبوا علّ القنا وتكسّرا
فلو أنّ مولانا معدّاً أتاكما	بعَزْل تولّى الكلّ منّا وأدبرا
فلا تفرقا من لَفّه والداكما	وعودا إلى عقليكما وتدبّرا
فإن أنتما أنكرتما ما نَظَمْتُهُ	فصِدْقِي غدا من طلعة الشمس أزهرا

---

(١) في كفاية ٥٣ وأنباء / دار ٤٢ وقرة ورقة ٢٤ أنه ولى أسعد بن شهاب. وهذا يخالف الحقيقة لأن أسعد خال المكرم قد توفي سنة ٤٥٦ (عيون ٧/٧٧/) والذي ولاه المكرم على صنعاء أبا السعود بن أسعد بن شهاب.

(٢) كفاية ٥٢.

(٣) عمارة / كاي ٢٥، ٢٦.

(٤) عيون ١٢٢/٧.

(٥) هو عمران بن الفضل بن علي بن أبي زيد بن العمر بن صعب بن الفضل بن عبد الله ابن سعيد بن الغوث بن الغز بن مذكر بن يام بن أصبى بن دافع بن مالك بن جشم الأوسط بن جشم الأكبر بن حبران بن نوف بن همدان؛ ويلتقي نسبه مع الصليحيين من جشم الأوسط. وقد اختارت همدان حفيده السلطان حاتم بن أحمد بن عمران بن الفضل اليامي بأمر صنعاء في سنة ٥٣٣، وملكها بعده السلطان علي بن حاتم. وضربت باسمها السكة وأقيمت لها الخطبة.

(٦) عيون ٢٣١/٧.

وفي أثناء مرض المكرم وصل إلى باب التعكر المسمى بباب كُلَيْب القاضي عمران وجماعة كبيرة من الناس يريدون مقابلة الملك[1]، فمنعه القائمون على خدمة المكرم من دخول الحصن، لما به من مرض، وصرفوا أمره إلى الملكة الحرة بذي جبلة، ولكن هذا التصرف أغضب القاضي عمران[2]، وقال في ذلك قصيدة جاء فيها:

أبـاب كُلَيْبٍ إنني لـك هـاجِـرُ   عـلى أنّـني داع لمـولاك شـاكِـرُ

وهي قصيدة طويلة كما حكاه صاحب العيون، ذكر فيها أفعاله وسوابقه مع الملك علي بن محمد الصليحي، وظنّ أنّ سبب ردّه يرجع إلى سوء تصرف ابن هبالة ونجم بن بشارة وكانا يتولّيان خدمة المكرم، وذكرهما في قصيدته هذه:

فـلما بـدِيـنٍ بـابـه ابـن هَـبَـالـةٍ   ومـأذونُـهُ نـجمٌ فـعمـران كـافِـرُ!

والواقع أنّ الملك أحمد المكرم لم يطلع التعكر إلاّ بمشورة الأطبّاء عليه بالاعتكاف. ولكن ما لبثت أن عادت المياه إلى مجاريها مرة أخرى بعد وفاة الملك المكرم، لأن القاضي عمران حارب النجاحيين في عهد الملكة الحرة، وقتل في موقعة الكظائم سنة تسع وسبعين وأربع مئة كما سيأتي ذكره في الباب التالي.

---

(١) عيون ١٢٥/٧.

(٢) وكان الملك المكرم إذا دخل عمران بن الفضل إليه ينزل عن السرير ويقوم لإقباله ويأخذ بيده فيصعده إلى السرير معه. وقد دخل القاضي إليه ذات يوم مع سميه عمران ابن الشاعر العثماني وقد هجا الشاعر العثماني الملك علي بن محمد الصليحي لما أتى سعيداً الأحول برأس الملك زبيد منصوباً على الراية. فكان الشاعر المطلوب بعد أن ظفر الملك المكرم بسعيد بن نجاح. فقال القاضي عمران: لا أصعد السرير حتى تقضي لي حاجتي. فقال له المكرم: هي مقضية ولو كانت في أمان العثماني. فقال عمران: ذلك أريد، وهذا الغلام ولده. فقام الغلام وأنشد قصيدة أبيه مطلعها:

ماذا ترد على الركبان عدنان   إن لم تجد بجميل الصفح قحطان

فقال المكرم بعد تمام الإنشاد: إن صدقني ظني فإنك تجد أباك قد هلك. إنني لأجد هذا الشعر من آخر نفسه. ويروى أن الشاعر قد مات قبل وصول ابنه إليه (المرجع نفسه ١١٩/٧ ـ ١٢١).

أحمد المكرم ذو السيفين

وقد بلغت الدولة الصليحية في عهد الملك المكرم أحمد بن علي الصليحي أقصى اتساعها، ولم تكسب أرضاً ولا نفوذاً أكثر مما كسبته في عهده، فقام الملك المكرم بأمر الملك والدعوة في جزيرة اليمن وفي الجهات المضافة إليها[١]. ولعل الظروف التي حاقت بالدولة في عهده بعد مقتل أبيه العظيم الملك الأوحد علي الصليحي وذلك بما أحرزه في وقت قصير من انتصارات (Blitzkrieg) هي التي جعلت المؤرخين يصفونه بأنه «كان ملكاً شجاعاً شهماً جواداً هماماً وفارساً مقداماً»[٢]. وأبدى إمامه الخليفة المستنصر بالله الفاطمي مسرّته على انتصارات المكرم بقوله[٣]: «... عرض بحضرة أمير المؤمنين ملطف يبشّر بذكر سلامتك، ويسخر الأقدار لإرادتك، ومواجهتك وجوه الظفر في أبواب وجهتك ومقاساتك للخطوب بعد الخطوب، واصطلائك بنار الحروب، ممّا لو جرى في مثله في السنين لكانت قضيتها عجيبة، وحالتها غريبة، فكيف في هذه الأشهر القريبة؟ وإنك ما لقيت ذا بغي عليك وعتوّ، إلاّ وقمّصك الله قميص ظفر به وعلوّ، قد جعل الله وله الحمد النصر للوائك عَذَبا، كما جعل الأعداء لنار سيوفك حَطَبا، فامتلأ إهاب أمير المؤمنين مسرّة بك وفيك، وحمداً لله سبحانه كثيراً على نجاح مساعيك وإصابة مراميك، وكونك خير خلف لأبيك» إلخ. فنرى أن لقبي «ذي السيفين»[٤] و «داعي السيف»[٥] اللذين منحهما الخليفة الإمام المستنصر أحمد المكرم قبل أن يكون سيد اليمن قد انطبقا عليه تماماً.

خطابة المكرم

وكان المكرم فوق ذلك، كما قال عمارة: «فصيحاً خطيباً مشهوراً بالثبات والإقدام، ولم يكن في زمانه من يتعاطى حمل رمحه وسيفه وقوسه وشدة قوته وعظيم خلقته».

---

(١) عيون ١٢٣/٧.
(٢) بامخرمة: ثغر عدن ٢ /٥٧.
(٣) السجلات رقم ٤٠.
(٤) السجلات رقم ٣.
(٥) عيون ١٥٢/٧؛ نزهة ١ /٨٣.

وقد لمسنا فصاحة المكرم وقدرته الفائقة على الخطابة عندما أخذ يخطب أتباعه ويحثهم على وجوب تخليص أمه من الأسر في زبيد، فلاحظنا إيماناً صادقاً وعزيمة ماضية وشجاعة نادرة في دفع العرب نحو الهدف المنشود.

توحيد العملة

ولما رأى المكرم أن العملة تعتبر من مظاهر سيادة الدولة، وأن توحيدها يعمل على رواج التجارة، أمر بصك الدينار الملكي الذي ينسب إليه، وكتب عليه: «السيد المكرم عظيم العرب سلطان أمير المؤمنين». وقال عمارة[1]: «. . . وإلى اليوم الدينار على هذه السكة إلى أن ولي الداعي الملك عمران بن محمد الزريعي، فسك ديناراً آخر كتب عليه: «أوحد ملوك الزمن ملك العرب واليمن عمران بن محمد». ومما لا شك فيه أن المكرم سك الدينار لأنه وجد أن عدم توحيد العملة في البلاد يدعو إلى اضطراب النقد. وكانت الدنانير المستعملة قبل ذلك إما سعيدية[2] أو عثرية[3] وغيرها[4]. وكان هذا يدعو إلى المضاربة بين قيمة العملة المستعملة المتعددة، وإلى التعقد في التعامل ولا سيما في التجارة.

ثم إن المكرم يحتمل أنه قد طلب إلى الناس وجوب التعامل بهذه العملة الجديدة، إما لرغبة في إزالة مظاهر سيادة الدول التي سبقته في حكم هذه البلاد، وأنه حمل الناس على استقبال عهد جديد له سياسته ونظمه وأهدافه، وإما أنه كان يقصد من ذلك أن يحمل الناس على بيع ما عندهم من عملة قديمة بأثمان رخيصة. ومعنى

---

(١) عمارة / كاي ٢٣.
(٢) نسبة إلى سعيد الأحول بن نجاح.
(٣) نسبة إلى بلدة عثر وهي تقع شمالي زبيد.
(٤) أنباء / دار ٤٠.

ذلك أن الحكومة تعمل على أن تسحب عملة لها قيمتها في نفوس الناس بشرائها منهم بأقل من قيمتها الحقيقية، وهذا ما يعود على مالية الدولة بالربح.

ويلاحظ أن الملك المكرم أحمد بن علي الصليحي برغم شجاعته وشهامته وفصاحته ومواهبه، وبرغم مجهوده الجبار في توحيد بلاد اليمن لم يستطع أن يستمر في الحكم على الدولة التي أنشأها والده العظيم الملك علي بن محمد الصليحي، والتي استرجعها المكرم بعد أن أفلتت من يديه، وذلك بسبب اشتداد مرض الفالج الذي لازمه منذ أن خلّص أمه السيدة الملكة الحرة أسماء بنت شهاب من أسرها بزبيد. فاعتكف بحصن التعكر، وترك - إلى حين وفاته في شهر جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وأربع مئة[1] - شئون الدولة والدعوة في أيدي زوجته الملكة السيدة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية.

(١) وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاته، فزعم بعضهم أنها كانت سنة أربع وثمانين وأربع مئة (كفاية ٥٣؛ قرة ورقة ٢٤؛ عمارة/كاي ٣١؛ باغرمة: قلادة ٢/٢ ورقة ٦٢٨؛ الكبسي: اللطائف ورقة ٢٠)، وقال إدريس إنها كانت سنة سبع وسبعين وأربع مئة. وقد أثبت روايته السجل المستنصري الموجه إلى الملكة الحرة المؤرخ في شهر ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وأربع مئة (السجلات رقم ٤٨) مما يدل على أن الملك المكرم قد توفي في نهاية سنة سبع وسبعين وأربع مئة وأن الخليفة المستنصر أرسل عزاءه الشخصي مع الأمير أبي الحسن جوهر المستنصري، كما جاء في السجل المؤرخ في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وأربع مئة (السجلات رقم ٤٦) أن المستنصر أمر بإرسال كافة المراسلات إلى علي بن المكرم بعد وفاة المكرم.

البابُ السادس

عهد السيدة الحرة الملكة أروى بنت أحمد الصليحية

(٤٧٧ - ٥٣٢)

السيدة الحرة الملكة

كان أهل اليمن يخاطبونها بلقب «سيدتنا الحرة الملكة» حباً فيها وإجلالاً لها، وهي أروى بنت أحمد بن محمد بن القاسم الصليحي[1]. وُلدت سنة أربعين وأربع مئة؛ ويروى أن أباها أحمد بن محمد بعثه الملك علي الصليحي بعد استيلائه على حصن مسار مع الوفد اليمني إلى الخليفة المستنصر بالله بالقاهرة لكي يستأذن الخليفة الفاطمي في إظهار الدعوة في أنحاء اليمن، وأنه مات في عدن بسقوط البيث الذي كان يسكنه، وأن أروى كانت في هذا الوقت في طفولتها[2].

---

(١) وقد اشتهرت باسم «سيدة»، والواقع أن اسمها «أروى»؛ وقد ذكر عمارة / كاي ١٦ إسمها وهو «الحرة الملكة السيدة أروى ابنة أحمد الصليحي». ويؤيد ذلك ما ذكره صاحب العيون ٧ / ٢٠٣ - ٢٠٤ حيث قال: «وكان (عبد المجيد) قبل ذلك يكاتب الحرة الملكة. . . «من ولي عهد المسلمين، ابن عم أمير المؤمنين»، ثم كتب :«من أمير المؤمنين»، فقالت: «أنا أروى ابنة أحمد، بالأمس ولي عهد المسلمين، واليوم أمير المؤمنين. لقد جرى في غير ميدانه . . .» الخ. فالظاهر أن لفظة سيدة لقب للملكة وليس اسماً لها، لكنه أطلق عليها بكثرة استعماله لها.

كذلك وقع الإختلاف في اسم جدها الأعلى. وروى عمارة / كاي ٢٨ أنها ابنة أحمد بن جعفر بن موسى الصليحي، وأتبعه المؤرخون في هذا ببعض الإختلاف كما جاء في رواية الجندي والخزرجي أنها ابنة أحمد بن محمد بن جعفر (نفسه ص ٢٨) أو لم يذكروا أسماء أجدادها. قد جاءت أسماؤهم في وصيتها (انظر الملحق رقم ٩). وضبط صاحب العيون ٧ / ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٣ نسبها إلى أحمد بن محمد بن القاسم الصليحي. فلذلك اعتمدنا في أسماء أجدادها على شهادة وصية الملكة نفسها وعلى رواية العيون.

(٢) تعليق كاي رقم ٢٩.

وأمها الرداح بنت الفارع بن موسى الصليحي. وقد تزوجت الرداح بعد موت زوجها من عامر بن سليمان بن عبد الله الزواحي، فرزقت منه بسليمان بن عامر، أخو الحرة لأمها[1].

وقد قامت بتربيتها وتهذيبها وتأديبها السيدة الحرة أسماء بنت شهاب زوجة الملك علي الصليحي، فنشأتها تنشئة طيبة فاضلة، وذلك لاهتمام علي الصليحي بها، فكان كثيراً ما يقول لأسماء: «أكرميها، فهي والله كافلة ذرارينا، وحافظة هذا الأمر على من بقي منا». ويحكي عمارة[2] أنها روت رؤيا لأسماء، قالت فيها: «إنها رأت في المنام أن بيدها مكنسة، وأنها تكنس قصر مولانا علي الصليحي». فقالت لها أسماء: «كأني بك والله وقد كنست آل الصليحي، وملكت أمرهم».

فضائل الملكة السيدة أروى

وكانت الملكة أروى على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة إلى جانب ما تمتعت به من جمال الخلقة؛ فكانت بيضاء اللون مشربة بحمرة، مديدة القامة، معتدلة البدن، تميل إلى السمنة، كاملة المحاسن جهورية الصوت، قارئة، كاتبة، تحفظ الأخبار والأشعار والتواريخ وأيام العرب[3]، ولها تعليقات وهوامش على الكتب تدل على غزارة مادتها. وكان يقال لها بلقيس الصُغرى، لرجاحة عقلها وحسن تدبيرها[4]. وكانت الحرة الملكة، كما قال صاحب العيون: «متبحرة في علم التنزيل والتأويل والحديث الثابت عن الأئمة والرسول عليهم السلام... وكان الدعاة يتعلمون منها من وراء الستر، ويأخذون عنها ويرجعون إليها»[5].

وامتازت ملكتنا بالصلاح والتقوى والخبرة الواسعة، والمعرفة الفائقة بأحوال الناس، مما ساعدها على إدارة شئون بلادها في ظروف سيئة أحاطت بالبلاد.

قال إدريس[6]: «وكانت امرأة فاضلة ذات نسك وورع وفضل وكمال عقل

---

(1) عمارة / كاي ٢٨.
(2) نفسه ٢٨.
(3) عمارة / كاي ٥٩؛ كفاية ٥١.
(4) كفاية ٥١
(5) عيون ٧ / ٢٠٨.
(6) نفسه ٧ / ١٢٢.

وعبادة وعلم، تفوق الرجال فضلاً عن ربَّات الحجال، وتستحق مدح الشاعر حيث قال:

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال»

وقال أيضاً[1]: «وقد استحقت التقديم والتفضيل على الفضلاء من الرجال. وكان الإمام المستنصر أصدر إليها أجلّ أبواب دعوته، فأفادها من علوم الدعوة، ورفعت عن حدود الدعاة إلى مقامات الحجج».

وفي ذلك قال أحد أقطاب الدعوة في عهدها السلطان الخطّاب بن الحسن الحجوري الهمداني[2] رداً على اعتراض المعترضين أن الإناث لا يستحققن رتبة الحجية[3]: «نقول إن القمص البشرية الجسمانية لا قول بها ولا عمل عليها... إنا نجد من هو ظاهر بقميص الإناث هو في أعلى الرتب وأشرفها كالزهراء البتول... وخديجة ابنة خويلد... ومريم ابنة عمران. ونجد أيضاً بالعكس من هو ظاهر بقمص الإناث وهو أسفل سافلين من رتب الاستحالة... إن الذكر والأنثى من القمص البشرية لا يعرب عن حقيقته ولا يهدي إلى طريقته، بل المعرب والهادي الظاهر بها، وهذا منها أعني القمص البشرية الجسمانية التي يكشف لنا حقيقة باطنة حتى يقع على الحكم بأنه ذكر أو أنثى، وهو ما يظهر من الأفعال في الطاعات والقبول... ومن أفعال الخير... فإن ظهر عنه خير لا شرّ فيه، وطاعة لا معصية معها، وولاية لا مكابرة بعدها، وقبول لا يمازحه ردّ، ينجع فيه آثاره وتشعشع منه وقع العلم بأنه قد رسخ عنده ما ألقي إليه وقبله وأثمر منه... ومن هذه الطريق يتبين المؤمن الوليّ من الجاحد الغويّ... فإذا كان الظاهر بقمص الإناث قد أحرز جميع الخلال المحمودة فقد خرج من دائرة الاستفادة

(١) عيون ٧ / ١٣١.

(٢) لخصنا ما يأتي من رسالته المسماة بغاية المواليد ١٣ - ٢٦.

(٣) المصدر الصناعي من لفظ الحجة. والحجة في مصطلح الدعوة هي درجة من درجات الحدود تلي درجة داعي الدعاة أو باب الأبواب، وعادة يكون الحجة ممثلاً الإمام في بحر من بحار الدعوة أو جزيرة من جزرها الإثنتيّ عشرة، ولا يراد من هذه الكلمة المعنى المفهوم «حجة الله».

وصار بمنزلة الذكور. . . وإذا كان الظاهر بقمص الذكور غير محرز لجميعها، فهو أبداً مستفيد بمنزلة الإناث. . . والأناث والذكور لا من يكون قبل الأجسام التي هي القمص عندهم، بل من قبل الإفادة والاستفادة فقط».

ومما مدحت به الملكة الحرة الصليحية قول الخطاب بن الحسن الحجوريّ[1] وهو لا يمدح أحداً إلاّ الحرة الملكة، وذلك من خالص ولائه وعظيم إجلاله لها:

همم النفوس على النفوس مدارُها	وبها تَبِينُ كبارُها وصغارُها
وإذا تفرَّس في الورى مُتفرِّس	ببصيرة لاحَتْ له أخبارُها
إنّ النفوس فروعُ أجسام وما	تُبديه من همم النفوس ثمارُها
وحياة أفضلها التقى إذ بالتقى	تحوي بها ممّا ابتغَتْ آثارُها
كوحيدة الزمن التي أضحى التقى	وشعارُها من محْضه ودثارُها
رضي الأئمة سَعْيها فتوطّدتْ	في الأرض دولتُها وقرَّ قرارُها
وتواصَلَتْ بركاتها ممدودةً	منها حبائلُ ما اسْترَمَّ مُغارُها
موصولةً بحبالها تبقى على	مَرِّ الزمان وصَرْفِهِ أسرارُها
وإذا الملوكُ أطاعت الرحمن لم	تُخذَلْ وطالَتْ في الورى أعمارُها
وجَرَتْ لها بميامنٍ وسعادةٍ	مَوْصولة بدوامها أطيارُها
أمّا عُلاكِ فإنّها مشهورة	لاحَتْ أدلّتُها وطالَ مَنارُها
شهدتْ عِداكِ بها فإنْ هُمْ طالبوا	إدراكَها فقُصارها إقصارُها

(١) عيون ٧ / ٢٢١ ـ ٢٢٢. ولا توجد هذه الأبيات في نسخة د. الخطاب الموجودة في م. م. هـ. ولم يمدح الخطاب أحداً من معاصريه إلاّ الملكة الحرة وأستاذه المفيد. انظر ص ١٩٣ ـ ٢٠٤ من هذا الباب عن حياة الشاعر ومميزات شعره.

أنتم بنو الأصْلوح جوهر يعربٍ وسواكم أصدافُها وبحارُها
ولأنْتِ يا ابنة أحمدٍ تَنميكِ من تلك اللآلِي الفائقات كبارُها
أنقذتِ من يمِّ الضلالة أهلَها كانوا بها طامٍ بهم تيّارُها

كما مدحها الشاعر الحسين بن علي بن محمد القِمّ[1] في قصيدة أولها:

أعلمت أن من الرماح قُدُودا ومن الصِّفاح مَحاجراً ونُهُودا

ومنها:

أعْلى الأنام أبا وأكرم طيبةً وأتمّ أعراقاً وأصلب عودا
لو كان يُعْبَد للجلالة في الورى بشر لكانت ذلك المعبودا
أو كان في أثوابها بلقيس ما هابت سليمانا ولا داودا
وإذا الوفود تأخَّرتْ، وفَدَتْ عطا ياها، فكانت للوفود وفودا
هي نعمة الله التي ما ماؤها ثمدا ولا معروفها مجحودا
هي رحمة الله التي ما زال من فوق البرية ظلها ممدودا

هذه الصفات الفاضلة، التي لم تتجمع قط إلاَّ في قليل من نساء العالم، قد تجمعت في السيدة الملكة الحرة في بلد كان ـ ولا يزال ـ الرجل ينظر فيه إلى المرأة نظرة أمة مملوكة لأبيها إن كانت في عصمته، ولزوجها إن كانت في حصانته[2].

---

(١) د. أبي عبد الله حسين بن علي القمي ورقة ٥ ـ ٦.

(٢) يقول محمد حسن في كتابه قلب اليمن: «إن المرأة في اليمن لا قيمة لها في المجتمع إلاّ من حيث خدمة الزوج، وإنتاج النسل والطهي، وغير ذلك من مهام تدبير المنزل. فكان لنظرة الرجل إلى المرأة هذه النظرة القاسية أثر عميق في نفسها، عاشت عليها دهراً طويلاً حتى غدت ترى نفسها وضيعة مهملة مملوكة. وما يدل على قيمتها في نظر الرجال، ذلك المثل السائر في هذه البلاد وهو: المرأة ناقة وإن هدرت، وهذا المثل وحده يكفي مئونة السئوال عن قيمة المرأة الحقيقية في هذه البلاد».
وهذا الظلم الذي فرضه المجتمع على المرأة اليمنية كبت شعورها وسلبها تفكيرها الحر. ولو قدر لها أن تعيش حرة، لما تخلفت عن ركب الحضارة، بل كان لها قصب السبق على كثير من نساء العالم. وقد أثبتت الملكة الحرة والسيدة أسماء بنت شهاب صحة هذا الرأي، ودلتا على أن العقل القحطاني ثمين، ويمكن أن يكون أحسن من كثير من العقول إذا تهيأت له الظروف.

اقترانها بالأمير أحمد المكرم

وكان من الطبيعي بعدما علمنا كل هذا عن السيدة، وبعدما وقفنا على مقدار اهتمام السلطان علي الصليحي، وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب وعنايتهما بها، أن تختار لابنهما الأمير أحمد المكرم. وكانت السيدة قد اقترنت بالمكرم بعد أن تولى منصب ولاية العهد سنة ثمان وخمسين وأربع مئة، وكان لها من العمر ثماني عشرة سنة[1] وفي هذا الزواج قال الشاعر الحسين بن علي القِمي قصيدة مدح فيها المكرم، جاء فيها[2]:

وكـريمـةُ الحسَبَـيْنْ[3] يكنفُ قصـرَهـا ... أسْـد تخـافُ الأسْـدُ من صَـوْلَاتِهـا
وتكـاد من فَـرْطِ الحيـاء تغض عن ... تمـثـالهـا المـرْئـيِّ في مـرْآتِهـا
ظـفِـرَت يـداك بهـا، فبـخٍّ إنمـا ... لـك تَـدْخـرُ العَلْيـاءُ مَضْنـونـاتهـا

وكان الصليحي أصدقها عدن حين زوجها من ابنه المكرم، ولم يزل ارتفاع عدن من حين زواجها يرفع إليها وهو مئة ألف يزيد وينقص[4].

فأنجبت عليًّا ومحمداً وفاطمة وأم همدان. فأما علي ومحمد فسنتكلم عنهما فيما بعد، وأما أم همدان فقد تزوجت من ابن خالها أحمد بن سليمان بن عامر بن سليمان بن عبد الله الزواحي، فرزقت منه بعبد المستعلى، وتوفيت سنة ٥١٦. وأما فاطمة فتزوجت من شمس المعالي علي بن السلطان سبا بن أحمد الصليحي، وتوفيت في سنة ٥٣٤[5].

---

(١) نظراً لأن الملكة عاشت إثنتين وتسعين سنة، وأنها توفيت سنة ٥٣٢. فتكون قد ولدت سنة ٤٤٠، كما ذكره صاحب العيون ٧ / ٢٢١ نقلاً عن صاحب المفيد. ويكون سنها عندما بنى بها المكرم سنة ٤٥٨ هو ثمان عشرة سنة.

(٢) الأصبهاني: خريدة القصر ٢ / ٢٥٤.

(٣) رواية الخريدة: وكريمة الحسين، والظاهر فيها تحريف.

(٤) عمارة/كاي ٤٩.

(٥) عمارة / كاي ٢٩؛ انظر ص ١٦٤ هامش رقم ١.

نشاطها السياسي:

بدأت الملكة أروى نشاطها السياسي في عهد زوجها الملك المكرم. وفي ذلك قال عمارة: «لما توفيت أسماء بنت شهاب والدة المكرم، فوّض الأمر لزوجته الملكة السيدة الحرة. فاستبدّت بالأمر واستعفته في نفسها وقالت: إن المرأة التي تراد للفراش، لا تصلح لتدبير أمر، فدعني وما أنا بصدده»[1]

وكانت تستشير في هذه المدة القاضي عمران بن الفضل اليامي، وأبا السعود بن أسعد بن شهاب. ولما توفي زوجها سنة ٤٧٧، لاقت الملكة الحرة وحدها عبء هذه المسئولية الجسيمة، وأصبحت بتفويض من الخليفة الفاطمي المستنصر تتصرف في أمور الدولة والدعوة[2] في اليمن والهند وعمان، فلاقت بسبب هذه المسئولية مصاعب كثيرة، كادت تزعزع أركان الدولة الصليحية؛ ولولا ما جبلت عليه الملكة من حسن التدبير وحسن اختيارها للرجال، لعصفت بها تيارات الفتن والخلافات الداخلية.

توليته علي بن أحمد المكرم

قال عمارة، واتبعه الآخرون[3]: إن المكرم قبل أن يتوفى «أسند الوصية في الدعوة إلى الأمير الأجل الأوحد المنصور المظفر عمدة الخلافة أمير الأمراء أبي حمير سبا بن أحمد المظفر بن علي الصليحي». وانفرد إدريس[4] نقلاً عن السجلات[5] برأي آخر وهو الأصح «بأن المكرم عندما توفي كتمت الحرة الملكة الأمر إلى أن جاءها سجل أمير المؤمنين المستنصر بالله بإقامة ولدها المكرم الأصغر عبد المستنصر علي بن المكرم أحمد»، كما أمر المستنصر بأن ترسل كل المراسلات إلى علي بن المكرم، وكلفه بالقيام بمرافق الدعوة وأمور الدولة بقوله[6]: «... وقد رأى أمير المؤمنين أن يصطنعك ويلحقك برتبة أبيك وينصّبك منصبه ويرقّي بك درجته... وأمره (أي الأمير أبا الحسن جوهر

(١) عمارة / كاي ٢٩.
(٢) عيون ٧ / ١٢٣؛ السجلات رقم ٥٠.
(٣) عمارة / كاي ٣١؛ كفاية ٥٢.
(٤) عيون ٧ / ١٢٦ ـ ١٣٠.
(٥) السجلات رقم ١٤، ٢٦.
(٦) السجلات رقم ١٤.

المستنصري) أن يقلّدك النظر فيما كان أبوك تقلده من الدعوة الهادية والأحكام في سائر اليمن وسائر الأعمال المضافة إليه برّاً وبحراً وسهلاً ووعراً ونازحاً ودانياً وقريباً ونائياً . . . حتى خصّك من ملابس الإمامة بشريف الحباء»[١].

وقد ذكر هذا الكلام في السجل المستنصري الصادر في شهر ربيع الأول سنة ٤٧٨[٢]، ولم يكتف المستنصر بذلك، بل دلّ على مبلغ اهتمامه بهذا الأمر بأن سيّر الأمير أبا الحسن جوهر المستنصري بهذا السجل، وكلّفه بأن يقوم بتعزية الملك علي بن المكرم في والده وأن «يشد أزره ويظهره بالتشريف على رءوس الأشهاد ليلتف حوله المؤمنون ويُجدع أنف المخالفين وتجتمع كلمة الأمة تحت لوائه وتنقمع نار الفتنة».

ولم يقف حسن سعي المستنصر في هذا الأمر عند هذا الحدّ، بل أمدّ الملك علي بن المكرم بالتأييد وأوصاه بأن يهتدي بهدي أمير المؤمنين «حتى تتألف لك الضمائر وتوافقك القلوب والسرائر وتستوثق الأمور لك في البادي والحاضر»[٣]، كما أرسل المستنصر إلى الأمير محمد بن المكرم يأمره بطاعة أخيه الملك علي «ومؤازرته وموالاة من يوالي أمير المؤمنين ومعاداة أعدائه». وأرسل كذلك إلى كافة السلاطين والمقدمين والمؤمنين بل وإلى الملكة الحرة نفسها يأمرها بضرورة طاعة الملك علي عبد المستنصر والامتثال لأوامره، وأن تعول عليه في سرها وجهرها، وتستعين بأهل الدعوة في اليمن على من عاداهم وعاداها[٤].

وفي سنة ثمانين وأربع مئة أرسل المستنصر سجلاً آخر إلى الملك علي لقبه فيه بلقب «سليل الدعوة ونجلها»[٥]. وقد قصد الإمام بذلك أن يشعر الجماعة في بلاد اليمن بمكانة علي من الدعوة ويبيّن لهم مدى تأييد الإمام له، وأنه قد اختاره في رياسة الدعوة والدولة في اليمن، لما كان لآبائه من فضل في رعاية الدعوة الفاطمية.

(١) انظر الباب السابع (ص ٢١٨ ـ ٢٢٠) فصل عن تبادل الهدايا. وإننا نرجح أن الكسوة التي أرسلها الخليفة الفاطمي إلى علي بن أحمد المكرم كانت من الثوب الدبيقي، وهذا النوع كان ينعم به على الأمراء وحدهم (راجع المقريزي: خطط ١/ ٤٤٠).

(٢) السجلات رقم ١٤؛ عيون ٧ / ١٢٩.

(٣) عيون ٧ / ١٢٩.

(٤) نفسه ٧ / ١٣٠.

(٥) السجلات رقم ٣٧.

ويدل على ذلك ما جاء على لسان المستنصر نفسه حيث قال: «وأعلمك أن دعاة أمير المؤمنين وأولياءه نجوم في سمائه، إذا خوى نجم أطلع نجماً، وسيوف إذا أغمد حسام انتضى حساماً»(١).

ثم إن المستنصر لكيلا يدع فرصة لمنافسة هذا الصغير الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره بيّن في هذا الكتاب أن الخليفة قلّده هذا المنصب بالرغم من صغر سنه، وأنه لا ضير في ذلك فإن المستنصر نفسه قد تولّى الخلافة وهو دون الثامنة من عمره، ثم قال المستنصر: «وقد جاز هذا في الإمامة وهي الدرجة التي تلي النبوّة، فكيف في الدعوة التي لأمير المؤمنين أن يتصرّف فيها على اختياره»(٢).

وهكذا دلّت سياسة المستنصر على بعد نظره، فقد رفض تولية السلطان أبي حمير سبا بن أحمد الصليحي بالرغم من وصية المكرَّم له، وولّى علي بن المكرم لأنه يعلم أن الملكة أروى من القوة والكفاية بحيث يمكن الاعتماد عليها في تنفيذ السياسة التي ترضي الفاطميين(٣)، ولا ريب فهي «سيدة ملوك اليمن.. وولية أمير المؤمنين»، ولعله أدرك شيئاً آخر هو أن المحافظة على مبدأ الوراثة في الابن الأكبر خير ضمان لعدم إثارة المنازعات، وخصوصاً أن هذا المبدأ كان معمولاً به في عهد الدولة الفاطمية إلى أيام المستنصر. ففضل تولّي الطفل علي بن المكرم بدلاً من السلطان سبا، بالرغم من أن الأخير كانت تؤهّله لهذا المنصب سنه وشخصيته الممتازة وغيرته على الدولة والعمل على رفع شأنها، كما تؤهله أيضاً مواقفه الحميدة في عهد الملك المكرم، ووصية المكرم له تعتبر أحسن شهادة بذلك.

نشاط أبي حمير سبا

ولقد كانت مؤازرة الإمام للملكة الحرة وابنها علي بن المكرم والعمل على جمع كلمة أهل الدعوة حولهم وتحريض جميع المسلمين على وجوب طاعتها، سبباً في أن تخلّى السلطان سبا عن المطالبة بحقه، وتمكنت الملكة الحرة بحسن سياستها وتقديرها الصحيح لعواقب الأمور، من أن تقضي على هذه الفكرة، فجعلت الأمير

---

(١) السجلات رقم ٣٧.
(٢) نفسه رقم ٣٧.
(٣) عمارة / كاي ٣٥.

سبا نائباً عن ولدها وحامياً لذمار دولته من المعتدين. فأبلى في ذلك بلاءً حسناً.

فدخل سبا في حروب متوالية مع جيّاش[1] بن نجاح، وذلك لأن حصون[2] بني المظفر كانت مطلة على تهامة وهي أقرب إلى تهامة من جميع الجبال. فكان إذا برد النسيم نزح العرب بقيادة سبا إليها، وارتحل جياش عن البلاد، ويقيم سبا يجبي خراجها ويبسط العدل فيها، وكان يحتسب للعمال ما قبض منهم جيّاش في أشهر الصيف والخريف. فإذا انفصل الشتاء وانصرم الربيع ارتحل بمن معه من العرب من تهامة إلى الجبال، وملك جياش تهامة إما بالقتال وإما لشدّة الحرّ وانتشار الوباء في العرب. ويقول عمارة[3]: «وإذا عاد جيّاش إلى زبيد نشرت المصاحف، وابتهلت له الرعايا بالدعاء، وظهرت الفقهاء، وتطاولت العلماء، واحتسب جياش للعمال ما قبضه منهم سبا ونوابه في مدة الشتاء والربيع».

(١) وكان جياش شاعراً فصيحاً، وله ديوان شعر ضخم وعدة مجلدات نثر. وهو مؤلف كتاب «المفيد في أخبار زبيد». ومن قوله:

إذا كان علم المرء عون عدوه ... عليه فإن الجهل أبقى وأروج

ولما انتقم الملك المكرّم لمقتل أبيه بأن قتل سعيداً الأحول بن نجاح سنة ٤٦١ هرب جياش إلى بلاد الهند. وما لبث أن عاد إلى اليمن متنكراً حينما علم بمرض المكرم واضطراب أحوال دولته. وكان قد اشترى في الهند جارية هندية تزوّج منها وأحضرها معه إلى اليمن. وقد أنجب منها ابنه المسمى الفاتك الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة ٤٩٨. فظل هو وزوجته الهندية ووزيره خلف بن أبي الطاهر الأموي مختفين بزبيد حتى عرف جياش أن الوالي أسعد بن عراف (والي زبيد من قبل المكرم) حدث بينه وبين وزيره علي بن القم نزاع اضطر الوزير أن يقول يوماً: «لو وجدت كلباً من آل نجاح لملكته زبيد» (أنباء / دار ٤٣)، كما قال في مناسبة أخرى: «عجل الله لنا بكم آل نجاح» (قرة ٤٠). فاغتبط جياش من هذه الأخبار. وأخذ يعد العدة، فاتصل بالحبشة المتفرقين بالبلاد وأمرهم بالإستعداد كما اتصل بوزير الوالي وهو علي بن القم، وتعاهدا على كتمان الأمر حتى يتخلصوا من أسعد ابن عراف حاكم زبيد. ولما استوثق جياش لنفسه أمر بضرب الطبول والأبواق، وثارت معه عامة أهل المدينة وطردوا الوالي. ولم يمض شهر واحد حتى أصبح يركب في عشرين ألف حربة من عبيده وبني عمه (أنباء / دار ٤٣). ويروى أن وزير الوالي علي بن القم لما تعرّف على جياش أمر أن تحلّى دار الأمير الأعز محمد بن علي بن محمد الصليحي، ففرشت وحملت إليها زوجة جياش الهندية، فولدت له ابنه الفاتك في الليلة التي ملك فيها زبيد.

(٢) ومنها مقرو وصاب وقوارير والظرف والشرف (عمارة / كاي ٣٣).

(٣) نفسه ٣٣.

وقعة الكظائم وهزيمة العرب

ولما طال ذلك على جيّاش وأتعبه حرب العرب وخشي منهم الغلب، دبّر له وزيره خلف بن أبي الطاهر[1] حيلة، فأرسل من يشير على الأمير سبا الصليحي بوصوله إلى زبيد[2]؛ وقد كاتبه أعيان من فيها ببذل الطاعة وأخفوا الغدر، فاطمأن الصليحي إلى قولهم؛ وذهب إلى زبيد، ومعه ثلاثة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل. وكان جياش قد أعدّ الجموع، واستنصر بالشريف يحيى بن حمزة بن وهاس[3]، وكثير من زعماء جيوش جياش قد كاتبوا الصليحي غدراً وكيداً. فلمّا انتهى سبا وفرقته إلى باب زبيد وكان الشريف وغيره ممن مع جياش كميناً، فظهروا على الناس بغتة ووقعت بينهم موقعة الكظائم[4] وفي يوم الجمعة الخامس من ذي الحجة سنة تسع وسبعين وأربع مئة حيث انهزم سبا ومن معه. وقتل الأميران قيس بن أحمد بن مظفر (أخو الأمير سبا) ومحمد بن مهنّا الصليحيان، وحمل الشريف

---

(١) «المنسوب إلى زياد بن أبيه دعي أبي سفيان بن حرب الأموي» كما قال صاحب العيون ٧ / ١٣٣. صحب هذا جياشاً إلى بلاد الهند، وعاهده على أن يقاسمه الأمر ولقبه «قسيم الملك» وبه رجع إلى الملك (بامخرمة: ثغر عدن ٢ / ٧٠)، وساءت العلاقة بينه وبين جياش بعد ذلك فأقصاه عنه (الأصبهاني: خريدة ورقة ٢٧٦).

(٢) هذا ما رواه إدريس (عيون ٧ / ١٣٣). وقال عمارة / كاي ٣٣: «أشار الوزير خلف بن أبي الطاهر على جياش بأن يعتقله ويقبض على أمواله وأملاكه ويقيم محمد بن الغفاري وزيراً له. ففعل ذلك. ثم إن خلف نقب الحبس وهرب إلى سبا. فحسن موضعه منه. فلم يزل يحسن لسبا النزول إلى تهامة وضمن له من الحيل والمكايد ما يقطع به دابرة جياش لسبا ما لا يقوم به مقام النصف وأن يشترط على سبا إبعاد الوزير خلف من عنده. فلما فعل جياش ما أشار به الوزير استحكمت أطماع العرب في بلاد تهامة».

(٣) نزهة ١ / ٦١. هو من أشراف تهامة عسير تعرف بالمخلاف السليماني وهم ينتسبون إلى موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهم أقارب لأشراف مكة، وذريتهم لا تزال معروفة في تهامة عسير، ومن قراهم صبيا وأبو عريش وحرض وضمد والملحا والقبة وغيرها. هذا ما أفاده لنا شيخنا القاضي محمد الحجري.

(٤) كذا في نزهة ١ / ٦٢، عيون ٧ / ١٣٣؛ وفي رواية الأنباء / دار ٤٣: «القضائم». ونرجح رواية العيون والنزهة، ولعل هذه الوقعة حصلت بالقرب من الكظائم التي قد تكون في نواحي زبيد. والكظائم جمع كظيمة؛ والكظيمة هي شبه بئر من سطح الأرض إلى مجرى الماء الذي تحت الأرض، تستعمل هذه لتنظيف مجاري الماء تحت الأرض، وهذه الكظائم منتشرة في أرجاء اليمن، كما أفادنا شيخنا القاضي.

يحيى بن حمزة على القاضي عمران بن الفضل اليامي، فطعنه طعنةً مات بسببها بعد أيام[1]، وعُقر فرس الأمير سبا، فاضطر أن يسير راجلاً في غمار الناس حتى حمله بعض جنده على جواده[2].

وفي قتل القاضي عمران بن الفضل اليامي قال الشريف يحيى بن حمزة مفتخراً من شِعر أوله[3]:

أبلغْ نِزاراً حيث حَلّ نزارُ

ومنها:

ونجا الحجازيُّ الرئيسُ بطعْنةٍ   نَجْلا لها تحت القميص خُوارُ[4]

ثم اعتذر إلى السلطان سبا بن أحمد فيما كان من نصره للحبشة في قصيدة أولها[5]:

يا راكباً جَسْرَةً كالقارِبِ القَطِمِ   هوى لقارِيِّه الكدريُّ من أَمَمِ[6]

---

(١) يقول إدريس (نزهة ١ / ٦٣): إن أحمد بن عمران بن الفضل اليامي خرج ومعه أخوه الحسين يطلبان بثأر أبيهما، فنزلا تهامة وتعرفا على الإمام فقتلاه انتقاماً لقتل أبيهما. وقد أيّد هذا الخبر صاحب الأنباء / دار ٤٣.

(٢) عمارة / كاي ٣٣ - ٣٤؛ عيون ٧ / ١٣٣.

(٣) عيون ٧ / ١٣٣.

(٤) نجلا، مقصور من نجلاء لضرورة الشعر. وخوار وجؤار أي صوت يسمع من الطعنة عند خروج الدم منها.

(٥) عيون ٧ / ١٣٤.

(٦) الجسر الضخم من كل شيء ومؤنثه جسرة يريد فرساً أو ناقة. القارب قاصد الماء والقطم الذي يشتهي أي شيء، يريد به العطشان والكدري نوع من القطا أخضر اللون والأمم القريب. وفي الأصل ربه: بالباء الموحدة والأقرب لقارية بالياء المثناة لأنه يصف طائراً من القطا الكدري يطلب الماء ليروي ظمأه. ولفظ الكدري بدل من لفظ القارب. يقول: يا راكباً فرساً ضخماً أو ناقة ضخمة تشبه في سيرها القطا الكدري الذي يطلب الماء من قريب ليروي ظمأه، كما فسّر لنا البيت الأستاذ مصطفى السقا.

إلى قوله:

وقـد يعزّ علينـا مـا أصـابكم منّـا بغير رضـا كف ولا قـدَم
والله يعلم أنّي يـومَ وَقْعتـكم لم أمس إلاّ على جَـمْرٍ من النَّدَم
وأنّ فيض دمٍ منكم كفيض دمٍ بكربلاءَ وثأرُ الطَّفِّ لم يَـرَمِ[1]

فأجابه السلطان عبد الله بن يَعْلَى الصليحي على لسان سبا:

يا راكباً راحَ لا يَلْوِي على أحدٍ لقيتَ دَاعيــة التــوفيق والنـعم

إلى قولـه:

فليس قيس وإن جلّتْ رزيّتـهُ وكان صِنْوِيَ لحمي لحمه ودمي
ولا الـهُمام أبو موسى وصاحبه محمـدٌ وهمـا من أوثق العِصَم
بـأوّل القـوم منّـا حُمَّ مـوتُهم بـين الأسنَّة والهنـدية الـخُـذُم
والسيف يـأكلنـا حينـاً ونُـرتعه حيناً إذا شاء في الأعناق والقِمَم

وملك جياش زبيد، ولم يقدر العرب على أخذ تهامة بعد هذه الموقعة[2] برغم محاولات الأمير المفضل بن أبي البركات لاسترجاعها، وكانت هزيمة العرب ضربة قاسية على كيان الدولة الصليحية، بل على فكرة وحدة البلاد اليمنية تحت راية العروبة. وذلك الأمر لم يتم فيها بعد بفضل مكايد الوزير العربي ونصرة الشريف للأحباش، ولم ينفع الأخير الندم بعد فوات الآونة.

موقف الملكة من النزاع بين السلطانين سبا الصليحي وعامر الزواحي

وفي عهد الملك علي بن المكرم قام نزاع بين الصليحيين والزواحيين، وكان هؤلاء سداة الدولة الصليحية ولحمتها، فشغل ذلك النزاع الملكة الحرة حقبة من

(١) والطف، موضع عند الكوفة (ق / طفف).
(٢) عمارة / كاي ٣٣.

الزمن، لأن المخالفين انتهزوا هذه الفرصة ووجدوا في هذا النزاع وسيلة لدك صرح الدولة الصليحية، وإفسادها بالسعي لدى المتخاصمين في توسيع شقة الخلاف، مما دعا الملكة الحرة إلى أن تعرض الأمر على الخليفة المستنصر بالله الذي أسرع في ردّه، وكلّف الملكة بوجوب العناية لفضّ هذا النزاع بين أبي حمير سبا ابن أحمد الصليحي وأبي الربيع عامر بن سليمان الزواحي، وشدد عليها في ضرورة وضع حد لهذا النزاع بين الإثنين حرصاً على سلامة الدولة. وفي ذلك يقول المستنصر: «وأما ما كان بين السلطانين الأجلين أبي حمير سبا بن أحمد الصليحي وأبي الربيع عامر بن سليمان الزواحي ـ أعزهما الله ـ فقد عرف أمير المؤمنين ما تكررت به مكاتباتك مع نعيم الشاعر الهلالي، ثم مع سعد الله ورفيقه الشيرازيّ، وساقه رسولك أبو النصر ـ سلمه الله وحفظه ـ بما كان من تسديد السلطان أبي حمير في جميع ما جرى بينه وبين السلطان أبي الربيع عامر ابن سليمان الزواحي من المشاجرة والمنافرة، وما أفضت فيه على السلطان أبي حمير من الثناء والتزكية والإطراء، وما ترضينه من حسن الطاعة ولين قيادة من المرافقة والمتابعة، وإبقائه على ما طلب منه من المصانعة، ولو كان مهضوماً فيه، من غير اضطرار إلى ما اعتمده من حسن احتماله وتغاضيه. وتلك سجية تعرب عن السلطان أبي حمير سبا بتميز وسداد وخلوص نية واعتقاد. ومعلوم أنه ليس بمغبون من لطف وأجمل، ولا بمهموم من سدد وتأنى واحتمل، وتعجل استيفاء حظه من رضا الله سبحانه ورضا أمير المؤمنين بما يعود عليه فيه من جميل الذكر والمثوبة وطيب الأجر، ما ينوب له عن عظيم الظفر والنصر، وما يحمد العاقبة من سداد الحال، ويرتق فتوق هذا الشعب والاختلال. وقد شكر له أمير المؤمنين ما طالعت به من هذه الأوصاف الحميدة والمقامات الرشيدة، وأسعده في إجابته من هذه الجملة مما يحدوه على امتراء ما أكسبه فيه الرضا، ومهد له دواعي الزلفى»[1].

ولما كانت مسألة هذا النزاع تعتبر مسألة حيوية بالنسبة لبقاء دولة الصليحيين واستمرار نفوذ الفاطميين في اليمن فإن الخليفة المستنصر لم يأل جهداً في أن يتولاها

(١) عيون ٧ / ١٣٤ ـ ١٣٥؛ السجلات رقم ٣٦؛ وقد اتبعنا نص العيون لأنه أصح.

بعنايته ورعايته لكي يقف تيار النزاع ويثبت قدم هذه الدولة، فبادر في شهر ربيع الأول سنة ٤٨٠ وأرسل إلى سلاطين الصليحيين وإلى الزواحيين وإلى مشايخ الحجاز وكل رجال الدين وأهل الدعوة في اليمن رسالة[١] يحثهم فيها على تناسي الأحقاد ويأمرهم بوجوب طاعة الملكة الحرة وابنها الملك علي بن المكرم والتعاضد والترافد في نصرة الدعوة. ويعتبر هذا السجل شهادة هامة على اعتراف الإمام بفضل الدولة الصليحية على الدعوة الفاطمية، كما يعتبر من أهم العوامل التي ساعدت على تثبيت مركز الدولة في الصدر الأول من حكم الملكة الحرة.

وكان من أثر إرسال هذا السجل أن انتظمت الأمور وأذعن المؤمنون هناك لأوامر الإمام ودانوا بالطاعة للملكة الحرة.

وقد سرّ الخليفة المستنصر كثيراً حين جاءت الأخبار من الملكة بأن النزاع بين الصليحيين والزواحيين قد انتهى على أحسن حال، وقد وقفنا على ذلك الخبر من سجل أرسله المستنصر إلى الملكة الحرة في شهر ربيع الأول من سنة ٤٨٠[٢]، ومن رسالة أخرى أرسلها إلى ابنها الملك علي في شهر ذي القعدة من سنة ٤٨١[٣].

وفاة ابني الملكة محمد وعلي

وقد توفي ابن الملكة الأصغر وهو الأمير محمد بن أحمد المكرم في حياة أخيه علي بن أحمد. ولم تطل الأيام حتى قضى الله بوفاة الملك علي بن أحمد المكرم. فعاد السلطان سبا يطالب بحقه في تولّي أمور الدولة والدعوة. ولكن الملكة الحرة لم تمكنه من ذلك، بل «قامت هي فكفلت كافة المؤمنين والدعاة الميامين والحدود المستجيبين خير كفالة، وأوضحت البرهان في ولاية الأئمة، وأظهرت معالم الدعوة للتابعين وأبانت وما وهنت لما أصابها في سبيل الله»[٤].

(١) السجلات رقم ٣٨.
(٢) نفسه رقم ٤٩.
(٣) نفسه رقم ٢٢.
(٤) عيون ٧ / ١٤١.

السلطان سبا يخطب الحرة الملكة للزواج

فاتخذ السلطان سبا سبيلاً آخر لإقناعها بأن طلب يدها للزواج. وقد ظن أنه يستطيع أن يصل بهذه الطريقة لتحقيق غرضه مع أنه كان يفهم تماماً أنها لن ترضى بهذا الزواج، وكيف يتم ذلك وقد سبق أن استعفت زوجها الملك المكرم بقولها له: «إن المرأة التي تراد للفراش لا تصلح لتدبير أمر فدعني وما أنا بصدده»[١]. حدث هذا في حياة زوجها الملك المكرم الذي كانت تشاطره الحكم، أما الآن وقد تولّت تدبير شئون الدولة الداخلية والخارجية وحدها، بل وأمور الدعوة، فإنه يبعد كثيراً أن تقبل هذا الزواج السياسيّ.

ولما رفضت السيدة الحرة ذلك وأنكرته غاية الإنكار جمع السلطان سبا بن أحمد جموعه وسار من حصنن أشيح[٢] بجيشه إلى ذي جبلة، لا لمحاربة الملكة، بل أراد من هذا إظهار قوته وسؤدده. فجمعت هي أيضاً جموعها. فتناور الفريقان وتناوشا، وكادت رحى الحرب تدور بينهما إلاَّ أن سليمان بن عامر بن سليمان الزواحي (أخو الملكة الحرة لأمها) أنقذ الموقف؛ فقد أشار على السلطان سبا أن يتصل بالخليفة المستنصر بالله ليستعين به في فض هذه المشكلة. فقال له: «والله لا أجابتك إلى مرادك إلاَّ بأمر المستنصر»[٤]. فترك سبا المنهج العسكريّ، ورجع إلى حصن أشيح، وسير إلى المستنصر رسولين، هما القاضي أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل الأصبهاني وأبو عبد الله الطيب. وقد ساعدته في تحقيق مطلبه رغبة المستنصر في استتباب الأمن في اليمن، وفي إقرار الوحدة بين أنصار الدولة الصليحية والدعوة الفاطمية. فلما وصل هذان الرسولان إلى القاهرة ولم يرض الخليفة

---

(١) عمارة / كاي ٢٩.

(٢) من أعظم حصون الجبال في رأس جبال آنس (أنباء / دار ٤٣). وكانت خزائن بني المظفر في الحصن، وكان للسلطان المنصور أبي حمير سبا الصليحي، والحصن واقع في مخلاف بني سويد. وهو على مسافة مرحلتين من صنعاء ويسمى الآن حصن ظفار. راجع ياقوت: البلدان / أشيح.

(٣) قرة ورقة ٢٥.

(٤) نفسه ٢٥.

عن بقاء هذا النزاع بين أنصاره، عمل على أن يجذب إليه الفريقين المتنازعين بزواج السيدة من السلطان سبا. فكتب إليها يأمرها بقبول أمر الزواج. وأرسل كتابه مع أحد الأستاذين ويعرف بحامل الدواة يمين الدولة[1]. فصار بصحبة هذين الرسولين حتى دخلوا على السيدة الملكة، وهي بدار العز في ذي جبلة. فتكلم الأستاذ الرسول وهو واقف بين وزرائها وكتّابها وأهل دولتها قيام لقيامه، فقال: «أمير المؤمنين يقرأ السلام على الحرة الملكة السيدة الرضية الطاهرة الزكية وحيدة الزمن سيدة ملوك اليمن عمدة الإسلام ذخيرة الدين عصمة المؤمنين كهف المستجيبين ولية أمير المؤمنين كافلة أوليائه الميامين، ويقول لها: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولَا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِم وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ ورَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً. وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعي الأوحد المنصور المظفر عمدة الخلافة أمير الأمراء أبي حمير سبا بن أحمد بن المظفر الصليحي، على ما حضر من المال وهو مائة ألف دينار عيناً وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف ولطائف وطيب وكساوي». فقالت: «أما كتاب مولانا فأقول: إنِّي أُلْقِيَ إلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ، إنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ، ولا أقول في أمر مولانا: أَيُّهَا ٱلْمَلا أَفْتُونِي فِي أمري مَا كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ. وأما أنت، يابن الأصبهانيّ! فوالله ما جئت إلى مولانا مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ، ولقد حرفتم القول عن موضعه، وسَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُم أمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلى مَا تَصِفُونَ». ثم تقدم وزيرها زريع بن أبي الفتح والقاضي الأصبهاني ونظراؤهما إلى السيدة الحرة. ولم يزالوا يلاطفونها حتى أجابتهم إلى تحقيق رغبة الخليفة[2]. فعقدوا عقد الزواج، ولم

(١) أنباء / دار ٤٣؛ عيون ٧ / ١٤٣.
(٢) أنباء / دار ٤٣ - ٤٤؛ عيون ٧ / ١٤٣ - ١٤٤.

يلبث سبا بن أحمد أن سار في أمم عظيمة إلى ذي جبلة، فأقام شهراً والضيافات الواسعة تخرج إلى مخيمه كل يوم حتى أنفقت على عساكره مثل ما قدمه من المهر. ورأى أبو حمير من عالي همتها ما حقر نفسه معها، وندم على خطبتها. ويروى أنه أرسل إليها سراً يستأذنها في الدخول إليها بدار العز ليوهم الناس أنه دخل بها، ففعلت ذلك. وزعم قوم من أهل ذي جبلة أنه اجتمع بها ليلة واحدة، ثم ارتحل في صبيحتها. وقال آخرون إنها بعثت إليه جارية شبيهة بها، وعرف ذلك السلطان سبا، فباتت الجارية واقفة على رأسه، وهو جالس لا يرفع طرفه إليها، حتى إذا طلع الفجر صلّى، وأمر بضرب الطبول، ثم سار[١].

فضائل السلطان أبي حمير سبا بن أحمد الصليحي

ومع ذلك فإن الملكة الحرة قد أقامت السلطان سبا في الدعوة والملك. وكان هذا فاضلاً ورعاً تقياً زاهداً[٢]. قال عمارة: «. .ويقال إن الداعي سبا بن أحمد ما وطىء أمة قط ولا شرب مسكراً، وكانت زوجته الجمانة بنت سويد بن زيد الصليحي تقول: أنا لا أغير على مولانا سبا، لأنه لا يطأ أمة قط»[٣].

وكان فوق ذلك كريم الأخلاق طيب الأسباب والأعراق، يقصده الشعراء وطلاب الندى. وقد أقام معه في أشيح الشاعر الحسين بن علي بن القم ومدحه وأسرته بغر قصائده، منها[٤]:

إن ضامَك الدهرُ فاسْتَعصِمْ بأشْيَحَ أو ... أزْرَى بك الفَقْرُ فاسْتَمْطِرْ بَنَانَ سَبَا
ما جاءه طالبٌ يبغي مواهِبَه ... إلاّ وأزْمَعَ منه فقرُهُ هَرَبَا

---

(١) عمارة كاي ٣٦، قال: وقال سبا للجارية: «أعلمي مولاتنا أنها نطفة شريفة لا توضع إلاّ في مستحقها» ثم سار، فلم يجتمعا بعد.

(٢) عيون ٧ / ١٤١.

(٣) وأضاف عمارة / كاي ٣٦ إلى هذا: والعربيات تقول ما نسلت حواء مثل الجمانة غير أسماء بنت شهاب.

(٤) عيون ٧ / ١٤٢؛ نزهة ١ / ٦١.

تخالُ صارِمَه يومَ الوَغَى نَهَرا تضرَّمت من دم حافاته لَهَبا
بني المظفر ما امتدّت سماء علا إلاّ وألفيتُمُ في أفقها شهبا
إنّ امرأً كنت دون الناس مطلبه لأجدر الناس أن يحظى بما طلبا

وفيه يقول ابن القيم[1]:

وما يلتقي صدقُ الوداد وطاعة الـ ـعذول، ولا جودُ ابن أحمدَ والجَدْبُ
كريمٌ إذا جادتْ فواضِلُ كفِّه تيقّنت أنّ البخل ما يفعل السحبُ
أجارَ فلا خوفٌ، وأحْيَا فلا ردًى وجادَ فلا فقر، ورامَ فلا صَعْبُ
ويثني على قصاده فكأنه يجاد بما يُجْدي ويحبي بما يَحْبُو
كتبت إليه والمفاوِز بيننا وكان جوابي جود كفّيه لا الكُتْبُ

ومن شعره فيه أيضاً[2]:

معاليك لا ما شيَّدَتْه الأوائلُ ومجدُك لا ما قاله فيك قائلُ
وما المجد إلاّ حيث يمّمت قاصداً وما النصر إلاّ حيث تنزل نازلُ
مليكٌ يفض الجيش والجيش حافلٌ ويخجل صوب المزن والغيث هاطِلُ
سحاب غواديه لُجَين وعَسْجَدُ وليث عواديه قَنًا وقَنَابِلُ

---

(1) عيون ٧ / ١٤٣.
(2) نفسه ٧ / ١٤٣.

تَـوَقَّى الأعـادي بـأسـه وهــو بـاسم   ويـرجـو الموالي جـودَه وهـو صـائـلُ

وكان السلطان أبو حمير سبا فصيحاً شاعراً يجيب الشعراء عن كثير من شعرهم. ثم يجيزهم ويزيد في برّهم؛ ومن ذلك أن ابن القِمّ مدحه فأجابه بمثل شعره، وأجازه بجائزة سنية لا تصدر إلاّ عن مثله. فقال في ذلك الحسين القِمّي[1]:

ولمَّـا مـدحتُ الهـزْبَـريَّ ابْنَ أحمـدٍ   أجازَ، وكافاني على المدح بـالمدحِ
فعـوَّضَني شعـراً بشعــري، وزادَني   عطاءً، فهذا رأس مالِي، وذا رِبْحي
شقَقْتُ إليــه النَّــاسَ حتـى لقـيتُــه   فكنتُ كمن شقَّ الظلامَ إلى الصُّبحِ
فقُبِّــح دَهْـر ليس فيــه ابنُ أحمـدٍ   ونُــزِّهَ دَهْـر كــان فيــه من القبــحِ

الأمير المفضل بن أبي البركات الحميري

وظل أبو حمير سبا في حصن أشْيحِ يقدم المساعدة إلى الملكة، في كل ما يعود على الدولة بالخير، حتى وافته المنية سنة إحدى وتسعين وأربع مئة[2]. وتوفي بعده السلطان عامر بن سليمان بن عبد الله الزواحي في سنة اثنتين وتسعين وأربع مئة. وكـانـا من أهـل السـوابق في خـدمـة الـدولـة، ومن أعيـان رجـال المملكـة الصليحية. ولما مات السلطان سبا خرجت صنعاء وأعمالها عن مملكة الصليحيين، وارتفعت أيديهم عنها، ولم يبقَ لأحد منهم فيها ذكر. فاستولى على صنعاء وأعمالها يومئذ السلطان حاتم بن الغشيم المغلسي الهمداني، وكان ناهضاً كافياً[3]. ولم تحاول

(١) عيون ٧ / ١٤٣.
(٢) عيون ٧ / ١٦٨؛ وفي أنباء / دار ٤٤؛ وكفاية ٥٩ جاء أنه توفي سنة ٤٩٢.
(٣) كفاية ٩.

الملكة إعادة صنعاء إلى مملكتها، بل قبلت الأمر الواقع، واتجهت إلى تدعيم ما بقي من هذه المملكة. فأقامت المفضل بن أبي البركات بن الوليد الحميري على قيادة الجيش، وإدارة شئون الدولة التي كانت بحاجة إلى شخصية قوية. وكان هذا يتوصَّف للملك المكرم بذي جبلة، وهو من صغار الدار، الذين يدخلون على الملكة برسائل الملك المكرَّم. وقد كان والده أبو البركات والياً على التعكر من قبل المكرم[1]، ولما توفي بعد المكرم، جعلت الملكة التعكر إلى ابنه خالد ابن أبي البركات نحو سنتين، ولكن الفقيه عبد الله بن المصوغ قتله[2]، فثار له أهل الحصن بقتل الفقيه. فجعلت الملكة ولاية التعكر إلى المفضل بن أبي البركات. وكان التعكر مقر ذخائر بني الصليحي التي صارت إليهم من ملوك اليمن[3]؛ وكانت تطلع من ذي جبلة في أيام الصيف فتقيم به، وإذا برد الجوّ سكنت بذي جبلة، والمفضل يتصرف عن أوامرها، ويدخل عليها مع خواص وزرائها والأمراء والأكابر من عبيدها. وهو رجل الدولة ومدبرها، والمرجع إلى رأيه وسيفه. والحرة لا تقطع أمراً إلاّ به، فعظم بذلك شأنه، وعلت كلمته؛ وغزا تهامة مراراً، فتارة له وتارة عليه. وهبط عدن مراراً، ولم يبقَ باليمن من يُساميه. وقد قال للحرة يوماً وهي في التعكر: «انظري، يا مولاتنا! إلى ما كان في هذا الحصن من ذخائرك، فانزلي به إلى دار العزّ، فاعزليه في بعض هذه القصور. أما هذا الحجر (يعني

(١) وكان التعكر للسلطان عبد الله بن محمد الصليحي كما ذكرنا سابقاً. فلما قتل مع أخيه علي بن محمد الصليحي بالمهجم واستولى المكرم على البلاد، جعل أمر التعكر إلى ابن عمه أسعد بن عبد الله الصليحي. فساءت سيرته، فنقله عن التعكر وعوضه عنه بحصون ريمة. وجعل أبا البركات الحميري والياً في التعكر وأعماله، وولى أخاه أبا الفتوح بن الوليد الحميري حصن تعز (كفاية ٥٤).

(٢) كان ابن المصوع المذكور فقيهاً فاضلاً سليماً، «وكان ذا دنيا واسعة، وكان يواصل الأمير خالد بن أبي البركات لكونه الحاكم على بلدة ذي السفال. وكان الوالي يأمنه ويأمر أن لا يمنعوه عن الطلوع متى شاء. وكان الأمير لا يحتجب منه لما يعتقد فيه من الخير والصلاح، فسولت له نفسه أن يقتل الوالي استحلالاً لدمه لكونه على مذهب الدعوة... فلما خلا الفقيه بالأمير قتله. ثم صاح صياحاً بانزعاج، فتبادر أهل الحصن، فوجدوا الأمير مقتولاً، فقتلوا الفقيه» (كفاية ٥٤ ـ ٥٥).

(٣) عمارة / كاي ٣٧؛ أنباء /. دار ٤٤.

التعكر) فاتركيه لي، فلا طاعة لك على ما فيه بعد اليوم». فقالت: «لو لم تقل هذا القول ما أحوجتك إليه، الحصن حصنك، وأنت رجل البيت، ولا حرج عليك منّي فيما عاد لسموّ قدرك، وعلوّ أمرك». فخجل منها وأطرق؛ ونزلت الحرة إلى ذي جبلة، وكان المفضل يترضاها في طلوع التعكر، فلا تفعل، وهي مع ذلك تواصل برّه بما يحسن عنده موقعه، من الجواري والمغاني والكساوي والطيب والعبيد والأستاذين وغير ذلك؛ ولم تسمع وشاية أحد فيه[١].

مواقف المفضل

وله في نصرتها مواقف حميدة، منها أنه تولى قيادة الجيش لمحاربة السلطان سبا بن أحمد الصليحي حين خطب الحرة الملكة ولم تجبه إلى طلبه، كما حارب شمس المعالي علي بن سبا بن أحمد الصليحي صاحب حصن قيضان، وأخرجه منه سنة ٤٩٥، وملك حصون بني المظفر في نفس التاريخ المذكور[٢]، وكان علي بن سبا بن أحمد وهو زوج فاطمة بنت المكرَّم من الحرة. وحدثنا عمارة[٣] أنه تزوّج عليها، فكتبت إلى أمها تستنجدها، فأمدَّتها بالمفضَّل بن أبي البركات في عساكر، ولبست فاطمة زيّ الرجال. وفصلت من حصن زوجها في عسكر المفضل، فسيَّرها إلى أمها الملكة، وأدار الحصار على شمس المعالي حتى أخرجه من حصنه بأمان على نفسه. فاتصل هذا بالوزير شاهنشاه الأفضل مستنجداً به، فلم يلتفت الأفضل إليه، ولا الأمير شجاع الدولة الذي كان أغناه في اليمن، فعاد إلى اليمن وملك بعد حصون أبيه، ولكن المفضَّل دسَّ عليه من قتله بالسُّم سنة ٤٩٥.

وحارب المفضَّل عمرو بن عرفطة الجَنْبي[٤] وغيره من سنحان وعنس وزبيد،

---

(١) عمارة / كاي ٣٨.

(٢) نفسه ٣٨.

(٣) نفسه ٣٦.

(٤) نفسه ٣٨؛ عيون ٧ / ١٨٤.

واسترجع للملكة نصف خراج عدن[١] من آل الزريع.

نصرة الملكة الحرة لمنصور بن فاتك على استرداد تهامة

وحدث في سنة ثلاث وخمس مئة ما لم يكن في الحسبان، ذلك أن أولاد جياش اختلفوا فيما بينهم، وكادت الفتن الداخلية تقضي على دولتهم، ولما لم تكن الدولة الصليحية قادرة على حفظ كيانها في هذا الوقت، لم تتمكن من انتهاز هذه الفرصة وتسترد تهامة. ولكن هذا الخلاف أدّى إلى خروج منصور بن فاتك بن جياش من زبيد فراراً من عمه عبد الواحد، وسار في عبيده وعبيد أبيه، ونزلوا في رحاب الملكة الحرة، فأكرمت مثواهم، وتعهدوا للملكة بدفع ربع متحصل تهامة إذا هي ساعدتهم وتم نصرهم على عبد الواحد[٢]، فأرسلت المفضّل بن أبي البركات بجيش كبير، يساعده جيش آخر بقيادة زريع بن العباس وعمه مسعود بن الكرم الهمداني[٣].

ثورة الفقهاء بالتعكر وموت المفضل

وولّت على التعكر من يحفظه في غياب المفضل الذي تمكن من الاستيلاء على زبيد بعد حصار طويل وطرد عبد الواحد. وماطل المفضل في تولية منصوَر

---

(١) لما تزوّج المكرم السيدة الحرة أروى بنت أحمد سنة ٤٥٨ جعل الملك علي الصليحي خراج عدن وهو مئة ألف دينار صداقاً لها (انظر ص ١٤٨). ولما قتل الصليحي تغلب بنو معن على عدن، فحاربهم المكرم وأخرجهم منها. وولاها العباس ومسعوداً ابنيّ المكرم الهمداني. فجعل للعباس حصن التعكر وباب البر وما يدخل منه. وجعل لمسعود حصن الخضراء وباب البحر وما يدخل منه، وإليه أمر المدينة، واستخلفها للحرة الملكة. فلم يزل إرتفاع عدن يحمل إليها كل سنة إلى أن توفي العباس بن المكرم، فخلفه ابن زريع، وبقي مسعود على ما تحت يده، وكل واحد منهما يحمل ما عليه. ولما فكرا في خلع طاعة الحرة حاربهما المفضل واستخلص منهما نصف إرتفاع عدن (عمارة / كاي ٤٨؛ باخرمة: ثغر عدن ٢ / ٨٦). ولما مات المفضل تغلب أهل عدن على النصف الثاني، فسار إليهم أسعد بن أبي الفتوح وصالحهم على الربع. وتغلّب أهل عدن على الربع الباقي بعد ثورة الفقهاء بالتعكر (عمارة / كاي ٤٩).

(٢) باخرمة: ثغر عدن ٢ / ٨٦.

(٣) وكانا واليي عدن من قبل الحرة وقد قتلا على باب زبيد سنة ٥٠٣ وتولى أمر عدن بعدهما أبو المسعود بن زريع وأبو الغارات بن مسعود (نفسه ٢ / ٨٦).

ابن فاتك[1]، ولكن لما جاءته الأخبار بأن التعكر قد استولى عليه جماعة من الفقهاء بمساعدة بني الزر الخولانيين، قفل راجعاً وحاصر الحصن مدة، ولكنه لم يقدر على اقتحامه، وذلك لأن الفقهاء السنيين بالإضافة إلى قبيلة خولان[2] التي كانت تظاهرهم، دافعوا عنه مجيداً. وما زال الحصار عليهم، ثم رأي الفقهاء أن خولان خذلتهم[3]، فدبروا حيلة.

ويقول عمارة[4]: «إن عمي إبراهيم بن محمد بن زيدان كانت له البيعة، وحلف ألا يموت حتى يقتل المفضّل، فعمد إلى حظاياه من السراري، وأخرجهُنَّ في أكمل زيّ وأحسنه، وجعل بأيديهن الطارات وأطلعهن على سقوف القصور بحيث يشاهدهن المفضل، ويسمع هو وجميع من معه أصواتهن. وكان المفضل أكثر الناس غيرة وأنفة، فقيل إنه مات في تلك الليلة»[5]. وكانت وفاته في شهر رمضان سنة أربع وخمس مئة. ولما مات المفضل طلعت الملكة من ذي جبلة، وحطّت بالربادي[6] على باب التعكر، وكاتبت الفقهاء بالنزول من الحصن، على أن يقترحوا عليها ما شاءوا، فأجابوا إلى ذلك واشترطوا عليها شروطاً وفت لهم بها. وولت التعكر مولاها فتح بن مفتاح.

مآثر الأمير المفضل الحميري

وكان المفضل، كما ذكره الخزرجيّ[7]: «حازماً عاقلاً شجاعاً شهماً، له عدّة مكارم وجملة مفاخر، لكنها دون مكارم سبا بن أحمد. وكان جواداً ممدحاً، قصده

---

(١) يرى الخزرجي (كفاية ٥٦) أن المفضل هم أن يغدر به ويأخذ زبيد منه.

(٢) المراد بخولان هنا هي طائفة من خولان العالية كما أفادنا شيخنا القاضي محمد الحجري (راجع صفحة ١٠٧).

(٣) عيون ٧ / ١٧٩.

(٤) عمارة / كاي ٣٩.

(٥) وقيل إنه امتص خاتماً مسموماً كان بيده، فاصبح ميتاً والخاتم في فيه. وما هذا القول إلاّ خرافة، كما قال شيخنا القاضي، بل مات كمداً لشدة غيرته وأنفته.

(٦) الربادي، إسم المنطقة التي منها التعكر.

(٧) كفاية ٥٥

الشعراء من الأماكن البعيدة ومن جملة من قصده مواهب بن حديد المغربي، وامتدحه بغرر قصائد، يقول في بعضها:

يا مالك الدين والدنيا وأهلهما ... ومن بعزّته الإسلام مُمتسِكُ
قد قيل جاوِرْ لتَغْنَى البحرَ أو ملكا ... وأنت يابْنَ الوليدِ الْبحرُ والملكُ

وهو الذي جرّ الغَيْل من خِنْوة[1] إلى مدينة الجَنَد، ومدحه القاضي أبو بكر اليافعي فقال[2]:

وأقلّ مكرمة له وفضيلة ... إجراؤه للغيل في الأجنادِ
شقّ الجبال الشامخات كأنّما ... كانت [معالمها متون] وِهادِ[3]

وذلك أنه حفر في الصفا حفراً عديدة، وخرق بعضها إلى بعض، وأجرى الماء فيها في مواضع لا يصدق بها إلاّ من رآها، ثمّ لـمّا جاء إلى موضع بين جبلين أمر الصناع فبنوا جداراً من الجبل إلى الجبل، طوله مئتا ذراع، وعرضه نحو من عشرة أذرع بالحديد، وارتفاعه نحو من خمسين ذراعاً، بحيث إذا رآه شخص يقول ما فعل هذا إلاّ الجنّ، وبنى مسجد الجند وجدّد بناءه من المقدم والجناحين ما هو مبني بالحجارة وسقفه على ذلك». وقال صاحب قلادة النحر[4]: «إن محمد بن زياد المأربي مدحه، فوصله المفضل بألف دينار».

وكان من صفات المفضل أنه عندما عظم أمره كان يحتجب عن الناس، حتى لا يرجى لقاؤه، ثم يظهر فيغني من اجتمع ببابه من الوفود؛ ويصل إليه الضعيف، والقويّ، فينظر في أحوال الأعمال والعمال، ويجيب عن كل كتاب وصل إلى الباب، ثم يغيب، فلا يظهر، ولا يوصل إليه.

(١) وخنوة من أخصب قرى اليمن وهي شمالي الجند والغيل هذا لا يزال موجوداً.
(٢) في الأصل: إخراقه.
(٣) ورد البيت في الأصل ناقصاً بسبب الخزم مع وجود آثار تحمل على الظن أن تتمته كما دونه بين القوسين الأستاذ علي النجدي.
(٤) بامخرمة: قلادة ٢ / ٢ ورقة ٦٦٥.

ثورات بني الزر وخولان

وقد أدت وفاة المفضل إلى خروج بعض الجهات على الملكة الحرة. فاستولى مسلم بن الزر على حصن خُدد[1]، وأخرج منه السلطان عبد الله بن يعلي الصليحي الشاعر الأديب. ثم أظهر ولاءه إلى الملكة، بأن قدم ولديه عمران وسليمان كرهينة عندها، فاهتمت الملكة بتربيتهما. ولما توفي مسلم ملك بعده ابنه سليمان حصن خدد، وبقي عندها عمران الذي تولى على حصن التعكر سنة خمس وخمس مئة بعد أن تخلص من فتح بن مفتاح، الذي شقّ عصا الطاعة على مولاته الملكة[2]. واحتال عليه بنو الزر. وذلك أنهم خطبوا ابنة لعمران فزوّجه بها، فلما كانت ليلة الزفاف وصل جماعة منهم فأخرجوه من الحصن[3]. فلما حصل التعكر بيد عمران واصل الحرة الملكة ببذل الطاعة، فلم يلتفت إليه. فازداد نفوذ ابني الزر تبعاً لذلك، وامتدّت أيدي خولان على الناس وعاثوا في الأرض الفساد، فكانت الحرة إذا رأتهم قد طغوا أرسلت إلى عمرو بن عرفطة الجنبي سطراً أو سطرين بخطها، فيقبض على بلاد ابني الزر، فلا يخلصهما منه إلا الضراعة إليها والسؤال لها في صرف العرب عنهما.

قال عمارة[4]: حكى لي السلطان يزيد بن عيسى الوائلي قال: فكتبت لي بخطها إلى عمرو بن عرفطة الجنبي برقعة فيها: «إذا وقفت على أمرنا هذا فارتحل عن بلاد بني الزر مشكوراً». فلما وقف عمرو بن عرفطة عليها نادى في الناس بشعار الرحيل. فلم يمضِ ساعة وبقي منهم أحد. فقال عمران لأخيه: «هذا وربّك العزّ والطاعة».

أسعد بن أبي الفتوح الحميري

وحرصاً على سلامة الدولة أقامت الملكة مقام المفضل ابن عمه الأمير أسعد بن

---

(١) خدد في الحبيش شمالي التعكر. ذكره الهمداني في صفة ٧٨.

(٢) عمارة / كاي ٤١.

(٣) كفاية ٥٦.

(٤) عمارة / كاي ٤١.

أبي الفتوح بن العلاء بن الوليد الحميريّ من القيام بدولتها والذبّ عن مملكتها والتوجه أينما أمرته. وكان متولياً حصن تعز وصبر إذ كان أبوه قبله والياً عليهما. فأخذ هذا يدير شئون الدولة على أحسن حال حتى غدر به رجلان من أصحابه، فقتلاه بين البابين في حصن تعز سنة أربع عشرة وخمس مئة[1].

الموفق ابن نجيب الدولة

ولما تعقدت الأمور على الملكة الحرة، أرسلت إلى الحكومة المصرية تطلب منها إعارتها مستشاراً ليساعدها في تدبير شئون دولتها. وقد شعرت الخلافة الفاطمية بأن مركز الدولة الصليحية بدأ يتزعزع، فبادر الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي[2] في سنة ٥١٣ بإرسال الأمير الموفق علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة يصحبه عشرون فارساً[3] مختارة منتقاة إلى بلاد اليمن، ليقوم بهذه المساعدة. وكان ابن نجيب الدولة قد قدم من مصر قبل وفاة الأمير أسعد بن أبي الفتوح الحميري. فقررت الملكة إقامته في مدينة جبلة للاستشارة والمناورات الحربية. وكان متفقهاً في أصول الدعوة الفاطمية، مستبصراً في مذهب الشيعة. وكان على خزائن الكتب الأفضلية بمصر. وكان نبيهاً، حسن التدبير، كثير المحفوظات، قيماً بتلاوة القرآن على عدة روايات[4]، ويلقب بألقاب تدل على سمو قدره، منها: الأمير المنتجب، عزّ الخلافة الفاطمية، فخر الدولة العلوية، الموفق في الدين، وليّ أمير المؤمنين[5].

من هذا يتضح أنه كان موضع ثقة الخلافة الفاطمية، ولا بد أن يكون هذا الرسول مكلفاً أموراً هامة، لعلها ترجع إلى رغبة الخليفة الآمر بالله بن المستعلي في أن يستفيد من نشاطه ومهارته في تمكين الدعوة المستعلية[6] في نفوس أهل اليمن، وفي تعزيز مركز الملكة الحرة، بعد أن طمع فيها زعماء البلاد، واستقلوا بما تحت أيديهم.

اعادة الأمن بفضل جهود ابن نجيب الدولة

وقد كان ابن نجيب الدولة عند حسن ظن الدولة الفاطمية به، فلما وصل إلى

---

(١) كفاية ٥٦؛ أنباء / دار ٤٦؛ بامخرمة: ثغر عدن ١٧.
(٢) لم يرسله المأمون البطائحي كما قال ابن ميسر في كتابه أخبار مصر ٢ / ٧٠.
(٣) عيون ٧ / ١٨٠.
(٤) كفاية ٥٧.
(٥) عيون ٧ / ١٨٠.
(٦) نفسه ٧ / ١٤١.

جزيرة دهلك لقيه من عدن الداعي محمد ابن أبي العرب من ولد صاعد بن حميد الدين، فكشف لابن نجيب الدولة أسرار اليمن، وأحوال الناس وأسماءهم وكناهم، وتواريخ مواليدهم، وما تحت ثيابهم من شامة أو جراح أو أثر نار[1].

فجاء إلى ذي جبلة، وتشرف بمقابلة الملكة الحرة، فقلَّدته إمرة جيوشها. فاستخدم أربع مئة فارس من همدان وغيرهم، وقدَّم عليهم الطوق الهمداني[2]. واشتدَّ بهم جانبه، وقويت شوكته. وتمكن من وضع حد للخلافات الداخلية، وإعادة الأمن والطمأنينة إلى البلاد[3]. وكان أول عمل قام به هو تأديب الخولانيين، لأنهم كانوا قد بسطوا أيديهم على الرعايا في البلاد، واستهانوا بالسيدة الحرة. فطردهم من ذي جبلة ونواحيها، وأوقع بمن بقي منهم حتى لم يبقَ منهم إلا ما كان منتسباً إلى الملكة. فلما رأت منه ذلك أمرته أن يسكن الجند. فضاق الأمر به على سلاطين اليمن[4].

وقد أمنت البلاد، واستقرت الأمور، ورخصت الأسعار بحسن سياسته وتدبيره، وأقام العدل، وعفَّ عما في أيدي الناس من الأموال، وأقام الحدود؛ وعزَّ به جانب الملكة، وانقمع أهل اليمن عن الطمع في أطراف بلادها[5].

وقد كان برنامج ابن نجيب الدولة مقصوراً على إخضاع إمارات اليمن الصغيرة للسيدة الملكة الحرة، فتحسنت بجهوده الفذة مركز الدعوة في اليمن، كما ساعد الملكة على عدم تسرّب النزارية إلى هذه البلاد. وبذلك لم تتفرّق كلمة الفاطميين فيها كما تفرقت في مصر.

تقوية الوزير المأمون لابن نجيب الدولة

ولم يقف نفوذ ابن نجيب الدولة عند هذا الحد، بل لقد بلغ هذا الشأو البعيد

---

(١) عمارة / كاي ٤٢ - ٤٤.
(٢) عيون ٧ / ١٨٣.
(٣) ابن مخرمة: قلادة النحر ٢ / ٢ ورقة ٦٦٦.
(٤) عيون ٧ / ١٨٢، وأنباء / دار ٤٦. وهؤلاء الملوك هم سليمان وعمران إبنا الزر ومنصور بن المفضل وسبا بن أبي السعود ومفضل بن الزريع (عمارة / كاي ٤٣).
(٥) عمارة / كاي ٤٣.

النجاح في عامين اثنين بين سنتي ٥١٣ ـ ٥١٥. وكان نجمه لا يزال في صعود لأنه بعد وفاة الأفضل بن بدر الجمالي في رمضان سنة ٥١٥ أمدّه المأمون البطائحي وزير[١] الخليفة الآمر بأحكام الله، بالمال والرجال، فسيَّر إليه أربع مئة قوس أرمني وسبع مئة أسود[٢] وقبل ذلك بقليل تمكن ابن نجيب الدولة من أن يستخدم ثلاث مئة فارس من سنحان بقيادة الطوق الهمداني بالإضافة إلى من انضم إليه من أهل الدعوة. وقد ساعدت هذه العوامل على ارتفاع شأنه عند الملكة الحرة. وبخاصة بعد أن كتب إليه الوزير المأمون بالتفويض في الجزيرة اليمنية، وبسط يده ولسانه[٣] وأوجب عليه تقديم المساعدة للسيدة الحرة في كل ما تطلبه.

موقعة زبيد وهزيمة جيش ابن نجيب الدولة

ولقد أطمعه هذا المركز الحربي الممتاز في محاربة الدولة النجاحية في زبيد في سنة ثماني عشرة وأربع مئة، والوزير يومئذ بها منّ الله الفاتكي أحد عبيد بني نجاح. وكانت عشرة رماة من الأرمن أصحاب ابن نجيب الدولة قد استأمنوا إلى أصحاب زبيد. ولما تزاحف الرجال في الحرب، رمى رجل من العشرة المستأمنة بسهم، فلم يخط أنف الفرس الذي عليه ابن نجيب الدولة. فسقط علي بن إبراهيم إلى الأرض وشبّ الفرس عن ابن نجيب الدولة نافراً، فانهزم عسكره، فقتل السودان بأسرهم، ولم ينج من الأرض سوى خمسين وكانوا أربع مئة قوس. وأما ابن نجيب الدولة فقاتلت عليه همدان أشد قتال، حتى أردفه منهم رجل يقال له السباعي. وكان في همدان الطوق بن عبد الله الهمداني، فأبلى هو وقوم معه. وعارَ[٤] جواد ابن نجيب الدولة من الوقعة صلاة الظهر يوم الجمعة، فأصبح يوم السبت بمدينة الجنَد، وبينها

---

(١) وقد تولى المأمون البطائحي الوزارة من أول ذي القعدة سنة ٥١٥ إلى ٤ رمضان سنة ٥١٩ (إتعاظ ٣٣٨)، وكان ذلك في عهد الخليفة الآمر بالله بن المستعلي الذي تولى الخلافة سنة ٤٩٥ حتى قتل سنة ٥٢٤.

(٢) عيون ٧ / ١٨٢.

(٣) عمارة / كاي ٤٣.

(٤) عار الفرس، أي انفلت وذهب ههنا وههنا (صح / عار).

وبين زبيد أربعة أيام. ولم يمّس الخبر إلا بذي جبلة ليلة الأحد بأن ابن نجيب الدولة قد قتل. ثم وصل علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة إلى الجند بعد أربعة أيام. وركب إلى ذي جبلة، واجتمع بالحرة[1].

خلاص ابن نجيب الدولة من حصار سلاطين اليمن

وعضدته الحرة الملكة وأعطته الأموال، وجمعت إليه الرجال بعد فشله بزبيد. فما زال يغزو العدو إلى أقصى البلاد، على أن ابن نجيب الدولة لم ينج من حسد منافسيه الذين أخذوا يوقعون بينه وبين الملكة الحرة. فأخذت علاقته بها في الفتور منذ سنة ٥١٩ حتى إنه أثر عنه أنه رماها بالخبل، فقال: «قد خرفت واستحق عندي أن يحجر عليها». ثم اجتمع عليه سلاطين اليمن سليمان وعمران ابنا الزر وسبا بن أبي السعود وأبي الغارات وأسعد بن أبي الفتوح والمنصور بن المفضل في ألفي فارس وثلاثة آلاف راجل، فأحاطوا به في الجند. وكانت الجند ذات سور، وكان مع ابن نجيب الدولة من همدان أربع مئة فارس منتقاة كل فارس منهم يعد بمائة فارس، منهم الطوق بن عبد الله الهمداني ومحمد بن أحمد بن عمران بن الفضل بن علي اليامي وعلي بن عبد الله الصليحي وعلي بن سليمان الزواحي وأبو الغيث بن سامر ومحمد بن الأعز.

ولما اشتد الحصار على ابن نجيب الدولة، وهو في أشد التعب يستغيث بها. كتبت الحرة الملكة على جاري العادة منها إلى عمرو بن عرفطة الجنبي. فأتاها، فخيَّم بذي جبلة. وبعثت إلى وجوه القبائل ففرّقت فيهم عشرة آلاف دينار مصرية، وقالت للرسل: أشيعوا في العسكر أن ابن نجيب الدولة فرَّق في الناس عشرة آلاف دينار مصرية؛ فإن أنفق السلاطين شيئاً من الذهب المصري، وإلاَّ ارتحلنا. فلما خوطب السلاطين بذلك وعدوا الناس. فلما كان من الليل، ارتحل السلاطين، كل واحد منهم إلى بلده، وأصبحت الحشود من كل بلد بلا رأس، فانفض الناس عن الجند. فقيل لابن نجيب الدولة: هل أبصرتَ هذا التدبير للتي

(١) عمارة / كاي ٤٣ - ٤٤؛ وعيون ٧ / ١٨٣.

قلت إنها قد خرفت؟ فركب إلى ذي جبلة، وتنصّل واعتذر[1].

ولكن هذا التصرف الذي أنقذ ابن نجيب الدولة دلّ على حنكة الملكة الحرة في حرصها على إبقاء كلمة الفاطميين في اليمن هي العليا، قد أغضب سلاطين هذه البلاد، لإخفاقهم في التشفي من منافسهم.

ولما رأى الخليفة الآمر الفاطمي أن سياسة ابن نجيب الدولة التي رسمها له الفاطميون قد حادت عن الخطة المرسومة، أرسل إليه يستدعيه إلى مصر. وبذلك انتهز سلاطين اليمن الفرصة، واتصلوا برسول الخليفة الآمر، فشوّهوا سمعة ابن نجيب الدولة لديه. وكان من سوء حظ ابن نجيب الدولة أنه لم يحفل بهذا الرسول، بل سفهه في مجلس حافل، مما ساعد على تدبير مؤامرة انتهت بالقضاء على ابن نجيب الدولة. وفي ذلك قال عمارة[2]: «ضمن الأمير الكذاب (رسول الآمر إلى اليمن) لهم هلاك علي بن نجيب الدولة بفصلين: أما أحدهما، فقال: اكتبوا على يدي إلى مولانا الآمر كتباً تذكرون فيها أنه دعاكم إلى نزار وراودكم على ذلك وامتنعتم؛ والفصل الثاني، اضربوا سكة نزارية وأنا أوصلها إلى مولانا الآمر بأحكام الله، ففعلوا ذلك. وتصادف أنه عندما وصل من اليمن كانت العلاقة قد ساءت بين الخليفة الآمر ووزيره المأمون البطائحي، فقبض الخليفة على الوزير، فأوصل الأمير الكذاب الكتب والسكة إلى الخليفة الآمر»، وفيها ما يدل على انصراف ابن نجيب الدولة عن الدعوة المستعلية وانحيازه إلى طائفة النزارية.

القبض على ابن نجيب الدولة وتسليمه إلى رسول الخليفة

وقد تركت هذه المؤامرة أثراً سيئاً في نفس الخليفة، فأرسل إلى اليمن الأمير الموفق ابن الخياط في مائة فارس للقبض على ابن نجيب الدولة. ولما وصل إلى الملكة الحرة في ذي جبلة طلب منها ابن نجيب الدولة، وكانت قد قبضت عليه بحيلة[3]،

(١) عمارة / كاي ٤٥؛ عيون ٧ / ١٨٣ - ١٨٤.

(٢) عمارة / كاي ٤٦.

(٣) قال عمارة ما معناه: إن ابن نجيب الدولة توجه إلى زبيد عن كره منه.. فدخل أعداؤه على الملكة الحرة، ورجوا منها أن تحتفظ به، لأن الإمام لا يطلبه إلا منها؛=

وامتنعت عن تسليمه، وقالت: «أنت حامل كتاب، فخذ جوابه؛ وإلا فاقعد حتى أكتب إلى الخليفة ويعود جوابه»[1]. فخوفها وزراؤها سوء السمعة، وأفهموها بأنه داع لنزار، وأن هذا خطر على دولتها. ولكنها برأته مما نسب إليه، وأظهرت طهارته، ومع ذلك سلمته إلى الرسول سنة ٥٢٤ امتثالاً لأمر الإمام، بعد أن استوثقت له من ابن الخياط بأربعين يميناً[2]. وكتبت إلى الخليفة الآمر وأرسلت إليه كاتبها محمد بن الأزدي[3] ـ وكان أديباً منشئاً للديوان مجيداً للألفاظ ـ رسولاً، وسيرت معه إلى الخليفة بَدْرة من الجواهر تقوم بأربعين ألف دينار[4]. ثم خرج ابن نجيب الدولة من ذي جبلة وهو في قفص من الخشب، والناس ينظرون إليه، فقال لهم: «ما تنظرون؟ أسد في قفص!».

نهاية ابن نجيب الدولة

ويختلف المؤرخون في نهاية ابن نجيب الدولة، فبعضهم يقول: «إن السيدة الحرة سلمته إلى رسول الخليفة، وبالرغم من شفاعتها للخليفة وأخذها الأيمان الغليظة على الرسول ألا يمسه بسوء، تآمر أعداؤه مع الرسول على إغراقه، وقد تم ذلك عند باب المندب، كما أغرق معه رسول السيدة الحرة[5]. وبعضهم يقول: إنه وصل إلى مصر وشُهِّر به في القاهرة في سنة ٥٢٤ كما قال ابن ميسر[6]، وقيل إنه لا يعلم ما جرى لابن نجيب الدولة بعد خروجه من اليمن».

= فتمارضت الملكة، وأرسلت إليه الشريف أسعد بن عبد الصمد بن محمد الحوالي، وكان ابن نجيب الدولة يثق فيه. فأدركه بعيداً عن الجند بليلة، وأخبره بأن الملكة مشرفة على الموت ولا تثق بأحد إلّا بك. فرجع، فاحتفظت به، وقيدته بقيد من فضة زنته خمسون أوقية (عمارة / كاي ٣٦ ـ ٤٧).

(١) نفسه ٤٧.

(٢) نفسه ٤٧.

(٣) كذا ورد الإسم في كفاية ٥٨؛ وذكر في عمارة / كاي ٤٧ (الأزرقي) وصححها كاي (بإبن الأزدي)، وفي العيون ٧ / ١٨٥: ابن الأردبي.

(٤) عمارة / كاي ٤٧.

(٥) نفسه ٤٨. وقد أيّد ما قال عمارة صاحب العيون ٧ / ١٨٥.

(٦) ابن ميسر: أخبار مصر ٧٠.

ومهما يكن من أمر، فإن نجم ابن نجيب الدولة قد أخذ في الأفول منذ دبَّ النزاع بينه وبين السيدة الحرة الملكة، ومنذ أن أساء التصرف في أمور الدولة. أضف إلى ذلك حقد سلاطين اليمن عليه ومؤامراتهم ضده. ومع ذلك فإن الملكة أروى فقدت بخروجه من اليمن أنشط أنصارها ومساعديها. فتجلّى طمع السلاطين فيها في نفس اليوم الذي فارق فيه ابن نجيب الدولة مدينة ذي جبلة، إذ دخل عليها سليمان وعمران ابنا الزر شامتَين في ابن نجيب الدولة، وخرجا من عندها وهما يقولان: «صدق الفقيه في قوله: قال عبد الله بن عباس: كنّا ندخل نسمع الحديث من عائشة فلا نخرج حتى نعلم أنها امرأة». فكان آخر دخولهما عليها[1].

علي بن عبد الله الصليحي

وبعد رحيل ابن نجيب الدولة اختارت الملكة الحرة السلطان علي بن عبد الله الصليحي ابن أخي السلطان علي بن محمد الصليحي، للدفاع عن دولتها؛ ونُعت بفخر الخلافة، وقد مدحه الشاعر محمد بن أحمد بن عمران بقصيدة جاء فيها[2]:

يا غادياً مُزمعاً في السَّيْر معتزماً ... لا يتّقي الأيْن والوَعْثاء والألما
واحمل سلامي إلى المختار من كثَب ... فخر الخلافة والثم كَفَّه أمَما
وحاز من نسب الأصلوح ذروته ... وحاشد واعتلى الهامات والقمما
رئيس همدان بل كهلانَ أجمعِها ... بل قَرْم قحطانَ حازَ العلم والكرما
أوفى بني الدهر في شام وفي يمن ... قولاً وفعلاً وأعلى يعرب هِمَما
ومنصباً ومحلاً شامخاً وعلا ... عند الفخار وأسنى رهطه شيما
لما رأى الله ركن الدين منهدماً ... والعدل مهتضماً والحق مخترما

---

(١) عمارة / كاي ٤٨.

(٢) عيون ٧ / ١٨٦ - ١٨٧. وقد ورث هو وابنته الأميرة أروى بنت علي بن عبد الله ممتلكات الملك المكرم. بعد وفاة الملكة الحرة.

حباه بالرتبة العليا وشرّفه ... بدعوة الدين حتى عزّ وانْتَظما

ولكنا لا نعرف شيئاً عما قام به على هذا من الأعمال، لأن المصادر التي تحت أيدينا لا تذكر شيئاً عنه. ولكن يظهر أن الدولة قد أخذت في الانهيار في هذا الوقت، وهذا ما سنذكره فيما بعد.

القاضي لمك وبعثته إلى مصر

ونظراً لأننا في صدد الكلام عن عهد الملكة السيدة الحرة، نشير إلى بعض ما وجدنا في مصادر الدعوة اليمنية عند الدعاة الذين حملوا لواء الدعوة الفاطمية في عهدها، ونشاطهم في تأييد الدعوة والدولة.

لعب قاضي قضاة اليمن لمك بن مالك الحمادي الهمداني[1] دوراً هاماً في تاريخ الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن. وقد عاصر الملك علي بن محمد الصليحي والملك المكرم والملكة الحرة. وذكر إدريس[2] نقلاً عن السلطان حاتم بن إبراهيم الحامدي المتوفى سنة ٥٩٦، أن علياً الصليحي لما تمّ له فتح جزيرة اليمن بأسرها أرسل إلى الخليفة المستنصر الفاطمي كتاباً مع قاضي قضاة اليمن وجماعة من وجوه الأولياء[3]، يطلب منه أن يأذن له بالحج إلى مكة والمسير إلى مصر لزيارة الإمام في القاهرة والنهوض إلى العراق. ويمكننا أن نقرر أن هؤلاء الرسل قد وفدوا إلى مصر في سنة ٤٥٤، ذلك لأن المصادر كلها قررت أن القاضي لمك أمضى خمس سنوات في القاهرة، ثم عاد إلى اليمن سنة ٤٥٩ أو ٤٦٠ أي بعد قتل الملك علي الصليحي بقليل. وبعد أن سلم سفير اليمن القاضي لمك إلى الخليفة ما استودعه الملك علي بن محمد الصليحي من الرسالة والسفارة، أنزل الخليفة

(١) في النزهة ١ / ٨٤ ـ ٨٥ قال: «وهذا الداعي لمك بن مالك هو من بني حماد من همدان، وحماد وحامد أخوان. وكان محل لمك في لهاب من نواحي حراز ثم سكن في قرار ملك بني الصليحي في صنعاء ثم في ذي جبلة».

(٢) عيون ٧ / ١٠٣.

(٣) وردت أسماؤهم في السجلات رقم ٥٥ (الموجه إلى السيدة أسماء بنت شهاب المؤرخ في سنة ٤٦١): قاضي قضاة اليمن لمك بن مالك وعبد الله بن علي ومحمد بن حسن وحسين بن علي وعبد الله بن عمر وأبو البركات بن أبي العشيرة.

القاضي في دار المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازي[1] باب أبواب الإمام[2] المستنصر بالله الفاطمي. وكان المؤيد يناجي الإمام بالفسح للقاضي فلا يجاب إلاّ بالقول: «كيف يستأذن وقد آن وقت الشتاء»؟ وأقام لمك بمصر خمس سنوات. ويقول حاتم بن إبراهيم الحامدي[3]: «وفي مدة إقامة القاضي الأجل، كان لا يفارق المؤيد، بل ظل بين يديه يسأله ويأخذ عنه، ويكتب ما استفاده منه إلى أن استوعب ما عنده». وأخيراً قدم إليه القاضي سبعاً وعشرين مسألة، فقال: «ما جواب هذه إلا من مولاك». فدخل القاضي على المستنصر بالله فأجابه عنها جميعها، وكساه عن كل جواب حلة من حلل الشرف[4]. وظاهر هذه البعثة، كما ذكر الحامدي، هي رغبة الملك علي بن محمد الصليحي في أن يسمح له الإمام بالحج وزيارة القاهرة وطرد العباسيين من بغداد، ولكن هذا الأمر لا يستدعي إقامة القاضي خمس سنوات في القاهرة، وخصوصاً أن سرعة إنجاز ما يطلبه الملك علي الصليحي من الخليفة الفاطمي كثيراً ما كان يحل صعاب الأمور.

والذي يلفت النظر حقاً، اهتمام زعماء الدعوة في مصر بالقاضي لمك. ونظراً لأن الملك علياً الصليحي كان على صلة برياسة الدعوة في مصر بتبادل الرسائل والرسل

---

(١) راجع مقال حسين الهمداني في .J.R.A.S. (1932) ص ١٢٦ - ١٣٦؛ د. المؤيد ١٨٤ - ١٨٦؛ سيرة المؤيد ١٧؛ الباب التاسع من هذا البحث.

(٢) كانت هذه الوظيفة في أول نشأتها سرية لا يعرف بها أو بصاحبها إلاّ رجال الدعوة المقربون. ولما تركز الحكم الفاطمي أعلنوا هذه الوظيفة ورفعوا الستار عن صاحبها، فأصبحت الوظيفة خطيرة. فمنها ينبعث التوجيه السياسي والديني والعلمي. ولا يمنح هذا اللقب إلاّ لمن سبق أن تدرّج في مراتب الدعوة. ويعتبر داعي الدعاة الصلة بين الإمام وبين حدود الدعوة، كما يتضح ذلك من قول المؤيد في الدين عند كلامه عن داعي الدعاة القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن أبي حنيفة النعمان في عهد المستنصر: «وتوجهت بعد ذلك إلى المرسوم بالقضاء والدعوة الذي كان باب حطتنا ونحن بالبعد، والواسطة بيننا وبين مجلس الإمامة» (سيرة المؤيد ٨١ - ٨٢). ومن أعماله رياسة الدعوة الفاطمية وأخذ العهد على المريدين مباشرة أو بواسطة نوابه. . . (خطط ١ / ٣٩١).

(٣) عيون ٧ / ١٠٣. ونقل هذا الخبر الحسن بن نوح البهروجي في كتابه الأزهار ٢ / ٧١ - ٧٥ والشيخ شرف علي في كتابه عيون المعارف ٤٥٦.

(٤) عيون ٧ / ١٠٣.

في المناسبات المتعددة فلا بد أن رؤساء الدعوة كانوا على إلمام تام بحقيقة شخص لمك، ومدى مركزه في الدولة والدعوة في بلاد اليمن.

ومما لا شك فيه أن القاضي لمك بحضوره المجالس المستنصرية التي كان يلقيها المؤيد في دار العلم، وبملازمته باب أبواب الإمام هذه المدة الطويلة وقف على التعليمات المهمة التي أولاه إياها باب الأبواب. هذه التعليمات والإشارات التي سيكون لها الأثر الفعال في توجيه الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن، ومما يدل على مبلغ اهتمام الإمام وباب أبوابه المؤيد بقاضي قضاة اليمن وبدعوة اليمن، ما جاء في سجل[1] أرسله المستنصر بالله إلى السيدة الحرة أسماء بنت شهاب والدة المكرم حيث يقول: «. . . وساق إلى ولدك (المكرم) من التشريفات والألقاب ما شفعه بما هو أزيد من ذلك صحبة رسلكم: قاضي قضاة اليمن لمك بن مالك، وعبد الله بن علي ومحمد بن حسن، وحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وأبو البركات بن أبي العشيرة ـ سلّمهم الله ـ فلقد جاهدوا وصبروا، واجتهدوا في الخدمة وما قصّروا، والله تعالى يبلغهم مقصدهم سالمين برحمته. . .».

وكان المؤيد من أكبر الشخصيات الذين حملوا لواء الدعوة لا في مصر فحسب، بل في كثير من البلاد، وبخاصة بلاد اليمن. وفي ذلك يقول إدريس[2]: «فهو بالنسبة للدعاة القائمين أب، وكلهم إليه بعلمه منتسب، لأنه سلّم للداعي لمك ما عنده».

نفوذ الوزراء في مصر

ويجب أن نقرر حقيقة أخرى وهي: أن المؤيد لما حضر إلى مصر من بلاد فارس، وترقى في مناصب الدعوة حتى أصبح باب أبواب الإمام، وجد أن أمور الدعوة والدولة ليست في يد الخليفة، بل وجد الوزراء قد سلبوه السلطة، لذلك رأى أن مصير الدعوة بهذا الوضع ينحدر إلى الضعف، بل قد يكون الزوال على يد هؤلاء الوزراء. وقد أخذ نفوذ الوزراء يزداد لضعف نفوذ الخليفة، ولا أدل من

---

(١) السجلات رقم ٥٥.

(٢) عيون ٧ / ١٨٨.

إقحام اسم بدر الجمالي[١] في معظم مكاتباته إلى بحار الدعوة، ومعظم رسائله التي بعث بها بعد سنة ٤٦٧ إلى الصليحيين قد ذكر فيها اسم بدر مشفوعاً بالثناء والتقدير العظيم[٢].

تحويل التراث الأدبي الفاطمي إلى اليمن

ونخلص من هذا إلى الصورة التي ظهرت في مخيلة الداعي المؤيد، أن الدولة على هذا الوضع مصيرها إلى الزوال. لذلك وجب تحويل آداب الدعوة إلى مكان يضمن حفظها، ولم يكن هذا المكان إلاّ اليمن. وساعد على ذلك أن الدعوة الفاطمية الرسمية كانت قد استقرت في بلاد اليمن، لأن دعوة اليمن هي الوحيدة التي ظلت موالية لدعوة الفاطميين الرسمية بعد أن فقدت تلك الدعوة نفوذها لضعف أمرها في كل من شمال إفريقية ومصر وسورية والعراق وفارس[٣].

(١) هو أبو نجم بدر الجمالي أمير الجيوش مملوك جمال الدين بن عمار، تولى الوزارة للخليفة المستنصر بالله في يوم ٢٨ جمادي الأولى سنة ٤٦٦ وتوفي في شهر ربيع الأول سنة ٤٨٧.

(٢) والمستنصر إذ يعترف لبدر في إنقاذ دولته بمدحه والثناء على جهوده في سبيل رفع الدعوة الفاطمية يطلب من الصليحيين أن يشاركوه هذا التقدير السامي، ويتخذ من بدر وابنه الأفضل هداة يهتدون بهما، وقد أمدتنا رسائله بصورة واضحة عن ثقة الخليفة ببدر حتى إنه وضع أمور الدعوة والدولة جميعها في يده. وقد ورد اسم بدر في رسائل المستنصر إلى الملك المكرّم في سنة ٤٧٠، فيقول: ... ولم يكن له بد من... أن يحله محل الوالد ويجعل له مكان الملك وينزله في عقد خلافة الإمامة... فول وجهك نحو هذا السيد الأجل، واجعله قبلة دينك في مصادرك ومواردك (السجلات رقم ٣٤). لما تمكن بدر من نفس المستنصر وصار يؤلف الكتب في أصول الدعوة اتخذ منه المستنصر باباً لدعوته، ووضعه في مركز لم يضع فيه وزيراً قبله، وأخذ الخليفة يحتم على أتباعه وجوب طاعته. فأرسل إلى الملكة الحرة سجلاً مؤرخاً في شوال سنة ٤٧٢ يطلب منها أن تحذو حذوه وتسترشد بنصائح الوزير بدر (السجلات / الهمداني ٣١٤)، فأصبح المستنصر بهذا الوضع مسلوب السلطة والإرادة كما كان ابنه المستعلي. كذلك في عهد الأفضل بن بدر الجمالي، فأصبح النفوذ والسلطان المطلق في يد الوزراء. وكان التحمس للدعوة ونصرتها أو إضعافها تابعاً لرغبة الوزراء وميولهم. فالأفضل كان يميل ميل السنيين، فألغى الكثير من الأعياد الفاطمية المحضة (حسن إبراهيم: الفاطميون في مصر ٢٧٩).

(٣) انظر مقال حسين الهمداني في J.R.A.S. (١٩٣٣) ص ٣٦٣.

وقد بدأ هذا التحول بالفعل على يد القاضي لمك بن مالك الذي عاد إلى بلاد اليمن يحمل تقليد المكرم ملكاً خلفاً لأبيه. ولما علم المكرم بأن لمك كان بعد عودته من القاهرة مكلفاً من قبل الإمام تنفيذ سياسة معينة، كان لا يقطع أمراً من أمور الدولة والدعوة إلاّ إذا استشاره، نظراً لمكانه العظيم في نفسه، حتى إنه كان إذا لقيه في طريقه ترجَّل عن جواده، احتراماً لمقامه، وحفظاً لأكيد ودّه[1]. فكان القاضي لمك ينهاه عن ذلك بقوله: «إنك في الملك في مقام الإمام عليه السلام، فلا ينبغي لك أن تتواضع عن منزلتك»[2].

تفويض رياسة الدعوة اليمنية إلى القاضي لمك

وصفوة القول أن المكرم جعل لمك رئيس الدعوة في اليمن، تحقيقاً لرغبة الإمام، فكان المكرم «داعي السيف» وكان لمك «داعي القلم»[3]، وكان لمك قبل ذلك قاضي القضاة[4]. وفي ذلك يقول إدريس[5]: «وأرسل الإمام عليه السلام الداعي الأجل لمك بن مالك إلى اليمن؛ فأقامه داعياً مع الداعي الملك المكرم؛ وأمر المكرم بأن يقوم بالسيف والقاضي لمك داعي القلم؛ وجعل إلى الملك المكرم أمر الملك والسياسة، وإلى الداعي لمك إقامة القضاء، ولكن لا يمكن أن نجزم بأن القاضي لمك كان يقوم وحده بأمر الدعوة والمستنصر يقول: «... والدعوة الهادية المستنصرية ثبتها الله في الأعمال اليمنية بفضل سياسة المكرم الذي ضمّ شمل الأولياء، وجمع الآراء على ما عاد بنظام الدين وإشراقه»[6]، ويقول

---

(١) وقد تمشى في ذلك مع القاعدة التي اتبعها الخلفاء الفاطميون مع قضاة دولتهم، فالخليفة المستنصر بالله، كان إذا خرج القاضي اليازوري من عنده مشى جميع أهل الدولة في ركابه (العسقلاني: رفع الإصر ورقة ٨٣ - ٨٤).

(٢) عيون ٧ / ١٠٤.

(٣) نفسه ٧ / ٨٣.

(٤) «كان يختار لهذا المنصب من يتوسم فيهم العلم بكتاب الله وسنة رسوله وكان يزكيه لذلك أن يكون رجلاً عفيفاً ورعاً تقياً لا تأخذه في الحق لومة لائم» (مشرفه: نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين ٢٣٢).

(٥) نزهة ١ / ٨٣.

(٦) عيون ٧ / ١٢٧.

في موضع آخر موجهاً الكلام إلى الملك المكرم: «. . . وأمر أن يقلدك النظر فيما كان أبوك تقلده من الدعوة الهادية والأحكام في سائر اليمن وسائر الأعمال المضافة إليه»[١].

ومن هذا يتضح أن المكرم كان الرئيس الأعلى للدولة والدعوة، ولكنه ترك أمر الدعوة للقاضي لمك يتصرف فيها بالرجوع إليه. ومع ذلك فإننا نلاحظ أنه قد حدث تغيير جوهري في دستور الدعوة في اليمن، فقد كان أول الملوك الصليحيين وهو الملك علي بن محمد الصليحي رئيساً للدولة، كما كان رئيساً للدعوة، أي أن أمور الدولة والدعوة كانت مركزة في شخصه؛ فهو والحالة هذه أشبه ببعض شيوخ الجبل عند النزارية، بحيث لا يفترق عنهم، إلاَّ في أنه يدعو لإمام ظاهر، يظهر الولاء والطاعة له[٢]، على حين كان المكرم رئيساً للدولة ويشترك معه القاضي لمك في إدارة شئون الدعوة.

فصل الدعوة عن الدولة

في الشطر الأول من حكم الملكة الحرة منحها الإمام لقب حُجَّة، وقال صاحب العيون[٣]: «. . . فرفعت بذلك عن حدود الدعاة إلى مقامات الحجج، وكفلت كافة المؤمنين، والدعاة الميامين، والحدود والمستجيبين خير كفالة، وأوضحت البرهان في ولاية الأئمة عليهم السلام، وأظهرت معالم الدعوة للتابعين، وأبانت وما وهنت لما أصابها في سبيل الله». واستعانت في تثبيت قواعد الدعوة بقاضي القضاة لمك الذي لقب في عهدها بداعي البلاغ. واستمر القاضي بوظائفه العديدة التي ذكرناها آنفاً إلى أن وافته المنية في السابع والعشرين من شهر جمادي الأخرى سنة عشر وخمس مئة ودفن بلهاب[٤].

---

(١) عيون ٧ / ١٢٩.
(٢) طه شرف، النزارية؛ ٢٧٤.
(٣) عيون ٧ / ١٤١.
(٤) صحيفة الصلاة ٣٣٩.

يحيى بن لمك

ولما توفي القاضي لمك خلفه ابنه يحيى في نفس الوظيفة التي كان يعمل فيها أبوه مع الملكة الحرة. «فاستمر ينصب الدعاة، ويوضح معالم الدين، ويحيي مراسمه ويبين شريعته، ويفسر تأويله وحقيقته»[١]. وبفضل جهوده التي بذلها تحت رعاية الملكة الحرة، تمكنت الدعوة الفاطمية المستعلية في بلاد اليمن، وما انضاف إليها عمان والهند[٢]، وزادت ثقة الإمام بالصليحيين، لأنهم برهنوا على صدق إخلاصهم لمذهبهم وولائهم له. فلما توفي الخليفة المستعلي سنة ٤٩٥ وخلفه ابنه الآمر، قامت الملكة الحرة له بالدعوة خير قيام، وساعدها في ذلك الداعي يحيى. «فاستقامت بها أمور الدين في أقطار اليمن، ووضحت بها الفروض الشرعية والسنن، ومضت بها الأحكام، وأقيمت شعائر الإسلام، وعرف الحلال والحرام»[٣]. واستمر يحيى يعمل في وظيفة أبيه مع الملكة الحرة حتى توفي في ٢٨ جمادى الآخرة سنة ٥٢٠[٤].

تولية الداعي الذؤيب بن موسى الوادعي أمر الدعوة

ولما تبين للملكة أن مملكتها أخذت تتزعزع أركانها للأسباب التي سنذكرها فيما بعد، قررت بثاقب فكرها أن تفصل الدعوة عن الدولة فصلاً تاماً، كما كان الحال في مصر، حتى تباشر الدعوة نشاطها العملي والديني مستقلة عن تأييد الدولة، ففصلت هيئة الدعوة كلية عن إدارة الحكومة، فأصبح يقوم بأعباء هذا النظام الثنائي (Dual hierarchy) رؤساء مختارون لإدارة شئون الدولة والدفاع عن المملكة، وآخرون للدعوة.

فأقام الداعي يحيى والملكة الحرة الداعيَ الذؤيب بن موسى الوادعي الهمدانيّ

---

(١) عيون ٧ / ١٤٤.

(٢) نفسه ٧ / ١٢٣ - ١٢٤؛ والسجلات رقم ٥٠.

(٣) عيون ٧ / ١٤٤.

(٤) صحيفة الصلاة ٣٣٩.

في رياسة الدعوة، وفي اختياره رئيساً للدعوة يقول إدريس[1]: «اجتمع عدة من سلاطين اليمن إلى قاضي القضاة وداعي الدعاة باليمن يحيى بن لمك. وكل من أولئك السلاطين يرى أنها ستقع إليه بإقامة الدعوة الشريفة الإشارة، ومتطلع إلى أن يلي إيراد الأمر فيها وإصداره. والذؤيب بن موسى متواضع مع علو مرتبته لأبويه، إلى ما يشار إليه من عالي منزلته. فحين اجتمعوا عند القاضي الأجل يحيى ابن لمك بن مالك أعلن بالتعريف بفضل الداعي ذؤيب بن موسى وعالي مقامه، وأنه المعاضد له، والخالف له بعد انقضاء أيامه، وتلا على السلاطين والمؤمنين التقليدين من الحرة الملكة السيدة ولية أمير المؤمنين، وكافلة أوليائه الميامين، ومن داعي الدعاة وقاضي القضاة يحيى بن لمك ذي الحجة الماضية البراهين، فسمع أهل الفضل والديانة قول الحرة الملكة حجة الإمام الآمر، وقول داعيه يحيى بن لمك، ولم يكنِ منهم جاحد ولا مكابر».

وكان قد وقع في دستور الدعوة تغيير جوهري، بسبب اختفاء الإمامة من مسرح مصر، مركز الدعوة الفاطمية، ودخلت الدعوة في اليمن في عهد الملكة الحرة والداعي الذؤيب بن موسى مرحلة أخرى. وصارت الدعوة منظمة دينية بحتة بعد سقوط الدولة الصليحية، يعوزها تعاون الدولة وتأييدها، مع أنها كانت تحاول عِدَّة محاولات طوال القرون لإنشاء دولة مستقلة في المناطق التي قطنها أولو الدعوة.

استتار الإمام الطيب والدعوة اليمنية

فلنرجع إلى مصر برهة من الزمن، لكي نعرف ما حصل هنالك من الانقلابات والحوادث التي أدت إلى هذا التغيير في نظام الدعوة باليمن.

أنجب الخليفة الآمر قبل مقتله بقليل طفلاً في الليلة المصبحة باليوم الرابع من شهر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين وخمس مئة، وسماه الطيب، وكناه أبا القاسم

(١) عيون ٧ / ١٨٧ ـ ١٨٨.

وكتب سجلات البشارة بهذا المولود والنص على إمامته، ومن ذلك سجله إلى الملكة الحرة الصليحية[1]، فقال فيه:

«... أما بعد، فإن نعم الله عند أمير المؤمنين لا يحصى لها عد... ومن أشرفها لديه قدراً... بأن رزقه مولوداً زكياً مرضياً، ...وذلك في الليلة المصبحة بيوم الأحد الرابع من شهر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين وخمس مئة، ...سماه الطيب... وكناه أبا القاسم كنية جده نبي الهدى... ولمكانك من حضرة أمير المؤمنين المكين... أشعرك هذه البشرى... لتأخذي من المسرة بها بأوفى نصيب، وتذيعيها فيمن قبلك من الأولياء المؤمنين، إذاعة يتساوى بالمعرفة بها كل بعيد وقريب، ...» إلخ.

وأرسل الآمر إلى الحرة الملكة الشريف محمد بن حيدرة «بسجلات تتضمن السلام عليها، ... وكان مما سفر به إليها منديل كم سمل، وأمر الشريف ابن حيدرة بتسليمه إليها»[2]. فلما وصل الشريف وسلم إليها السجلات الآمرية وذلك المنديل فاضت عيناها بالدموع حين وقفت على المنديل، «فعلمت أنه نعى إليها نفسه»[3]. والمحتمل أن الشريف كان من الحاضرين حينما نص الآمر على تعيين ابنه الطيب للإمامة بعده، ولذلك ندبه الآمر للسفاره إلى اليمن[4]. ومن المحتمل أيضاً أن السجل الذي ذكر فيه المولود الطيب، كان من ضمن السجلات التي أتى بها الشريف إلى اليمن.

فأذاعت الملكة ببشرى المولود في جميع أنحاء مملكتها، وقامت هي والذؤيب بن موسى الوادعي بأخذ البيعة والعهد للطيب والدعوة إليه، وأمرت الملكة عند قراءة مجالس الحكمة بالصلوات على الطيب بن الآمر[5].

---

(١) عمارة / كاي ١٠٠ - ١٠٢؛ عيون ٧ / ١٩٢ - ١٩٣؛ والملحق رقم ٨.
(٢) عيون ٧ / ١٨٩.
(٣) نفسه ٧ / ١٨٩.
(٤) نفسه ٧ / ١٩٤.
(٥) نفسه ٧ / ١٩٤.

وقد قتل الخليفة الآمر بأحكام الله في الثاني من ذي القعدة من سنة أربع وعشرين وخمس مئة[1] بيد جماعة من النزارية. فأظهر الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل مذهب أهل السنة، بعد أن أقام الدعوة للخليفة المزعوم أبي القاسم المنتظر القائم في آخر الزمان المهدي حجة الله على العالمين. واستولى على أمور الدولة وقبض على ابن مدين صاحب الرتبة وقتله. وقتل من أصحاب ابن مدين الدعاة ابن رسلان والعزيزي ونسلان. وهرب قونص[2] إلى اليمن، وعاد بعد ذلك فقتل. وأقام ابن مدين قبل مقتله في رتبته صهره القاضي أبا علي، وأمره أن يخرج الإمام الطيب خوفاً من عدوان الوزير ابن الأفضل. فاستتر القاضي صهر ابن مدين بستر الإمام الطيب وسافر معه. «وكان ابن مدين المنتصب بالدعوة إلى الطيب في الديار المصرية وأقامه الآمر بأحكام الله في الرتبة البابية، وأشار الآمر إلى القاضي أبي علي صهر ابن مدين بحفظ رتبته. فغاب القاضي بغيبة الطيب. فلم يعرف إلّا المخلصون أين مقصده ومثواه. وما زال الستر إلى هذا الأوان، والإمامة جارية في الإمام الطيب أبي القاسم أمير المؤمنين وعقبه الطاهرين في كل وقت وزمان». هذا ما رواه صاحب العيون[3].

فلما قتل الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل في نهاية فترة شغور[4] خرج عبد المجيد بن محمد بن المستنصر من سجنه، وادعى إمرة المؤمنين والإمامة.

---

(١) في رواية العيون ٧ / ١٩٠ فتك النزارية بالآمر يوم الثالث من ذي القعدة سنة ٥٢٦، وكانت نقلته ليلته بعد تجديد النص على ابنه الطيب. وهذا التأريخ يخالف جميع المصادر. فلذلك اعتمدنا على التأريخ المشهور بدلاً من رواية صاحب العيون.

(٢) عيون ٧ / ٢٠٢ - ٢٠٣: وقونص دون الثلاثة في المنزلة.

(٣) نفسه ٧ / ٢٠١ - ٢٠٢.

(٤) فترة شغور من الثاني من ذي القعدة سنة ٥٢٤ يوم اغتيل الآمر إلى الخامس عشر من المحرم سنة ٥٢٦ يوم تولى الحافظ عبد المجيد الخلافة الفاطمية بمصر. وكان عبد المجيد قائماً بحفظ القصر وظاهر الملك وولاية عهد المسلمين، لا يدعي الإمامة ولا يعرف بها عند الخاصة والعامة إلى أن ظهر الوزير أبو علي بن الأفضل الذي تغلّب على الديار المصرية وقصد إلى القاهرة وسجن عبد المجيد. ومالأ الوزير على ذلك ابنه الحسن بن عبد المجيد واعتقل أباه حتى قتل ابن الأفضل وبعده الحسن بن عبد المجيد.

وذلك حين استتر من الدعاة مع الطيب، وقتل من قتل على يد الوزير أبي علي بن الأفضل في هذه الفترة.

وذهب بعض المؤرخين[1] المتأخرين البعيدين عن مسرحي الدعوة - المصري واليمني - مذهباً آخر في أمر عقب الآمر والإمامة بعده، فقالوا ما معناه: إن الآمر لما اغتيل في سنة أربع وعشرين وخمس مئة خلف امرأته حاملاً فبويع بولاية العهد لابن عمه عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، ولم يبايع بالإمامة حتى يظهر الحمل. فلما وضعت زوجته أنثى، عهد إلى الحافظ عبد المجيد بالخلافة.

وأما المقريزي فلم يقل إنها وضعت أنثى بل ذكر أن برغش وهزار الملوك أقاما الأمير عبد المجيد، «وأنه يكون كفيلاً لمنتظر في بطن أمه من أولاد الآمر». ثم ذكر استبداد أبي علي بالوزارة والقبض على عبد المجيد وسجنه، وخروجه من المعتقل بعد قتل أبي علي الوزير. فاستطرد المقريزي قائلاً: «وأخذ له العهد على أنه ولي عهد كفيل لمن يذكر اسمه»، وأشار إلى الوزير رضوان الذي أخذ في إهانة حواشي عبد المجيد الحافظ، «وهم بخلعه وقال: ما هو بإمام، وإنما هو كفيل لغيره وذلك الغير لم يصح».

وقال ابن الفرات[2]: «إن أهل صنعاء يرون له (للآمر) ولذا يسمى الطيب، وهم آمرية المذهب، وبالشام جماعة من الآمرية». والآمرية في اليمن هم في الواقع الذين يسمون بالطيبية، لأن أتباع الآمر هم أتباع ابنه الطيب، إلاَّ من اتبع إمامة الحافظ عبد المجيد فسموا المجيدية، ولم يبقَ منهم أحد في اليمن حتى بعد مدة وجيزة من الزمن.

وإننا نرى أن سجل الآمر[3] الذي ذكرناه آنفاً خير رد على من يذهب إلى القول بأن الآمر لم ينجب قبل موته. ولقد أورد عمارة اليمني (وهو ليس من أهل

(1) النويري: نهاية الأرب ١٦ / ٨١؛ أبو الفداء: المختصر ٢ / ١١٤ - ١١٥؛ العيني: عقد الجمان ٣ / ورقة ٥٥١؛ السيوطي: حسن المحاضرة ٢ / ١٦ - ١٧.

(2) تاريخ الأمم والملوك ٣ / ١٠. نرى أن ابن الفرات (المتوفى سنة ٨٠٧) غير مصيب في قوله إن جماعة من أتباع الآمرية لا يزالون بالشام، يعني في القرن التاسع، لأن نفوذهم كان سائداً في بلاد الشام لفترة من الزمن، ثم أزاله النزارية وأصبحت الشام مجالاً حيوياً للنزارية

(3) عمارة / كاي ١٠٠ - ١٠٢؛ عيون ٧ / ١٩٢ - ١٩٣؛ انظر الملحق رقم ٨.

الدعوة) هذا السجل، كما أورده صاحب العيون نقلاً عن مؤرخي الدعوة اليمنيين السابقين. ونحن نرجح قول عمارة اليمني والمؤرخين اليمنيين لإلمامهم بالحقائق، وقربهم في الزمن والدعوة يستحق الترجيح.

وباختفاء الإمام الطيب دخلت الدعوة في اليمن دوراً جديداً يعرف بدور الدعوة الطيبية، وانفصلت الدعوة اليمنية عن مصر نهائياً، وأصبحت اليمن هي المركز الرئيسي للدعوة الفاطمية المستعلية الطيبية. واستقلت اليمن عن الخلافة المصرية بعد اغتيال الآمر، وظلت الملكة الحرة تحافظ على ولائها للإمام الطيب ودعوته والأئمة الفاطميين من قبل. ومما لا شك فيه أن الملكة ورياسة الدعوة في اليمن كانوا يعرفون مكان اختفاء الإمام الطيب كما يظهر من تقليدها السلطان أحمد بن أبي الحسين بن إبراهيم بن عمر الصليحي بوصيتها إذا وافتها المنية، أن يقوم بتنفيذ ما جاء في الوصية، وأن يوصل كل ما ذكر فيها من مجوهراتها ومصوغاتها على باب الإمام الطيب وأن يأخذ عليها الخط الشريف الإمامي بوصول ذلك.

شخصية الطيب التاريخية

ويقول الدكتور محمد كامل حسين مستنداً إلى التاريخ والعقل معاً[1]: «فقصة الطيب هذه أقرب إلى الأساطير الخيالية منها إلى الواقع التاريخي. فإن أحداً من المؤرخين [لم يـ] ـذكر وجود الطيب بن الآمر إلاّ ما نراه في كتب دعاته. فالصليحيون ودعاة الدعوة الطيبية بعدهم هم فقط الذين تحدثوا عن الطيب بن الآمر، بينما سكت المؤرخون عنه ولم يذكروا حتى اسمه في كتبهم؛ بل ذهب المؤرخون إلى أن الجهة التي كانت حاملاً عند موت الآمر بأحكام الله وضعت أنثى، ولكن الصليحيين قالوا بل وضعت الطيب، وإن السيدة الملكة الحرة كانت كفيلته وأنها سترته فلا يعرف أحد شيئاً عنه! ونحن نتساءل عن سبب ستره مع أن الدولة

---

(١) وبعد أن حررنا ما سبق أرسل إلينا صديقنا الفاضل الدكتور محمد كامل حسين مقالاً، وذلك بدعوة منا، عن «عقائد الدعوة»، فله منا الشكر على إجابة دعوتنا، والعذر على ما أبدينا من آرائنا، خدمة للعلم والتاريخ.

كانت دولة الصليحيين والسلطان في أيديهم. فلم قبلوا أن يدخلوا إمامهم الستر وأن يخفوه ما داموا يدعون له ويدينون بطاعته وإمامته؟ يخيل إليّ أن الصليحيين وضعوا قصة الآمر هذه، حتى يتخذوها ذريعة للانفصال من سلطان الفاطميين الديني، وأن يستقلوا بالنفوذ السياسي والديني معاً. وأوحى دهاء الملكة الحرة وذكاؤها الشديد وحرصها على أن تجمع في يدها السلطتين السياسية والدينية إلى أن تقول بأنها كافل الإمام المستور وحجته الكبرى. وسار على نهجها كل داع مطلق في الدعوة إلى الآن».

وإننا نرى وجاهة في رأي صديقنا الفاضل الذي ذكرناه آنفاً، وأن من حق الباحث أن يتساءل ويناقش ويشكّ، حتى يصل إلى معرفة الحقائق أو ما قرب إليها. وإننا نرى أن ما رُوي عن الطيب بن الآمر يكتنفه بعض الغموض من حيث مسألة استتار الإمام واختفائه في ظروف خاصة، كمسائل أخرى تتعلق باستتار الأئمة الفاطميين. ونقول إن استتار الإمام لا يبقى ستراً إذا كانت أحواله وأموره مكشوفة واضحة. والذي يدهشنا أن الآمر لم يعلن ولاية عهد ابنه الطيب في دار الخلافة بمصر بالرغم مما روى اليمنيون أنه نص على تعيين الطيب للإمامة بعده. ونحن لا نستطيع أن نفسر هذا إلاّ أن الإمامة يخصها رياسة الدعوة وأهلها، وأما الخلافة فلم ير أنه جاء الأوان لإعلان ولاية عهده، واغتيل فجأة.

وبالرغم من ذلك نؤيد وجهة نظر الدعوة اليمنية على أساس وثيقة معاصرة هامة ـ وهي السجل الآمري الموجه إلى الملكة الحرة. وهذا السجل أورده المؤرخ الفقيه عمارة اليمني الحكمي (٥١٥ ـ ٥٦٩) في كتابه تاريخ اليمن. وقد عاش الفقيه في اليمن، ثم انتقل في سنة اثنتين وخمسين وخمس مئة في عهد الخليفة الفائز الفاطمي إلى مصر، ورفض أن يتخذ مذهب الدعوة ديناً، بالرغم من حبه للفاطميين ومغريات المناصب والمكاسب المادية. ولم يكن هذا المؤرخ طيّبيّاً ولا مجيديّاً بل ولا فاطميّاً في ميوله الدينية، بل تمسّك بمذهب أهل السنة، ولكنه كان ملمّاً بحقائق الأمور في المسرحين اليمني والمصري. ويزيدنا اعتماداً عليه أنه تحدّث عن الطيب بن الآمر وذكر سجل الآمر الموجه

إلى الملكة الحرة وهو بين أصحاب الدعوة المجيدية المصرية التي كانت تحارب الدعوة الطيبية بكل شدة. فلم يخف عمارة من إتيان الوثيقة في كتابه، ولم يتملّق أو يلفّق، بل ذكرها بكل بساطة كعادته. والظاهرة هذه أدنته إلى مشنقة الأيوبيين. فنرى أن علماء الدعوة الطيبية لم ينفردوا بالتحدث عن الطيب الإمام المستور، بل تحدّث قبلهم هذا المؤرخ السنّي الفقيه الثقة الجليل القدر.

والظاهر من رواية المقريزي التي ذكرناها آنفاً أن الآمر كان له أولاد غير الذي كانوا يتوقعون ولادته. ولو صحت رواية المقريزي نستطيع أن نقول إن الطيب كان من هؤلاء الأولاد. ولم يذكر أحد من المؤرخين أسماءهم ولا نعرف شيئاً عنهم إلاّ أن المقريزي أشار إلى أن عبد المجيد «كان كفيلاً لمنتظر في بطن أمه من أولاد الآمر». ولو صحت رواية المقريزي فإنه لجائز أن الأولاد كانوا أناثاً، ولكننا لا نعرف عنهنّ شيئاً؛ ويجوز أن الأولاد كانوا ذكوراً. وليس الأمر بعيداً لأن الآمر كان كمثله من خلفاء المسلمين وأمراء المؤمنين لم يقتصر على زوجة واحدة. وإننا نعتقد أن الأمير عبد المجيد كان كفيلاً للطيب، لا لمنتظر من أولاد الآمر. وذلك لأن المقريزي ليس دقيقاً دائماً في تسجيل الحوادث.

ولم نعثر في كتب الدعوة التي تحت أيدينا ما يثبت أن الصليحيين قالوا إن السيدة الملكة الحرة كانت كفيلة الطيب وأنها سترته. ولم يذكر صديقنا المحقق مصادره. ولقد روى مؤرخو الدعوة اليمنية معلومات هامة عن هيئة الدعاة الذين كُلِّفوا كفالته وستره، وعما لاقوا في هذا السبيل من القتل على أيدي الوزير أبي علي بن الأفضل الذي أظهر مذهب أهل السنة بعد أن أقام الدعوة للخليفة المزعوم أبي القاسم المنتظر القائم في آخر الزمان المهدي. وليس هناك تناقض بين كفالة ابن عم الآمر الأمير عبد المجيد بن محمد بن المستنصر لخلافة الطيب وبين كفالة الدعاة لإمامته. فقد وجد الأمير بعد خروجه من المعتقل أن الدعاة قد قتلوا، وأن الطيب قد استتر في فترة اعتقاله في السجن؛ ومن المحتمل أنه لم يكن يعرف ملجأه ولا مثواه، فأصبح طريقه إلى الخلافة ممهدة، وأظهر الخلافة والإمامة معاً لنفسه، مع أن هذا العمل ينافي مبدأ الإمامة منذ الفاطميين ويردها إلى القهقرى.

وقد ذكرنا فيما سبق ما قال ابن الفرات عن الآمرية في الشام واليمن والطيب بن الآمر، ولكننا اعتمدنا في تأييد وجهة نظرنا على سجل الآمر نفسه وعلى تسجيل المؤرخ المعاصر القاضي الفقيه عمارة اليمني، وبين هذا وذاك أوردنا تفاصيل ذكرها علماء اليمن.

هذا من الناحية التاريخية. وأما بقية الاعتراض فنقول إن الصليحيين كما أوضحنا لم يخفوا الطيب بل الدعاة في مصر أخفوه. وإن سلطان الصليحيين في أواخر عهد السيدة الملكة الحرة أخذ في الزوال، ولم يبقَ في دولتها إلّا بعض الحصون والمعاقل، وانقرض أمرهم بعد وفاتها. ونسب الأستاذ العليم إلى الصليحيين وإلى ذكاء الملكة ودهائها وضع قصة الآمر هذه «على أن تجمع في يدها السلطتين السياسية والدينية إلى أن تقول بأنها كافل الإمام المستور وحجته الكبرى» إلخ. إذا كانت مملكتها في أواخر عهدها أخذت تنهار، فإننا نرى أن قبولها دعوة الخليفة الحافظ عبد المجيد يساعدها على استرجاع بعض نفوذها وفي تقوية سلطتها السياسية إلى حدٍّ كبير، لأن الفاطميين في أيام الحافظ عبد المجيد كانوا لا يزالون يملكون أمبراطورية قوية الجوانب. وكان الملك سبا الزريعي استطاع أن يوطِّد مركزه في اليمن الأسفل بفضل مساعدات الخليفة الحافظ وسفيره المقيم باليمن. ولكنها لم تفعل هذا، بل رفضت دعوة الحافظ، وهي تعرف أنها تخسر صداقة دولة قوية، وتعرف أن ما بقي من مملكة الصليحيين تنتهي بعد موتها إذا لم تكسب حلفاء أقوياء، وبقيت الملكة تحافظ على ولائها للإمام الطيب ودعوته والأئمة الفاطميين من قبله، وتقول: «حسب بني الصليحي ما علموه من أمر مولانا الطيب» كما رواه عمارة اليمني. فهذا يدل على أنها لم تكن ترمي إلى هدف سياسي لما فصلت دعوة اليمن من الخلافة المصرية.

وقد عرفنا من المصادر التاريخية أن ملكتنا السيدة الحرة كانت امرأة كسائر النساء إلّا أنها امتازت بعلمها وفضلها وتقواها وعبادتها حتى فاقت الرجال، وأنه لم ينسب إليها الكذب والخديعة والغدر والخيانة وما شاكلها من الرذائل. ومن الطبيعي أن سيدة عظيمة كهذه يكون لها ولأمرها أولياء ومؤمنون

يحبونها إلى درجة العبادة، ويكون لها أعداء يريدون القضاء عليها وعلى أمرها. أضف إلى ذلك أنها كانت ترأس مجتمعاً يتمتع بقسط كبير من السؤدد والنسب والإباء والشرف والحرية حتى سميت باسم «سيدة ملوك العرب». وكان في هذا المجتمع سلاطين بني الصليحي وحولان ويام وهمدان واليعابر ذوو بأس وشهامة، وبالرغم من ولائهم للملكة كانوا يعارضون أحياناً خططها السياسية والحربية، كما شاهدنا في معارضتهم للأمير ابن نجيب الدولة مستشار الملكة المصري، وفي قول السلطانين الخولانيين ابني الزر شامتين في سقوط المستشار المصري ونصرتها له: «صدق الفقيه في قوله: قال عبد الله بن عباس: كنا ندخل نسمع الحديث من عائشة، فلا نخرج حتى نعلم أنها امرأة». وكان في هذا المجتمع اليمني علماء ومفكرون امتازوا عن غيرهم بمعارفهم الواسعة وتفكيرهم وخبرتهم بأحوال الناس أمثال الشيخ يحيى بن لمك الحمادي والحبر الذؤيب بن موسى الوادعي والسلطان الخطاب الحجوري والشيخ إبراهيم الحامدي وعلماء آل الوليد العبشمي. فإنا نستبعد أن إمرأة مهما بلغت في الدهاء والذكاء تستطيع أن تخدع مثل هذا المجتمع بأسره. وفي كل زمان. ولم نسمع أن أحداً من هؤلاء السلاطين والملوك والزعماء والمشايخ والعلماء احتج أو أشار إلى اختراعها هذه «القصة». ولم نسمع أن ملوك بني حاتم اليامين الهمدانيين الذين تحرّروا من اختلاف المذاهب وانفصلوا عن الدعوة الفاطمية، أو السلطانين الخولانيين سليمان وعمران ابني الزر اللذين اشتهرا بمعارضتهما للملكة ومستشارها المصري، أو السلطان سبا بن أبي السعود ابن زريع الجشمي صاحب عدن الذي استماله سفير مصر القاضي الرشيد أبو الحسن أحمد بن علي الغساني الأسواني[1] إلى دعوة الخليفة الحافظ عبد المجيد، أو السفير المصري نفسه الذي كان يحارب الملكة ودعوتها إلى الطيب بن الآمر بماله وعلمه،

---

(١) هو أبو الحسن أحمد بن علي بن محمد بن الحسين بن الزبير الغساني الأسواني. وكان من أهل الفضل والنباهة والرياسة، كما كان أوحد عصره في الفقه والرياضيات والهندسة. وله كتاب «الجنان ورياض الأذهان». وقد قال الجندي: «إنه قدم اليمن رسولاً من صاحب الديار المصرية الحافظ، وأقام فيها مدة وانتفع به وبعلمه كثير من أهل اليمن»(بامخرمة: ثغر عدن ٢ / ٤٠).

أو غيرهم تكلموا أنها أو الصليحيين وضعوا قصة الطيب هذه.

وقد حاول الأمير عبد المجيد (الخليفة الحافظ) بعد اختفاء الإمام الطيب أن يتصل بالملكة الحرة، فراسلها ليستميلها إلى قبول خلافته، وإعلان ولائها لشخصه، ولكنه أخفق في جميع محاولاته. وفي ذلك يقول إدريس[1]: «. . وكان عبد المجيد يكاتب الحرة الملكة ابنة أحمد حجة الأئمة في الجزيرة اليمنية ذات الرتبة السنية، من ولي عهد المسلمين وابن عم أمير المؤمنين»، ثم كتب إليها: «من أمير المؤمنين» فقالت: «أنا أروى ابنة أحمد، بالأمس ولي عهد المسلمين، واليوم أمير المؤمنين. لقد جرى في غير ميدانه، وادَّعى أمراً يبعد عن مكانه». وأعلمت أهل دعوتها أنه قد نكث عهده وخالف رشده، وادَّعى ما ادّعاه الظالمون من قبله، وارتقى لمقام ليس من أهله.

ولما عجز عن استمالتها أرسل القاضي الرشيد داعياً له باليمن، فاستطاع استمالة بعض السلاطين بالوعود والمال. ولم تقف عرقلة الحافظ للدعوة اليمنية عند هذا الحد، بل اتصل ببني زريع[2] في عدن واستعان بهم في نشر الدعوة باسمه. وكان القائم منهم في هذا الوقت هو سبا بن أبي السعود بن زريع الجشمي الهمداني، الذي نصبه داعياً له في اليمن. ويقول إدريس[3]: «وكان السلطان سبا بن أبي السعود يظهر الدعوة إلى الحافظ. . . وقد ذكر أنه لم يُجب عبد المجيد ويدع إليه إلاَّ تقية وخوفاً. . . فخاف سطوته وصولته وعدوانه، وإنه كان باقياً على طاعة الإمام الطيب» فاستاءت الملكة الحرة من عمل عبد المجيد هذا، وفي ذلك يقول صاحب الأنباء[4]: «إنه وصل العلم بقتل الخليفة الآمر سنة **٥٢٤** بمصر

(١) عيون ٧ / ٢٠٧.

(٢) هم رؤساء همدان وهم من جشم ثم من يام بن أصبا. وكان لجدهم زريع بن العباس جهاد واجتهاد في قيام الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن في عهد الملك علي بن محمد الصليحي وابنه المكرم، وإليهم يرجع الفضل في مساعدتهم ضد الدولة النجاحية. ثم ظلوا على ولائهم للدعوة المستعلية بعد وفاة المستنصر (راجع بامخرمة: ثغر عدن ٤٠).

(٣) عيون ٧ / ٢٠٤.

(٤) أنباء / دار ٤٧.

وقيام الحافظ بعده، فأضافت السيدة دعوته إلى الزريعيين». ويقول صاحب العيون: «ورأت أن الإمساك عنه، والإغضاء أجدر، ولم تظهر الإنكار عليه، تقية من السلطان عبد المجيد. . على دينها، ورعاية لأهل دعوتها ومملكتها وأهلها»[١].

فإذا كانت الملكة الحرة هي التي اخترعت أسطورة الطيب، فلماذا لم ينتهز القاضي الرشيد فرصة وجوده في اليمن ليبين حقيقة هذه الأسطورة، فيسهل عليه المهمة التي أرسل من أجلها؟ ولماذا لم يرسل الحافظ لسلاطين اليمن ـ الناقمين منهم على الملكة ـ ليفهمهم مبلغ تجرؤ الملكة على مقام الإمامة؟ ولماذا سكت المؤرخون اليمنيون المعروفون بكرههم للفاطميين والصليحيين عن هذه الأسطورة؟.

ومهما يكن من أمر، فإن مجهود الحافظ عبد المجيد وسفيره باليمن قد نجح إلى حدٍّ ما، فضعفت الدعوة الطيبية، وتفككت أوصال الدعوة الصليحية بسبب هذه المناورات والخلافات.

وليس من المعقول أن الملكة السيدة تخدع الناس كلهم وتخدع نفسها في أواخر أيام حياتها. وذلك لأن الإمامة مسألة لها خَطَر وقداسة عند جميع فرق الشيعة. ومما لا شك فيه أنها كانت تؤمن إيماناً صادقاً مخلصاً بوجود إمامها المستور، بل تعلم هي وبعض أوليائها مثوى الإمام ومقامه، كما هو ظاهر في نص وصيتها[٢].

استقلال دعوة اليمن عن مصر

ثم إن دولة الصليحيين لم تكن في يوم من الأيام تابعة سياسياً للدولة الفاطمية، بل إنَّ حبّهم وإخلاصهم لمذهبهم الديني هو الذي جعلهم يفرضون على أنفسهم تبعيتهم المذهبية للفاطميين. ولم نرَ طوال مدة حكم الصليحيين أن الخلفاء الفاطميين تدخلوا سياسياً في شئون هذه الدولة. وعلى ذلك فالملكة الحرة ومن سبقها من

---

(١) عيون ٧ / ٢٠٥.

(٢) عيون ٧ / ٢٠٩ ـ ٢١٨؛ انظر الملحق رقم ٩.

سلاطين الصليحيين كانوا مستقلين سياسياً ببلادهم، ولكن ولاءهم للأئمة الفاطميين في مصر يجعلهم يخضعون لرغبات أئمتهم صاغراً وكابراً.

أما فصل الدعوة اليمنية عن الدعوة الفاطمية باسم الدعوة الطيبية، فلم يكن الغرض منه كذلك هو الاستقلال الديني. ولم تكن الدعوة الطيبية دعوة جديدة، كما يقول صديقنا الفاضل، وإن كان هناك بعض الفوارق، لأنه هو نفسه عاد، فقال: «... إنَّ آراء الفاطميين في التوحيد هي نفس آراء الدعوة الطيبية». ثم قال في مكان آخر: «.. فالعبادتان الظاهرة والباطنة هما أسس المذهب الفاطمي، وعنهم أخذ الصليحيون هذه الأسس لم يغيروا فيها شيئاً». فثبت أن دعوة اليمن بالرغم من أنها انفصلت عن الخلافة الفاطمية القائمة في مصر سياسياً بقيت مستمرة في عقائدها ومحتفظة بآدابها على ما كانت عليه الدعوة الرسمية في مصر.

وكانت الملكة الحرة حجة إمامها الفاطمي في الجزيرة اليمنية، فلذلك كانت تتمتع بقسط كبير من السلطان المطلق في أمور الدعوة حتى قبل انفصال الجزيرة عن مركزها الرئيسيّ بالقاهرة. وقد نصبت الملكة الذؤيب بن موسى الوادعي في حد «الداعي المطلق»، فأصبح مركزه بذلك عظيماً، لأنه ينوب عن حجة الإمام بل عن الإمام نفسه. وأصبح هو المصدر الذي تستقى منه علوم الدعوة، فلا نجد داعياً من الدعاة يكتب في التأويل إلاَّ بعد الرجوع إليه، بعد أن كان هذا مباحاً لعلماء الدعاة في دور الظهور، وبعد أن كان باب الاجتهاد مفتوحاً كذلك لهم بإذن الإمام وحججه. وأما الآن (دور الستر) فلا يسمح لأحد إلاَّ بدراسة علوم الدعوة وجمعها وتنقيحها، وذلك أيضاً بإذن الداعي المطلق.

السلطان الخطاب بن الحسن الحجوري

عاضد الداعي الذؤيب بن موسى الوادعي في إقامة الدعوة مأذونه السلطان

الخطاب بن الحسن بن أبي الحفاظ الحجوري[1] الهمداني، ومركزه في الدعوة يلي الداعي المطلق الذؤيب. وفيهما قال إدريس[2] «وهما في العلم مناره وعلمه الذي لا تخبو ناره» وقال أيضاً[3]: «وكان الخطاب بن حسن أخا الملكة من الرضاع - ذا منزلة جليلة، وهو أرفع الدعاة بعد الداعي الذؤيب بن موسى، وعاضده في إقامة الدعوة الآمرية والطيبية في أوان الحرة الملكة السيدة الصليحية وبعد وفاتها؛ وكانت له عندها مزية جليلة ومرتبة وفضيلة. وهو من دعاة أيام الظهور والستر». وكان الخطاب معروفاً بالفضل والعلم والشعر والحكمة، وبالبأس عند الشدائد والإقحام في الحروب، وبالورع والزهد، وبالملك والسّؤدد[4].

وقال بامخرمة وإدريس نقلاً عن صاحب المفيد[5]: «ومن شعراء اليمن المجيدين الخطاب بن الحسن بن أبي الحفاظ» وله ديوان شعر[6]، فهو من الشعراء المعروفين في اليمن. وقد شاركه أخوه الأكبر سليمان بن الحسن الحجوري في هذه

---

(١) حجور حي من همدان، وهم ولد حجور بن أسلم بن عليان بن زيد بن عريب بن جشم بن حاشد. وحجور حي عظيم باليمن والشام والعراق يقارب نصف حاشد. ومنهم بنو الصليحي ببيت الأخروج، وهم من بني عبيد بن أوام بن حجور (هامش العيون ٧ / ٢٢٢؛ إكليل ١٠ / ٩٧ - ٩٩) والخطاب من ولد حريث بن شراحيل ثم من ولد موله بن حجور ثم من قدم من ولد عليان بن زيد بن عريب بن جشم بن حاشد. ابن حبران بن نوف بن همدان (إكليل ١٠ / ٩٧ - ٩٩؛ عيون ٧ / ٢٢٢؛ نزهة ١ / ٨٦) وذكر أبو محمد الهمداني في صفة ١١٣ بلاد حجور من جبال حاشد، وقال حجور أربعون ألفاً. وفي إنتسابه إلى حجور يقول الخطاب (د. الخطاب ١١١).

قومي حجور جناح لي أطير به ... وأهل عزمي من دون الورى قدم
لا يبدلون لرسم حين أرسمه ... ولا أبدل رسماً غير ما رسموا

(٢) عيون ٧ / ٢٢٢.

(٣) نفسه ٧ / ٢٢٦.

(٤) وذكر إدريس (٧ / ٢٢٤) نقلاً عن عمارة اليمن في كتابه المسمى بأنموذج ملوك اليمن ما يوصف من أحكام السلطان الخطاب صاحب مدينة الجريب وفطنته وذكائه في معرفة القضايا التي كانت ترفع إليه.

(٥) بامخرمة: قلادة النحر ٣ / ٢ ورقة ٦٣٥ - ٦٣٦؛ عيون ٧ / ٢٢٢. والظاهر هو كتاب المفيد لعمارة.

(٦) مخطوط ديوان الخطاب محفوظ بالمكتبة المحمدية الهمدانية. وسنذكر مصنفاته في الباب العاشر.

الناحية الفنية. وقال إدريس[1]: «إن ديوان سليمان معروف جيداً ولا يزال موجوداً»[2]. وقال إدريس[3] نقلاً عن مؤلف ديوانهما: «إن الخطاب وسليمان كانت لهما معرفة قوية حتى عرفا باسم (مِقْوَلَيْ قحطان)؛ وأجيز لسليمان في ست مئة كتاب قراءة، ولأخيه الخطاب في أربع مئة، وركب سليمان أيامه في ثلاث مئة فارس، وركب الخطاب أيامه في خمس مئة فارس».

ومعظم قصائد الخطاب كانت في مدح آل بيت الرسول والأئمة، وفي الحكم والحقائق، وفي الرد على المعترضين على الدعوة، والمفاخرة. ولم يمدح أحداً من معاصريه إلاّ الحرة الملكة ابنة أحمد «وصاحب الرتبة السابق» (ولم يذكر اسمه)، وهذا على سبيل الاعتراف بالجميل وتلقي العلم. ولعله يريد بالسابق الذؤيب بن موسى الوادعي.

ونورد هنا بعض الأبيات التي تشفّ عن أسلوبه في الشعر، وولائه للملكة الحرة وللأئمة الفاطميين بمصر، وعقيدته في النظام الفكري الفاطمي، وإخلاصه وحماسته للدفاع عن حوزة الدولة الصليحية، والتي تلقي ضوءاً على شخصيته الفذة، فلنقتصف من غرّ قصائده الأبيات الآتية[4]. قال:

مَلِلْتُ بـدار الحِسِّ طولَ ثَـوائي ... وسجني وتعـذيبي بهـا وبـلائي

وجَمْـعَ لـطيفي بـالكثيف ولَـزَّه ... إليـه لإشقـائي وطـول عنـائي

ومـا لي سِـوى فـوز المَعَـاد إرادة ... وخلْعي من الأجسام كـلّ غِشـاء

لَعَليِّ بـدار القدس أرجـع كالـذي ... وجـدت بـه مـن عـزّة وعـلاء

---

(١) عيون ٧/ ٢٢٣.

(٢) ذكر الأصبهاني في خريدة القصر (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٣٣٢٩ ورقة ٢٧٥) سليمان بن أبي الحفاظ من شعراء اليمن؛ وأورد بيتين من شعره:

كـنتـم تمنـون ريحـاً أن يهب. لـكـم ... من النـسيـم ولـو يـومـين تـتـصـل

فـجـاءكـم مـثـل مـا عـاد بـه هـبـلت ... من الـعـقـيـم الـتي عـاد بهـا هـلـكـوا

وقد بحثنا عن ديوان سليمان بدون جدوى.

(٣) عيون ٧ / ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٤) وقد لخص ستروطمان في Miscellany ١٣٨ - ١٣٩ موضوعات هذه القصيدة.

لألاء نـور واقتـدار وغنيـة ... ومحض جـلال بـاهـر وسنـاء
حننت إلى تلك المقامات والتظى ... فؤادي بحرِّ الشوق والبُرَحَاءِ
أرى الموت جسْراً والأحبّة خلفَهُ ... وعـابـرَه من أسعـد السُّعَداء
وهل يكره المـوت امرؤٌ متعلّق ... بعـروة إخلاص وحبـل ولاء
غدا راضياً في كـلّ أمرٍ مسلِّـما ... لمـولاه دينا ليس فيـه يُـرائي
مَحَضْت لإخواني صريح نصيحة ... تعـرِّفهـم أني من النصحـاء
وأودعتها روحاً من القدس ساريا ... إلى كـلّ داء منهـم بشفـاء
وذلك أنيِّ قد بلَوْت فلم أجـدْ ... مـذاهب هذا الخلق غير هباء
سـراب كـما قـال الإلـه بقيعـةٍ ... تـراءى لقـوم مُضْحِرين ظِـماء
ولا شيء إلاّ مـا علقتم بحبله ... وعـروتـه للعتـرة النجبـاء
ألا واغسلوا من كلّ حقد قلوبكم ... عليكم فـداءُ الحقد أخبث داء
ولاَ تجعلوهـا للحقـود أوانيـا ... فـإنّ إناء الحقـد شَـرُّ إنـاء
وإيّاكُم والكبـرَ والحسد اللذَيْـ ... ـن هَدَّا من الإيمان كـلّ بناءِ
دعوه وسوءَ الخلق والعجب أنها ... خـلائق أعـداء لكـم لُعَنَـاءِ
فلا تستهينوا بـالحدود وعـظّموا ... مقـامات تلك الصفـوة العظماءِ
تَلقَّوْا بحسن السمع والطوع أمرهم ... بما جـاءكم لـو جـاءكم بفَنَـاءِ
ولا تسألوا لم ذاك، وارضَوا وسلّموا ... بغـير اعتـراض منكُم ومـراءِ
فتلك صفـات المؤمنين وسَمْتهم ... وسـيـرتهم نـقـلاً عن العلماءِ
ورائي لكم أن لا تُـخِلّوا بشرطها ... إذا كنتُمُ ممّن يُصـوِّب رائي[1]
بذلت لكم نصح الأمـين لأنني ... على كلّ خُلْصانٍ من النصحاءِ
فمن شاء فليأخذْ ومن شاء فلْيَدَعْ ... نصـائح لم تبـذل لأخـذ كِفـاء

---

(١) رائي: رأيي.

ولا طلباً للشكر من آخِذٍ بها | ولا الذكر لي أني من الفصحاء
لَـحَبت بها المطموس من سبل الهدى | لحيـران في تيه الضـلالة نـائي
وأيْقظتُ من نوم الجهالة أنفساً | إن استيقظت لي أنفس الجهلاء
عسى تنجلي منهنّ نفسٌ صدية | بصقلي وتهـذيبي بهـا وجِـلائِي
فيصبـغ إكسيـري مهيّــأ ذاتهـا | صِبـاغاً بـه تضحى من البلغاء
وتخلص من سجن الهيولى الذي غدَت | بـظلمـائهــا في جملة السجنـاء
ولن يدرك الحال الذي أنا واصفٌ | فتىً ليس معـدوداً من العقـلاء
أريد به عقـل المعارف، لم أرد | به عقل طَبْـعٍ ذا عَمىً وغَياء
شبيهـاً بعقـل في البهـائم همُّهُ | دفــاعُ مضـرٍّ واجتــلاب غنـاء
فمن كان مهتزاً لمـا أنا واصفٌ | بــه فلْيــلازم سنّــة الفضــلاء
ولا يعتمد خرق الشريعة تابعاً | بـذلـك أضـداداً من القـدمـاء
وسمَّوْه ديناً عندهم وادّعوا بـه | مقـامـاً وشــدّوا أيـديـاً بهـواء
وأوَّلَ كــلٌّ مـنهُـمُ بـقيــاســه | لـه من كتـاب الله عِــدّة آيِ
ألا كل من هذا السبيلُ سبيلُه | فـإنّي لـه من أبغض البغضــاء
وقالوا كذا قول الأئمة واعتزوا | إلـيهـم بمكْـر مـنهـم ودهــاء
لقد قال إفكاً في الذي قال عنهم | وزوراً مبيـحــاً منهـم لــدمــاء
وأجفل عنهم ذا السواد الذي غدا | كمهمـل مَعْز في الغـلاء وشـاء
به امتدّت الأيدي إليهم وأصبحت | رعــايــاهم في جملة النـظراء
نـوافر من راعٍ شفيق يصـونها | فتضحى وتمسي في كَـلاً وكِلاء
ويوردها العذبَ الفرات وشربها | أمـين ويسقيهـا بحــوض رَواءِ
ومـا يتّقي بطشَ السبـاع رعيّة | تشيــع من أشيـاعـه بـرِعـاء

وما ذاك إلاّ زُبْدٌ مخضهم الذي ... له مَخَضوا في الكفر شرّ سقاء
أباليس من نسل ابن مرّة أصلهم ... تسمّوا لمن كادوه بالخلفاء
عليهم شعار المؤمنين وسَمْتهم ... وسيماء قوم جِلّةٍ حُلَماء
أضلّوا بما جاءوا فريقيْ غوايةٍ ... وأدلوهم فيها بغير رشاءِ
فريقاً نحا ما قد نحوه مقلّداً ... عقول أولاك السادة الكبراء
وثانٍ رماهم والإمام الذي اعتزوا ... إليه من الفحشا بكلّ خَناء
وأصبح من يدعو إليه لديهم ... تهيماً بهم من حملة التهماء
تبادره الدهماء في كلّ مشهدٍ ... وترميه من شَتم بكلّ بَذاء
حلفت بمولاي الذي كفروا به ... وهم مُدّعو نصح له وصفاء
لأنهم بالقتل من كلّ حيّةٍ ... أحق ولا كانوا من الشهداء

وقال يخاطب أهل الدعوة في أنحاء اليمن[1]:

أبلغا لي تحيّتي واغنيا الشكـ ... ـر كثيراً يا أيّها الراكبانِ
مَنْ ثوى ساكناً بصَنْعاء فالبَوْ ... نِ فما بينها إلى نَجْرانِ
فإلى حازٍ فالبوادي فعِزًّا ... نِ فعالي الذُّراءِ من كَوْكَبانِ
فَشِبَام فمَسْوَر فإلى الغَرْ ... بِ [فـ] ـمن حمير ومن همدانِ
مؤمنيها خُصًّا ذوي الاعتقادا ... تَ التي لا تزول والأديانِ
كلّ صافي اليقين مُوفٍ بما عا ... هَدَ لله مخلص الإيمانِ
صَفْو صفو الأفلاك لبّ الهيولىَ ... من قديمٍ وزبدة الأزمانِ
أنْ سلامٌ عليكُم أولياءَ اللّـ ... ـهِ حقاً يا شيعة الرحمنِ
هل أتاكم ما كان مني من الكشـ ... ـف لأهل الضلال والطغيانَ

---

(١) د. الخطاب ١٠٥ - ١٠٧.

وقيــامي بــدعــوة الآمــر المنـ ـصور جهراً في موضعي ومكاني
فنفـيت الأصنام والـجِبْت والطا غـوت عنهـا وســائـر الأوثــانِ

وأيضاً يذكر ما أقام من الدعوة إلى الآمر بأحكام الله الفاطمي وإقامة الخطبة له وباسمه وضرب السكة حيث يقول[1]:

حـرامٌ عليّ النـوم غير غِـراري يلمّ بجفني بعـد طـول نفــارِ
وأظهـر أعلام الهـدى مستـطيلةً أشعــة أقمـار بهــا ودراري[2]
وأظهـر للمنصور مـولاي دعوةً مــوطّــدة في مسكني وقــراري
وأعلنهــا كشْفــاً بغــير تســتّر وأكشفهــا جهـراً بغــير ســرارِ
أمـثــلي يلهيــه فيـلهــو بلذّة تــرنّـم أوتــار وشــرب عُقــارِ
ويرضى بما يرضى به من معيشة من النـاس في دنياه كـلُّ حمارِ
فمن مُبلغ مـولاتنـا ابنـة أحمـدٍ نهايتيَ القُصْوى وقطب مـداري
ســلامي وإلمـامي وزاكي تحيتي وإن بعدت داري وشطّ مزاري
أمـولاتنا حقّت لـديك نصيحتي حقيقـة علم ليس فيـه تمــاري
وما كان من كشفي القناع لمذهبي جهاراً فلم أخش العدا فأداري
خطبت لمولانـا وأظهرت سكـةً عليها اسمه طارت بكل مـطارِ
لدى معشر حبل الضلالة عندهم مغـار وحبل الـدين غـير مغـارِ
وفارقت أولادي وأهلي وما حوت جميعـاً يـدي من فضّـة ونُضـارِ
ورُمت رضـا المنصور فيـها أتيته إذا فارقَتْ درّى قشورُ صُحارِ[3]

---

(١) لا توجد هذه القصيدة في نسخة ديوانه الموجودة في مكتبتنا المحمدية الهمدانية، فنقلنا هذه الأبيات من عيون ٧ / ٢٢٦ ـ ٢٢٧.
(٢) وفي رواية: مستطيرة أشعة اقمار لها البيت.
(٣) صحار، بلد في أرض حجور في سراة المصانع (صفة ٦٩ و٧٢).

فهل لي يا مولاتنا منك عاضد	معين به يضحى زنادي واري
أمولاتنا لا تتركيني بقفزة	وحيداً لأعدائي تروم دَماري
وقومي بأمري والحظيني بلحظة	فلَحْظك غادٍ بالسعادة جاري
ولي غرض لا بدّ لي من مناله	بلا رقبة مني ولا بحذارِ
سأمضي لها عزمي فإمّا منيّة	تحين بفكّ مِن وَثاق أساري
وأنْ لا عَلَتْ بي دعوة آمريّة	بها وإليها نسبتي وشعاري

الحرب بين الخطاب وإخوته

وكان الخطاب يسكن مع إخوته في مدينة الجريب[1]. وبعد وفاة أبيه حدث نزاع بينه وبين أخيه الأكبر سليمان الشاعر، أدّى إلى قيام حرب بينهما دامت مدة طويلة من سني الخمس مئة إلى أربع عشرة وخمس مئة. فغلب الخطاب على الأمر وجعل الجريب مسكنه ومقر مملكته. ويذكر إدريس[2] نقلاً عن مؤلف ديوانها أن «سليمان ركب أيامه في ثلاث مئة فارس، وركب الخطاب أيامه في خمس مئة فارس. وانتزح عنه سليمان إلى قومه من حجور بني أفلح بالعَرِق[3]، ثم إلى الأمير أبي الغارات علي بن يحيى بن حمزة بن وهاس السلماني بالساعد[4]، ثم إلى الحبشة آل نجاح بزبيد وإلى قوّادهم الفواتك مفلح ومنصور بن مفلح ومنّ الله وإسحاق بن مرزوق وأبي محمد سرور وأحمد بن مسعود الجزلي، فجيش مستنصراً بهم على أخيه، فاستغار بغارات عليه». ولكنه لم يتمكن من أخذ البلد الجريب، لأن الخطاب تعلق بآل الصليحي بذي جبلة أيام الحرة الملكة السيدة ابنة أحمد.

---

(١) عيون ٧ / ٢٢٢: الحريث. والصواب الجريب كما جاء في د. الخطاب ونزهة ١ / ٨٦. وهو بلد في سراة قدم وسوقهم الأعظم يتسوقه يوم وعده ما يزيد على عشرة آلاف إنسان؛ والجريب من بلاد حجور هي سوق لأهل تهامة وعثر وجميع بلد همدان كما ذكرها أبو محمد الهمداني في صفة ٦٩ و١١٣.

(٢) عيون ٧ / ٢٢٤.

(٣) كذا في عيون ٧ / ٢٢٣. وفي صفة ٦٩ و١١٣: العرقة بلد في سراة قدم.

(٤) سبق أن ذكرنا نسب الأشراف السليمانيين الفاطميين بتهامة عير في ص ١٥٢.

وأخيراً تمكن الخطاب من سليمان فقتله غيلة، رماه بحربة تسمى المريحة، ولبث في الأمر بعده وبعد قتل أخيه أحمد بن الحسن[1]. وكان أحمد بن الحسن «قد قتل أختهما جميعاً ظلماً وعدواناً؛ وكانت امرأة مؤمنة صالحة»[2]. فيدل قول إدريس على أنها كانت تميل إلى الدعوة وتنتسب إلى حزب أخيها السلطان الخطاب، فلذلك قتلها أخوها أحمد بن الحسن. ويظهر أيضاً أن أحمد بن الحسن احتضنه أخوهما الأكبر سليمان لا لحبه، بل لبغض الخطاب. وذلك «ذنبه الذي فرق بينه وبين أخيه سليمان»[3] وأدّى هذا النزاع إلى الحرب بين الخطاب وإخوته وطرده إياهم من مقر مملكة أبيهم السلطان الحسن بن أبي الحفاظ الحجوري ـ الجريب. وهناك سبب آخر أكثر خطورة من قتل أختهم الحرّة البرّة. وهو انتساب السلطان الخطاب إلى الدعوة وحماسه في تدعيمها ونشرها في اليمن. وفسر صاحب العيون حربه لإخوته قائلاً[4]: «إنهم كانوا مخالفين له في المذهب والسيرة، مباينين للدولة الصليحية مناصبين لها، كثيري البغي على الخطاب». وقد تفاقم الخلاف بين الإخوة بسبب التجاء سليمان إلى أعداء الدولة الصليحية وخصوصاً الألد منهم آل نجاح بزبيد. ومع ذلك كان الخطاب متألماً بهذا النزاع الدموي بينه وبين من يربطه الرحم حيث يقول متضرعاً إلى الله[5]:

يـا مـن رضيـتُ مسـلِّماً	لقضـائه ورضيت حُكمـهْ
وعـلمـت أنّ جمـيـع مـا	يـأتي بـه عـدلٌ وحِكْمَـهْ
مـولايَ كـم مـن نـعـمـة	أوْليتَـني في زيِّ نِـقـمَـهْ
فـافْـرُج يمنـك عن وليّـ	ـك مُسرِعاً ما قد أغمَّـهْ

---

(١) عيون ٧ / ٢٢٣.
(٢) نزهة ١ / ٨٧.
(٣) نفسه.
(٤) عيون ٧ / ٢٢٦.
(٥) د. الخطاب ١١٨ ـ ١٢٠.

وارْحـمْ تـضـرّعَـه ونـفِّـ سْ كَـرْبَـه عنـه وغَمّـهْ
وانـصـرْه نصـراً يسـتـقيـ ـد من العدا عاصي الأزمَّةْ
وأدلِـهْ مـنهـم إنّهم أعـداءُ غَـدْرٍ لـلأئمَّـه[1]
لا يحـفـظون لمـؤمـن عهـداً ولا يـرعَـون ذِمّـهْ
فـتـرى الـوليَّ بهـم حليـ ـف كـآبـةٍ وأخـا مهمَّـهْ
تـطوى محـامـده بهـم وتـشيِّـعُ الأبـحـاس ذمَّـه
لـو يـعـضـدون بـقـوة لتقـاسمـوا دَمَـهُ ولحمَـهْ[2]
لا يـنـظرون لـه وَشـيـ ـجَ قرابةٍ وأكيـدَ حـرْمَـهْ
قـد صـيّـروا إيمـانـه وولاءه لِـلّه جُـرْمَـهْ
فـتـألـبـوا غَـضْبـاً عـليـ ـه وأكثروا بالغيب رَجْمه[3]
ورَمَـوه عن قـوس العـدَا وَة طـالبين بـذاك ظُلمَـهْ
متنـاصـريـن عليـه يُـطْـ ـلق كلهم بـالكيـد سهمـهْ
فـإليك يـا مـولايَ يَـدْ عـو رافعـاً يـده ووَهْمَـهْ
مـتـوسـلاً بمـن ارْتـضَـيْـ ـت من الهداة المستئمة[4]

فنرى أن السبب الحقيقي الذي أدّى إلى الحرب بين الإخوة كان النزاع حول «إرمهم» الجريب عاصمة بلاد أبيهم السلطان الحسن بن أبي الحفاظ الحجوري.

أقسمت بالله رب الناس كلهمُ أن الجـريب لمشكـالٌ لسـاكنهـا
لكننا قد نراها أنها «إرمُ»[5]

وقد اشتدّ الخلاف كما ذكرنا آنفاً بمقتل أختهم الصالحة، ثم بالتجائهم إما إلى الصليحيين أو إلى النجاحيين، فصار الخلاف سياسياً: ثم أخذ

(١) هامش الديوان: أداله الله من عدوه أي جعل له الدولة عليه.
(٢) في رواية: لم يعضدوه بقوة.
(٣) تألبوا عليه أي اجتمعوا عليه
(٤) المستئمة أي الداعية إلى الأئمة.
(٥) د. الخطاب ١١٣.

صبغة دينية، وقد تغالى الفريقان في حب الأباعد وبغض الأقارب. فيقول الخطاب مفتخراً بموالاته للأئمة[1]:

وأقصوا مناويهم ولو كان والداً ... أو ابْناً وخصُّوه بكلّ جفاء
ووالوا مواليهم بصَفْو محبَّةٍ ... ولو أنه من أبعد البُعَدَاءِ

فهكذا نرى كثيراً من الحوادث في تاريخ اليمن ترجع إلى أسباب شخصية أو سياسية ثم تنتهي إلى التحزب المذهبي والتعصب الديني وتأليب المسلمين بعضهم على بعض. فيا حبذا لو اجتمع الأخوان سليمان والخطاب ـ مقولا قحطان ـ واتحدت قواهما وائتلفت مواهبهما في إعلاء كلمة قحطان!...

وقد انتصر الخطاب على إخوته وكان الانتصار في الحقيقة فشلاً وهزيمة. وأراد أن يتدارك بعض ما فاته من أهل بيته وصلة الرحم؛ فضم إليه أولاد أخيه سليمان وآواهم وقام بأمرهم ورباهم. فلما كبروا أطغاهم بعض الناس وذكروهم مقتل أبيهم سليمان وإدراك الثأر. ففتكوا به على غرة وقتلوه بمضجعه[2].

ووجدت بعد مقتله قصيدته الميمية[3] التي كان قد قالها وكتبها قبل وفاته، مطلعها:

الدهر يعتد ما يجري به القَلمُ[4] ... والمرء يلحقه النعماء والألَمُ[5]

ومنها:

يا أيّها الناطق الناهي يحذرني ... إنّ الحذير من المقدور مخترمُ
إن كان قد حلّ حقّاً ما أحاذره ... فليس لي من قضاء الله معتصمُ[6]

---

(١) د. الخطاب ٥١.

(٢) ولم يمت الخطاب في ميدان القتال، كما ذكره ستروطمان في Miscellany ١٣٦.

(٣) د. الخطاب ١١٠ ـ ١١٥؛ نزهة ١ / ٨٨ ـ ٩٠.

(٤) رواية نزهة ١ / ٨٨: يتبع ما يأتي به القلم.

(٥) كما في نزهة. ديوان: تحفظه.

(٦) نزهة: إن كان حقاً قضى ما كنت أحذره.

كم مُفسدٍ مردٍ لم يدر ذي مَرَح إلا وقد حلّ من بأسي به النقمُ
كم من أعاد ذَمرتَ الخيلَ نحوهم بكلّ أروع في عرنينه شَممُ[1]
حتى تركتهم والناس قولُهُمُ[2] كانوا وكان لهم عزّ له حَرَمُ[3]
فإن أصِرْ مثل ما قد صيرته يدي فالله أكبرُ وهْوَ العادل الحكَمُ
ولستُ أجزعُ من موتٍ على كرم وذاك أكرم شيءٍ فاسمه الكرمُ
أقسمت بالله ربِّ الناس كلهم باري الأنام ومن يُخشَى به القسمُ[4]
انّ الجريب لمشكالٌ لساكنها لكننا قد نراها أنها إرَمُ
هذا لآخِر منا من يحلّ بها[5] فسوف يبقى على أفعاله الندَمُ[6]
يا أيها الدهر كم تلهو بغرتنا أشكو إلى الله دهراً ليس يلتزمُ[7]
وهكذا الناس دنياهم تبددهم وهكذا قد مضى من قبلنا أمَمُ
ويذهبون شتيتاً في الورى مِزَقا بين البرية لا عُرْب ولا عَجَمُ

ويظهر أنه قال هٰذه القصيدة وكان ألمه أشد ما يكون بعد وفاة الملكة الحرة، وكانت هي قطب مداره، فوجد نفسه «وحيداً بقفزة لا تلحظه بلحظاتها ولا تقوم بأمره». وظل الخطاب يعاضد صاحب الرتبة السابق الذؤيب بن موسى الوادعي بعد وفاة الحرة الملكة في إقامة الدعوة حتى وافته المنية.

---

(١) ذمره الرجل أي حضه على الأمر ليجد فيه. وفي رواية: زممت الخيل نحوهم وكل أروع البيت. والأروع الشهم الذكي الفؤاد ومن يعجبك بجهارة منظره.
(٢) كما في نزهة. ديوان: حتى تركت يقول القائلون لهم.
(٣) نزهة: له كرم.
(٤) كما في نزهة. ديوان: باري النفوس يحيي به السقم.
(٥) نزهة: من يقيم بها وسوف يبكي البيت. وفي هامش نزهة: قوله قس لآخر منا من يقيم بها فصل فيه بين المضاف وهو قوله لآخر وبين المضاف إليه وهو قوله من يقيم بها، فصل بينهما بقوله منا.
(٦) نزهة: وسوف يبكي البيت.
(٧) كما في نزهة. ديوان: ليس ينصرم.

مآثر الملكة أروى الجليلة

وإذا كانت الدول الناهضة في العصر الحاضر تعمل على تنمية اقتصادياتها بشتى الوسائل، لإسعاد شعوبها وتوفير الرخاء لأكبر عدد من سكانها، ورفع مستوى المعيشة بين أفرادها، وهي بذلك لا تدع ناحية من نواحي الإنتاج إلا أَوْلتها عنايتها المرموقة لتصل إلى هدفها المنشود، فتهْتم بالزراعة والصناعة والتجارة والمواصلات. ويعتبر هذا العمل من قبل هذه الدول عملاً مشكوراً، كما يعتبر من أهم الأسباب التي تساعد على تقوية مركز الحكومات في نظر الرعايا. فإذا كان مدى تقدُّم الدول الآن يقاس بمقدار ما تقدِّمه الحكومات من إصلاحات في سبيل رفع مستوى المعيشة للشعوب، فإننا نقف معجبين عندما نعرف أن ملكتنا الحرة السيدة أروى بنت أحمد، قد سبقت الحكومات المتحضرة المعاصرة في اهتمامها لتنمية اقتصاديات اليمن، فقد اهتمت الملكة برعي المواشي وتحسين النسل لكي توفر للشعب بمختلف طبقاته اللحوم والألبان، بل توفر القوة والغنى. فقد أثر عنها أنها وقفت أراضي واسعة في نواحي جبلة وحقل قِتاب، تصرَف غلاتها في شراء الفحول من البقر كما أوقفت أراضي كثيرة ثمينة خصبة لرعي المواشي، وهذه الأوقاف لا تزال موجودة إلى الآن ومعروفة باسم «صلبة السيدة». حدث هذا في العصور الوسطى مما يدل على أن الملكة أروى سبقت في تفكيرها ووعيها دول العصر الحديث التي تعمل بشتى الوسائل على تنمية اقتصادياتها، وتصرف الأموال الطائلة في سبيل ذلك.

وشيء آخر لا يقل أهمية عما ذكرنا يدل على سبق ملكتنا في تفكيرها لعصرها، وهو الاستعانة بالمستشارين من الدول الأخرى، على الرغم من وجود شخصيات وزعماء وسلاطين ممتازين في بلادها. فقد أثر عنها أنها أرسلت إلى الخليفة الآمر تطلب منه إرسال أحد رجاله المشهود لهم بالكفاية والقدرة، وأجابها لذلك بأن أرسل إليها ابن نجيب الدولة[1]، وهذا ما تفعله الدول في العصر

---

(١) انظر ص ١٦٨.

الحديث، فتستعين بالخبراء الأجانب، على الرغم من توافر رجالها الممتازين وتقدمها في مضمار الحضارة.

وعرفت الملكة كذلك أن التجارة تعتبر مرفقاً هاماً من مرافق الاقتصاد الوطني، وأن هذا المرفق يعتمد على المواصلات التي تعتبر الدعامة الأولى لتسهيل نقل المتاجر، فعبدت الطريق من رأس جبل سمارة (نقيل صيد في عهدها) إلى السياني على مسافة ثلاثة مراحل. ويعتبر هذا أول الطرق الزراعية الممهدة في اليمن ومن أفيدها إلى الآن.

وأوْلَت الملكة عنايتها لحركة التعمير والبناء التي تعتبر دعامة قوية من دعائم استقرار الحكم ورضا الشعوب، فأنشأت الكثير من المدارس، ومنها مدرسة لتدريس الصحيحين بذي جبلة، وأنشأت المصالح العامة المتعددة. وبنت المساجد، فهي التي وسعت جامع صنعاء الجناح الشرقي منه وصححت عمارته وزينته، وأمرت أن يكتب فيه أسماء جميع الأئمة من علي بن أبي طالب إلى إمام عصرها وأثبتت ذلك في الحائط القبلي من المسجد الجامع، وكان اسمها مكتوباً على الأحجار البيضاء التي بين أبواب الجامع، ولكن العصبية لم تترك من الكتابة غير البسملة[1]، وأعيد بجص وأشراس في دولة الملك حاتم بن أحمد اليامي الهمداني ثم كشط في عهد دولة آل يحيى من الأشراف[2]. وبنت كذلك مسجد الضَّرْبة في بلاد يريم، والمسجد الجامع في جبلة؛ ولها علاوة على ذلك أعمال جليلة وآثار باقية لا تخفى على أحد إلا على أكمه لا يعرف القمر.

كان من نتيجة سياستها الرشيدة ومنحها لرعاياها حرية العقيدة أن أصبحت سمعة اليمن عالية، لعمل الحاكم لمصلحة الشعب وإتاحة الفرصة لجميع الكفايات أن تشترك في بناء هذا الوطن، ولأن السيدة اعتبرت أن اليمن ملكٌ للشعب لا لنفسها ولا لأسرتها فقط، فقامت «في أرض الله، لا لعلو، أو لما يستفاد».

---

(١) عيون ٧ / ٢٨٨.

(٢) نفسه؛ انظر الملحق رقم ٩.

وصية الملكة

وقد أورد صاحب العيون في السبع السابع من كتابه وثيقة هامة هي وصية السيدة الملكة[١]. كتبتها قبل وفاتها بسنة، أي سنة إحدى وثلاثين وخمس مئة، وعهدت عهدها، وأجرت علامتها، وأخرجت جميع الأشياء التي ذكرت في الوصية، وعاينها شهود، «وإنما فعلت السيدة ذلك قرباناً تقرّبت به إلى إمامها الطيب لما ترجوه من ثواب الله، وتأمله من رضوانه، ولأن تكون يوم الفزع الأكبر من الآمنين، يَوْمَ لا يَنْفَع مال ولا بَنُون إلاَّ مَنْ أتى الله بقلب سليمٍ[٢]. «وجعلت السيدة الملكة ولي وصيتها، والقائم بها والمنفذ لها، السلطان أحمد بن أبي الحسين بن إبراهيم بن محمد الصليحي، وأن يقوم بتنفيذ ما جاء في الوصية، ويوصلها بجملتها إلى باب الإمام الطيب، ويأخذ عليه الخط الشريف الإمامي بوصول جميع ذلك. وقبل السلطان أحمد بن أبي الحسن بن إبراهيم بن محمد الصليحي ما أسند إليه.

وفاة الملكة الحرة

وفي غرة شهر شعبان من سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة توفيت الملكة الحرة عن اثنين وتسعين سنة من العمر، ودفنت في جامع ذي جبلة أيسر القبلة، في منزل متصل بالجامع. وكانت هي التي تولت عمارة هذا الجامع، وهيأت موضع قبرها فيه[٣] وذكر إدريس[٤]: أن بعض ملوك اليمن أراد أن يخرج جثتها من قبرها حين ظن بعض الفقهاء كونها في الجامع. ففتحوا عن قبرها حتى انتهوا إلى التابوت، فوجدوا فيه قفصاً مقفلاً ففتحوه، فأصابوا فيه كتباً وأحكاماً تشهد أنها استثنت فيه ذلك المنزل الذي دفنت فيه عن المسجد لقبرها فيه، ووجدوا بذلك علامات القضاة وشهاده

---

(١) عيون ٧ / ٢٠٩ ـ ٢١٨؛ انظر الملحق رقم ٩.
(٢) نفسه ٢١٨.
(٣) نفسه ٢٢٨.
(٤) نفسه ٢٢٨.

الشهود الثابتة عند الحكام. فردُّوا قبرها على ما كان عليه وردُّوا تربته وحجارته إليه.

ويقول إدريس[1]: «وقبرها إلى اليوم، يزوره جميع فرق الإسلام، ويعترف بفضلها الخاص والعام، ويأتي إلى قبرها من أصيب بظلم، أو حاجة أو علة في بدنه، أو بليَّة، فيتشفعون بها إلى الله تعالى في كشف ما انتابهم بفضلها».

وقد رثى الملكة الحرة بعد وفاتها كثير من الشعراء. فزار قبرها القاضي حسين بن عمران بن الفضل اليامي في ذي جبلة، وقال قصيدة جاء فيها[2]:

وقفت علىٰ قبر الوحيدة وقْفةً	وقد زين منها مسجدٌ وستورُ
فقبلْتُهُ واسْتَفْت رَيّا ترابه	وعاوَدَ قلبي رنَّةٌ وزفيرُ[3]
وسالَتْ دموع الين منّي كأنها	بشطٍّ مجاري المقلتين سطورُ
ولله منها روحُ قُدْس تميّزت	فصارت بأعلى الدائرات تطيرُ[4]
خلا القصرُ في ذي جبلةٍ من مكارم	يحنّ إليها بائسُ وفقيرُ
ومن جود بحر بالعطايا نواله	على معتفيه عسجدٌ وحريرُ
ومن دَرْس ما ضمَّ الكتابُ وبعده	صلاةٌ وتسبيحٌ معاً وطُهورُ
وما سمعتْ أذني ولا راعَ ناظري	تجاوُبُ قيناتٍ بها وخمورُ
ولو كان داعي الموت يَثْنيه دونها	قبيلٌ ويُنجي من سطاه عسيرُ
لقام له من حِمْير كلُّ أرعنٍ	سحاب المنايا حيث حلّ مَطيرُ
وصار له من صِيد كَهْلانَ جحفلٌ	تسير الجبال الشُّمُّ حيث يسيرُ
ولو حال دون الموت عنها مبلّطٌ	منيعٌ يردُّ الطَّرف وهو حَسيرُ

---

(١) عيون ٧ / ٢٢٨.

(٢) نفسه ٧ / ٢٢٩.

(٣) ساف الشيء يسوفه ويسافه سوفاً وساوفه واستافه كله شمه، والإستياف الإشتمام (ل / سوف).

(٤) يريد بالدائرات الدرجات في المعاد.

لكانَ لها في حصن قَيضان مَعقلٌ تُقصِّر عنه في العلوِّ طيورُ[1]
ولكن أبى إلَّا خفيّا بشخصه حقيرٌ وما يسطو عليه كبيرُ

وقال القاضي محمد بن أحمد بن عمران بن الفضل اليامي يرثيها:

نَأَتْ رَبّة القَصر الشريف عن القصر فأَيْأسَ راجي النصر فيه عن النصرِ
إذا اجتثَّ دهرُ الشرّ دوحةَ روضةٍ فقضبانها لا تستقيم على الـهَصْرِ
سَخِطْتِ على أهل الزمان لفعلهم حقيقون أهل الغصر يا ربّة العَصْرِ
فصاروا بلا نور يتيهون في العمى وذلك تمثيلٌ لما كان في مصر[2]
فكم ظلمة يغشَونها ومَضَلَّة وكم إصْر ذنب يحملون على إصْرِ
رَجوْنا بها بدءَ الظهور ونشره فعُدْنا إلى السِتْر الحقيقيِّ والحصر[3]
وقد ينقص التَّيار من بعد مدِّه ويُضْطرّ حرف المدِّ حينا إلى القصرِ
فذاك كسوف الشمس قد طال مَكثُهُ وهذا خسوف دائم المكث للبدرِ
وذاك سِرارٌ لا انجلاء لليله وهذا مِحاقٌ ليس يُسفر عن فجرِ
ونرجو فروعاً ثمَّر الله نَبْتَها وأيَّدها بالنصر والفتح والقهرِ
لهم وبهم رجاؤنا وسُلُوُّنا لأنّ رجاء اليُسْر في عَقِب العُسْرِ
وأوْرَثَ أملاكُ الأنام وسيطهم عليُّ بن عبد الله عالي ذُرَا الفَخْرِ[4]

---

(١) استولى على الحصن الأمير المفضل الحميري بعد أن طرد علي بن سبأ بن أحمد الصليحي سنة ٤٩٥. فدخلت حصون بني المظفر في مملكة السيدة الحرة (انظر ص١٦٣ و ٢٤٠).

(٢) يشير إلى اغتصاب الحافظ عبد المجيد الإمامة والخلافة في مصر.

(٣) يبدأ دور الستر باختفاء الإمام أبي القاسم الطيب بن الآمر.

(٤) أغلب الظن أنه السلطان علي بن السلطان عبد الله بن محمد الصليحي. وعلي بن عبد الله هذا هو ابن عم الملك المكرم. فورث أملاك بيت الصليحي بعد وفاة السيدة. وقد قيل أن الأميرة أروى ابنة علي بن عبد الله كانت مقيمة في قصر الملكة الحرة حينا طلقها منصور بن المفضل الحميري وتزوجها الملك محمد بن سبأ الزريعي (انظر ص ٢٤٠ ـ ٢٤١).

فصبراً على ريْب الزمان وصَرْفه   فأوفَرُ أهل الأجر حظّا أولو الصبرِ

ومما قاله السلطان الخطّاب بن الحسن بن أبي الحفاظ الحجوري في قصيدة يرثيها[1]:

عليكِ سلامُ الله والصلَوَاتُ   ورحمته ما شاءَ والبَركاتُ
وكافاكِ عنّا بالذي لكِ عندنا   إلـه لديْه تُضْعَفُ الحسناتُ
كفلتِ جميع المؤمنين كفالةً   عَلتْ لهُمُ في ظلِّها الدَّرَجاتُ
وقمتِ بأمرِ الله فيهم فأخلصَتْ   سرائرُ في طاعاته وَنِيَاتُ
أمولاتنا يا من بباهر نورها   تجلَّيْنَ عن أبصارنا الظلماتُ
أجلّكِ عن موت بروحك نازلٍ   وأنتِ لأرواح الأنام حشاةُ
بَصُرتُ بأمرٍ منك ما بُصرت به   عيونٌ لهم في غيِّها وَسَنَاتُ
ولاحَ ليَ السرُّ الذي حجَبتهُمُ   عقولٌ لهم من نوره وذواتُ
فقالوا مقال الجهل، غِبْتِ بمَيْتة   عليهم فيها الأنباءُ مشتبهاتُ
وهل غاب عنّا أو يغيب الذي اغتدتْ   لهُ رُتبٌ في الدين مُنحفِظاتُ
أما نورهُ سارٍ، أما لحظاتُه   بنا وهْوَ ناءِ الدار متّصلاتُ؟
أليس لنا منه إليه مُحرِّكٌ   ومنّا وعنّا تصدرُ الحركاتُ؟
أما قال مولانا علي سلامه   علينا مقالاً أسندَتْه ثقاتُ:
نعلّمكم منكُمْ وعنكم نفيدكم   أشيءٌ سوى هذا المقال فهاتوا
وأزعم أنّ الأولياء تقدَّمَتْ   مقاماتُهم كفرٌ مقاليَ: ماتوا

(۱) د. الخطاب ۷۱ ـ ۷۵.

فكيف بمن هم في كفالته غَدَوْا وظلّوا بها مستكْفَلين وباتـوا؟

فلا غرو أن ذكريات سيدتنا وملكتنا ستبقى خالدة في قلوب اليمنيين مدى الدهور، كما بقيت إلى يومنا هذا مآثرها وأعمالها الجليلة التي تنطق بعظمتها، وستظل وحياً ونوراً في حياة الشعب مهما اختلفت الطرق واشتدَّت الأزمات وبعدت المسافات وتخلّفت القوافل، لأنّها وحيدة كلّ زمان وسيّدة اليمن والعرب ولحظاتها متصلة بهذه البلاد العربية غير السعيدة.

أمـا نـوره سـارٍ، أمـا لحـظاتـه بنـا وهو نـاءِ الـدار متَّصـلاتُ
أليس لنــا منــه إليــه مُحــرِّكٌ ومنّـا وعنّـا تصـدر الحـركــاتُ

الباب السابع
العلاقات بين الدولتين الفاطمية والصليحية
مظاهرها وآثارها

الألقاب:

حرصنا على أن يكون التسلسل التاريخي متصلاً إلى حد الإمكان؛ لذلك بقيت بعض المعلومات التي أفردنا لها هذا الباب. ويلاحظ أنه لم يكن هناك في أيام الخليفة المعز لدين الله تنافس على الألقاب من الوزراء وكبار رجال الدولة، كما كان في أيام من أتى بعده من الخلفاء، فقد لقب هؤلاء بألقاب كثيرة. ولعل ذلك يرجع إلى حيطة المعز من أن تخلق هذه الألقاب طبقة ممتازة لها نفوذ سياسي واجتماعي. ولكن ليس معنى هذا أنه لم تكن هناك ألقاب للوزراء في عهد المعز، بل كانت هذه الألقاب محدودة، وتنسب إلى الدولة أو الخلافة أو الملة أو الإمامة. ويدل اهتمام الوزراء وكبار رجال الدولة بهذه الألقاب وحرصهم عليها فيما بعد على:

١ ـ ضعف الخلفاء، ورغبتهم في استرضاء من يمنحونهم هذه الألقاب، كما يدل على قوة من تُمَنح إليهم ونفوذهم.

٢ ـ أن الخليفة كان يمنحها للمقربين إليه إرضاء لهم إما لقوة نفوذهم أو لخدماتهم.

٣ ـ أن الوزراء وكبار رجال الدولة كانوا يعتبرونها مظهراً من مظاهر علو شأنهم في نظر الرعية، بل دليلاً على ثقة الإمام بهم.

٤ ـ أن هذه الألقاب شجعت الذين منحوها على الاستبداد بالأمر، دون الخلفاء، مما أدى إلى زوال ملكهم في النهاية.

ولما كان سلاطين الصليحيين قد قاموا بخدمات جليلة للدولة الفاطمية وجد الخلفاء أن في منح الألقاب لسلاطينها وأمرائها خير وسيلة لاكتساب ولائهم. وكانت هذه الألقاب تطلق على أبناء هذا البيت كما كانت تمنح على الأمراء والوزراء في مصر. فالخليفة المستنصر لقب الملك علي بن محمد الصليحي بلقب الأوحد[١]، ومنحه لقب عمدة الخلافة تقديراً له على الخدمات التي قام بها في مكة وغيرها[٢]، كما منحه لقب تاج الدولة[٣]، وأول من تلقب بهذا اللقب في عهد الدولة الفاطمية الوزير بهرام الارمني النصراني[٤].

وكان الخليفة المستنصر يذكر في مكاتباته[٥] ألقاب الملك علي الصليحي على النحو الآتي: «السلطان الأجل، الملك الأوحد، أمير الأمراء، عمدة الخلافة، تاج الدولة، ذو المجدين، سيف الإمام، المظفر في الدين، نظام المؤمنين، شرف المعالي».

ولما أمر الخليفة المستنصر بجعل الأمير محمد بن علي بن محمد الصليحي ولي عهد أبيه، منحه الألقاب الآتية: «منتخب الدولة وصفوتها، ذو المجدين، الأمير الأعز، شمس المعالي»، كما لقب الابن الأوسط بلقب الأمير المكرم، ولقب الأصغر بلقب الأمير الموفق[٦]، وأرسل سجلاً آخر إلى الصليحي[٧]، لقب فيه ابنه الأكبر بلقب ذي المجدين، ولقب الأوسط بلقب ذي السيفين، ولقب الأصغر ذي الفضيلتين.

---

(١) عيون ٧ / ١٦. وأول من لقب بهذا اللقب في الدولة الفاطمية هو الوزير أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي (الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة ٣٥)، كما تلقب به أبو محمد بن علي بن عبد الرحمن اليازوري سنة ٤٤٢ (نفسه ٤٠). ولقب به كذلك الحسن ابن القاضي ثقة الدولة وسنائها المعروف بإبن كدينة حين تولى الوزارة سنة ٤٥٥ (نفسه ٥١)، كما لقب به الوزير أبو سعد منصور المعروف بإبن زبنون سنة ٤٥٨ (نفسه ٥٤).

(٢) السجلات رقم ٤.

(٣) عيون ٧ / ١٦.

(٤) النويري: نهاية الأرب ١٦ ورقة ٥٠.

(٥) عيون ٧ / ١٦، ٨٠، ١٥٢؛ السجلات رقم ٤، ٨.

(٦) عيون ٧ / ٧٦؛ انظر الملحق رقم ٢.

(٧) السجلات رقم ٣.

ولما توفي الأمير الأعز في الثاني والعشرين من شهر المحرم سنة ٤٥٨ أرسل المستنصر سجلاً[١] إلى الملك علي الصليحي في شهر جمادى الآخرة سنة ٤٥٩، جاء فيه أن الإمام ولي المكرم ولياً للعهد، وزاد في ألقابه شرف الأمراء، عز الملك، كما زاد في ألقاب أخيه الأصغر لقب شرف الملك.

ومما جاء من ألقاب المكرم في سجلات المستنصر نذكر: «الملك الأجل، الأوحد، المنصور، سيف الإمام، عظيم العرب، عمدة الخلافة، شرف الأمراء، عز الملك، منتخب الدولة وغرسها، ذو السيفين، تاج الدولة، عماد الملة وغياث الأمة، أمير الأمراء، سلطان أمير المؤمنين، وعميد جيوشه» وغيرها[٢].

ورزق المكرم ابنه محمداً فأرسل المستنصر سجلاً إلى الملكة الحرة في ١٥ رمضان سنة ٤٦١ يهنئها بالمولود السعيد، ويمنحه لقب الأمير نجيب النجباء[٣]، كما لقبه في سجل آخر أرسله في ربيع أول سنة ٤٨٠ بلقب: سليل الدعوة ونجلها[٤].

وما جاء في السجل الذي أرسله المستنصر بإقامة الطفل علي بن أحمد الصليحي ملكاً بعد وفاة أبيه الملك المكرم سنة ٤٧٧ الألقاب الآتية: «الملك الأجل الأوحد، المنصور، العادل، المكرم، عمدة الخلافة، تاج الدولة، سيف الإمام، المظفر في الدين، نظام المؤمنين، عماد الملة، وغياث الأمة، شرف الإيمان، مؤيد الإسلام، عظيم العرب، سلطان أمير المؤمنين، وعميد جيوشه»[٥].

---

(١) عيون ٧ / ٨٢ ـ ٨٦؛ انظر الملحق رقم ٥.

(٢) نفسه ٧ / ٨٠؛ انظر الملحق رقم ٤؛ السجلات ٤٢ و ٦٠.

(٣) السجلات رقم ٦٥.

(٤) نفسه رقم ٣٧.

(٥) عيون ٧ / ١٢٦ ـ ١٣٥؛ السجلات رقم ١٤.

وقد أراد المستنصر بهذه الألقاب الرنانة أن يشد عزم الملكة الحرة والدة هذا الطفل وأن يظهره أمام شعبه بأنه ملحوظ بالعناية.

وذُكرت الملكة في السجلات الواردة إليها من مصر بالألقاب الآتية[1]: «الحرة، السيدة، السديدة، الرضية، الطاهرة، المخلصة، المكينة، ذخيرة الدين، عصمة المسترشدين، عمدة المؤمنين، كهف المستجيبين، كافلة أوليائه الميامين، ولية أمير المؤمنين، عمدة الإسلام، وحيدة الزمن، سيدة ملوك اليمن».

من ذلك نستطيع أن نقرر أن هذا المظهر من مظاهر العلاقة بين الدولتين، له ناحيتان:

أولاً: أن خلفاء الفاطميين كانوا عادة يمنحون هذه الألقاب كبار رجال دولتهم. وقد رأوا أن السلاطين والملوك الصليحيين لا يقلون في نظرهم عن هؤلاء، لأنهم يضطلعون بتأدية رسالة مهمة لدولتهم. لذلك كان الخلفاء يمنحونهم هذه الألقاب الرنانة تشجيعاً لهم على الاستمرار في صدق وفائهم وإخلاصهم للفاطميين.

ثانياً: أن هذه الألقاب كانت تقابل من جهة الصليحيين بالارتياح والشكر للإمام على هذه العناية وهذا الاهتمام وكانت من جهة أخرى تظهرهم أمام رعاياهم بمظهر القوة. فكان المخلصون للدولة والدعوة يتفانون في نصرتهم، لأنهم رسل الإمام ودعاته الذين يعملون على إعلاء كلمته. وكان الآخرون من الرعايا، كلما وجدوا اهتمام الخليفة بهذه الدولة، وأنه يشد أزرها بما يعمل على بقائها، يخافون الخروج عليها، لأنها تستند إلى قوة دولة كبيرة، كان لها من السلطان والجاه ما لم يكن لدولة بني العباس في ذلك الوقت.

التعزية

تعتبر المجاملات مظهراً من مظاهر حسن العلاقة بين الدولتين، وقد تجلت هذه المجاملات في مناسبات أربع، هي: التعزية، والتهنئة بالأعياد، والتهنئة بالمواليد، وتبادل الهدايا.

---

(١) عيون ٧ / ١٤٣؛ عمارة / كاي ٣٥.

فعند وفاة الأمير الأعز في الثاني والعشرين من شهر المحرم سنة ٤٥٨، كما تقدم ذكره، أرسل المستنصر إلى الصليحي سجلاً[١] يعزيه في ابنه وولي عهده، كما أرسل سجلاً آخر[٢] يعزيه في ابنه هذا وابنته ميمونة[٣].

ولما سمع الخليفة بخبر قتل الملك عليّ الصليحي استدعى القاضي لمك، وكان بالقاهرة في ذلك الوقت، وعزاه وسمح له بإقامة العزاء على هذا الفقيد في حضرة الإمام[٤]. وأرسل إلى المكرم سجلاً[٥] تلطف فيه كثيراً، كما أرسل له سجلاً[٦] آخر أظهر فيه أسفه الشديد لفقد الملك عليّ بن محمد الصليحي.

وكذلك فعل المستنصر، عند وفاة المكرم سنة ٤٧٧؛ فأرسل إلى ابنه علي بن المكرم سجلاً[٧] يعزيه في والده، ويدعو له بالبقاء.

ولما توفي الأمير محمد بن الملك المكرم أحمد، جاء سجل الخليفة إلى الملك علي بن المكرم يعزيه في أخيه، ويدعو للفقيد بالجنة، ويعده حسن الثواب[٨]. وبعد قليل توفي الملك عليّ بن المكرم في نفس السنة، فأرسل الخليفة إلى الملكة الحرة يعزيها في ابنها، ويشد أزرها بالدعاء لها وبالتوفيق وحسن الثواب[٩].

التهنئة بالأعياد

وتعتبر التهنئة بالأعياد عنصراً آخر من عناصر المجاملة بين الدولتين، وقد

---

(١) عيون ٧ / ٧٩؛ انظر الملحق رقم ٤.
(٢) نفسه ٧ / ٨٢ - ٨٦؛ انظر الملحق رقم ٥.
(٣) توفيت بعد وفاة أخيها حزناً عليه (نفسه ٧ / ٧٨).
(٤) نفسه ٧ / ١٠٣.
(٥) السجلات رقم ٦٠.
(٦) نفسه رقم ٤٠.
(٧) عيون ٧ / ١٢٦ - ١٣٠؛ السجلات رقم ١٤ و٤٦.
(٨) السجلات رقم ٢٤.
(٩) عيون ٧ / ١٤١.

جاء في السجلات المستنصرية[1] عدة سجلات إلى سلاطين اليمن تهنئة بالأعياد، ووصفاً لهذه المناسبات السعيدة.

فأرسل المستنصر إلى الملك علي محمد بن الصليحي سجلاً يهنئه بالعيد ويكلفه نشر هذه التهنئة في ربوع دولته، وذلك في عيد الفطر سنة ٤٥١، كما أرسل إليه في عيد الفطر سنة ٤٤٥، ويحوي وصف عظمة المستنصر عند ذهابه إلى المصلى لأداء سنة هذا العيد، ثم عودته إلى قصره، ووجه كذلك إلى الملك أحمد المكرم سجلاً بمناسبة عيد الأضحى سنة أربع وسبعين وأربع مئة، يقدم فيه المستنصر التهاني بالعيد، ويذكر أنه صلى صلاة العيد بصحبة الوزير بدر الجمالي، ويسأل المكرم أن ينشر التهنئة في أنحاء اليمن.

التهنئة بالمواليد

وأما النوع الثالث من أنواع المجاملة فهو التهنئة بالمواليد. ولما رزقت الملكة الحرة بابنها محمد أرسل المستنصر إلى الملك المكرم سنة إحدى وستين وأربع مئة سجلاً[2] أظهر فيه سروره بسماعه عن المولود الذكر الذي أنعم الله به عليه، ومنح المولود لقب الأمير نجيب النجباء، وكتب بخط يده شبه العوذة ليشد بها عضده، داعياً له أن يجعله الله مبارك الناصية، ويتولاه بالعيشة الراضية بمنه.

وهكذا بعث المستنصر عند ولادة ابنه أحمد القاسم في المحرم سنة سبع وستين وأربع مئة والذي لقب باسم المستعلي بالله فيما بعد إلى الملك المكرم سجلاً[3]، يزف له فيه البشرى، ويختصه بهذا الخبر لما للملك المكرم من المنزلة الممتازة عند الخليفة، ولأنه يرى إدخال السرور عليه بهذه المناسبة، ثم يعرفه أن هذا الابن

(١) السجلات رقم ١، ١٣، ١٨، ١٩، ٣٠، ٣١، ٦٤.
(٢) السجلات رقم ٦١.
(٣) عيون ٧ / ١٥٢ - ١٥٣؛ انظر الملحق رقم ٧.

هو الذي سيتولى أمر الإمامة والخلافة من بعده. وقد جاء في السجل: «وقد وهب الله غلاماً زكياً شـد به أزر الإمامة ودل على بقاء كلمته في عقبه إلى يوم القيامة. . .» إلخ.

وقد أرسل الخليفة الآمر بأحكام الله عندما رزق بابنه الطيب أبي القاسم في الليلة المصبحة باليوم الرابع من شهر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين وخمس مئة إلى الملكة الحرة سجلاً[1]، ينقل فيه هذه البشرى، لتأخذ «من المسرة بها بأوفى نصيب»، ويكلفها أن تذيع هذا الخبر «إذاعةً يتساوى بالمعرفة بها كل بعيد منهم (أي المؤمنين) وقريب».

الهدايا

ويعتبر تبادل الهدايا بين الدولتين مظهراً من مظاهر العلاقات الودية بينهما، إلاّ أن الملك علي بن محمد الصليحي والسيدة الحرة الملكة كانا يتهافتان في تقديم الهدايا الثمينة والمتنوعة، ولم يأتِ من مصر إلا السجلات المنمقة والتشريفات والكساوي المحلاة بأسماء «الأئمة الطاهرين وآبائهم الأكرمين»، مع ما كان الخلفاء الفاطميون يتمتعون به من ثروة لا تعد ولا تحصر.

ولما استقر أمر الملك علي بن محمد الصليحي في اليمن بعد وفاة نجاح، وجه إلى صاحب مصر المستنصر بالله في سنة أربع وخمسين وأربع مئة «هدية جليلة منها سبعون سيفاً قوائمها من عقيق» إلخ[2] وعنها يقول إدريس[3]: «هدية عظيمة القدر، لم يسمع بمثلها، كما ذكر أهل السير، فيها فنون كثيرة من الذهب والفضة والسلاح والوشي والمسك والعنبر والكافور والعود الهندي الرطب والأستاذين والجواري وكثير من الأمتعة، يبعد حصرها، ويعظم أمرها». فلما انتهت الهدية إلى أسوان أخذ سلطان العرب أخو ابن حمدان ناصر الدولة في شحن

---

(١) عمارة / كاي ١٠٠ ـ ١٠٢؛ عيون ٧ / ١٩٢ ـ ١٩٣؛ انظر الملحق رقم ٨.
(٢) كشف ٤٣؛ كفاية ٤٨.
(٣) عيون ٧ / ٦٦ ـ ٧٢.

الهدية في المراكب ثلاثين يوماً، يظل راكباً فيها من الصباح إلى المساء ونقلت الهدية إلى القاهرة ثم إلى قصر المستنصر بالله بعد كثير من التنافر والتكالب والفتن التي حدثت بين الأتراك والعبيد والكتاميين. وكان الصليحي بعث بالهدية، كما رواه الخزرجي[1]، «رجلين من قومه أحمد بن محمد، والد السيدة الصليحية. . . وهو الذي انهدم عليه الدار بعدن، والثاني أحمد بن المظفر، والد السلطان سبا بن أحمد». فأنزل الخليفة السفيرين منازل الإكرام، وأخرجت إليهما الكُسا والتشريفات، وأمر للصليحي برايات، وكتب له الألقاب، وعقد له الولاية على جميع اليمن[2].

وفي سنة تسع وخمسين وأربع مئة لما عزم الملك علي بن محمد الصليحي على الحج وزيارة الخليفة في القاهرة استعد لذلك الأمر وعول على أن يقدم للإمام هدية تليق بالمقام. وفي ذلك يقول إدريس[3]: «فجعل يضم إليه الأموال، ويقدم في ذلك الأحمال، من خالص الورق والنضار، والطرف الحسنة التي تزهى في أعين النظار، ويرتفع خطرها على الأخطار».

وكان الخليفة الفاطمي قد يرسل الكساوي إلى سلاطين اليمن وأمرائها. وقد أرسل المستنصر إلى الأمير أحمد المكرم ولي عهد الدولة الصليحية بعد موت أخيه الأمير الأعز في عهد الملك الصليحي تشريفاً، وكما جاء في السجل الخاص بذلك المؤرخ ربيع الأول سنة ٤٥٨ إلى الملك عليّ بن محمد الصليحي: «. . . . . .وقد أمر أمير المؤمنين بالرجوع إلى ولدك الأوسط كان، وهو اليوم الأكبر حفظه الله. . . . . . وأنشأ من التقليد ما يكون لفؤادك مثبتاً. . وعزز بإنفاذ تشريف من ملابسه يظهر عليه بين الأولياء رونق جماله. . .» إلخ[4].

---

(١) كفاية ٤٨.

(٢) عيون ٧ / ٦٨ (ولم يذكر صاحب العيون أسماء الرسل)؛ كفاية ٤٨؛ الكبسي: اللطائف السنية ١١.

(٣) عيون ٧ / ٦٨.

(٤) نفسه ٨ / ٨٠؛ انظر الملحق رقم ٣.

وهذه الكساوي كانت تحمل عادة عبارات كهذه: «بسم الله الرحمن الرحيم نصر من الله وفتح قريب لعبد الله ووليه معد أبي تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الأئمة الطاهرين» إلخ[1].

ويلاحظ أن ما يتم بالإيحاء والتلميح أبعد أثراً مما يتم بالطرق الصريحة المباشرة. ولا ريب أن الخلافة الفاطمية ما كانت لتنفق نحو ست مئة ألف دينار سنوياً[2] في هذه الناحية إلَّا إذا كانت ترجو من وراء ذلك كسباً أدبياً ومادياً كبيراً من حيث استمالة الناس واجتذاب قلوبهم بمظاهر الإنعام والعطف، إذ أن المادة والمظاهر والمناصب ذات أثر كبير في حياة أغلب الناس، تفعل في نفوسهم أكثر مما تفعل المثل العليا أو تواضع طلبة العلم وتقشف المثاليين. ثم إن هذا الإنعام يجعلنا نميل إلى اعتبار ذلك العمل ضرباً من الإنعام بالأوسمة والأوشحة التي يمنحها رؤساء الدول في العصر الحديث.

وقبل خروج الصليحي للحج، يقول صاحب الأنباء[3]: «. . . برز جهازه، وما أعد من الأموال والذخائر إلى المسجد الجامع بصنعاء، وجعلة كالخزانة. ولقد كان ملء جانب المسجد الذي كان عليه السقف، غربيه، صناديق مملوءة من الذهب والفضة».

وتعتبر وصية الملكة أروى، التي تركت بمقتضاها كل ما تملكه من جواهر وحلى، بل كل ما تملكه من ثروة منقولة، إلى الإمام الطيب، لتكون «لها قرباناً وشفيعاً يوم الفزع الأكبر»، تعتبر هذه نوعاً من الهدايا ودليلاً واضحاً على مقدار إخلاصها وولائها لإمامها المستور.

وكانت هذه الهدايا تقابل من خلفاء الفاطميين بالرضا التام ومنح الألقاب على أبناء الدولة الصليحية.

(١) Repertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe ج ٧ / رقم القطعة ٢٥٠٦ / سنة ٤٤٦. وراجع أيضاً المرجع نفسه ج ٧ / القطع: ٢٦٠٨ / سنة ٤٥٠ و٢٦١١ / سنة ٤٥٠ و٢٦٨٤ / سنة ٤٦٥ و٢٧٥٣ / سنة ٤٧٨.
(٢) المقريزي: خطط ١ / ١٢٦.
(٣) أنباء / دار ٤٠.

أثر العلاقات داخل اليمن

وقد يلاحظ أن السبب الرئيسي في سرعة انتشار نفوذ الصليحيين في اليمن، فضلاً عن سيرتهم الفاضلة واتحاد معظم قبائل همدان وحمير تحت لوائهم، يرجع إلى الفوائد التي كسبتها دولتهم بفضل اتصالهم بالخلافة الفاطمية وبمنظمة الدعوة بمصر، لأن الدعاة أنفسهم كانوا يعترفون بأن المستجيبين لم يدخلوا حظيرة الدعوة إلاّ رغبة في تكوين دولة أهل بيت النبي. فنرى أن ولاءه للأئمة الفاطميين واتصاله بالخلافة الفاطمية بمصر ساعد الملك علي بن محمد الصليحي عندما قام بتأسيس دولته. فقد ساعدته الدعوة في امتداد نفوذه وتقوية مركزه حتى تمكن بهذه الطريقة وبقوة عزيمته وبعظيم همته أن يكون سيد اليمن الكبرى. وكان هذا الاتصال بالخلافة المصرية في نفس الوقت نقطة ضعف لكيان الدولة وبقائها. وهذا سنذكره في فصل عن سقوط الدولة الصليحية.

نفوذ اليمن خارج حدودها

(الحجاز) أما عن امتداد نفوذ الصليحيين في خارج بلاد اليمن، فقد ذكرنا فيما سبق[1] ما حدث بعد دخول الملك علي بن محمد الصليحي مكة سنة أربع وخمسين وأربع مئة من إقامة الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر، ورد بني شيبة عن قبيح أعمالهم، وتأديب الشريف، وإصلاح ما أفسده بنو الطيب الحسنيون في الحجاز، وترخيص الأسعار، ونشر الأمن والطمأنينة في البلاد المقدسة، ثم ترك البلاد للأشراف بعد ذلك، وعودته إلى اليمن ظافراً غانماً رضا المسلمين.

(عمان والبحرين والأحساء) فقد كان انتصاره في الحجاز وسياسته الرشيدة وحماسته للدعوة جعله ومن تولى رياسة الدولة بعده موضع الثقة عند الخلفاء الفاطميين الذين كلفوهم الإشراف على شئون الدعوة في البحرين والأحساء والهند والسند.

---

(١) انظر الباب الرابع ص ٨٨ - ٩٣.

ففي عهد الملك أحمد المكرم، لما علمت الدوائر الحكومية بضعف حكام عمان، نتيجة للثورات التي قامت فيها على حكوماتها الموالية للخلفاء العباسيين، وأن هذه البلاد كانت منذ أيام أبي طاهر الجنّابي واقعة تحت تأثير القرامطة، وأن حكم القرامطة لم ينته فيها إلاّ تحت تأثير ضغط العباسيين، عولت على مد نفوذ الخلافة الفاطمية عليها. فمنح الملك المكرم رياسة بلاد عمان الدينية والسياسية معاً، على الرغم من أنها كانت خارجة عن نطاق حكمه، كما عهد إليه بالإشراف على الدعوة في الأحساء والبحرين. ويتبين ذلك من السجل المستنصري الموجه إلى الملك المكرم المؤرخ في شهر ربيع الآخر من سنة تسع وستين وأربع مئة[1]، فيجعل فيه المستنصر «ولاية تلك الأعمال (الأحساء وعمان) جميعها، دانيها وقاصيها، مطيعها وعاصيها» مردودة إلى المكرم؛ ويأمره أن يكون الأمير عبد الله بن علي العلوي الملقب بمستخلص الدولة العلوية أمير الأحساء نائباً عنه فيها وأن يمده من جهته. وذلك لأن له مواقف حميدة في إقامة الدعوة العلوية ونصرتها على أعدائها من الخوارج وانتزاع جل تلك الأعمال منهم.

ولما انصرف الداعي إسماعيل بن إبراهيم عن الدعوة في عمان في عهد الملكة الحرة باحترافه التجارة، أخبرت الحرة المقام الإمامي بذلك، واقترحت تعيين حمزة سبط حميد الدين المتوفى، بأمر الدعوة في هذه البلاد، فجاء سجل الإمام[2] إلى الملكة بتقرير وجهة نظرها، وشكرها على حسن رعايتها لما تحت يدها من أقطار.

(السند وشمال الهند) أما الدعوة في الهند، فنظراً لأن هذه البلاد ستصبح بعد اليمن وارثة لهذا التراث الديني الأدبي، وجب علينا الرجوع إلى الوراء قليلاً، لكي نعرف متى وصلت الدعوة إلى تلك البلاد.

سبق أن عرفنا أنه في نهاية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) أي قبيل

---

(١) السجلات رقم ٥٤.

(٢) عيون ٧ / ١٢٣ ـ ١٢٥؛ السجلات رقم ٥٠.

قيام الدولة الفاطمية في شمال إفريقة بقليل، كان الأئمة الفاطميون يرسلون دعاتهم إلى كثير من البلاد، ومن بينها الهند. فقد رأينا أبا القاسم منصور اليمن يرسل ابن أخيه الهيثم داعياً إلى بلاد السند، حيث استجاب له كثير من أهلها[1].

يقول عباس الهمداني ما معناه[2]: بدأت الدعوة في السند، وأخذت من هذا الوقت تنمو تدريجياً حتى انضم إليها أهل ملتان وكجرات (البنجاب)، وفي عهد الخليفة المعز كثر دخول المستجيبين في الدعوة، كما يتضح ذلك من قول القاضي أبي حنيفة النعمان[3] حيث قال: «ودعوة اليمن فاشية في السند». وكرر هذا القول ابن حوقل[4]، وزاد عليه دي خويه[5] قائلاً: «إن النفوذ الفاطمي وصل إلى بلوخستان (بلاد مكران)». وقال إدريس[6]: «إن الخليفة المعز أرسل إلى الهند داعياً تمكن من تحويل عدد كبير من المجوسية، ولكنه سمح لهم بإبقاء بعض معتقداتهم غير الإسلامية»، ثم تولى داعياً آخر وهو جلم بن شيبان[7]، ولقد أرسل إليه الخليفة المعز رسالة في رمضان سنة أربع وخمسين وأربع مئة[8]، وقد تمكن هذا الداعي من قتل حاكم السند وهدم معبد هناك وبناء مسجد في مكانه[9]. وقد ذكر هذا الحادث البيروني في كتابه الهند[10] حيث قال: إن جلم بن شيبان هجم على ملتان، ثم على حدود السند، وخرَّب بلاده، وحطَّم معبداً هناك، وبنى مسجداً مكانه.

ولما غزا محمود الغزنوي الهند لأول مرة سنة ٣٩٢ اتجه نحو ولاية ملتان

---

(١) راجع الباب الثاني ص ٣٨؛ إفتتاح ١٨؛ عيون ٦ / ٣٨.

(٢) وقد استنبطنا محتويات هذا الفصل من رسالة الدكتور عباس الهمداني (جامعة لندن سنة ١٩٥٠) ببعض التصرف وتركنا التفاصيل والمراجع الواردة فيها.

(٣) إفتتاح ١٨.

(٤) المسالك ٢ / ٤١٠.

(٥) De Goeje: Memoires, 176.

(٦) عيون ٦ / ١١٧.

(٧) نفسه ٦ / ١٠٠.

(٨) نفسه ٦ / ١١٤ - ١١٧.

(٩) نفسه ٦ / ١١٧.

(١٠) البيروني: الهند ٥٦.

حيث كان يحكمها أبو الفتح داود بن ناصر الذي قام بالدعوة الفاطمية في أوائل القرن الرابع الهجري. ولما اقترب محمود الغزنوي هرب الأمير داؤود بجواهره إلى سيلان، وقضى الغزنوي على الدولة الفاطمية هناك. وقد انتقم الغزنوي من أولي الدعوة شرَّ إنتقام، فقتل منهم آلافا[1]. وما لبث أبو الفتح داؤود أن رجع إلى بلاده، فعزَّ به جانب الدعوة، وانتعشت الفاطمية في ملتان بعد وفاة الغزنوي. ولما تولى السلطان معز الدين الغزنوي عاد إلى إضطهاد الفاطمية مرة ثانية. ما لبث أن حدث في سنة ٦٣٤ في عهد السلطانة رضيَّة أن تجمع الفاطميون من جهات الهند مثل غجرات والسند وغيرها في عدد كبير جداً، ولكنهم فشلوا في محاولتهم لإعادة دولتهم.

(غربي الهند) هذا فيما يتعلق بانتشار الدعوة في الجهات الشمالية من شبه قارة الهند. وأما عن إنتشارها في غجرات والدكن على الساحل الغربي، فإن ذلك يرجع من غير شك إلى نشاط الدعوة اليمنية في عهد الصليحيين.

يرى عباس الهمداني أن داعي الدعاة المؤيد في الدين الشيرازي (المتوفى في شوال سنة ٤٧٥) باب الإمام المستنصر هو الذي أمدّ القاضي لمك بن مالك الحمّادي الهمداني مدة إقامته بمصر (٤٥٥ - ٤٦٠) بالتعليمات التي تتعلق بضرورة نشر الدعوة في الهند تحت إشراف الدعوة اليمنية، وأنه من أثر هذه التعليمات أن أرسل لمك داعيه عبد الله إلى الهند في سنة ستين وأربع مئة. وقد ذكر خَوْج بن ملك في مجموع الرسائل[2] ما معناه: إن وصوله (يعني

(١) البغدادي: الفرق ٢٧٧.

(٢) والشيخ خوج من كبار حدود الدعوة بالهند توفي في سنة ١٠٠٢. وقد ألّف مما ألف رسائل ست وهي سرور الأولياء، وبذر المحبة والشفاء، وحديقة النعم المشتهاة، وبذر البداية، وحديقة الجنان، ورسالة في خصائل داؤود بن قطب شاه. فجمعها ولخصها ورتبها سيدي عبد العلي بن عبد القادر في كتاب سماه مجموع الرسائل الست لسيدي خوج بن ملك، وترجم الكتاب الأخير باللغة الكجراتية بعنوان كوكب الفلك.

عبد الله) كان بأمر من درّس عليه وأخذ عنه واقتبس منه، وهو بعض علماء اليمن المسمى لمك بن مالك الحمّادي. وروى خوج بن ملك أن مولاي عبد الله العربي (أغلب الظن كان يمنياً) وزميليه الهنديين بالم نات[1] (مولاي أحمد) وروب نات (مولاي نور الدين) كانوا بمصر أيام إقامة القاضي لمك في القاهرة؛ وأسلم الأخيران بيد داعي الدعاة المؤيد. ثم وجّه المؤيد هؤلاء الدعاة إلى اليمن تحت قيادة لمك، وسيّرهم لمك بعد وصولهم إلى اليمن لنشر الدعوة في الهند في السنة المذكورة.

ويروى[2] أن الدعاة الثلاثة وصلوا إلى الساحل الغربي من غجرات الهند بميناء كمبايت. وتسرّب عبد الله العربي في المزارع والبساتين والقرى في تستر شديد، وتعلّم اللغة المحلّية المسماة بالكُجراتي، حتى تمكّن أن يقنع مضيفه الفلاح كاكا أكيلا (العم وحيد) وامرأته كاكي أكيلي (العمة وحيدة)، ثم كاهن المعبد ذا النفوذ الكبير، ثم الوزير تارمل، ثم عاهل ولاية فتن الملك سدهراج جيسنغ بن بهارمل، ببطلان عبادة الأوثان. وقبل هؤلاء دعوته إلى الإسلام. فانتشرت الدعوة في كثير من بلدان كُجرات.

وتوجّه مولاي أحمد (بالم نات) ومولاي نور الدين (روب نات) إلى دهن كَام، وهي بلدتها في الدكن بمقتضى التعليمات التي أصدرها لهما رئيس الدعوة اليمنية وقاضي قضاة اليمن لمك الحمادي. «فانتشر الإيمان من هذه القرية حتى عمّ

---

(١) وفي رواية: لام نات. ويظهر أنه اسم مولاي أحمد الهندوكي.

(٢) ولم نعثر على هذه الرواية في كتب إدريس التاريخية ولا في المصادر اليمنية إلّا أن المصادر الهندية أوردتها نقلاً عن رسائل خوج بن ملك بتفاصيل كثيرة يخالف بعضها بعضاً وأدخلت فيها عناصر الأسطورة. وإننا لا نشك في صحة هذه الرواية عامة، ومن الممكن أن إدريس لم يكن يعرف تفاصيل هذه القصة، فاعتمد على ما وجد في الوثائق الموجودة في اليمن وأهمها السجلات من معلومات ومن تعيين مرزبان بن إسحاق للدعوة بالهند حوالي سنة ٤٧٦. ويرى عباس الهمداني أن كتاب عيون الأخبار لم ترد فيه تفاصيل كثيرة. ويرى أيضاً أن «عدة من الدعاة بعثهم الصليحيون ورؤساء الدعوة اليمنية إلى الهند حتماً، ولكن ليست عندنا مصادر وردت فيها أسماؤهم، إلى أن نقل في سنة ٩٤٤ مركز الدعوة من اليمن إلى الهند».

الحي»، كما حكاه خوج بن ملك، فقد دخلت الدعوة في الدكن (الهند) سنة ستين وأربع مئة[1].

وكانت الدعوة الهندية متصلة اتصالاً مستمراً بمركزها في اليمن، ورؤساء الدعوة باليمن كانوا متصلين، كما يظهر من رسالة الملك المكرّم أحمد الصليحي الموجّه إلى إمامه المستنصر، يطلب من الإمام السماح والإذن لدعاة الهند بإظهار الدعوة جهراً. قال فيها[2]:

«. . . فالملوك ينهى أن رسل داعي الهند عنده مقيمون. كانوا في هذه الفتنة قد عادوا من بلدهم بالأجوبة عن التشريف الصادر إليهم من الحضرة قدسها الله، عن يد الأجل الأوحد. فأخذت [با] لأجوبة والزكوات من أيديهم. وكان مضمون الأجوبة لسؤال في الإذن بالقيام وإظهار الدعوة بالقهر. وأما باللسان فقد سبق لهم الإذن [من] المملوك لرغبته في إنتشار أمر مولاه وعلوّ دعوته يسأل [في] تشريفهم بكتاب يتضمن ما طالع به والإذن لهم في القيام [بإ]ظهار الدعوة جهراً. والله سبحانه يؤيدهم بتأييد وليّهم [و] ينصرهم على عدوهم. والسلام على مولانا وسيدنا (معـ]ـد أبي تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين عليه وعلى [آبا]ئه الطيبين الطاهرين وأبنائه الأكرمين المنتجبين [أفـ]ـضل الصلوة والتسليم. صدر غرة ذي الحجة سنة إحدى وستين [وأر]بعمائة. . .».

وقد أجاب المستنصر عن إحدى رسائل الملك المكرّم الصليحي في سجله المؤرخ في ربيع الأول سنة ثمان وستين وأربع مئة بقوله[3]:

«. . . وأما ما أوردته من شأن الداعي المقيم بالهند ومضيّه لسبيله، فالله تعالى يرحمه ويتجاوز عنه، وقولك في دعاء الحاجة إلى من يسدّ مسدّه، ويحفظ نظام المؤمنين بتلك الديار جاهداً جهده، فأنت أقرب الناس من ذلك الخط،

---

(١) عباس الهمداني: بحث ١٧٤.
(٢) رسائل القمي ٧١.
(٣) عيون ٧ / ١٢٣؛ السجلات رقم ٤١.

وأولاهم بالقبض فيه والبسط، فأفسح في ذلك وفي سواه غاية الأمل واللحظ، ولك من سكون أمير المؤمنين إليك أوفر الحظ. فدبِّر من يسدّ مسدّه، وكاتب بذكر من يقع الإعتماد عليه لنعضّده بالمكاتبة ونشدّه. . .».

ولّما وقع اختيار المكرّم على تعيين مرزبان بن إسحاق بن مرزبان للدعوة بالهند، سنّت القوانين بالقاهرة، وأرسلت إلى اليمن، على يد الأمير معز الدولة طوق بن ناسك في سنة ست وسبعين وأربع مئة[1].

وتوفي مرزبان بن إسحاق. فأرسلت الملكة الحرة تخبر الإمام بذلك، فأجابها المستنصر في سنة إحدى وثمانين وأربع مئة بالموافقة على تعيين أحمد الابن الأكبر للداعي المتوفي بدلاً من أبيه للقيام بالدعوة في بلاد الهند[2].

ثم أخذت الدعوة في الهند تنتشر وتكسب أرضاً وأعواناً، وظلت تابعة للدعوة اليمنية، حتى انتقلت في سنة أربع وأربعين وتسع مئة إلى الهند.

فالدولة الصليحية في اليمن وما انضاف إليها من بلاد أخرى صارت أداة فعالة لنشر نفوذ الخلافة الفاطمية؛ أو بعبارة أخرى: إن هذه العلاقة التي قامت بين الدولتين كانت ذات فائدة مزدوجة لهما. فبينما كانت من جهة سبباً في مدّ نفوذ الفاطميين إلى كل هذه الجهات، كانت من جهة سبباً في توسع رقعة نشاط الدولة الصليحية في داخل اليمن وخارجها، وفي نفس الوقت كانت سبباً من أسباب ضعف دولتهم، كما سنذكره في باب سقوط الدولة الصليحية.

العلاقات الاقتصادية

بدأت علاقة مصر التجارية ببلاد اليمن منذ أيام الفراعنة لحاجة هؤلاء إلى حاصلاتها وخاصة البخور اللازم للمعابد ولتحنيط الموتى. وكان لهذه السلع سوق نافقة في ثغر ظَفارِ على الساحل الجنوبي من جزيرة العرب. وزاد اتصال المصريين ببلاد بُنْت[3]، وبالتالي ببلاد اليمن، في عهد تسلط دولة معين عليها أيام الأسرة

(١) السجلات رقم ٦٣.

(٢) نفس المرجع رقم ٥٠؛ عيون ٧ / ١٢٣ - ١٢٥.

(٣) بنت، هي بلاد الصومال والجهات المقابلة لها من بلاد الحبشة.

الثامنة عشرة الفرعونية. ولما انتقلت السيادة في بلاد اليمن إلى دولة سبا، أصبحت اليمن جسراً بين الشرق والغرب، وكان لها مع بطليموس الثاني (٢٨٣ ـ ٢٤٥ ق. م.) علاقات تجارية خطيرة.

ولما سقطت مصر في يد الرومان سنة ٣٠ ق.م. حاول هؤلاء القضاء على تجارة حمير، فأعاد الإمبراطور تراجان حفر قناة سيزوستريس[1] التي كانت قد طمت بالطمي في أواخر عهد البطالسة، كما تحالف مع الأحباش، وأصلح ثغور البحر الأحمر، وحاولت حمير المقاومة ولكن بدون جدوى، فتدهورت العلاقات التجارية واضمحلت، كما حدث لسبأ ومعين من قبل.

هذا ما كان من أمر علاقة مصر التجارية باليمن في العصور القديمة. أما في العصور الوسطى فإن العلاقات بين الدولتين العباسية والفاطمية كانت دائماً علاقات عدائية، لأن الفاطميين لم يستطيعوا تأسيس سلطانهم السياسي والديني إلّا على حساب العباسيين. وقد نجح الفاطميون بالدعاية تارة، وبقوة السيف، وبذل المال، واستغلال مطامع الأفراد تارة أخرى، في بسط نفوذهم على شمال إفريقية وصقلية ومصر والشام وآسيا الصغرى وعلى سواحل البحر الأحمر، كما اعترف بسلطانهم حكّام اليمن وأمراء الموصل وبلاد ما وراء النهر ومكة والمدينة، بل وبغداد حاضرة العباسيين.

ولقد أخذ النزاع بين الدولتين مظاهر مختلفة، نخص منها المنافسة التجارية، لأن الدولة العباسية كان يهمها دائماً أن تعمل على عرقلة سياسة الدولة الفاطمية في جميع نواحيها. ولكن نظراً لأن النزاع بين الدولتين لم يحتدم في الفترة التي سبقت حكم الخليفة المستنصر الفاطمي فقد اعتمد كل من الدولتين في تجارتها الخارجية على ناحية معينة من غير التعرّض لتجارة الدولة الأخرى. فكان اعتماد

(١) وسميت هذه القناة باسم قناة أمير المؤمنين عند فتح العرب بقيادة عمرو بن العاص، وهي تصل النيل بالبحر الأحمر.

الفاطميين على التجارة مع دول البحر المتوسط، لأن الدول الغربية فضلت الطريق من الشرق إلى الغرب عَبْر مصر على الطريق المنافس له عبر بلاد الجزيرة والشام، لأنه يستغرق وقتاً أقل. ولذلك كانت تكاليف النقل أقل بكثير، مما أدى إلى رخص أسعار السلع بالنسبة إلى السلع التي كانت تنقل عن طريق بلاد الشام. ومهما يكن من شيء، فإن تجارة الفاطميين قبل القرن الخامس الهجري كانت رائجة مع المدن الإيطالية وفرنسا وأسبانيا وصقلية بل مع الدولة البيزنطية في حالة استقرار السلام بينهما. وقد أدى الإتصال التجاري بدول البحر الأوسط إلى إهمال طريق الجنوب، بل إلى إهمال بلاد اليمن والهند.

ويمكننا أن نعلل عدم اهتمام الفاطميين باليمن والهند بعد قيام دولتهم تعليلاً اقتصادياً. ذلك لأنهم لم يهتموا بالتجارة في هذه البلاد اهتماماً كافياً، وقد دفعهم إلى ذلك أن الدولة العباسية لم تكن قد بدأت تنافس الفاطميين بصورة جدية في هذه الناحية، لأن تولي البويهيين السلطة في بغداد أوجد بينهم وبين الفاطميين تفاهماً يقوم على أساس اتفاقهم في المذهب الديني. ومع ذلك فإن التجارة بين مصر والهند والصين كانت قائمة في أيام ابن خرداذبه، وذلك عن طريق البحر الأحمر، إلّا أنه لم تكن هناك عناية كافية بهذه التجارة. وكان هذا الطريق على ما ذكره ابن خرداذبه معروفاً من قديم الزمن إلّا أنه لم يكن حيوياً ولم يكن مركز ثغر عدن في الأهمية كما هو الآن.

ولما استولى السلاجقة على بغداد تغيّرت الأوضاع في الشرق إزاء الفاطميين، فقتل السلاجقة عدداً من الموالين للفاطميين في بلادهم، كما قتل محمود الغزنوي عدداً كبيراً منهم في السند، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تحالف المسلمون مع الدولة البيزنطية ضد الفاطميين، ومنع البيزنطيون القمح عن مصر.

وإذ قيل لنا إن الخليفة المستنصر الفاطمي «قد نظر إلى بلاد اليمن في عهد الصليحيين نظراً كلياً وأظهر فيها البرهان جلياً» لاعتبارات سياسية ودينية وأدبية، فإننا نرى أن الناحية التجارية لم تكن في مقدمة هذه الإعتبارات، مع كونها ناحية حيوية تتصل بصميم الحياة.

وأمّا المصادر والوثائق التي عثرنا عليها فلا تذكر شيئاً عن النشاط التجاري أو التعامل المالي أو التعاون الإقتصادي بين مصر واليمن في عهد الصليحيين. بل كل ما نجد في السجلات ومصادر أخرى يمنية ومصرية هو اهتمام الفاطميين بنشر دعوتهم في اليمن والمناطق التابعة لها. وكانت مصر قد اجتازت أزمة إقتصادية شديدة في عهد المستنصر، فتزعزعت أركان الدولة؛ ولكن المياه رجعت إلى مجاريها بعد أن تولّى بدر الجمالي منصب الوزارة، وانتعشت إقتصاديات مصر مرة أخرى، واستقرت الأمور، وتوثقت الروابط السياسية والدينية بين مصر واليمن كما تظهر من هذه الوثائق، إلّا أننا نتفقد فيها بدون جدوى ذكر مسائل إقتصادية أو مساعدات مالية بين الدولتين المواليتين. وقد رأينا فيما سبق أن الملك علي بن محمد الصليحي كان يبعث إلى إمامه بمصر «هدايا جليلة القدر لم يسمع بمثلها»، ورأينا أن الملكة الحرة الصليحية تركت بمقتضى وصيتها كل ما تملكه من المجوهرات والمصوغات بل كل ما تملكه من ثروة، منقولة إلى إمامها المستور أبي القاسم الطيب. وقد رأينا أيضاً أن مصر لم تمنح الصليحيين، إلّا ألقاباً رنّانة وجلابيب فضفاضة من النوع الدبيقيّ، ولم تبعث إليهم إلّا تشريفات وتهاني وتعازي وغيرها من المجاملات، بل لم تساعد الدولة الصليحية في أشد أزماتها وأنكد أزمانها بالمال ولا بالجيش؛ وتركت أعباء الحروب في داخل اليمن وخارجها على عاتق حلفائها المخلصين. ولما طلبت الملكة في أواخر عهدها حينما تدهورت الحالة باليمن من إمامها مساعدات بعثت مصر إليها في سنة ٥١٣ الأمير الموفق علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة مستشاراً يصحبه عشرون فارساً إلى اليمن ليقوم بهذه المساعدة. وأمدّ الوزير مأمون البطائحي ابن نجيب الدولة مندوب مصر باليمن «ببعض المال وأربع مئة قوس أرمني وسبع مئة أسود». فهذا كل ما عرفناه من عون عسكري لليمن. وأغلب الظن أن هؤلاء الأرمن والسود كانوا مرتزقة أو عبيداً أراد الوزير أن يتخلص منهم. وإذا وجدنا أن الملك المكرم أحمد الصليحي سكّ الدينار الملكي أو أن الأمير الخطاب بن الحسن الحجوري ضرب سكة باسم الخليفة المنصور أبي علي الآمر بأحكام الله فهذا يدل على أمرين: أولاً مدى ولاء الصليحيين

للفاطميين، وثانياً فوائد محققة لرواج التجارة المحلية والنهوض بالحالة الإقتصادية بدون علاقة بالمعاملات المالية بين البلدين.

ولقد أفادت اليمن في هذا العصر لو تحولت طريق التجارة إلى جنوب جزيرة العرب. ولكن الخلافة الفاطمية لم تبذل باليمن عناية تامة، لتكون عـلاوة على الإعتبارات السابقة قاعدة تجارية تقع على الطريق بين مصر والشرق، مع أنها اهتمت بأمر الهند لغرض ديني بحت ونشر نفوذ الدعوة الفاطمية في أقصى البلاد، لا لإنعاش التجارة بطريق اليمن.

فيمكننا أن نقول إن إهمال الدولتين في إيجاد التعاون الاقتصادي والتعامل التجاري الذي يربط البلاد إقتصادياً ويقوّيها ويغذّيها كان سبباً من أسباب ضعف الدولة الصليحية.

الباب الثامن

أسباب ومظاهر سقوط الدولة الصليحية

أسباب سقوط الدولة الصليحية

لقد أصبح للدولة الصُّليحية بفضل مؤسسها علي بن محمد الصليحيّ مركز ممتاز في العالم الإسلامي. فقد تمكّن الصليحيّ من جمع اليمن كله تحت لواء دولته، كما مدَّ نفوذها إلى البلاد المقدسة في الحجاز شمالاً وحضرموت جنوباً. وفي عهد خلفه أحمد المكرّم صارت عُمَان والأحساء والبحرين والهند والسند تحت النفوذ الروحي للدولة الصليحية؛ فبلغ هذا النفوذ أبعد غاياته في عهد الملك المكرَّم. وهذه الدولة التي حاولت أن تسعد رعيتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ما لبثت أن أخذت في الضعف، شأنها في ذلك شأن كل كائن حيّ.

وإذا أردنا أن نعرف أسباب هذا الضعف، وجب أن نرجع ذلك إلى أصول بعيدة، لا يمكن أن نتغاضى عنها.

نظام الإقطاع

ولقد استفادت هذه الدولة من غير شك من الحالة التي سبقتها. وكانت اليمن، كما ذكرناه فيما سبق، تسود فيها الفوضى والإنحلال قبل ظهور الملك علي بن الصليحي، ويحكم عليها الأمراء والسلاطين وبخاصة أقواهم بنو النجاح العبيد في تهامة اليمن، فباستيلائهم على حكم تهامة وما جاورها وجد روح التمرد والتذمر بين القبائل العربية التي عبرت عن عدم ارتياحها لهذه الحالة بالإنضواء تحت راية ملك عربي ينتمي إلى صميم قحطان، وقبول بعض القبائل الدخول في الدعوة الفاطمية مع كونها تخالف إلى حدٍّ ما عقيدتهم، بعد أن رأوا من علوّ همة الصليحي وانتصاراته

وحسن سياسته وحرصه على مصالح رعيته. ولعل إنتشار نفوذ الصليحي في البلاد يرجع إلى رغبة تلك القبائل في التخلّص من حكم العبيد، بل من الحكم مطلقاً.

ولكن هل ارتاحت العرب واطمأنت بعد هذا؟ وقد صيّر الصليحي شتات أمرهم وحدة يمنية جامعة، وقضى على الدويلات وأطماع سلاطينها، وأدخل نظاماً من نوع آخر بدل الفوضى والإنفرادية واستقلال النظام القبلي بقدر ما ترتب على هذه الوحدة (وحدة اليمن) من منافع محققة للشعب، وما بذله الصليحيون من جهد لإسعاد شعبهم طوال مدة حكمهم، وما فعلته هذه السياسة من تثبيت مركز دولتهم، فإن عوامل الإنحلال والتذمر أخذت في الظهور مرة أخرى، بعد أن وجدت هذه القبائل وزعماؤها أنها فقدت ما كانت تتمتع به في ظل النظام القبلي المستقل، الذي كان منتشراً في الجهات المختلفة وحلّ محلّه نظام الإقطاع في عهد الدولة الصليحية، لتستعيض به عن الحكومة المركزية ابتغاء الحصول على قسط من الأمن.

أضف إلى ذلك ما ذكرنا فيما سبق من إهمال الدولة الصليحية والخلافة الفاطمية في تحقيق التعاون الاقتصادي والتبادل التجاري بينهما، بل استنزفت الدولة قسطاً كبيراً من مالية الدولة في الحروب الداخلية والخارجية بسبب العداء القائم بين هذه الدولة وأصحاب المذاهب الأخرى.

ومما لا شك فيه أن الزراعة والفلاحة هما قوام هذا المجتمع، وأن جمهور ذلك المجتمع يتكوّن من الفلاحين. وبذلك تكوّنت طبقة من المستأجرين ضخمة العدد، ولم تكن هذه الطبقة إلّا من القبائل الفقيرة التي لم ترض بحكم الصليحيين. ولما كانت ثروة الدولة تعتمد الإعتماد الكلي على المتحصل من هؤلاء المستأجرين، فإن عدالة سلطان الصليحيين كانت تقتضيه أن يسهر على مصلحتها ويضرب على أيدي الولاة المخالفين لتعاليمه، ليحول بذلك دون انتشار روح التذمر بينهم. وقد رأينا أن الملك علياً الصليحي وعد عماله بالتنكيل إذا رفع إليه شيء مما نهاهم عنه، كما أمر جميع الرعية أن يرفعوا إليه ما يكون من العمال من فعل القبيح والحسن، حتى ينزل بهم من إنعامه وعقوبته بحسب أفعالهم[1].

---

(١) عيون ٧ / ١١؛ انظر ص ٨١ من الباب الرابع.

وقد دعاه إلى ذلك خوفه من أن ظلم الولاة قد يثير حنق الرعية، وتعلّم ذلك ممن سبقه إلى حكم اليمن فعرف أنه بسياسة اللين المقرونة بالحزم يمكنه أن يحفظ دولته من أعاصير الفتن والثورات. وكان الصليحي قد وزّع السلطة في البلاد بين من يثق فيهم من الصليحيين والزواحيين، فأصبح كل حصن يحكمه أحد أعوانه، غير أننا نرى أن هؤلاء الولاة كانوا مقيدين بسياسة خاصة، رسمها لهم الصليحي ليسيروا على نهجها، ولكن على الرغم مما يبدو في هذه السياسة من المنافع لمصالح الرعية، ولحرص الصليحي على استقرار الأمن في ربوع دولته، ما لبثت الأمور أن تغيّرت بعد قتله في المهجم سنة تسع وخمسين وأربع مئة، وذلك لأن مدة حكم المكرم استنفدت كلها في الحروب، فلم يقدر أن يلتفت كثيراً لمصالح الرعيّة فأخذ نفوذ حكام الحصون يزداد، وأخذ روح التذمر والإستياء من هذا النظام يزداد تبعاً لذلك. هذا إلى ما استتبعه ذلك من الأعباء الثقيلة التي كان يقع غرمها على طبقات الشعب الفقيرة وحدها ولم يكن هذا التذمر يرجع إلى عدم تعودهم هذا النظام الجديد، وحده، بل كان يرجع إلى حرمانهم الامتيازات والمنافع التي كانت تتمتع بها طبقة رؤساء الإقطاع الذين كانوا يختارون من قبائل أرستقراطية معينة كالصليحيين أو الزواحيين أو اليامين، لتضمن الدولة الصليحية تنفيذ سياستها. ولعل كثرة الحروب التي قام بها الملك المكرم ترجع إلى الاستياء الذي جعل حكمه غير مستقر، مما استنفد كثيراً من الجهد والمال. وقد تمكّن مع ذلك من حفظ دولته من هذه الأعاصير المضطربة، بفضل ما أوتي من شجاعة وعزم.

ولما توفي الملك المكرّم سنة سبع وسبعين وأربع مئة، وانفردت زوجته الملكة الحرة بالحكم، وأنس حكام القلاع ضعفها، تاقت نفوسهم إلى الإستقلال بما تحت أيديهم. وعلى الرغم من أنها استعملت الحكمة والدهاء، وسيّرت الأمور في الصدر الأول من حكمها، باعتمادها على رجال ذوي كفاية وعلى معاضدة الخلافة الفاطمية لها، كانت عوامل الإنحلال والضعف أقوى من هذه السياسة. فأخذت مظاهر الضعف تظهر بوضوح كلما تقدمت الملكة في السن، واستفحل أمر الولاة الطامعين.

عداء أهل المذاهب

أضف إلى ذلك أن الصليحيين استطاعوا أن يكونوا دولتهم وسط بحر خضم من السنيين، وأن هذه الدولة كانت تحكم مجتمعاً يدين معظمه ـ ما عدا الزيدية ـ برياسة الخلافة العباسية على العالم الإسلامي، وكان يحنق على نفوذ الخلافة الفاطمية ودعوة الفاطميين في اليمن، وأن الفقهاء والعلماء بالخصوص تمادوا بدون هوادة أن يثيروا الجماهير إلى تكفير أهل الدعوة، ونسبوا إليهم ظلماً وعدواناً تحليل الحرام وتحريم الحلال[1]. فالتفت الجماهير بفضل مسعى الفقهاء حول بني النجاح الذين صاروا في نظرهم رمزاً للمذهب السنّي، وفضّلت حكم العبيد الحبشة على وحدة اليمن تحت ظل دولة الصليحيين العربية. وقد ساعد بني النجاح وجود آلاف مؤلفة من الحبشة الذين استعمروا تهامة اليمن وبعض الجزائر الواقعة على الساحل الغربي من اليمن، والذين كانوا يتكتّلون لمعاضدة دولتهم في تهامة. وقد أهمل الصليحيون إتخاذ إجراءات حاسمة للقضاء على هذا الاستعمار الأجنبي، بعد تجارب عديدة من تكتلهم ضد العرب. ولا يمكننا أن نعزو هذا العداء كله إلى النظام الإقطاعي، الذي أوجدته الدولة الصليحية وحده، بل إن رغبة النجاحيين في إعادة سلطانهم، ورغبة الأهالي في حكمهم، لأنهم يمثلون مذهب أهل السنة، كان سبباً جوهرياً في إثارة الحروب بين الفريقين وإضعاف الدولة الصليحية. وكان النصر في النهاية لبني النجاح،

---

(١) راجع كتاب كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة تأليف الفقيه محمد بن مالك الحمادي من فقهاء أهل السنة باليمن في أواسط المئة الخامسة، وما نسبه إلى أبي القاسم منصور اليمن وعلي بن محمد الصليحي وإلى الدعوة من الأكاذيب والأباطيل، من غير أصل ولا أساس، بعد أن ادعى أنه دخلها، وعرف أسرارها، واطلع على كتبها، وتصفح جميع ما فيها. وقد وقفنا على ما بلغ من حقد هؤلاء الأفاضل الفقهاء الذين ثاروا على الأمير المفضل الحميري بالتعكر، حتى أخرجوا حظاياه من السراري وجعلوا بأيديهن طارات وأطلعوهن على سقوف قصوره بحيث يشاهدهن ويسمع أصواتهن، لكي يموت من الغيرة والغيظ، ووقفنا أيضاً على ذهاب الملكة إلى باب التعكر للمفاوضة، وعلى إيفائها شروطاً اشترطوا عليها. والمعروف إلى الآن أن الملكة وقفت أوقافاً جليلة القدر تصرف منها على تدريس صحيح البخاري مع كونها فاطمية المذهب، وذلك لكي يرضى بهذا العمل الفقهاء ورعاياها السنيون. فكافأها الفقهاء بمطالبة إخراج جثتها بعد وفاتها.

فخلص لهم حكم تهامة. ولم يتمكن الأمير المفضل بن أبي البركات الحميري، وبعده الأمير الموفق علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة من فتحها، واستمرت الدولة النجاحية في تهامة حتى سنة أربع وخمسين وأربع مئة، حين استولى عليها علي بن مهدي الحميري[1] وبقي بها حتى أزال ملك بني مهدي السلطان توران شاه الأيوبي سنة تسع وستين وخمس مئة.

وكان ائمة الزيدية ورؤساؤهم، كما كان الحبشة، مثار اضطراب شديد في عهد الدولة الصليحية. فقد ظلوا في حالة حرب معهم طوال مدة حكمهم لليمن. وذلك يرجع إلى العاملين الدينيّ والسياسيّ معاً. وكان الأئمة الزيدية ينافسون الخلفاء الفاطميين في الإمامة والحكم. وأيد الصليحيون دعوى الفاطميين برياسة المسلمين. فاحتكوا بالصليحيين برغم اشتراكهم في التشيع وحب أهل بيت النبي الذي كان يجمع الفريقين. وكان العامل السياسي أقوى من الإختلاف الديني، لأن الدعوة الفاطمية وقفت من يوم حضور الإمام الهادي إلى الله يحيى بن الحسين باليمن حجر عَثْرة إزاء توسع الدعوة الزيدية باليمن. فما استطاع الأئمة نشر دعوتهم بالتي هي أحسن. وذلك لأن الدعوة الفاطمية رمت إلى نفس الهدف، وهو إنشاء دولة موالية لأهل بيت النبيّ باليمن بعدما كابدوا من ظلم واعتساف بأيدي الأمويين والعباسيين، وأدركت مطالبها في أيام منصور اليمن[2]، ثم في عهد الصليحيين بصورة أوسع وأقوى من المجهود الزيدي. فاشتبك الفريقان أو الدعوتان في صراع دموي، للوصول إلى نفس الغاية. وإننا نرى أن هذه الغاية كانت سياسية أكثر من أن تكون دينية بحتة؛ والدليل على ذلك ما رأينا من انضمام رؤساء الزيدية لدولة الحبشة العبيد السنيين والتحالف معهم ضد الصليحيين، كما فعل الإمام أبو الفتح الديلميّ حين استولى الملك علي بن محمد الصليحيّ على صنعاء أو كما فعل أشراف المخلاف السليماني حينما دعوا الغز الذين احتلوا مصر أن يحتلوا اليمن.

---

(١) كان من حمير من قرية العنبرة في قرب زبيد. وكان ظهوره سنة ٥٣١. قضى على الدولة النجاحية في تهامة سنة ٥٥٤ حتى قضى على ملكه توران شاه الأيوبي سنة ٥٦٩ (عمارة / كاي ٢٩ ـ ٣٠).

(٢) الباب الثاني من هذا الكتاب.

وقد وقفنا على الحوادث التي حدثت بسبب احتكاكهم بالدولة الصليحية في عهد الملك علي بن الصليحي وفي عهد ابنه الملك المكرّم؛ وذكرنا ما كان من انضمام الشريف يحيى بن حمزة السليماني إلى النجاحيين في موقعة الكظائم وما كان من هزيمة العرب تحت راية الصليحيين[1]. وظلت صعدة نتيجة لهذا النزاع منطقة للتجاذب بين القوتين، حتى عهد الملكة الحرة سنة ٥١١، حيث ثار الأمير المحسِّن ابن الحسن[2] داعي الإمام أبي طالب يحيى بن أحمد بن الحسين الهاروني الديلمي[3] واستولى على نجران والجوفين والظاهر وحصن ثلا، وقاتل الصليحيين حتى قتل السلطان سليمان بن عامر بن سليمان الزواحي في وقعة نشبت بين ثلا وكوكبان في سنة ٥١١. ولم يقو الصليحيون بعد ذلك على إعادة نفوذهم في اليمن الأعلى.

وهذا العداء الذي رسّخ في قلوب أهل المذاهب يفسّر لنا الأسباب التي جعلت حكم هذه الدولة لليمن حكماً غير مستقر، بل جعلت حكمهم كأنه قائم على فوهة بركان، لا يستقر له قرار، كما يفسّر لنا الحروب المستمرة التي قامت بها الدولة الصليحية: وكانت الدولة النجاحية من جهة، والفقهاء من جهة، والأشراف من جهة، من أهم العوامل التي أضعفت الدولة الصليحية، لأنهم ظلوا طوال حكم الصليحيين (٤٣٩ ـ ٥٣٢) في حالة حرب معهم، مما جعل الدولة تستنفد الكثير من جهودها في سبيل مقاومتهم.

عدم التعاون بين الحاكم والمحكوم

فإذا كانت الحكومات التي تمثل الأغلبية في الشعوب لم تتمكن من تحقيق العدل السياسيّ والاجتماعيّ في مجتمعاتها من أقدم العصور إلى الآن، فإنه لا ينتظر من أقلية فاطمية المذهب تحكم أكثرية سنية أن يتحقق هذا العدل على يديها.

---

(١) ص ١٥٢ ـ ١٥٤.

(٢) هو المحسن بن الحسن بن الناصر بن الحسن بن عبد الله بن محمد بن القاسم المختار بن الناصر أحمد بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي، قام بدعوة الإمام أبي طالب باليمن. ولم يزل على إمارته حتى قتله الحدادوي بصعدة.

(٣) هو أبو طالب الصغير يحيى بن أحمد بن الحسين بن الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهارونين من بلاد الجيل والديلم.

ولكن يمكن أن نقول إن بلاد اليمن كانت أحسن حالاً تحت حكم الصليحيين مما كانت عليه قبل ذلك الحكم، وذلك نتيجة للوحدة التي أوجدتها الدولة الصليحية؛ بل إن الصليحيين عملوا إلى حد كبير على إسعاد شعبهم طوال مدة حكمهم، بما خولتهم الظروف المحيطة بهم. ولكن إذا كانت هذه الدولة لم توفق إلى ما قصدته، فذلك يرجع إلى أن معظم الرعية كانوا يعتقدون في كفر رؤسائهم. وليس من السهل أن ينزع هذا الإعتقاد من صدورهم مهما قدم لهم الصليحيون من خدمات.

كما ينبغي ألا يفوتنا أن أمور الحكم إنما تستقيم حينما يكون التعاون والتضامن بين الحاكمين والمحكومين في الأصول التي يقوم عليها النظام. فليس يكفي أن يكون الحاكم نقي الضمير، مؤثراً للعدل، مصطنعاً للمعروف، حريصاً على رضا الله، كافياً بعد ذلك لمشكلات السياسة، خراجاً منها إذا ادلهمت، وإنما يجب أن يكون لرعيته حظ من هذا الضمير الحي اليقظ، ومن حب العدل، وإيثار المعروف. وهذه المشكلة واجهتها الدولة الصليحية في اليمن، فلم يكن هناك تضامن صحيح بين ملوك هذه الأسرة والكثرة الضخمة من رعاياهم.

مظاهر سقوط الدولة

على الرغم من أن هذا التضامن كان قائماً بين السلاطين من آل الصليحي وبين الطبقة الأرستقراطية التي أوجدها النظام الإقطاعي في عهد الصليحيين من الزواحيين واليامبين وغيرهم، وعلى الرغم من أن الملكة الحرة قد استعانت ببعض الشخصيات في إدارة شئون دولتها، إلّا أن الحالة أخذت في الضعف والإنحلال لأسباب ذكرناها آنفاً.

فقد استقل النجاحيون كما رأينا بتهامة وزبيد بعد موقعة الكظائم سنة تسع وسبعين وأربعة مئة. ثم استولى عليها علي بن مهدي الحميري الرعيني[1] سنة أربع وخمسين

---

(١) من حمير من أهل قرية العنبرة من سواحل زبيد وحاصر ابن مهدي زبيد، «واستنجد أهل زبيد الشريف الرسي أحمد بن سليمان صاحب صعدة، فأنجدهم طمعاً في الملك، واشترط عليهم أن يملكوه عليهم وأن يقتلوا مولاهم فاتكاً فقتلوه. ثم عجز الإمام الشريف عن نصرهم وهرب» كما رواه عمارة / كاي ٩٦.

وخمس مئة، وقام بعده ابناه مهدي بن علي وعبد النبي بن علي حتى انتهت دولة بني مهدي بتهامة بزحف السلطان توران شاه الأيوبي سنة تسع وستين وخمس مئة.

وبعد وفاة السلطان أبي حمير سبا بن أحمد الصليحي سنة إثنتين وتسعين وأربع مئة خرجت صنعاء من الدولة الصليحية. واستولى عليها السلطان حاتم بن الغشم المغلسي الهمداني[1] وناصرته قبائل همدان، وصارت بعده إلى ابنه عبد الله بن حاتم، ثم إلى أخيه معن بن حاتم. ثم خلعته همدان وولت مكانه كلاً من هشام وحماس ابنيّ القُبَيب الهمداني. ثم اختارت همدان السلطان حاتم بن أحمد (المجيدي) بن عمران بن الفضل اليامي الهمداني[2] للقيام بأمر صنعاء وأعمالها في سنة ثلاث وثلاثين وخمس مئة. وملكها بعده ابنه السلطان علي بن حاتم، وضربت باسمهما السكة وأقيمت لهما الخطبة[3]. وانتصر علي بن حاتم اليامي في وقعة ذي عُدَينه على جيوش عبد النبي بن علي بن مهدي الحميري نصراً عظيماً وفرّ عبد النبي إلى زبيد. فاتسعت رقعة دولة الهمدانيين على معظم اليمن الأعلى في عهد السلطان علي بن حاتم؛ حتى أزاله وأخاه السلطان بشر بن حاتم اليامي الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب عن صنعاء وذمرمر وغيرها من الحصون والمعاقل[4].

وصارت عدن ونواحيها إلى تعزّ والجَنَدوجبلة وما يليها في ملك بني زريع بن العباس بن الكرم الجشمي الهمداني إلى أن استولى عبد النبي بن علي بن مهدي على التعكر والجند وتعز وجبلة وغير ذلك من المعاقل والمدن. فبقيت عدن في أيديهم حتى أزالهم عنها الملك المعظم توران شاه بن أيوب، وتسلم بعده الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب الدملوة وحب بعد أن حاصرها أربعة عشر شهراً. وخرج منها جوهر المعظمي والي بني زريع، وكان معه فيها ابنا عمران بن محمد بن سبا الزريعي الصغيران.

---

(١) من بني المغلس ثم من مذكر ثم من يام (عيون ٧ / ٢٣١).

(٢) كان القاضي عمران بن الفضل اليامي جد السلطان حاتم بن أحمد والياً على صنعاء فعزله بالملك المكرم الصليحي؛ ثم قتل في وقعة الكظائم في عهد الملكة.

(٣) عيون ٧ / ٢٣١.

(٤) نفس المرجع ٧ / ٢٣٢.

وكان سليمان وعمران ابنا الزر من خولان قد استقلا بحصنيّ خَدِد والتعكر سنة أربع وعشرين وخمسة مئة، وذلك بعد أن غادر ابن نجيب الدولة سواحل اليمن. ثم استولى عليهما بنو زريع، ثم ابن مهدي إلى أن طوى الغز بلاد اليمن.

وقد انتهت معارضة الصليحيين للدولة الزيدية بصعدة بعد وقعة ثلا في سنة إحدى عشرة وخمس مئة. وبعد أن قتل الحدادون الأمير المُحسِّن بن الحسن بصعدة قام بأمر الحسبة الأمير علي بن زيد بن إبراهيم[1] في سنة إحدى وثلاثين وخمس مئة. وفي السنة التالية قام المتوكل على الله أحمد بن سليمان[2] بأمر الإمامة فصارت صعدة وما يليها لبني الهادي، وشهارة وما يليها لبني القاسم العياني، وتهامة الشام إلى وادي عين للأشراف من بني سليمان[3]. ولما صار أمر المخلاف السليماني بيد الشريف غانم بن يحيى بن حمزة قامت بينه وبين عبد النبي بن علي بن مهدي حروب كثيرة قتل فيها غانم بن يحيى سنة ستين وخمس مئة[4].

مصير حصون آل الصليحي وأموالهم

وكان منصور بن المفضل بن أبي البركات الحميري مستولياً على ذي جبلة وملك بني المظفر في أشيح وحصونهم بعد وفاة أبيه المفضل سنة أربع وخمسة مئة. وكان يدين بالطاعة إلى الملكة الحرة حتى وفاتها سنة إثنتين وثلاثين وخمس مئة. وبعد ذلك استولى على ما كان تحت يدها من حصون وذخائر وأموال. ولما تقدمت به السن وصار لا يقدر على حماية هذه الحصون من الطامعين، وأعيته الشيخوخة عن التحرك، باع حصون بني الصليحي ومدنهم سنة سبع وأربعين وخمس مئة[5]، وهي ثمانية وعشرون حصناً ومدائن، منها مدينة ذي جبلة وحصن

(١) هو علي بن زيد بن إبراهيم المليح بن المنتصر محمد بن القاسم المختار بن الناصر أحمد بن الهادي يحيى بن الحسين.

(٢) هو أحمد بن سليمان بن المطهر بن محمد بن المطهر بن علي بن الناصر أحمد بن الهادي يحيى بن الحسين.

(٣) أنباء / دار ٥٢.

(٤) المقتطف ٧٣.

(٥) عيون ٧ / ٢٠٧. وذكر صاحب العيون (٧ / ٢٣٢) أن بقي في أيدي بني الصليحي حصن أشيح وحصن قيضان إلى أن أزالهم عنها سيف الإسلام طغتكين.

التعكر وذي أشرق وإب. وقد ابتاعها المتوج محمد بن سبا بن أبي السعود الزريعي بمئة ألف دينار. وطلّق منصور زوجته الصليحية الأميرة أروى بنت علي بن عبد الله بن محمد الصليحي. فتزوّجها الملك محمد بن سبا[1]، فانتقلت حصون آل الصليحي وذخائرهم وما ورثت الأميرة أروى الصليحية من الثروة إلى محمد بن سبا الزريعي، ثم إلى ابنه عمران ابن محمد بعد وفاة أبيه في سنة ستين وخمس مئة. فقوي نفوذ الملك محمد بن سبا الزريعي تبعاً لذلك، وطاش فرحاً لما صار إليه من المال والقوة والمعاقل والعقائل[2]. ونزل منصور بن المفضل إلى حصن تعز وصَبِر، ولم تزل صحته تتدهور حتى وافاه الموت سنة إثنتين وخمسين وخمس مئة. فخلفه ابنه أحمد، واستمر هذا مالكاً لتعز وصبر حتى سنة ثمان وخمسين وخمس مئة، حيث اشتراها منه علي بن مهديّ. وانتقل أحمد إلى الجَنَد فسكنها إلى أن توفي سنة ثلاث وستين وخمسة مئة[3]. وبقيت هذه الحصون والمدن في أيدي ملوك بني زريع إلى أن استولى على بلادهم عبد النبي بن علي بن مهدي وتملك بلادهم غير عدن، فإنهم صالحوه في تركها في أيديهم[4] حتى أزالهم عنها توران شاه بن أيوب.

فتح الأيوبيين لليمن

وقد كان فتح الملك المعظم توران شاه الأيوبي لليمن سنة تسع وستين وخمس مئة بدعوة من الشريف قاسم بن يحيى بن حمزة بعد أن قتل صنوه الشريف غانم ابن يحيى وهزيمته في حروبه مع الملك عبد النبي بن علي بن مهدي الحميري «وقد استنجد الشريف قاسم صاحب بغداد الخليفة الناصر بن أحمد المستضيء العباسي علي عبد النبي. فأمر الخليفة السلطان صلاح الدين بن أيوب بنصرته»[5]. فامتثالاً

(١) عمارة / كاي ٥٦.
(٢) نفسه ٥٦.
(٣) قرة ٢٧.
(٤) عيون ٧ / ٢٠٧.
(٥) المقتطف ٨٣.

لأمر الخليفة أرسل صلاح الدين أخاه توران شاه إلى اليمن ومعه ثلاثة آلاف مقاتل، وعندما وصل توران شاه إلى ناحية صبيا من بلاد تهامة انضم إليه الأشراف [١].

وبعدئذ قصد زبيد وأخذها عنوة وقضى على دولة بني مهدي، وقضى على دولة بني زريع، وقضى على دولة الهمدانيين، وقضى على الفوضى التي كانت باليمن بعد انقراض أمر الدولة الصليحية. فلم يبق لآل الصليحي ولا للأشراف ولا لغيرهم نفوذ ولا سلطان. وبقضائه على ملك بني مهدي الحميري انقرض ملك العرب في اليمن، وصار للغز ومواليهم. وخطب للخليفة العباسي في جميع البلاد التي فتحها. وولّى سيف الدولة مبارك بن منقذ على زبيد. وعز الدين عثمان بن الزنجبيلي على عدن، كما عين في كل قلعة من قلاع اليمن التي دخلت في حوزته نائباً من أصحابه.

وهكذا انتقلت السيادة في اليمن من أيدي اليمنيين إلى الأيوبيين، الذين حرصوا على إظهار ولائهم للخلفاء العباسيين، وأقاموا الخطبة لهم في جميع أنحاء اليمن التي دخلت تحت رايتهم.

---

(١) المقتطف ٧٣.

الباب التاسع
آداب الدعوة الفاطمية وتحولها إلى اليمن

مميزات الحياة العلمية في القرنين الثالث والرابع

يمتاز القرنان الثالث والرابع بناحيتين متباينتين في تاريخ العالم الإسلامي، فبينما كانت الحالة السياسية من جهة مضطربة جداً، لازدحام الأهواء والشهوات، صلحت من جهة أخرى حياة الناس العقلية صلاحاً لم يعرف له مثيل من قبل.

ولعل ذلك يرجع إلى أن المجتمع الإسلامي لم يَكن في حقيقة الأمر وحدة سياسية. وإنما كان شعوباً مختلفة أشدّ الاختلاف، متباينة أشدّ التباين، جمعها الإسلام تحت لواء واحد، وحاول أن يمزجها ويلغي ما بينها من الفروق. فوُفق إلى تكوين حضارة إسلامية شاملة؛ ولم يُتح له العمل على إنشاء مجتمع له منهج سياسي إقتصاديّ ثقافيّ واحد في جميع تفاصيلها وفي جميع أنحاء العالم الإسلامي.

وكانت الحياة السياسية تتحسّن بتحقيق العدل ونشر الطمأنينة بين الناس. وقد يحمل الظلم والحروب كثيراً من عظماء الرجال وذوي العقول الراجحة أن يفرّوا من العمل السياسيّ إلى العمل العلميّ، لأنهم كانوا يجدون أن العمل السياسيّ يعرّضهم إلى إزهاق أرواحهم، وإلى أخطار مادّية جسيمة، على حين يحوطهم العمل العلميّ بجوّ خاص هادىء.

والخلاصة أنّ الحالة العلمية في القرنين الثالث والرابع كانت في العالم الإسلامي أنضج منها في العصر الذي قبله، فأخذ علماء هذا العصر ما نقله المترجمون من قبلهم من علوم اليونان والفرس والهند، فشرحوها وهضموها، وأخذوا النظريات المبعثرة فرتّبوها، وورثوا ثروة من جاء قبلهم في كثير من فروع العلم، ثم حاولوا أن يطبِّقوا معارفهم بالديانة الإسلامية، وأن يدافعوا عنها بطريق العلم والتجربة

والعقل لا بطريق النقل فقط؛ فنشأ فيهم علماء سمّوا بالمعتزلة والفلاسفة والمتكلّمين وإخوان الصفاء وأهل التصوّف وغيرهم من أصحاب المدارس العلمية والمذاهب الدينية.

تمسك علماء الدعوة بظاهر الشريعة

وقد دخل الأئمة الفاطميون ودعاتهم العلماء في هذا المضمار؛ وذلك لأن الدعوة الفاطمية تقوم كثيراً على مباحث العلم والجدل والمناظرات؛ وبها استطاعت الدعوة أن تنتشر في كثير من أنحاء العالم. وقد سبقهم المعتزلة في استخدام العلم في تفسير القرآن، واستخدام بعض النظم الفكرية اليونانية في تكوين نظام فكريّ خاص، يتفق مع آرائهم الدينية وعقائدهم الإسلامية. وقد اختلفت الأسباب والطرق التي أدّت إلى هذا العمل، من مزج الفلسفة بالدين وتطبيق العلم على العقيدة، كما اختلفت نتائج محاولاتهم. وقد اختلفت العلماء المعتزلة أنفسهم أمثال النظام وأبي الهذَيل والجبائي في مطابقة المحسوس بالمعقول. وكان المعتزلة يعملون هذا لا لمجرد المتعة العلمية، بل دفاعاً عن حوزة الإسلام. وكذلك ما استطاع الفلاسفة أن ينسّوا العقيدة الإسلامية، فأتوا كثيراً في مباحثهم بكلام فلسفيّ ديني. وقد سلك العلماء الصوفية المسلك نفسه للوصول إلى غاياتهم، بل بالغوا في السير حتى اضطر المحافظون أن يقفوهم في حدود العقيدة. ونرى أن الصوفية والفاطميين اتفقا بوجه خاص على تقسيم المعرفة في الظاهر والباطن، ففيه اعتراف منهم أن الظاهر هو الإسلام، وهو الأساس الثابت. فلذلك نرى أن الدعوة الفاطمية تتمسك كل التمسك بالشريعة وتكاليفها، ولا تترك أي مجال للهوادة فيها، وتعتبر الاشتغال بعلم الباطن عبادة علمية، لا وجوب لها إلّا على من أرادها واستحقها بالطاعات، وتقدم في العلوم الظاهرة. وأثبت الشيخ أبو يعقوب السجستاني في الإقليد الثالث والستين من كتاب المقاليد أن «الوقوف على الحقائق في الشرائع لا يسقط الأعمال؛ إذ أن الأعمال الشرعية من الدين، وتاركها تارك الدين والدين عند الله الإسلام». وقد ذهب علماء الدعوة إلى تكفير القرامطة وغيرهم من الجماعات التي حادت عن الدعوة الرسمية، وفضّلت الباطن على الظاهر، وقالت بتعطيل التكاليف الشرعية. ومما يدل على أن الباطن لا يحل محل الشريعة، إذ لا خلاف فيها، اختلاف علمائهم أمثال أبي حاتم

أحمد بن حمدان الرازيّ، والشيخ محمد بن أحمد النسفيّ، والشيخ أبي يعقوب السجستانيّ، في تقديم القَدَر على القضاء، وفي بعض نظرياتهم فيما وراء الطبيعة، ومحاولات الشيخ أحمد حميد الدين الكرماني، ومن أتى بعده من علماء اليمن الذين سنذكرهم ومؤلفاتهم فيما بعد[1] في التوفيق بين الآراء المتضادة المتباينة.

ومع هذا فقد اشتهر الفاطميون باسم الباطنية، واتهموا بتعطيل الشريعة؛ وذلك يرجع إلى نشأة القرامطة أولاً، ثم الدروز، ثم النزارية؛ وخروجهم جميعاً في أول الأمر على الدعوة الفاطمية الرسمية؛ واتخاذ الناقضين مبدأ الباطن أساساً لمذهبهم، وتعطيلهم الشريعة وتكاليفها، وغلوهم في أشخاص الأئمة الذين قاطعوهم وحاربوهم. فنسب التعطيل إلى أهل الدعوة كلّهم، وسموا بالباطنية، إما جهلاً أو ظلماً. وقد رأينا أن الملكة الحرة حجة الإمام في الجزيرة اليمنية، ورؤساء الدعوة اليمنية، تمسكوا بأصول الدعوة الفاطمية القديمة الرسمية. ومن مبدأ هذه الدعوة القديمة احترام الظاهر قبل كل شيء، وتأدية الأعمال الشرعية بأسرها، واعتبار الحياد عنه كفراً وخروجاً عن الدعوة، بل عن الدين الحنيف. وبالرغم من أنها أرادت قلب النظام السياسيّ المسيطر على الإسلام في أواخر القرن الثالث، وبالرغم من أنها شجّعت الجمعيات السرّية، وأيّدت الحركات الإنقلابية، كما بيناه في مقالنا عن مؤلفي الدعوة ومؤلفاتهم[2]، أصبحت الدعوة بعد قيام الخلافة الفاطمية بالمغرب في سنة سبع وتسعين ومئتين تحمي حمى الإسلام، وتتحصن في حصن الشريعة، كما يتضح في كتب الشيخين أبي حاتم الرازي، وأبي يعقوب السجستاني، وتقوم بدعائم الإسلام، كما فعل القاضي أبو حنيفة النعمان في عهديّ المنصور بالله، والمعز لدين الله، والشيخ أحمد حميد الدين الكرماني في عهد الحاكم بأمر الله، والمؤيد في الدين الشيرازي في عهد المستنصر بالله؛ فنرى أن رؤساء الدعوة صاروا، بطبيعة الحال، محافظين أشدّ المحافظة على ظاهر الشريعة، بعد أن كانوا دعاة إلى قلب النظام السياسيّ والفكري، وحاربوا الناقضين والخارجين عن حوزة الشريعة من القرامطة والدروز والنزارية.

(١) انظر الباب العاشر.
(٢) راجع J. R. A. S. (١٩٣٣) ص ٣٦٧.

رأي عالم سني عن عقائد الصليحيين

وقد أيّدنا في هذا الرأي الدكتور محمد كامل حسين بمقال قيِّم عن عقيدة الفاطميين والصليحيين[1] نقتطف منه بعض الفقرات. قال: «إن دعاة الفاطميين نادوا بالتوحيد، وتوحيد الله عندهم ينفي جميع ما يليق بمبدعاته عنه، فهم يُنزهون الله سبحانه وتعالى عن جميع ما يوصف به خلقه من الصفات والنعوت، فهم يقربون في التنزيه من آراء المعتزلة، وكما أن المعتزلة أوَّلوا الآيات القرانية التي يشتبه فيها التجسيم والتشبية تأويلاً يتفق والتنزيه، كذلك أوّل دعاة الفاطميين هذه الآيات لنفي التشبيه عن الله. وبذلك قال دعاة الدعوة الطيبية اليمنية أيضاً، فإبراهيم ابن الحسين الحامدي يقول: «أوَّل الديانة لله تعالى معرفته، وكمال معرفته توحيده، ونظام توحيده نفي الصفات عنه»[2]. ويقول علي بن الوليد في رسالة جلاء العقول: «وصفه تشبيه، ونعته تمويه، والإشارة إليه تمثيل، والسكوت عنه تعطيل، والتوهم له تقدير، والإخبار عنه تحديد»[3]. وهكذا لا يقول الدعاة بالتشبيه، ولا بالتجسيم، ولا بالتعطيل. وهم في ذلك على نحو ما قال المؤيد في الدين:

نوحدُ الله ولا نشَبِّهُ قد انتفت في ذاكَ عنا الشُّبَهُ»

«فالإعتراف بوجود الله تعالى ووحدانيته وتنزيهه أصل الدعوتين الفاطمية والطيبية، وهم في ذلك يشتركون مع أكثر المسلمين من أصحاب الفرق الأخرى».

«وهم يعترفون بالأنبياء والرسُل، وسَمُّوا الأنبياء بالنطقاء، والأنبياء عندهم معصومون في كل قول وعمل، لأن الله أجتباهم فطهرهم، حتى يقتدي بهم غيرهم من البشر وإمعانهم في القول بعصمة الأنبياء جعلهم يؤولون قصص الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم تأويلاً يتفق مع العظمة التامة الذاتية، التي خصهم الله تعالى بها. ولهم الفصول الطوال في إثبات النبوة وفضل الأنبياء والرد على من ينكر الأنبياء من أمثال الراوَنْديّ وغيره، وهم في حديثهم عن النبوة والأنبياء لا يغالون

(١) من مقال أرسله لنا صديقنا الكريم في هذا الموضوع.

(٢) الحامدي: كنز الولد ورقة ١٥٩ (مخطوط بمكتبة الدكتور محمد كامل حسين).

(٣) مخطوط بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن رقم ١٥٤٣٣.

فيهم غلوّ أصحاب بعض الفرق والمذاهب، بل الأنبياء من البشر، خصهم الله بهذه المرتبة لهداية البشر إلى الصراط المستقيم، فهم في ذلك أيضاً يشتركون مع غيرهم من المسلمين. وفي اتباع الفاطميين للأنبياء يقول المؤيد في الدين:

فكيف شرعَ الأنبياء ندفعُ ... وما لنا إلا النبيّ مرجِعُ
بنوره في الدرجات نرتقي ... وبالكرام الكاتبين نلتقي
فالعن إلهي جاحدي الشرائع ... وارمِهِمْ بألْعَنِ الفواجع
فإننا لأهلُ علم وعمل ... لله دِنًا بهما عزّ وجل»[1]

«فكل ما جاء به الأولياء والمرسلون هو الحق والصدق، والتصديق بالكتب السماوية، وأنها منزلة من الله على أنبيائه، كل ذلك قال به الفاطميون والصُّليحيون. وها هو أحد دعاة الصليحيين، وهو شرف الإسلام الخطاب بن الحسن بن أبي الحفاظ[2] المتوفى سنة ٥٣٣ يقول في إحدى مناجياته:

يا عالم الغيب منّا والشهادة يا ... باري البرية تركيباً وتصويرا
شهدتُ أنك فرد واحد صمدٌ ... شهادة لم تكنْ مَيناً ولا زورا
وجهتُ وجهيَ في سرِّي وفي عَلَني ... إليك حمداً وتهليلاً وتكبيرا
عبادةٌ هي عين الحقّ خالصةٌ ... وكان ذلك في القرآن مسطورا»[3]

«فإذا كان رأيهم في الأنبياء بهذه المثابة، فلا شك أنهم يؤدون الفرائض التي جاء بها الرسول الكريم، وسمّوا القيام بهذه الفرائض بالعبادة الظاهرة، تمييزاً لها عن العبادة العلمية أو التأويل الباطن، الذي تقول به الإسماعيلية على اختلاف فرقها وأحوالها. فالعبادتان الظاهرة والباطنة هما أسس المذهب الفاطميّ، وعنهم

---

(١) د. المؤيد، القصيدة الأولى.
(٢) انظر الباب السادس ص ١٩٣ ـ ٢٠٤.
(٣) د. الخطاب ص ١٧ (م.م.هـ.).

أخذ الصليحيون هذه الأسس ولم يغيّروا منها شيئاً إلّا ما نراه من بعض اختلاف في التأويل. والذي يهمنا الآن هو أنهم كانوا يقولون بالعلم والعمل معاً، أي بالباطن والظاهر».

«وإذا نظرنا إلى آرائهم في العبادة الظاهرة، رأينا أنهم لا يختلفون عن غيرهم من المسلمين من أهل السنّة والجماعة في القول بأن الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد في سبيل الله هي أركان هذه العبادة، وعلى المسلم أن يؤديها حسب ما جاء في الكتاب والسنة، ولا خلاف بين دعاتهم وعلمائهم في ذلك؛ فالقيام بأمر هذه القواعد فرض واجب، لا يجوز إهماله بأي حال من الأحوال، ويجب أن تؤدى هذه الفرائض في أوقاتها المعلومة التي رسمت لها، ولعنوا كل من طرح الشرائع أو جحدها».

«ويقول صاحب كتاب تاج العقائد[1]: «الإسلام محمول على القول والنطق بالشهادة وترك المعصية، وهو الباب المدخول منه إلى تطلب حقائق ما جاء به الرسول، ومنه التعلق بجميع الطاعات، وانطلاق النفس إلى الفكرة في أوامر الله، والتزام ما جاءته شريعة الخالق».

«وهكذا نرى الصليحيين ومن ورثهم من أتباع الدعوة الطيّبيّة يقومون بجميع الفرائض الإسلامية التي فرضها الله على عباده، وينهجون نهج السنة المحمدية، مثل غيرهم من المسلمين في كل البقاع. ولكن الشيء الذي خالفوا فيه أهل السنة، وخالفوا فيه الشيعة، على اختلاف فرقها، هو القول بولاية الإمام من نسل محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأن ولاية هذا الإمام هو محور الديانة عندهم، فلا دين لمن لا يوالي إمامهم».

«والتقارب شديد جداً بين الزيدية والدعوة الفاطمية والصليحية في كل ما يتعلق بالتوحيد والعبادات الظاهرة؛ ولكن الفرق شديد جداً في ما جاء به الفاطميون من تأويلات باطنية لم يقل بها سواهم، فالتأويل الباطن وهو أخص

(١) الإعتقاد الثاني والسبعون.

ما يتميز به الفاطميون ومن تبع مذهبهم من الصليحيين وغيرهم، يختلف تمام الإختلاف عما قال به مفسرو فرق الشيعة الأخرى وعما قال به جمهور أهل السنة، على أن بعض فرق الإسماعيلية ذهبت في التأويل الباطني مذاهب أبعدتهم عن الإسلام وعن الخلق الإجتماعي العام، وهذه الفرق أحلت المحارم بدعوى التأويل، ولذلك ترى السلطان الصليحي الخطاب بن الحسين يتبرأ من هذه الفرق، فيقول:

دِينِيَ لَعنُ الباطنيِّ الذي يصدُّ عن نهج الهدى الواضح
وكل من دان بمن دانه أحل جاري دمه السامح
قوم فروض الشرع قد عطلوا وصيروها هزءاً لمازح»

«من ذلك نستطيع أن نقول أن ما جاء في كتاب كشف أسرار الباطنية لابن مالك الحمّادي اليماني ولصق بالصليحيين هذه البدع إنما هي عن فرق أخرى غير الصليحيين». وانتهى ما ذكره الدكتور محمد كامل حسين عن عقائد الصليحيين.

لماذا التجأت الدعوة إلى التستر

وسموا مع هذا باسم الباطنية، ولعل ذلك يرجع أيضاً إلى التستر الشديد الذي فرضته الدعوة على آرائها وعلومها وأهدافها وأعمالها، خوفاً من اضطهاد المضطهدين ونقض الناقضين. وقيل أن حركة قد قامت في التركستان لاستئصال شأفة الدعوة كان بين ضحاياها العلمان الشيخ محمد بن أحمد النسفيّ والشيخ أبو يعقوب السجستاني. وقد قتل العابد العالم الصوفيّ حسين بن منصور الحلّاج، متهماً بمزج الفلسفة بالدين وبالزندقة. وكان القرامطة في هذا الوقت يقومون بنشاط كبير في العراق والبحرين[1]. ثم أعلن علي بن الفضل الجيشاني اليماني خروجه على تعاليم الدعوة، ومال إلى اتجاه القرامطة في تعطيل الشريعة، فحاربه، كما ذكرنا فيما سبق[2]، أبو القاسم منصور اليمن، فخرج المهدي عبد الله بن الحسين، الذي أراد أن ينشىء دولته باليمن، بعد أن سمع بخروج علي بن الفضل على منصور اليمن، واتجه إلى المغرب حيث

(١) ابن الأثير: الكامل / حوادث سنة ٣٠٤ إلى ٣٤٣؛ البغدادي: فرق ٢٦٧ ـ ٢٧٧.
(٢) انظر الباب الثاني ص ٣٩ ـ ٤٦.

هيأ أبو عبد الله الشيعي الصنعاني سبيله لذلكم الغرض. وقد شدّدت الدعوة هذا التستر، بعد أن رأت العداء المستمر، وتضييق الخناق على التفكير الحرّ، ومقتل المفكرين العلماء من المعتزلة والزيدية والإمامية والصوفية والفاطمية، وبعد أن رأت خروج القرامطة والدروز والنزارية الحشاشين، واستعمالهم مبادىء علم الباطن للمروق عن الدين، وللتعطيل والفوضى الخلقية، وبعد أن رأت تطرف بعض المتصوفين، وغلو بعض فرق الشيعة.

فلما انتقل أمر الدعوة إلى اليمن في أواخر عهد الملكة الحرة وبعد مقتل الإمام الخليفة الآمر بالله، التجأت الدعوة بمرور الزمن إلى التستر أكثر فأكثر. وذلك أنها فقدت تأييد الدولة، وعاشت طوال هذه القرون تكافح بين الحياة والموت. ولقد كانت الدعوة تصير نسياً منسياً لو لم يلتجىء أهلها إلى التستر بمعاقلهم المنيعة في جبال حراز ونجران واليمن الأسفل، وأخيراً وليس آخراً بمعاقل عقيدتهم الراسخة وسيرتهم الفاضلة.

وقد استخدم العلماء الفاطميون ـ كما فعل المعتزلة والصوفية والمتكلمون والفلاسفة مع بعض الاختلاف ـ ما وجدوا من نظم فكرية كثيرة في الأفلاطونية الحديثة، وفي مباحث أنصار هذه المدرسة من المسلمين، وفي كلام المانوية، وفي نظريات الهند، وأنشأوا نظاماً خاصاً يتفق مع آرائهم في التوحيد والإبداع والخلق والكون والبشر والنبوة والإمامة والقيامة والبعث، وفسروا التنزيل تفسيراً يتفق مع عقيدتهم في إمامة سيدنا علي بن أبي طالب وإمامة أهل بيت النبوة، فأطلقوا على هذا النظام الخاص اسم علم الحقائق، أو علم الإبتداء والإنتهاء، أو علم المبدأ والمعاد، وعلى تفسير التنزيل وقصص الأنبياء وأركان الشريعة اسم علم التأويل، وسموا الإثنين علم الباطن وعلوم أولياء الله.

علماء الدعوة المؤلفون

ونظراً لأن الدعوة اليمنية ونشاطها العلمي ليست إلّا استمرار مجهود الدعوة الفاطمية في تكوين علومها ونشرها يحسن بنا أن نذكر لمحة عن بعض العلماء الذين كوّنوا هذه الثروة الأدبية مع ذكر مؤلفاتهم:

وقد حمل لواء العلوم المتداولة في ألقرنين الثالث والرابع علماء أجلاء من دعاة الفاطميين أمثال الشيخ أبي حاتم أحمد بن حمدان الرّازي[١] والشيخ أبي عبد الله النسفي[٢] والشيخ أبي يعقوب السجستاني[٣] وغيرهم ممن اتخذ الفلسفة وسيلة إلى الإقناع. فقد بلغ نشاط الدعاة في نشر مبادئهم وعلومهم في بلاد فارس وما وراء النهر مبلغ التفوق على منافسيهم حتى طلب أهل طبرستان النجدة العلمية من بغداد[٤]. وقتل الشيخ محمد بن أحمد النسفي صاحب كتاب المحصول وتلميذه الشيخ أبو يعقوب السجستاني في سنة إحدى وثلاثين وثلاث مئة، وقد انتشرت علوم الدعوة الفاطمية على أيديهما في خراسان وبخارى.

أبو حاتم الرازي

فأبو حاتم الرازي كان من أعلام النهضة العلمية الإسلامية في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع. وكان يلجأ إلى الناحية العلمية الكلامية والفلسفية، ويعمل حيناً لنشر العلوم العربية. ومن أقدم آداب الدعوة التي احتفظت الدعوة اليمنية بها، مؤلفات الشيخ أبي حاتم، ومن أهمها كتاب الزينة في الأحرف ومعانيها[٥] وهو كتاب جليل في الكلمات العربية والدخيلة التي نطق بها القرآن وسنها المسلمون والتي صارت المصطلحات الإسلامية. وله أيضاً كتاب أعلام النبوة[٦] ويحتوي على ما جرى بينه

---

(١) هو أبو حاتم أحمد بن حمدان الليثي الورسناني الرازي المتوفى سنة ٣٢٣ من علماء الدعوة في بلاد الري، ثم انتقل إلى بغداد (ترجمة الحافظ في لسان الميزان رقم ٥٢٣)، واتهمه البعض بالباطنية والزندقة والثنوية والدهرية، ولا نرى شيئاً من هذا في مؤلفاته. وذكره صاحب الروضات من الإمامية، ودعا له الإمام المتوكل على الله يحيى حميد الدين برضوان الله، وينقل عنه السيوطي والعيني من علماء السنة في تفاسيرهما. وكان على صلة وثيقة مع المبرد وثعلب.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد النسفي أو النخشبي البرذعي، قتل سنة ٢٣١.

(٣) هو أبو يعقوب إسحاق بن أحمد السجزي أو السجستاني ويلقب بدندان. قتل سنة ٢٣١.

(٤) نظام الملك: سياست نامه ٢ / ٢٧٤.

(٥) فهرست ابن النديم ١٨٩؛ م.م.هـ؛ ونستعد الآن لنشر هذا الكتاب.

(٦) نشر جزءاً منه كراوس (Kraus) في Raziana II, Orient. V على أساس النسخة المخطوطة الموجودة في م.م.هـ.

وبين الفيلسوف الشهير محمد بن زكريا الرازي من مناظرة في مسألة النبوة وأمر الدين[١]. ويعتبر كتابه المسمى بالإصلاح تهذيباً لكتاب المحصول للشيخ محمد بن أحمد النسفي ويقصد به إصلاح ما جاء في المحصول.

أبو يعقوب السجستاني

وقد نصر الشيخ أبو يعقوب إسحاق بن أحمد السجزي في كتاب النصرة[٢] أستاذه المفيد صاحب المحصول، وصار بصحة قوله وسلامة آرائه شاهداً. فقد اتخذ من الفلسفة سلاحاً شهره على أقرانه، فكان علماً من أعلام العلماء الفاطميين، وأحد المفكرين الذين نهضوا بتوفيق المسائل الفلسفية بالديانة الإسلامية. وقتل لذلك السبب هو وأستاذه النسفي بعد اضطهاد مؤلم بتركستان كما ذكرناه آنفاً. وكان كثير التأليف، ونذكر منها كتابه الينابيع[٣] ويحتوي على خطوط أساسية اتبعها العلماء بعده في مؤلفاتهم في تكوين النظام الفكري الخاص بالدعوة الفاطمية. وهو أربعون ينبوعاً، يتضمن معنى الينبوع وهوية المبدع وبيان عالم العقل والنفس وأن العقل قائم بالقوة والفعل ومخاطبة العقل للنفس وكيفية اتصال فوائد العقل بالنفس وأن الأيس لا يصير ليساً وأن الأيسيات كلها ذوات غايات وأن السؤال لم خلق الله العالم محال ممتنع وإثبات النفس الكلية وأن ما في البشر جوهره من النفس الكلية وأن الأفلاك ونجومها وحركاتها في أفق النفس وبيان كيفية ابتداء الإنسان وأن القوى الطبيعية لا قدر لها عند القوى الروحانية وأن الثواب هو العلم ومعنى الجنة والنار وكيفية التفاضل بين المثابين وبيان الشهادة ومعنى الصليب واتفاق الصليب مع الشهادة ورتبة صاحب القيامة وكيفية اتصال التأييد بالمؤيدين... إلخ.

---

(١) ولم يذكر أبو حاتم إسم الملحد في كتابه هذا، فقد عرفنا من كتاب الأقوال الذهبية للكرماني أن الذي ناظره أبو حاتم كان معاصره ومواطنه الفيلسوف الرازي (راجع مقالة حسين الهمداني عن كتاب الرياض للكرماني، حيدر أباد الدكن ١٣٥٨).

(٢) وكتاب المحصول وكتاب النصرة مفقودان لا أثر لهما.

(٣) فهرست إسماعيل ١٩٧ ـ ٢٠٠؛ م.م.هـ.

ومن أهم مؤلفاته كتاب إثبات النبوة، وكتاب الموازين، وكتاب الافتخار وكتاب المقاليد، وكتاب مسيلة الأحزان، وكتاب سلم النجاة، وكتاب سرائر المعاد والمعاش، وكتاب كشف المحجوب. وهذه الكتب حفظتها الدعوة اليمنية[١]، وورد ذكر بعضها في فهرست الشيخ إسماعيل بن عبد الرسول.

القاضي النعمان

ويعد القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيّون التميمي المغربي المتوفى سنة ثلاث وستين وثلاث مئة من أشهر أساطين الخلافة الفاطمية الذين خدموا الدعوة والدولة، وشهرته قد عمّت العالم الإسلامي في جميع العصور، وله مؤلفات كثيرة يقصر عن إحصائها الإلمام هنا[٢]. والفضل يرجع إلى الدعوة اليمنية لبقاء كثير من أهم مؤلفاته. وقد كتب القاضي النعمان في الفقه الفاطمي كثيراً من الكتب والأبحاث، نذكر منها: كتاب دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام[٣] ألفه بأمر من الخليفة الإمام المعز لدين الله. وسبب تأليفه كما ورد في السبع السادس من العيون أنه حضر القاضي النعمان وجماعة من

---

(١) ومخطوطات معظم هذه الكتب موجودة في مكتبتنا المحمدية الهمدانية. وقد شرح الداعي علي بن حاتم بن إبراهيم الحامدي في رسالته روضة الحكم الصافية بعض أقوال أبي يعقوب السجستاني من كتابه المسمى بالبشارات. ولم نعثر على كتاب البشارات. وقال الشيخ إسماعيل في الفهرست ٢٧ إن كتاب سرائر المعاد والمعاش يشتمل على سبعة فصول غامضة التصور جداً. وينسب إليه رسالة خزائن الأدلة من مجموعة الرسائل الثلاث عشرة تأليف الشيخ أحمد حميد الدين الكرماني، وقد ذكر الشيخ إسماعيل (فهرست ٢٠٤) أنها تأليف بعض الحدود في وقت الحاكم بأمر الله.

(٢) وردت في عيون ٦ / ٣٦ ـ ٣٩ أسماء مؤلفاته، عددها يبلغ إثنين وأربعين. وأضف إلى هذا كتابين له ذكرهما الشيخ إسماعيل في الفهرست. وترجم له ابن خلكان في الوفيات ٢ / ١٦٦، والحافظ في رفع الإصر ورقة ١٣٦، والداعي إدريس عماد الدين الأنف في الجزء السادس من العيون. وراجع ملحق Guest على كتاب الولاة والقضاة للكندي ٥٨٦، ومقال Gotheil في JAOS ٢٧ / ٢١٧، ومقال حسين الهمداني في JRAS (١٩٣٣) ٣٦٨ ـ ٣٧٠، وتقدمة محمد كامل حسين لكتاب الهمة ٥ ـ ١٤، ومقال آصف فيضي في JRAS (١٩٣٤) ١ ـ ٣٢، وإيوانوف ٣٧ ـ ٤٠.

(٣) فهرست إسماعيل ٢٥ ـ ٣٩؛ م.م.هـ؛ وقد نشر أخيراً آصف فيضي النصف الأول من الكتاب.

العلماء الدعاة عند المعز. فذكر اختلاف المذاهب في الفقه وافتراق الفرق في مسائله وذكر قول النبي «إذ ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه» إلخ. ونظر إلى القاضي فقال: أنت المعنيّ بذلك في هذا الأوان، يا نعمان! ثم أمره بتأليف كتاب دعائم الإسلام، وأصل له أصوله وفرع فروعه، فأمره، فابتدأ ببيان ولاية مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وولاية الأئمة، وأن الإمامة لا تكون إلّا بالنص والتوقيف، والبيان ببراءة الأئمة ممن غلا فيهم، ثم ذكر فرائض الإسلام من طهارة وصلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد، وهي سبع دعائم الإسلام. ويلي ذلك في النصف الثاني من الكتاب ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام والأشربة والبياعات والمأكولات والمشروبات والطلاق والمناكحات والمواريث والشهادات وسائر أبواب الفقه. وكان القاضي كما رواه صاحب العيون يعرض على الإمام الخليفة المعز «فصلاً فصلاً وباباً باباً، فيثبت الثابت منه ويقيم الأود ويسدّ الخلل حتى أتـمّه؛ فجاء كتاباً جامعاً مختصراً على غاية الإحكام». إذا كان التشريع من أساس الدين اعتبرت الدعوة هذا الكتاب أساساً لحياة الأفراد والجماعة. ولا يقلّ من الدعائم أهمية كتابه المسمى الينبوع[1] وكتاب مختصر الآثار[2] وكتاب الإخبار[3]، وهي تشرح وتكمل بعض المسائل الفقهية الواردة في الدعائم. وله أيضاً في الفقه كتاب الإقتصار[4] سماه بهذا الاسم لاقتصاره «على الثابت مما أجمعوا عليه واختلفوا فيه بمحل من القول لتقريبه وتخفيفه»، وقصيدة في رجز مزدوج سـمّاها المنتخبة[5] «التي أنتجها لمن أراد حفظها»، والمدار والمرجع هو كتاب دعائم الإسلام في الفقه[6]، كما نرى من أمر الخليفة الحاكم بأمر الله للقائم بالدعوة في اليمن الداعي هارون بن محمد بن قيس في قوله:

---

(١) فهرست إسماعيل ٤٢ ـ ٤٤؛ م.م.هـ.

(٢) نفسه ١٣٩؛ م.م.هـ.

(٣) نفسه ٤٠؛ م.م.هـ.

(٤) نفسه ٣٩؛ م.م.هـ.

(٥) فهرست إسماعيل ٤١؛ م.م.هـ

(٦) وفي الفقه أيضاً له كتاب سماه الإيضاح بسط فيه أبواب الفقه حتى بلغ زهاء ثلاثة آلاف ورقة. وهذا الكتاب الذي ذكره المؤلف في كتاب الإقتصار غير موجود في خزائن أهل الدعوة.

«ويكن فتواك في الحلال والحرام من كتاب دعائم الإسلام دون ما سواه من الكتب المفتعلة»[1].

وله كتب في التاريخ والآثار والأخبار والسيرة. منها كتاب افتتاح الدعوة وابتداء الدولة[2]. وقد أمره الخليفة المعز بجمع أخبار الدولة ليبقى ذكرها في الباقين، فألف هذا الكتاب بدأ فيه بذكر ابتداء الدعوة باليمن والقائم بها وهو أبو القاسم منصور اليمن الكوفي وظهوره فيها حتى نفذ إليه الداعي أبو عبد الله الشيعي الصنعاني وخرج منه إلى المغرب بعد ما أخذ عنه وما الذي كان من أمره بعد وصوله إليها إلى أن هاجر إليها المهدي عبد الله بن الحسين وابنه القائم بأمر الله . ومن مؤلفاته في التاريخ كتاب شرح الأخبار[3] في أربعة مجلدات وستة عشر جزءاً عرضه على الخليفة المعز وأثبت فيه مما أثبته، وصح عنده، ويتضمن تفسير الحديث «أنا مدينة العلم وعلي بابها» وعلي وفضائل علي ومناقبه وجهاده الناكثين والقاسطين والمارقين، ووفاة النبي، وفضائل سيدتنا خديجة بنت خويلد وسيدتنا فاطمة الزهراء والإمامين الحسن والحسين ومن قتل مع الحسين من أهل بيته، ثم ذكر فضائل الأئمة من ولد الحسين بن علي إلى جعفر الصادق، وذكر إسماعيل بن جعفر ومحمد بن إسماعيل والأئمة المستورين، وذكر معالم المهدي وصفات شيعة علي.

ومن مؤلفاته في العقائد: كتاب الهمة في آداب الأئمة[4]، وكتاب مفاتيح النعمة[5]، وفي علم التأويل: كتاب أساس التأويل[6] وكتاب تأويل الدعائم[7]، وفي علم الحقائق: كتاب التوحيد[8]، وفي الوعظ والإرشاد: كتاب المجالس والمسايرات[9]، وفي المناظرة: الرسالة المصرية في الردّ على الشافعي[10]، وكتاب

---

(١) فهرست إسماعيل ٤١. انظر سجل الخليفة الآمر (الملحق رقم ١).
(٢) فهرست إسماعيل ٨٦ - ٨٩؛ م.م.هـ.
(٣) نفسه ٨٩ - ٩٦؛ م.م.هـ.
(٤) نفسه ٦٣ - ؛ م.م.هـ؛ نشره محمد كامل حسين.
(٥) نفسه ٢٥٧؛ م.م.هـ.
(٦) نفسه ١٨٧ - ١٨٨؛ م.م.هـ.
(٧) نفسه ١٨٨ - ١٩٠؛ م.م.هـ.
(٨) نفسه ١٥٤ - ١٥٦؛ م. م. هـ.
(٩) نفسه ٦٥ - ٦٦؛ م.م.هـ.
(١٠) لم نعثر عليها.

في الردّ على أحمد بن شريح البغدادي[1]، ورسالة ذات البيان في الردّ على ابن قتيبة[2]، وكتاب اختلاف أصول المذاهب[3]، وكتاب المناقب والمثالب[4]، وغيرها من الكتب والرسائل التي توجد في خزائن الدعوة اليمنية.

جعفر بن منصور اليمن

وكان عهد الإمام الخليفة المعز لدين الله يمتاز بوجود الشخصيات البارزة أمثال قائده الأستاذ جوهر الصقلي[5]، والشاعرين النابغتين الأمير تميم[6] وابن هانيء[7]، والعالمين الحبرين الشيخ جعفر بن منصور اليمن والقاضي أبي حنيفة النعمان التميمي المغربي. وقد ذكرنا فيما سبق في باب الدعاة بعد وفاة أبي القاسم منصور اليمن نبذة عن تاريخ ابنه الحبر جعفر[8]، وسموّ درجته عند الخلفاء الفاطميين القائم والمنصور والمعز. ولم يصل جعفر إلى هذه الدرجة إلاّ بأبحاثه العميقة في الدعوة التأويلية، كما يتضح ذلك من مؤلفاته. ومنها: كتاب الفرائض وحدود الدين[9]، يبدأ بتفسير الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنْسانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِن حَمَإٍ مَسْنونٍ وَالجانَّ خَلقْناهُ مِن قَبلُ مِن نَارِ السَّمُومِ﴾، ثم يورد ملخص الكتاب الوارد إلى ناحية باليمن من الإمام عبد الله المهدي بعد نزوله في المهدية، ذكر فيه المهدي أسماء أسلافه الأئمة المستورين الحقيقية، والسبب الذي جعلهم يأخذون لأنفسهم أسماء غير أسمائهم، ثم شرح قصة يوسف وتأويل سورة يوسف وتأويل سورة الكهف. ومنها: كتاب الشواهد والبيان[10] وسرائر النطقاء[11] وأسرار

(١) لم نعثر عليها.
(٢) ذكرها فيضي في JRAS(١٩٣٤) ٢٧؛ م.م.هـ.
(٣) فهرست إسماعيل ١٣٢ ـ ١٣٤؛ م.م.هـ.
(٤) نفسه ٨٤ ـ ٨٦؛ م.م.هـ.
(٥) في الكتب المحفوظة بخزائن أهل الدعوة اليمنية كتاب سيرة الأستاذ جوهر، يقال أملاها الأستاذ لأمين سره الجوهري.
(٦) نسخ ديوانه الخطية متداولة في مكاتب أولي الدعوى، وتستعد دار الكتب المصرية لإصدار الديوان قريباً.
(٧) وقد حقق الدكتور زاهد على نص ديوان ابن هانيء بمقارنة عدة مخطوطات الديوان التي حفظتها الدعوة، ونشره بشرح واف بالقاهرة.
(٨) انظر الباب الثالث ص ٥٢ ـ ٥٤.
(٩) فهرست إسماعيل ٢٥٧؛ م.م.هـ.
(١٠) نسخة خطية بالمكتبة التيمورية بالقاهرة (عقائد ١٨٤).
(١١) م.م.هـ.

النطقاء[١] في بيان تأويل قصص الأنبياء، كما تعتبر مؤلفاته الأخرى مثل كتاب تأويل الزكاة[٢]، وكتاب الكشف[٣]، وكتاب الفترات والقرانات[٤]، وكتاب العالم والغلام[٥]، ورسالة في تأويل سورة النساء[٦]، وكتاب المراتب والمحيط[٧]، ورسالة في معنى الاسم الأعظم[٨]، ورسالة الرضاع في الباطن[٩]، من أهم كتب الدعوة في علم التأويل.

أحمد النيسابوري

ويوجد أيضاً في خزائن الدعوة كتاب إثبات الإمامة[١٠]، ورسائل استتار الإمام[١١]، والموجزة الكافية في آداب الدعاة والحدود[١٢]، والظاهرة في معرفة الدار الآخرة من تأليف الشيخ أحمد بن إبراهيم النيسابوري الذي عاش في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس في عهدي العزيز والحاكم.

رسائل إخوان الصفا

وقد أصبحت الفلسفة الكلامية بفضل أبحاث العلماء المتقدمين أمثال أبي حاتم الرازي وأبي عبد الله النسفي وأبي يعقوب السجستاني أساس النظام الفكري الخاص بالدعوة. وظهرت رسائل إخوان الصفا وخلّان الوفا بفلسفتها الكلامية، ولا ندري متى وأين ظهرت ومن ألفها، إلّا أن العلماء قد أثبتوا علاقتها بالدعوة

---

(١) لم يذكر الشيخ إسماعيل هذا الكتاب في الفهرست، مخطوط في م.م.هـ.

(٢) م.م.هـ؛ ومخطوط بمكتبة الجامعة بليدن (دي خويه: (Cod. 1971 Leiden (De Goeje)؛ راجع مقال حسين الهمداني في JRAS (١٩٣٣) ٧١٢.

(٣) وقد نشره ستروطمان (Strothmann) في سلسلة منشورات جمعية البحوث الإسلامية ببومباي.

(٤) فهرست إسماعيل ٣٩٤؛ م.م.هـ.

(٥) نفسه ١٨٨.

(٦) نفسه ٢٦١؛ م.م.هـ.

(٧) نفسه ٢٥٨.

(٨) نفسه ٢١١؛ م.م.هـ.

(٩) نفسه ١٩٣؛ م.م.هـ.

(١٠) فهرست إسماعيل ١٦٨ - ١٧٠؛ م.م.هـ.

(١١) نفسه ١٢٢؛ نشرها إيوانوف (القاهرة ١٩٣٩).

(١٢) نقلها حاتم بن إبراهيم الحامدي الهمداني في كتابه تحفة القلوب (انظر ص ٢٧٩).

الفاطمية[١]. وبالرغم من أنها لم تذكر ولو مرة في الكتب التي ألفت في عهد الفاطميين ـ لأسباب ذكرناها في بحثنا عن مؤلفي الرسائل[٢] ـ، اهتمت الدعوة اليمنية بهذه الرسائل اهتماماً بالغاً، ابتداء من عهد الداعي إبراهيم بن الحسين الحامدي المتوفى سنة ٥٥٧، فهو أول من ذكرها والرسالة الجامعة من مؤلفي الدعوة في كتابه المسمى بكنز الولد[٣]. ويلاحظ أن الرسالة الجامعة اعتبرها أهل الدعوة اليمنية جزءاً من رسائل إخوان الصفا على حين ينسبها غيرهم إلى مسلمة المجريطي[٤]. وشرعت الدعوة اليمنية تدرس هذه الرسائل الإحدى والخمسين والرسالة الجامعة المشار إليها في الرسائل، وحاولت أن توفق بين نظرياتها وأهدافها الكلامية وبين النظام الفكري الذي قدمه المؤلفون في عهد ظهور الأئمة.

أحمد حميد الدين الكرماني

ظهر في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله عالم فيلسوف في أفق الدعوة وهو الشيخ أحمد حميد الدين الكرماني الملقب بحجة العراقين. وكان مقامه في العراق في مرتبة حجة الجزيرة من قبل الإمام الحاكم بأمر الله. واستخدم الحاكم الشيخ أحمد الكرماني وجعله رئيساً لدار الحكمة التي كانت مغلقة منذ زمن. وقد استدعاه ختكين الضيف الملقب بالصادق المأمون داعي الدعاة إلى مصر، عندما اشتدت الفتن الدينية وخمد النشاط العلمي ونسب الغالون الألوهية إلى الحاكم. فألف في سنة ٤٠٨ رسالته المسماة بالواعظة[٥] في الرد على الحسن الفرغاني الذي قال بتأليه الحاكم

---

(١) راجع مقال كزانوفا في J A (١٨٩٨) ص ١٥١ وبعدها؛ الطيباوي: جماعة إخوان الصفا ٧١؛ ديبور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ٩٦؛ عبد الكريم خليفة: إخوان الصفا ٢٤ ـ ٢٩؛ عمر الدسوقي: إخوان الصفا ٨٨ ـ ١٢٢. وقد أنكر عمر فروخ (إخوان الصفا ١٢ ـ ١٣) علاقة الرسائل بالشيعة.

(٢) راجع مقال حسين الهمداني عن رسائل إخوان الصفا في Der Islam (١٩٣٢).

(٣) انظر الباب العاشر ص ٢٧١.

(٤) بحث تاريخي لحسين الهمداني ٧ ـ ١١. والجزءان من الجامعة في خزائن دعوة اليمن وفي م.م.هـ. ونشر جميل صليبا الجزء الأول منها بدمشق سنة ١٩٤٨.

(٥) وهي من مجموعة الرسائل الثلاث عشرة من تأليف الكرماني إلاّ الرسالتين الأخيرتين، فهرست إسماعيل ٢٠٠ ـ ٢٠٥؛ ومقال حسين الهمداني في JRAS (١٩٣٣) ٣٧٣؛ إيوانوف ١٣٤.

وأبرأ فيها الحاكم من دعوى الألوهية، قائلاً إن الحاكم إنما هو عبد الله، له يسجد ولم تنفع هذه المحاولة والاحتجاج، لأن حمزة الدَّرْزيّ قاد الدروز في السنة التالية، وانفصل عن الدعوة الرسمية وتمسك بمبدأ ألوهية الحاكم. والكرماني في رسالته مباسم البشارة[١] وكتابه المصابيح[٢] تمكن أن يثبت وجوب الإمامة وبالخصوص إمامة الحاكم ببراهين عدة حتى من الكتب المقدسة[٣]، واستعمل آراء الأفلاطونية الحديثة وأنظارها بمهارة لم يسبقه فيها أحد من الدعاة في توطيد صرح النظام الفكري الذي اشترك في بنائه علماء الدعوة السابقون، بل حاول أن يرفع هذا الصرح الدينيّ الفلسفيّ إلى قمته القصوى حتى لا يترك مجالاً للخلاف والنقاش.
فلذلك نراه في كتابه المسمى بالرياض[٤] يوجه عنايته إلى الحكم بين الصادّين، صاحب الإصلاح (أبي حاتم الرازي) وصاحب النصرة (أبي يعقوب السجستاني)، بشأن كتاب النسفي المتنازع فيه المسمى بالمحصول، لأن الذي تنازعا فيه لم يكن من «الفروع التي يجوز أن يختلف فيها مع سلامة أصولها»، ولأن الذي تنازعا فيه «أمر كان مؤدياً في توحيد الله ومعرفة حدوده إلى نظام اعتقاد الموقنين». ولذلك أيضاً نشاهده في كتابه المسمّى بالأقوال الذّهبية في الطب النفساني[٥] يتوجه إلى ما أهمل الشيخ أبو حاتم الرازيّ في مناظرته الفيلسوف الشهير محمد بن زكريا الرازيّ فيما يتعلق بوجوب أمر النبوة، وأراد أن يكمل ما نقص في أعلام النبوة للشيخ أبي حاتم ويدافع عنه، وجعل الكرماني كتابه على بابين، أحدهما في إبانة «الخطأ المستمرّ» على ابن زكريا، في طبه الروحاني، وفيما جرى بين الرازيَّيْن، وفيما أهمل الشيخ أبو حاتم، وثانيهما في إبانة «الحق المستمرّ» فيما هو حق الطب النفساني.

---

(١) وردت في مجموعة الرسائل الثلاث عشرة.
(٢) فهرست إسماعيل ١٧٠ - ١٧٢؛ م.م.هـ.
(٣) راجع مقال باول كراوس (Kraus) عن العبارات العبرية والسريانية في مؤلفات الكرماني في مجلة Der Islam (١٩٣١) ٩ / ٢٦١.
(٤) فهرست إسماعيل ٣٨١ - ٣٨٣؛ م.م.هـ؛ ومقالة حسين الهمداني في المؤتمر الثاني لدائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن سنة ١٣٥٨؛ مقال حسين الهمداني في JRAS (١٩٣٣) ٣٧٤.
(٥) فهرست إسماعيل ٢٤٠ - ٢٤٤؛ JRAS (١٩٣٣) ٣٧٤؛ م.م.هـ.

وكان الشيخ أحمد رجعياً إلى حدٍّ ما، واستعمل نظم الأفلاطونية الحديثة وآراء الشيخين الصادين الكلامية لتوطيد بناء الإمامة الفاطمية، وبذل كل جهد في جميع مصنفاته لإثبات أمر النبوة والإمامة من الوجهتين الفلسفية والدينية. وفي هذا نستطيع أن نقرن الكرماني بحجة الإسلام الغزالي في استخدامه نظم الفلاسفة لتأييد التصوف والباطن. فأيد الشيخين بكل ما يملك من مهارة فلسفية فائقة في مبدأ التمسك بظاهر الشريعة والعبادة العلمية، وقصّر العبادة العلمية والاشتغال بالتأويل والكلام الفلسفي على الحدود المأذونين. فهذه الظاهرة نشاهدها في مصنفاته الموسومة بالوضية[1]، والمصابيح في إثبات الإمامة، وتنبيه الهادي والمستهدي[2]، وراحة العقل[3]. وللشيخ أحمد الكرماني فضل كبير في تطور النظام الفكري والكلام النظري الخاص بالدعوة، لأنه أثبت في كتابه راحة العقل ـ وهو من الكتب الكبار في الأدب الفاطمي ألفه سنة إحدى عشرة وأربع مئة ـ هذا النظام الفلسفي الديني الذي قدم أصوله علماء الدعوة السابقون. يدل على ذلك إشارة الكرماني، في المشرع الثالث من السور الأول فيما يجب أن يقرأ قبل قراءة هذا الكتاب، إلى قراءة كتب القاضي النعمان بعد كتاب الله وكتب جعفر بن منصور اليمن وكتب أبي حاتم الرازي ومحمد بن أحمد النسفي وأبي يعقوب السجستاني وقراءة كتبه التي ذكرناها آنفاً. «فدلّ بأنه ما أتى بكتابه راحة العقل إلا بحقائق ما أتى به هؤلاء الدعاة»[4]. ثم أضاف إليه عناصر جديدة، ووسع بعض موضوعاته، وحدد ما كان مطاطاً أو سائلاً أو قابلاً للتفسير والتناقض والتشابه. فلذلك صار كتاب راحة العقل في الأدب الفاطمي بمثابة كتاب إحياء علوم الدين للغزالي الذي قرر فيه وحدّد الأسس والأصول للتصوف الإسلامي. فيستند عليه علماء الدعوة اليمنية في أبحاثهم عن مسائل علم الحقائق استنادهم على كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان في المسائل الفقهية. وفيه قدّم الكرماني مذهبه

(١) فهرست إسماعيل ١٧٩ ـ ١٨١؛ م.م.هـ. (٢) نفسه ٦١؛ م.م.هـ.

(٣) م. م. هـ. والكتاب حقق نصه محمد كامل حسين ومحمد مصطفى حلمي في سلسلة مخطوطات الفاطميين رقم ٩ (القاهرة ١٩٥٢).

(٤) من الشموس (على هامش مخطوطة راحة العقل ١ / ١٢٤).

وهو مذهب الدعوة في الوجود، وأيد علماء الدعوة السابقين في نفي الأيسية والليسية عن الله، ومذهب الدعوة في التوحيد ونفي الصفات عن الله نفياً مطلقاً، ومذهب الدعوة في الأصلين الإبداع والانبعاث. لقد تأثر في هذا كله تأثراً شديداً بما أتى به الشيخ أبو حاتم الرازي والشيخ أبو يعقوب السجستاني وغيرهما من علماء الدعوة، وقدّم نظم الدعوة وأنظارها في أسلوب منطقيّ بحت. ولم يقف الكرماني عند هذا الحد، بل جمع لأوّل وهلة الأصلين الأوّلين العقل الفعال والنفس الكلية مع نظام العقول العشرة الفلوطينية التي عرضها المعلم الثاني الفارابي ببعض الاختلاف، وأبان المقابلة والمطابقة بين عالم الإبداع (وهو عالم العقول أو العالم الروحاني اللطيف)، وبين العالم الجرماني (وهو عالم الأفلاك والكواكب)، وبين العالم الجسماني (وهو ما دون فلك القمر)، وبين عالم الدين (وهو معرفة مراتب حدود الدين)، لأن العوالم كلها مرتبة تحت سياسة قانون «الميزان» حذو النعل بالنعل. فاتخذ علماء الدعوة اليمنية هذا الكتاب الجليل القدر وكتب علماء الدعوة السابقين ورسائل إخوان الصفا أساساً تدور عليها مباحثهم ودراساتهم.

المؤيد في الدين الشيرازي

وكانت اليمن تواصل اتصالها بمركز الخلافة والدعوة الفاطمية بالقيروان والمهدية ثم مصر من أيام ظهور المهدي، حتى في أيام الحاكم نرى أن سجلاته كانت ترد إلى رياسة الدعوة باليمن على الرغم من زوال الدولة الفاطمية الأولى منها؛ وقد ازدادت هذه العلاقات بين اليمن ومصر في عهد الخليفة المستنصر حينما ظهر الملك علي بن محمد الصليحي على مسرح اليمن. وقد ذكرنا فيما سبق وفي مقالنا في مجلة الجمعية الأسيوية الملكية البريطانية[1] أن الملك علي بن محمد الصليحي أرسل قاضي قضاة اليمن لمك في وفد من أوليائه إلى مصر مع رسالة خطيرة وأن لمك أقام بمصر خمس سنوات. وفي مدة إقامته كان القاضي متصلاً اتصالاً وثيقاً بداعي الدعاة وباب الأبواب المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي

(١) JRAS (١٩٣٣) ٣٦١ - ٣٦٢؛ JRAS (١٩٣٢) ١٣٥.

المتوفى سنة ٤٧٢؛ وكان يحضر مجالسه بدار العلم ويأخذ عنه علوم الدعوة حتى استوعب ما عنده. وذكرنا أيضاً أن المؤيد وجد أن نفوذ الوزراء يزداد بضعف الخليفة، فلذلك رأى أن مصير الدولة بهذا الوضع ينحدر إلى الضعف والزوال؛ فقرر تحويل تراث الدعوة العلمي الديني إلى جزيرة اليمن، لأنها هي الوحيدة التي ظلت متمسكة بمبادىء الدعوة الفاطمية الرسمية بعد أن فقدت نفوذها في كل من شمال إفريقية ومصر والشام والعراق وفارس، وفوض إلى مركز اليمن أمور الدعوة في الأحساء والبحرين وما جاورهما من البلاد وفي الهند والسند.

وكان المؤيد علماً من أعلام الدعوة العلماء، نابغة من نوابغ عصره، شاعراً فيلسوفاً سياسياً مغامراً غازياً، وقد سرد في كتاب السيرة حوادث أيامه وحياته ومغامراته ومفاوضاته وعلاقاته بالوزراء والقواد والحكام بين سنة ٤٢٩ وسنة ٤٥٠. وتعد سيرة المؤيد وثيقة من أهم الوثائق التاريخية[١].

وقد احتفظت الدعوة بمجموعة محاضراته التي بلغ عددها ثمان مئة محاضرة، كل مئة منها في مجلد، وتسمى هذه المجموعة بالمجالس المؤيدية[٢]. وقد قسم الداعي السلطان حاتم بن إبراهيم الحامدي الهمداني هذه المجالس ورتبها على حسب الموضوعات في ثمانية عشر باباً في كتابه المسمى بجامع الحقائق[٣]، وقد وردت في المجالس رسائل المؤيد وأبي العلاء المعري في تحريم اللحوم والألبان الذي فرضه المعري نفسه[٤].

وأما ما قاله من الشعر في مدح الأئمة وبالخصوص الخليفة المستنصر وفيما جرى عليه بمصر من حوادث الأيام وما ناله من أذى الناس وكابده من امتحان إمامه

---

(١) فهرست إسماعيل ١٢١؛ م.م.هـ؛ نشرها محمد كامل حسين بالقاهرة سنة ١٩٤٩.

(٢) فهرست إسماعيل ٢٣٦؛ م.م.هـ.

(٣) نفسه ٢٣٦؛ م.م.هـ؛ انظر ص ٢٧٨ من هذا البحث؛ ذكر إيوانوف (٤٧ - ٤٩) مؤلفات المؤيد وأخطأ في تسمية الكتاب بجامع الحقائق في تحريم اللحوم والألبان ونقلها منه محمد كامل حسين (د. المؤيد ٥٨).

(٤) ذكرها ياقوت في معجم الأدباء، ونشرها مارجليوت (Margoliouth) في JRAS (١٩٠٢) ٢٨٠ - ٢٩٠.

وغير ذلك من افتخاره بطاعته أئمته ومناجاته لله فمحفوظ في ديوانه[1]. وأغلب الظن أن يكون القاضي لمك بن مالك الحمادي جمع قصائده وأتى بها إلى اليمن.

واحتفظت الدعوة اليمنية أيضاً ببعض مؤلفاته، ومنها مجموعة الأدعية والخطب التي قرأها المؤيد في الجمعات[2] يضمها كتاب يسمى بالصحيفة اليمانية[3]. وهذه الأدعية بحاجة إلى التحقيق والتمحيص، لأن بعضها قد يكون نسب إليه، كما يظهر من الإشارة فيها إلى أسماء الأئمة حتى الطيب بن الآمر، أو ربما أضيفت إليها أسماء الأئمة بعد المستنصر.

ومنها كتاب نهج الهداية للمهتدين[4] ويتضمن أحد عشر باباً، الأول في إثبات التوحيد وما يمكن أن يقال فيه وإن عظم ذلك إلّا بمقدار الإثبات المنزه عن التشبيه والتعطيل؛ والثاني في معرفة الإبداع والكلمة والوحدة والعقل والأمر ما يرجع هذه الأسماء مع اختلافها من معنى واحد؛ والثالث في معرفة المبدع الأول وما يخصه من الأسماء مثل العقل الأول والعلم والسابق والمعقول والمعلول الأول والشيء والوجه والعرش وغير ذلك؛ والرابع في معرفة المخلوق الثاني والمنبعث من الأول وما يخصه من الأسماء مثل النفس واللوح والثاني والتالي والكرسي وغير ذلك؛ والخامس في معرفة الهيولى والصورة والطبائع المفردة؛ والسادس في معرفة الطبيعة الكلية والجزئية؛ والسابع في معرفة الرسول والرسالة وكيف مجراهما في الحكمة وما الموجب لهما؛ والثامن في معرفة الوصي والوصاية وما الموجب لهما في الحكمة؛ والتاسع في معرفة الإمام والإمامة وكيف مجراهما وما الموجب في الحكمة؛ والعاشر في معرفة مبدأ البشر ومعاده وما الغرض في وجوده وعدمه؛ والحادي عشر في معرفة الثواب والعقاب. والظاهر من هذه العناوين أن الكتاب يحتوي على مصطلحات علم الحقائق التي اتبعها علماء اليمن في مؤلفاتهم.

---

(١) فهرست إسماعيل ٣٩ م.م.هـ؛ وحققه محمد كامل حسين وله تصدير مفيد (القاهرة ١٩٤٩).

(٢) م.م.هـ.

(٣) إيوانوف ٥٨٥؛ م.م.هـ.

(٤) م.م.هـ.

وله كتاب الابتداء والانتهاء[1]، وجملة فصول الكتاب ثلاثة وأربعون فصلاً، ويشتمل على ذكر الإبداع والعلة والوحدة والكلمة والفعل والفاعل والمفعول والواحد والأحد والأمر والخلق وكن فيكون والعقل والنفس والحركة والسكون والهيولى والفرق بين جميع ذلك، وذكر القائم وما يكون منه وما يفعله، وذكر الأنبياء عليهم السلام، وذكر الأئمة وعددهم من دور سيدنا محمد صلى الله عليه، وذكر حجة القيامة وغلق باب التوبة وانقطاع الدعوة، وذكر شهر رمضان وليلة القدر وعيد الأضحى والنحر والضحايا، وذكر الولد التام الذي يقوم مقام والده إذا تم، وذكر خروج النفس من حد القوة إلى حد الفعل، وذكر النفس الناطقة وما كسبت من العلم والعمل، وذكر الثواب والعقاب، وذكر الملائكة بالفعل وبالقوة، وذكر المعاد ورجوع النفس الناطقة إلى مأمنها، وذكر النفخة والصور وكيفيتها، وذكر مزدلفة والصلاة فيها، وذكر الثلاثة الأيام التشريق بعد العيد في النحر، وغير ذلك من موضوعات الدعوة الحقيقية أو علم المبدأ والمعاد.

وربما أخذ علماء اليمن اسم هذا النوع من البحوث من اسم هذا الكتاب مع أن البحث يدور حول نفس الموضوعات التي قدمها العلماء السابقون. والغالب أن اليمنيين أطلقوا على هذا البحث اسم علم المبدأ والمعاد أو الابتداء والانتهاء نقلاً عن المؤيد في تسميته كتاب الابتداء والانتهاء وفي شرحه لمعرفة مبدأ البشر ومعاده من كتاب نهج الهداية الذي ذكرناه آنفاً. وأشار المؤيد في هذا الكتاب إلى كتابه المسمى «بإثبات الإمامة من بعد جعفر وفي اختلاف الشيعة بعد موت إسماعيل في حياة جعفر»، واستطرد قائلاً: «وقد ذكرنا حالة الأئمة المستورين الثلاثة ومواضعهم واختلاف الدعاة وقد ذكرنا أساميهم وكيف كان حالهم والكتاب خاص موجود لمن طلبه». ولم يذكره الشيخ إسماعيل في الفهرست ولم نعثر عليه أو على ذكره في فهارس كتب الدعوة. وأشار فيه أيضاً إلى كتاب

(١) فهرست إسماعيل ٢٨٠؛ م.م.هـ.

تأويل الدعائم وكتاب أساس التأويل وكتاب تأويل الشريعة وكتاب حدود المعرفة وكتاب المعاد في خلاص النفوس وكتاب إفتتاح [الدعوة] من تصنيف القاضي النعمان، والظاهر أن المؤيد تأثّر كثيراً بآراء القاضي في الدعوة التأويلية. ومن مؤلفاته في التأويل المسائل السبعون[1] ويتضمن تفسير الآيات القرآنية والمسائل الدينية، وكتاب المسألة والجواب[2]، كتاب بنياد تأويل[3] وهي ترجمة فارسية لكتاب أساس التأويل[4] للقاضي النعمان.

وكان المؤيد كثير التأليف ووصلت مؤلفاته كلها أو معظمها إلى اليمن، واهتم علماء اليمن بها اهتماماً بالغاً، لأنها ذكرت كثيراً واعتمد عليها في مباحث اليمنيين. وقد ذكر صاحب كنز الولد المؤيد أكثر من أربعين مرة مقتبساً من مجالسه ومناجاته وشعره، وصاحب كتاب الأنوار اللطيفة ذكر المؤيد ثلاثين مرة[5]. وكان اليمنيون قريبي العهد بالمؤيد، واتصل به شيخهم القاضي لمك اتصالاً مباشراً وأخذ عنه، بالرغم من اهتمامهم بدراسة مباحث الدعاة أجمعين.

ومما يدل على مكانة المؤيد عند علماء اليمن واستفادتهم من علومه ومعارفه ما جاء في سجل الإمام الخليفة المستنصر المؤرخ في شهر رمضان سنة إحدى وستين وأربع مئة الموجه إلى الملك المكرم أحمد: «وأما ما سألت فيه مما يتعلق بالوفي شهريار بن حسن فإن الشيخ الأجل داعي الدعاة المؤيد في الدين عصمة المؤمنين، صفي أمير المؤمنين ووليه أبا نصر هبة الله بن موسى ـ سلمه الله وأحسن توفيقه وتسديده ـ يفعل في ذلك ما يوجبه حكمه ويتقضيه»[6].

---

(١) م.م.هـ.

(٢) فهرست إسماعيل ٤٠٥ ـ ٤٠٦م.م.هـ.

(٣) م.م.هـ.

(٤) انظر ص ٢٥٥.

(٥) كما حكاه محمد كامل حسين (د. المؤيد ١٨٦).

(٦) السجلات رقم ٦١.

شهريار بن حسن

وكان الشيخ شهريار بن حسن من علماء فارس وكرمان، فالتحق بالدولة الصليحية. وأوفده الملك المكرم الصليحي إلى مصر فأخذ عن المؤيد علوم الدعوة حتى عاد إلى اليمن. وهو صاحب الرسالة في رد من ينكر ألعالم الروحاني، وهي تضمها مجموعة رسائل الكرماني الثلاث عشرة ومجموع التربية للشيخ محمد بن طاهر الحارثي[1]. وله أيضاً رسالة في معنى قول الله إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً صنفها جواباً على مسألة السلطان عامر بن سليمان الزواحي[2]، وقصيدة أوردها الداعي سليمان بن حسن في كتاب النخب[3].

مصنفات أخرى

وتوجد أيضاً في خزائن كتب الدعوة اليمنية:

مجموعة السجلات المستنصرية، وقد ذكرناها في مقدمة هذا الكتاب[4]. وأشرنا إلى أهمية هذه الوثائق التاريخية التي حفظتها اليمن في جبالها وخزائنها، واستفدنا منها كثيراً في هذا البحث.

وكتاب المجالس المستنصرية[5] وهي خمسة وثلاثون مجلساً ألقيت باسم الإمام الخليفة المستنصر عن المسائل الفقهية والتأويلية، ونسب الشيخ إسماعيل تأليفها إلى الوزير بدر الجمالي.

وديوان حسن بن محبوب في مدح الإمام المستنصر والمواعظ[6].

ورسالة الهداية الآمرية[7] تأليف الإمام الخليفة الآمر بأحكام الله في تثبيت إمامة أبيه المستعلي والرد على النزارية.

---

(١) انظر ص ٢٥٨ (هامش ٦) وص ٢٧٢.

(٢) إيوانوف رقم ١٦٧.

(٣) نفسه رقم ١٦٩.

(٤) انظر ص ٦.

(٥) فهرست إسماعيل ١٩٠ - ١٩٢؛ م.م.هـ؛ وحققها محمد كامل حسين ونشرها (مصر بدون تاريخ).

(٦) فهرست إسماعيل ٥٦.

(٧) فهرست ١٦٠؛ م.م.هـ؛ ونشرها آصف فيضي (بومباي ١٩٣٨).

وكتاب المجالس للشيخ أبي البركات بن بشر الحلبي[1] صاحب الرتبة البابية في عهد الإمام الخليفة الآمر، وهي ستون مجلساً في المواعظ والتفسير والعقائد.

وقد ذكرنا في هذا الباب مشاهير علماء الدعوة وأهم مصنفاتهم، ولا يستغرق البحث جميع ما حفظت اليمن من التراث العلمي الفاطمي أو ما ذكر من مؤلفاتهم الموجودة والمفقودة. وهذه اللمحة تكفينا أن نأخذ فكرة عن الثروة العلمية التي انتقلت إلى اليمن، ومدى مركزها في تاريخ تطور آراء المسلمين ونظمهم الفكرية.

---

(١) فهرست إسماعيل ٣٩١؛ م.م.هـ.

الباب العاشر

دعوة اليمن ونشاطها العلمي

من أواخر عهد الملكة الحرة إلى ظهور دولة آل رسول

الداعي الذؤيب بن موسى الوادعي الهمداني (٥٢٠ - ٥٣٦)

وقد سبق أن ذكرنا[١] أن اليمن هي الوحيدة التي ظلت موالية لدعوة الفاطميين القديمة الرسمية، وأن القاضي لمك بن مالك الحمّادي عند عودته إلى اليمن كان مكلفاً من قبل الإمام الخليفة المستنصر وباب أبوابه المؤيد تنفيذ سياسة معينة بالنسبة إلى إقامة الدعوة، ونقل آدابها وعلومها إلى اليمن، وأنه لقّب بلقب داعي القلم في عهد الملك المكرم أحمد الصليحي وبلقب داعي البلاغ في عهد الملكة الحرة. وقد اختار لمك نخبة من التلامذة الأفذاذ البعيدين عن أمور الملك أمثال ابنه يحيى بن لمك والذؤيب بن موسى الوادعي وإبراهيم بن الحسين الحامدي، وسلّم إليهم كل ما كان أخذه من علوم الدعوة أيام إقامته بمصر. ويقول صاحب العيون[٢]، نقلاً عن الشيخ حاتم بن إبراهيم الحامدي: «ولم يسمح من حقائق علمه إلّا بالشيء القريب للداعي المكرم والحرة الملكة وأحمد بن قاسم بن دلى لا غيرهم»؛ وذلك لاشتغالهم بشئون الملك والإدارة والحروب المستمرة. فتحوّلت آداب الدعوة الفاطمية وعلومها بيد لمك إلى شيوخ اليمن العلماء الذين تفرّغوا لدراسة هذا التراث العلميّ الدينيّ.

وظل الشيخ يحيى بن لمك[٣] يعمل بعد وفاة أبيه في نشر علوم الدعوة وإيضاح

(١) انظر ص ١٧٧، ١٧٨ - ١٨٢، ١٩٢ - ١٩٣.
(٢) عيون ٧ / ١٠٤.
(٣) انظر ص ١٨١.

معالم الدين وإحياء مراسمه حتى توفي في سنة عشرين وخمس مئة. وله كتاب يسمى بفصل في بيان الأرض وما عليها من المعادن[1].

فأقامت الملكة الحرة في رياسة الدعوة بعده الشيخ الذؤيب بن موسى الوادعي، ثم قررت الملكة ـ في فترة شغور بعد اغتيال الإمام الخليفة الآمر واختفاء ابنه الصغير الطيب من عدوان الوزير أبي علي بن الأفضل ـ إعلان استقلال اليمن من سيطرة مصر وانفصال هيئة الدعوة من مركزها بالقاهرة انفصالاً باتاً. ولما رأت الملكة في أواخر عهدها أن دولتها أصبحت غير قادرة على حماية هذه الهيئة الدينية، وازدادت مؤامرات الخليفة الحافظ عبد المجيد في شئون بلادها، فصلتها أيضاً عن شئون ملكها وإدارة حكومتها فصلاً نهائياً. فعينت الشيخ الذؤيب بن موسى الوادعي داعياً مطلقاً للإمام المستور. وذلك لأنها كانت حجة الإمام، ومن حقها أن تعين من يقوم بأمر الدعوة في جزيرتها ـ اليمن. وكان بقاء الدعوة يهمها أكثر من بقائها أو بقاء أسرتها في الحكم. فكان الذؤيب أول الدعاة المطلقين في دَوْر الستر الذي ابتدأ باختفاء الإمام الطيب بن الآمر؛ فالشيخ الذؤيب لذلك يعتبر من الدعاة المخضرمين الذين أدركوا عهديّ الظهور والستر. وكان الذؤيب علماً من أعلام اليمن العلماء، وسمّي «فراص الكتب» لاستخراجه دفائنها وفكّه رموزها، كما حكاه صاحب النزهة[2]. وله رسالة تسمى برسالة النفس[3]، وتتضمن بعض آراء إسكندر الأفروديسي التي تتفق مع مسائل الدعوة الحقيقية ومع الأساس أن لا يوصل إلى معرفة النفس إلاّ بعد معرفة الجسم، ورسالة في معرفة الموجودات أوردها الشيخ محمد بن طاهر في كتاب مجموع التربية[4].

وعاضده وآزره تلميذه السلطان الخطاب بن الحسن بن أبي الحفاظ الحجوري الهمداني[5] في إقامة الدعوة، وبعد وفاة الخطاب آزره السلطان إبراهيم بن الحسين

(١) إيوانوف رقم ٣٢ و ٣٤.
(٢) نزهة ١ / ٨٦.
(٣) م.م.هـ.
(٤) فهرست إسماعيل ١٨١ ـ ١٨٧؛ م.م.هـ؛ انظر ص ٢٧٢.
(٥) انظر الباب السادس ص ١٩٣ وما بعدها.

الحامدي. ومن تصانيف الخطاب كتاب غاية المواليد[١]، ورسالة النفس[٢]، وكتاب منيرة البصائر[٣]، ورسالة في بيان إعجاز القرآن[٤]، ورسالة النعيم[٥] وديوان شعره[٦].

الداعي إبراهيم بن الحسين الحامدي (٥٣٦ - ٥٥٧)

ولما توفي الذؤيب خلفه السلطان إبراهيم بن الحسين بن أبي السعود الحامدي الهمداني[٧] داعياً مطلقاً للإمام المستور في اليمن وما جاورها من البلاد والهند والسند[٨] في سنة ست وثلاثين وخمس مئة. وكان مقره صنعاء، وذلك لأن رياسة الدعوة لم تجد بعد وفاة الملكة الحرة حلفاء أقوياء يحمونها من اعتداء المعتدين إلّا الدولة الهمدانية بصنعاء يرأسها الملك حاتم بن أحمد الهمداني اليامي حفيد القاضي عمران بن الفضل اليامي وكان للقاضي سوابق حميدة وجهاد في تأييد الملك علي بن محمد الصليحي والملكة الحرة، كما ذكرنا سابقاً[٩]. وقد مضت على الدعوة وأهلها أيام عصيبة، لأن ملوك آل زريع الهمدانيين في عدن قد مالوا إلى الدعوة المجيدية التي انتشرت في أنحاء اليمن حتى في معاقل الدعوة - حراز ونجران واليمن الأسفل، ولأن ملوك همدان الياميين في صنعاء وبلاد همدان قد تحرروا من جميع هذه المذاهب والدعوات، وأرادوا تكوين دولة شعب همدان واليمن، ولم يتمكن لهم هذا بظهور الغز على مسرح اليمن. فاتبع الشيخ إبراهيم

---

(١) م.م.هـ.

(٢) م.م.هـ.

(٣) م.م.هـ.

(٤) يضمها كتاب مجموع التربية (انظر ص ٢٧٢).

(٥) النصف منها موجود في م.م.هـ.

(٦) فهرست إسماعيل ٥٠؛ وم.م.هـ؛ وصورة شمسية من المخطوط المحفوظ بمكتبتنا المحمدية الهمدانية موجودة في مكتبة الأستاذ كونس (Kuentz) بالقاهرة.

(٧) الحامدي نسبة إلى بني حامد، وحامد وحماد أخوان من همدان (انظر ص ١٧٥ هامش١).

(٨) تطلق على هذه المناطق في مصطلح الدعوة كلمة «جزيرة اليمن».

(٩) انظر ص ٩٥ - ٩٦، ١١٥، ١٣٧ - ١٣٨، ١٥٢ - ١٥٤.

ابن الحسين الحامدي سياسة عدم التدخل والمواظبة على دراسة علوم الدعوة ونشرها، تلك السياسة التي رسمتها الملكة الحرة ورؤساء الدعوة في أواخر عهدها وبعد وفاتها.

وقد جعل الحامدي الشيخ علي بن الحسين بن جعفر[1] الأنف القرشي العبشمي من آل الوليد مأذوناً له، فكان له معاضداً على أمره، قائماً بنشر الدعوة في سره وجهره، كما حكاه صاحب النزهة[2]. ولم يعمر علي بن الحسين القرشي طويلاً، فقد وافته المنية في سنة أربع وخمسين وخمس مئة. فاستعان الداعي إبراهيم الحامدي بابنه حاتم حيث جعله مأذوناً، كما استعان بالشيخ محمد بن طاهر بن إبراهيم الحارثي[3]. وفي الشيخ علي بن الحسين القرشي قال الشيخ محمد بن طاهر الحارثي قصيدة جاء فيها[4]:

أبا حسن أنقذت بالعلم أنفساً ... وآمنتها من طارق الحَدَثانِ
فجوزيت بالحسنى وكوفيت بالمُنى ... ودمت سعيداً في أعزِّ مكانِ
عَمَرْت بصنعا دعوة طيِّبيَّةً ... جعلت لها أسّا وشِدْت مباني

وكان الدعاة الأربعة من علماء اليمن الأعلام، واشترك القرشي والحارثي وحاتم الحامدي مع أستاذهم إبراهيم الحامدي في نشاطه العلمي وجمع التراث العلمي، والديني من عهد الفاطميين وفي بحوثه الكلامية والدينية. فترك كل منهم كتباً ومؤلفات لها شأن خطير في تطور آداب الدعوة اليمنية.

وقد ألّف إبراهيم الحامدي كتابه الجليل في علم الحقائق الموسوم بكنز الولد[5]، وذكر فيه لأول مرة في آداب الدعوة رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا والرسالة الأخيرة الجامعة منها، وأشار إلى نظرية الشخص الفاضل

---

(١) ورد اسم جد الشيخ علي بن الحسين باختلاف: أحمد وجعفر (نزهة ١ / ٩١ و٩٢).
(٢) نزهة ١ / ٩١. وكان الشيخ علي القرشي ابن عم الداعي علي بن محمد بن الوليد القرشي.
(٣) من بني الحارث بن كعب، وهو من بني محرز بيت رياستهم (نزهة ١ / ١٠٤).
(٤) نزهة ١ / ٩١.
(٥) م.م.هـ.

مؤلف الرسائل والجامعة، فأخذ علماء اليمن بعد ذلك اتجاه الحامدي في درس الرسائل والجامعة وفي اعتبارهم إياها بمثابة القرآن بعد القرآن[1]. وله أيضاً كتاب الإبتداء والإنتهاء[2]، وكتاب تسع وتسعين مسألة في الحقائق[3].

وأما رسائل الشيخ علي بن الحسين القرشي فقد وردت في كتاب مجموع التربية[4]، وهو كتاب جامع ألفه الشيخ العلامة محمد بن طاهر الحارثي وقد أورد فيه مقالاته ورسائله وبحوثه ورسائل العلماء الدعاة من دوري ظهور الأئمة واختفائهم والمقتبسات من كتبهم، نحو فصل في الفرق بين الملائكة بالقوة والملائكة بالفعل للنسفي[5]، وفصلاً في تأويل الصلاة من كتاب الشواهد والبيان[6] لجعفر بن منصور اليمن، ورسالة في وجوب الإمامة للشيخ أبي الفوارس أحمد بن يعقوب[7]، ورسالتين في المبادي العقلية والحدود والرسوم من رسائل إخوان الصفا، ومجلساً في بيان علة التكاليف من مجالس المؤيد في الدين الشيرازي، ورسالة في إثبات العالم الروحاني لشهريار بن حسن[8]، ورسالة المطيع في المبدأ والمعاد للشيخ محمد ابن علي بن أبي يزيد[9]، ورسالة في معرفة الموجودات للداعي ذؤيب بن موسى الوادعي، ورسالة في إعجاز القرآن والأعمال الشرعية للسلطان الخطاب بن الحسن الحجوري، ورسالة الداعي الحسن بن محمد المهدي[10] إلى أهل الري، ورسائل معاصره والمأذون

---

(١) حسين الهمداني: بحث تاريخي في رسائل إخوان الصفا ١٤.
(٢) إيوانوف ١٨٩.
(٣) فهرست إسماعيل ٣٥٥ - ١٣٥٧ م.م.هـ.
(٤) نفسه ١٨١ - ١١٨٧ م.م.هـ.
(٥) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد النسفي (انظر ص ٢٥١، هامش ٢).
(٦) انظر ص ٢٥٦.
(٧) هو الشيخ أبو الفوارس أحمد بن يعقوب الداعي بجزيرة الشام في عهد الحاكم بأمر الله.
(٨) انظر ص ٢٦٦.
(٩) من علماء الدعوة في عهد الآمر بأحكام الله الفاطمي.
(١٠) قال إيوانوف ٤١: لعله الميبذي من ميبذ المدينة الواقعة بين يزد وكرمان.

الشيخ علي بن الحسين بن الوليد الأنف القرشي في البسملة وفي البحث على الفرقة النزارية وفي المبدأ والمعاد وفي إثبات إمامة الطيب بن الآمر، ورسالة تحفة الطالب وأمنية الباحث الراغب (وتسمى برسالة الضلع)، وقصيدة للشيخ علي بن الحسين ابن الوليد في مدح الإمام الحادي والعشرين الطيب، والرسالة الموسومة بملقحة الأذهان تأليف الشيخ علي بن محمد بن الوليد القرشي. ويتضمن الكتاب أقوال أرسطاطاليس وسيدنا علي بن أبي طالب، والسجل الوارد إلى اليمن بالبشارة بالمولود الطيب بن الآمر. ولولا هذا الكتاب لما عرفنا بعض هذه الرسائل والمقالات.

ومن مؤلفات الشيخ محمد بن طاهر الرسالة الحاتمية في الرد على بعض المارقين[1]،
وكتاب حدائق الألباب[2]، ورسالة في أربع عشرة مسألة[3].

وظل الشيخ محمد بن طاهر الحارثي والشيخ حاتم بن إبراهيم الحامدي على ولائهما للدعوة ونشاطهما العلمي تحت إشراف الداعي إبراهيم الحامدي حتى توفي الداعي إبراهيم بصنعاء في شهر شعبان سنة سبع وخمسين وخمس مئة.

الداعي حاتم بن إبراهيم بن الحسين الحامدي الهمداني (٥٥٧ - ٥٩٦)

قام بالدعوة في جزيرة اليمن بعد وفاة أبيه. وكان عالماً فقيهاً كثير الإطلاع وكثير التأليف والإنتاج الأدبي. وقد عرف الناس فضله وبيان حجته فمال إليه كثير منهم. والتفّت حوله بعض قبائل حمير وهمدان، وملكوه حصن كوكبان[4]. ولما رأى السلطان علي بن حاتم اليامي صاحب صنعاء وما يليها ميل الناس إلى الداعي حاتم بن إبراهيم، وإقبالهم عليه، داخلته المنافسة، وخاف منه على ملكه، وأخذ يستميل همدان ببذل المال، وضاعف إليهم العطاء،

---

(١) م.م.هـ.
(٢) فهرست إسماعيل ٢٦٩؛ م.م.هـ.
(٤) نفسه ٢٧٣ - ٢٧٨.
(٤) نزهة ١ / ٩٣.

حتى دخل في طاعته أحمد بن الحبير الهبري[1]. وكان ممن يثق فيهم الداعي حاتم، وممن أخذ عليه أكيد أيمانه وعهده. فطلب هذا إلى السلطان أن يقدمه على همدان. وتمكّن السلطان علي بن حاتم من جَلْب الكثيرين ممن كان مع الداعي حاتم في كوكبان. فخرج عن الحصن واتصل بمشائخ هبرة في لولوة وريعان. فقصدهم الملك علي بن حاتم اليامي لمحاربة الداعي وأنصاره من بني هبرة، وكتب في نفس الوقت إلى الداعي حاتم «يعاتبه ويلاطفه ويقول له: أظهر دينك، واجمع أهل دعوتك؛ ولا تفرّق همدان وتحملهم على العداوة والشنآن. وضمن ذلك شعراً»[2]. فأجابه الداعي حاتم بقصيدة جاء فيها[3]:

أتاني من أبي زيد كتاب	تضمّنه من العُتْبى فنونُ[4]
فكنْ في أمرنا حَكَماً وعدلاً	فأنت لكل مكرمة خدينُ
مقالك فيم تصدع عود يامٍ	وأنت بلمِّ شعْثهم قمينُ
أما والمصطفى إنّي ليامٍ	بمالي والذي أحوى أصونُ
وأنتم يا غطارف شُمّ يامٍ	مكانكُمُ من العليا مكينُ
لكم في الدعوة الغرّاء قِدْماً	سوابق كلّها نشرتْ تزينُ
ولكن حلتُمُ عنها فمنكم	لها الضدُّ المعاند والقرينُ
فإن أنتُمْ رجعتم واسْتقلتم	فقد لاح الصباحُ المستبينُ
وواليتم إمام العصر صدْقاً	صفا ما بيننا الماء المعينُ
وإن بِنْتم وعاندتم كما قد	فعلتم آل عمرانٍ فبينوا[5]

ووجد الداعي حاتم أن همدان بعضها معه وبعضها عليه، فخشي أن يكون افتراقهم

---

(١) آل هبرة من همدان (نزهة ١ / ٩٤).

(٢) وكان الملك علي بن حاتم اليامي كأبيه الملك حاتم وعمه القاضي محمد وجده القاضي عمران شاعراً مجيداً فصيحاً. ومع الأسف لم يأت إدريس في النزهة بكتابه المنظوم شعراً.

(٣) نزهة ١ / ٩٤ - ٩٦.

(٤) العتبى والأعتاب: رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب (ل / عتب).

(٥) عمران هو القاضي عمران بن الفضل اليامي.

على يديه، وقصد صاحب بيت ردم وهو من بني شهاب وزَوْج ابنته، واستقرّ عنده بعض الوقت، ثم اتجه الداعي إلى حراز. فوصل إلى موضع يسمى شعاف، ووجد الناس هناك قد مالوا إلى الحافظ عبد المجيد، فأخذ يدعوهم إلى ما يدعو إليه. ولما رأوا فضله وزهده وفصاحته وحسن موعظته وعذوبة قوله، وما نشر عليهم من فضائل علي بن أبي طالب، دخلوا تحت لواء الدعوة. وطلع من شعاف إلى الظَّهَرَة، ثم تسلّم حصن الخُطَيْب، وهو من معاقل حراز الرفيعة، وحصونها المنيعة. وهناك توالى عليه أهل دعوته، وكان زعيمهم السلطان سبا بن يوسف اليعْبُري، الذي ساعد الداعي حاتماً على فتح حصن شبام[1].

وفي ذلك يقول القائل[2]:

أنصار مولانا الإمام الطيِّب	من كلّ ليث شمّري أغلب
فتَحتْ شِباما بالمواضي جهرةً	وسمَتْ لذروته بكلّ مشطَّبِ
لله درّ عصابة يمنيّة	فيها اليعابر كلّ عالي المنصبِ
قوم لهم في المكرمات أوائلٌ	مشهورة وشجاعة لم تغلب
فاستبشروا يا مؤمنين وشمّروا	من فتح مولاكم بأيْسر مطلب

ثم اتجه سبا بعد ذلك إلى حصن لهاب ففتحه. وفي ذلك قال الشاعر[3]:

حَلَّت بسُوْحك رحمةُ الغفّارِ	فاستخدمتْ لك ناقدَ الأقدار
ألْهَبْتَ ناراً في لهاب فأحرقت	عُصب الضلال معاً بتلك النار
وبعثت نحوهم بجيشٍ أغْلبٍ	تزجي المنون وجحفل جرار
من صيد همدان بن زيد خير من	يرجى لشيد عُلا ومنع ذِمار

(١) أحكم الداعي حاتم الحامدي بعد هذا الفتح عمارة حصن شبام اليعابر وبنى في القفلة السفلى وحصنها لأنها كانت القفلة العلياء التي بنيت في أيام الملك علي بن محمد الصليحي. وأما الجوحب فكانت عمارته بعد (نزهة ١ / ١٠٣).

(٢) نفسه ١ / ٩٧.

(٣) نفسه ١ / ٩٨ - ٩٩.

الـطائـعـين لأحمـد ووصيّـه وبني البتـول السادة الأطهـار
والنـاصـرين دعـاة آل محمـد والقـاطعـين أواصـر الفجّـار
والشمّ من جَنْب وعَنْس والذُّرا مـن يَـعْـبُـرٍ ومجَـيَّـح وكَـرار

ثم حارب حصن حمضة حتى ملكه عنوة وهو أرفع طود في لهاب. وفي ذلك قال حنظلة بن علي قصيدة جاء فيها[1]:

أبا طيِّىء يا داعي اليمن الذي به أمنت من كلّ خوف ومن ذعر
حراز بفضل من أياديك أحرزت حظوظاً فقد صارت على قمة النسر
وحصن شبام قد سما بك طوده فـأسفله يسمو علوّاً عن القـدر
بسعدك قام اليعبريّ ابن يوسف وأقوام صدق لا تميل إلى الغَدْر

وما زال سبا اليعبري يرمي أعداء الداعي حاتم بالموت حتى فتك به بنو حكم وقتلوه وفي ذلك قال الشيخ علي بن محمد بن الوليد الأنف قصيدة يحرض فيها على وجوب الأخذ بثأره جاء فيها[2]:

فيـا أيها الغـادي تحمّلْ ألـوكـةً إلى يعـربٍ طـرّا وبلِّغْ مقـاليَـا
وخُصَّ أبـاة الضيم أبناء يعبـر وصيد حراز الغر أسمعْ نـدائيا
أجـدّوا طـلابـاً للعـدوِّ فـإنهمْ على غدرهم لا يظفرون معاليا
وشنّـوا عليهم غـارة يعبـريَّـةً تصيـرهم بالمرهفـات أضـاحِيـا

فتحمّس اليعابر وقاموا واحتشدوا لأخذ الثأر من بني حكم. وانضمّ إليهم الداعي حاتم، فأخذ يحرضهم، وأوصاهم بالصبر لينالوا ثأرهم. وقصدوا أكمة العلوّ[3] بهوزن حيث كان بنو حكم، ووقع القتال بين الطرفين واشتدّ، وتأسّد

---

(١) نزهة ١ / ٩٩ ـ ١٠٠.
(٢) نفسه ١ / ١٠٠ ـ ١٠١.
(٣) في نزهة ١ / ١٠٢ قال: أكمة العلو هي إلى اليوم خراب يباب.

اليعابر حتى دخلوا على الأعداء دورهم قهرا، وأحصوهم قتلا وأمرا.

وفي ذلك النصر قال الشيخ علي بن محمد بن الوليد قصيدة جاء فيها[1]:

أجل هكذا تقنى العلا والمفاخرُ وتـنقـم أوتـارٌ ويـثـأر ثـائـرُ
فلا شرفٌ إلّا الذي حِيزَ بالظُّبا ولا مجْـدَ إلّا ما حـوَتْه اليعـابرُ

وكان مقر الداعي حاتم في الحطيب، وكان يعاضده في إقامة الدعوة الشيخ محمد بن طاهر الحارثي، فعيّنه رئيساً للدعوة في صنعاء، وجعل في كل صقع من أصقاع اليمن مأذوناً. فواصله أهل الدعوة من السند والهند وأقطار اليمن. وكان يجتمع بأهل دعوته في كهف كبير يقع تحت حصن الحطيب يزودهم بعلمه.

وكان الشيخ محمد بن طاهر الحارثي قد توفي في شهر شوال سنة أربع وثمانين وخمس مئة. فأقام الداعي حاتم بعده الشيخ علي بن محمد بن الوليد الأنف القرشي مأذوناً وصيّر إليه أمر أهل الدعوة في صنعاء. وكان يسافر إلى الداعي حاتم بحراز وإليه يرجع الفضل في تعليم ابن الداعي حاتم علي بن حاتم حتى بلّغه مرتبة أهلته لأن يولّيه داعياً مطلقاً من بعده[2].

وقد رأينا أن الداعي حاتم بن إبراهيم حاول بدون نجاح أن ينشىء مُلكاً في بلاد همدان ثم في حراز، وأراد أن يحمي الدعوة بالدولة كما كان الحال في أيام الصليحيين. فقد وجد الداعي حاتم نفسه أمام عقبات ما استطاع أن يذلّلها. والأهمّ منها انقسام همدان بين تأييد السلطان علي بن حاتم اليامي الهمداني ملك صنعاء وما يليها وبين مناصرة الداعي حاتم بن إبراهيم الحامدي الهمداني فترك الداعي منافسة الملك علي بن حاتم اليامي نظراً للأخطار التي واجهتها الدعوة من كل صوب وبالخصوص من تهامة حيث استولى الملك عبد النبي بن علي ابن مهدي الحميري على معظم الحصون والمعاقل التي كان يملكها أهل الدعوة. ثم انسحب الداعي حاتم عن الميدان تماماً، واكتفى بنشر علوم الدعوة من كهفه

(١) نفسه ١ / ١٠٢ ـ ١٠٣.
(٢) نزهة ١ / ١٠٤.

الواقع تحت حصن الخطيب بعد أن مات قائده السلطان سبا بن يوسف اليعبري وبعد دخول بني أيوب اليمن تحت قيادة توران شاه ثم طغتكين، فتغلبوا على اليمن وقضوا على جميع الممالك والدويلات والقبائل.

فتفرّغ الداعي حاتم بن إبراهيم الحامدي للتأليف، «ونقل الروايات على صحتها من المحدثين، وله في الدعوة السهم المعلّى، وكتبه وتآليفه مشهورة»[1]. ومن أهم مؤلفاته التي ورد ذكرها:

كتاب تنبيه الغافلين[2] في الأخلاق وذمّ الرذيلتين، التحاسد والتباغض، وضمّن الكتاب رسالتين من رسائل إخوان الصفا في آداب الإخوان وحسن المعاشرة، وفصلاً من مجلس العزيز بالله الفاطمي.

ورسالة النقد على أهل المخاط فيما ارتكبوا من الفسق والخباط[3] في ذم المنكرات واتباع الشهوات وقد اقتبس فيها المؤلف من الرسالة الموسومة بالواعظ لأبي يعقوب السجستاني ومن أقاويل سيدنا علي بن أبي طالب وألفاظ المؤيد في الدين الشيرازي داعي الدعاة وقصيدة الخطاب بن الحسن الحجوري مطلعها «إن صحّ ما قالوا وما شعرا»[4].

وكتاب المجالس[5] والموجود منه إثنان وخمسون مجلساً من المجلس السابع والسبعين في مناقب سيدنا علي بن أبي طالب وشيء من قضاياه وغزواته.

وكتاب جامع الحقائق[6] وهو تلخيص للمجالس المؤيدية وهي ثماني مئة مجلساً وجعل كتابه هذا في ثمانية عشر باباً في مجلدين.

وخمسة عشر مجلساً[7] تعالج مسائل مختلفة مثل المحنة والإمتحان وشأن

(١) نزهة ١ / ٩٣.
(٢) فهرست إسماعيل ٥٩ - ٦٠؛ م.م.هـ.
(٣) فهرست إسماعيل ٦٧.
(٤) لم ترد هذه القصيدة في نسخة د. الخطاب الموجودة في مكتبتنا المحمدية الهمدانية.
(٥) فهرست إسماعيل ٨٩.
(٦) فهرست إسماعيل ٢٤٦؛ م.م.هـ؛ انظر ص ٢٦٢.
(٧) نفسه ٢٦٢؛ م.م.هـ.

العلماء ومعنى النفس وحقيقتها ووجوب الإمامة في كل زمان والولادة الدينية وامتثال أمر أولياء الله والنصائح وتفسير بعض الآيات والأحاديث وغيرها.

ورسالة التذكرة [1] تشتمل على آراء المؤلف وأفكاره عن المبدأ والمعاد والثواب والعقاب والوصول إلى ولاية أولياء الله، ثم يتلو ذلك فصول ومقتبسات من مؤلفات الدعاة السابقين، ومنها فصل للداعي يحيى بن مالك في بيان الأرض وما فيها من طيّب و: بيث.

ورسالة زهر بذر الحقائق [2]، وتشتمل على ثماني عشرة مسألة في علم الحقائق.

وكتاب تحفة القلوب وفرجة المكروب [3] في الحقائق، وهو كتاب جليل، وفيه فصل «في بيان جزيرة اليمن حرسها الله تعالى وكيف كان قيام الدعاة فيها من أول الزمان إلى وقته بمختصر من القول». وفصل في أسماء حدود وقته الذين ألّف لأجلهم الكتاب.

وكتاب مفاتيح الكنوز [4] ألّفه جواباً على المسائل التي وردت عليه من بعض الإخوان، مثل دور الكشف، والردّ على من قال إن المهدي عبد الله من ولد الحسن ابن علي بن أبي طالب، والتوحيد جواباً على قول السائل «أجز لي يا مولاي عن الله هل هو في الدار أم الدار فيه»، وتسمية العقل عقلاً وما شابهها من المسائل.

هذه الكتب ورد ذكرها في فهرست الشيخ إسماعيل بن عبد الرسول. وله مؤلفات أخرى لم يذكرها الشيخ إسماعيل، ومنها كتاب الشموس الظاهرة [5] في الحقائق ذكره الشيخ حسن بن نوح البهروجي الهندي في كتابه الأزهار.

وظل هذا العلامة الباحث حاتم الحامدي تتقدم به السنّ حتى توفي في حصن الحطيب في يوم السبت السادس عشر من شهر المحرم سنة ست وتسعين وخمس مئة [6]، وكان قبره تحت حصن الحطيب بحراز من بلاد اليعابر يزوره الناس إلى وقت قريب ثم هدم ـ فلا أثر له الآن.

(١) نفسه ٢٧٦؛ م.م.هـ.
(٢) نفسه ١٧٨؛ م.م.هـ.
(٣) نفسه ٣٨٨؛ م.م.هـ.
(٤) نفسه ٤٠١؛ م.م.هـ.
(٥) م.م.هـ.
(٦) نزهة ١ / ١٠٦.

صورتا ضريح حاتم بن إبراهيم الحامدي بالحطيب أخذناهما في سنة ١٩٣١.
وأما الآن فالبالغ أن عامل حراز سابقاً نقل التابوت إلى صنعاء، ثم وضع التابوت في الجناح الشرقي من جامع صنعاء:



[تصوير: حسين الهمداني]



[تصوير: حسين الهمداني]

الداعي علي بن حاتم بن إبراهيم الحامدي (٥٩٦ ـ ٦٠٥).

قام بأمر الدعوة بعد أبيه وأخذ يرسل دعاته لنشر الدعوة في الأصقاع. وافترقت عليه أمور أهل دعوته بحراز من اليعابر وسواهم وخالفوا أمره مما دعاه إلى ترك حراز والذهاب إلى صنعاء. وبينما كان سلاطين همدان من بني حاتم مقيمين على حمايته والدفاع عنه وأهل دعوته كان أهل حراز قد عصوا نائبه وزعيم اليعابر السلطان حاتم ابن سبا بن يوسف وخالفوه وحالفوا أعداءه. وما زال الشيخ علي بن محمد بن الوليد يرسل إليهم رسله ويعرفهم سوء العواقب ويناشدهم الائتلاف. فكتب إليهم شعراً ينهاهم عن الاختلاف جاء فيه [١]:

نسيم الصبـا ألْمْ بسُوْح اليعـابـر	ليوث الشرى البانين أعلى المفاخـر
ذؤابـة قـحـطان بن هـود ولـبّـهـا	وأسـرة ذي العليـاء عمـروبن عـامـر
وقـل يا أبـاة الضيم يـا صيـد يعبـر	أفي الحـزم أن ترضـوا بهذا التشـاجر
وإن تهملوا إصـلاح مـا أن غفلتـم	عن إصـلاحـه أبتم بصفقـة خـاسـر

ولكن لم ينفعهم الوعظ والتذكير، ووقع بينهم الخلاف، وأعرضوا عن حراسة الحصون، حتى قتل السلطان حاتم بن سبا بن يوسف اليعبري.

وظل الداعي عليّ مقيماً للدعوة في صنعاء وأعمالها غير مكترث بملوك الغز وما يطرأ من أهوالهم مصادقاً لملوك همدان. ثم طلع حصن ذمرمر إلى سلاطين بني حاتم مفتقداً لأحوالهم. ثم أدركته العلة فأنزل محمولاً إلى صنعاء، وتوفي في يوم السبت ٢٥ من ذي القعدة سنة خمس وست مئة. ويقال إنه مات مسموماً [٢].

وله رسالة روضة الحكم الصافية وبستان العلوم الشافية [٣]، وهي تتضمن سبع

(١) نزهة ١ / ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢) نفسه ١ / ١٩١.

(٣) فهرست إسماعيل ٤٣٦٤ م. م.هـ.

عشرة مسألة في الحقائق. وفيها شرح بعض أقوال أبي يعقوب السجستاني من كتابه المسمى بالبشارات وشرح بعض مناجاة المؤيِّد في الدين الشيرازي.

الداعي علي بن محمد بن الوليد الأنف العبشمي القرشي (٦٠٥ ـ ٦١٢)

تقلد مراسم الدعوة في بلاد اليمن وما انضاف إليها، بعد وفاة الداعي علي بن حاتم الحامدي، وكان له مع الداعي حاتم وابنه الداعي علي الرتبة السامية واليد الطولى. وقال عنه حاتم الحامدي [١]: «. . . أمَّا شرف النسب فإنه من أشرف أهل الوقت نسباً، وأعلاهم حسباً، وأقدمهم في الدعوة الهادية، وأسبقهم إلى الأفعال المرضية، وذلك أن جدَّه إبراهيم بن أبي سلمة لسَبْقِه وشَرَفِه سفَّره علي بن محمد الصليحيّ إلى الحضرة الشريفة المستنصرية. . وإنهم من أشرف قريش وأعلى العرب من بني عبد مناف بن قُصي. وأما الطهارة والورع والعبادة والعفة والنسك والولاية والآداب، فلا يقاس أحد به من أهل زمانه. ولذلك أضفت أمر الدعوة الهادية سلام الله على صاحبها في الجزيرة اليمنية إليه». وكان جده إبراهيم يلقب بالأنف «لتقدمه على أضرابه تقدم المارن على الوجه» [٢] وهو جدير بما وصف الحطيئة قومه من قبل:

قوم هُمُ الأنفُ والأذنابُ غيرُهُمُ ... ومن يُساوي بأنف الناقة الذنَبا

وكان الشيخ إبراهيم بن أبي سلمة بن الوليد العبشمي القرشي الأنف من كبار رجال الدولة الصليحية، فمدحه الشاعر الحسين بن علي القمي بقصيدة، جاء فيها [٣].

فياشبه الخليل ندىً وتقوى ... لخالقه وحلماً واعتزاما

---

(١) نزهة ١ / ١١٢.
(٢) نفسه ١/١١٣.
(٣) نفسه ١ / ١١٣ ـ ١١٤.

فـإبـراهيم إبـراهيم أضـحَتْ | بـه صـنعـاؤهُ البلد الحـرامَـا
فيـا نجل الـوليـد ورثت مجـداً | مـن الآبـاء يتّسق انـتـظامـا
فـإن يكن الخليـل أتـاه وحيٌ | فقـد أصبحتَ في العليا إمـامـا

وقال أيضاً يمدحه [1]:

وأغْرِفْ من اليمّ لا ماءً كما زعموا | لكن درّاً ومـرجـانـا ويـاقـوتَـا
جُدْ بالسلام عسى نارُ الغرام به | تعـود بَـرْداً إذا حَييْتَ حُيِّيتَا
أنت الخليل وصنعاك الحرامُ ووا ٍم | ديك السرار بها لو كنت نُبِّيتـا
يا سيِّدا ما نسينا عهد صحبته | أنسيت في أجل هل كنت أنسيتا

ولم يزل الداعي علي بن محمد بن الوليد قائماً بأمر الدعوة، فاتسقت به أمورها وتحسنت أحوال أهلها، واجتمعت على تأييده ونصرة دعوته بعض السلاطين والزعماء من همدان. وكان الحبر العالم علي بن حنظلة بن أبي سالم المحفوظي الوادعي الهمداني من المعاضدين للداعي والمؤازرين له، بل كان النائب منابه في كثير من الأحيان، وأقام الداعي الشيخ عبد الله بن عبد الله أبي منصور بن أبي الفتح على أهل الدعوة في الحقل حقل يحصب وذمار وأصاب وما ينضاف إليها ومخلاف جعفر والجند وأعمالها وبلاد ذخر والمعافر ولحج وأبين وعدن وتهامة وما يليها بعد أن عزل الشيخ محمد بن أحمد الأحوري [2] من ولاية هذه البلاد. وقد ساسهم الداعي جميعاً سياسة حاسمة حازمة لها شأن، مع ما نالوا من قوة الغز. وظل الداعي مقيماً بصنعاء، ويتردد إلى ذمرمر والعروس وبها السلاطين من آل حاتم الهمدانيين.

وكان الملك المعز إسماعيل بن طغتكين قد قتله مماليكه من الأتراك في سنة ثمان

---

(١) نزهة ١ / ١١٣.

(٢) وكان الأحوري ممن كان له باع في الدعوة وقت الداعي حاتم بن إبراهيم الحامدي وولده علي بن حاتم الحامدي، فحينما أفضيت الدعوة إلى الشيخ علي بن محمد بن الوليد داخلته المنافسة والحسد، وكانت صيهاب موضع استقراره.

وتسعين وخمس مئة بمدينة زبيد. وقام بعده الأتابك سنقر نيابة عن الملك الطفل الناصر بن طغتكين. ولما توفي سنقر سنة إحدى عشرة مئة قام الملك الناصر بأمر الملك، وطلع إلى صنعاء. ولكنه توفي فيها مسموماً سنة إحدى عشرة وست مئة. وبقي أمر اليمن على غير نظام.

فقوي موقف الإمام عبد الله بن حمزة المنصور [١]، ورام كل مرام، كما يظهر في قوله من قصيدة:

لا تحسبوا أنَّ صنعا كلُّ مأربتي ... ولا تَعِزَّ، ولا أشجيتُ حُسَّادي [٢]
واذْكرْ إذا شئت تلهيني وتطربني [٣] ... كرِّي الجياد على أبواب بغداد

فاستولى على صنعاء وما يليها. وحارب فرقة من الزيدية تدعى بالمطرِّفيّة وكفّرهم وعمّر مسجداً بظفار [٤]، وكتب فيه:

لا يدخلنّك ما بقيتُ مطرِّفي

(١) قال ياقوت في معجم البلدان / ورور: هو عبد الله بن حمزة بن سليمان، زعم أنه من ولد أحمد بن الحسين بن القاسم بن إسماعيل بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. ورواة الأنساب يقولون إن أحمد بن الحسين لم يعقب اهـ. وذكر القاضي عبد الله الجرافي في المقتطف ١١٦ النسب الصحيح للإمام وهو: المنصور بالله عبد الله بن حمزة بن سليمان بن حمزة بن علي بن حمزة بن أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن الإمام القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب اهـ. وكان الإمام المنصور شاعراً فصيحاً ذا لسان عالماً لا يسمح باختلاف الرأي قائداً طموحاً ذا شخصية جبارة؛ دعا في بلاد الجوف وسكن بها، وفتح صنعاء، ثم انحاز إلى حصن كوكبان عند طلوع ابن فليت إلى اليمن الأعلى، ودفن بظفار.

(٢) في رواية ياقوت: جل مأربتي ولا ذمار ولا شمت حسادي.

(٣) في رواية ياقوت: تشجيني وتطربني.

(٤) وفي نزهة ١ / ١٢٠ قال: أظنه بظفار اهـ. والظاهر هو حصن ظفار ذي بين ويقال له ظفار داود في شمال صنعاء على نحو ثلاث مراحل.

فأجابه بعضهم بشعر يقول فيه:

أوَ ما علمتَ بأنَّ كلَّ مطرَّفي عمّا عملتَ من الكنائس مكتفي
أنتم وقبلتكم ومسجدكم معاً كذبالة في وسط مصباح طفي

فلما حاربهم واتبعهم[1] خرج ابن النَّساخ[2] إلى بغداد وخاطب الخليفة العباسي بقصيدة مشهورة مطلعها:

لمنشي الملك ذي الملكوت حمدي رداء الحمد أفضل ما تردِّي

ومنها قوله:

نيامٌ يا بني العبّاس أنتم وهذا ثوب أسرتك تُردِّي
ويرميكم ببغداد بجيشٍ أجشّ متبعاً برقاً برعد
ينادي يا لثارات بفخ وباخْمرا ووقعة يوم مهدي
ويدعو أين إدريس ويحيى وعبد الله أين أبي وجدي

فكتب الخليفة العباسي إلى الملك الكامل الأيوبي صاحب مصر يحرضه على حفظ اليمن، وأن لا يتهاون بأمره. فأرسل الملك الكامل ولده المسعود وأتابك جمال الدين بن فليت إلى اليمن. فوصل الأخير زبيد في مستهل سنة اثنتي عشرة وست مئة. وقبض على الملك الأعظم سليمان الأيوبي الذي تولى الحكم بعد وفاة الملك الناصر الأيوبي[3] ورجع به أسيراً، فأرسله المسعود إلى مصر، وسلمت إليه الحصون

---

(١) يقال إن عدداً ضخماً من المطرفية قتلهم الإمام المنصور بالله حتى أبيدت الفرقة جميعاً ودورهم وبلدانهم وهي خربة إلى الآن.

(٢) هو حسن بن محمد بن النساخ من المطرفية من بلاد آنس. وقام الأمير محمد بن منصور بن المفضل المشرقي أخو الأمير محمد العفيف الوزير بنصرة المطرفية ضد الإمام المنصور. هذا ما رواه صاحب المقتطف ١١٨.

(٣) وكان قد تزوّج سليمان هذا والدة الملكين الأيوبيين المعز إسماعيل والناصر ابنيّ الملك العزيز طغتكين بعد وفاتها، ولقب بالملك الأعظم.

والمدن باليمن الأسفل، وابن فليت مقدم عسكره. ثم طلع ابن فليت إلى ذمار. وكان الإمام المنصور أخرب دور الغز في صنعاء، ثم انحاز إلى حصن كوكبان. ووصل ابن فليت صنعاء في عساكر جمة فدخلها في جمادي الأخرى من السنة المذكورة.

وكانت تلقّته بنو حاتم في همدان. فتلقّاهم بالإجلال والإحسان. وأقام ابن فليت بصنعاء يجهز العساكر حتى اجتمع له من أهل اليمن البادي والحاضر.

وكانت وفاة الداعي علي بن محمد بن الوليد القرشي بعد دخول الغز صنعاء بشهرين في شهر شعبان سنة اثنتي عشرة وست مئة. وكان عمره قد أوفى على التسعين عاماً وهو صحيح الجوارح يؤلف الكتب ويقوم بالعبادة ويشتغل بالدرس والتدريس وكان الداعي علي من أنشط الدعاة يذبّ عن حمى الدعوة ويكافح عنها بقلمه ولسانه في ظروف غير ملائمة. وكان الكفاح مريراً منذ سقوط الدولة الصليحية، ولم تجد الدعوة معيناً ولا ناصراً من سلاطين اليمن يحميها من وطأة الحروب القائمة بين ملوك الغز والسادة الأشراف. فتمسك الداعي بسلاطين آل حاتم الياميين الهمدانيين الذين كانوا يعطفون على أهل الدعوة، لا من أجل عقيدتهم، بل احتراماً لاتصال جدهم القاضي عمران بن الفضل اليامي بالصليحيين وبالدعوة واحتراماً لحقوق الجوار. وفي هذه الظروف القلقة استطاع رؤساء الدعوة جمع شمل أهل الدعوة باليمن. وذلك بفضل عدم تدخلهم في سياسة البلاد، وتحصنهم بالمعاقل والحصون أحياناً، والتجائهم إلى التستّر الشديد أحياناً عند عدوان المعتدين، وأخيراً وليس آخراً بفضل نشاطهم العلمي وحفظ التراث الأدبي والديني السابق وضبطه. وهكذا وضعت أسس متينة لمؤسسة الدعوة، فاستطاعوا أن يوطدوا بها مكانهم وموقفهم في المجتمع اليمني. وكان الداعي علي بن محمد بن الوليد القرشي قد شارك الدعاة السابقين أمثال الداعي إبراهيم بن الحسين الحامدي والشيخ محمد بن طاهر الحارثي والداعي حاتم بن إبراهيم الحامدي، فاضطلع بقسط وافر في وضع الأسس للحركة العلمية داخل منظمة الدعوة. ويدل على ذلك مؤلفاته العديدة التي نذكر منها:

كتاب تحفة المرتاد وغصّة الأضداد [1] في الرد على الفرقة المجيدية وإثبات إمامة الطيب بن الآمر وذكر تسلسل الإمامة. وفيه نبذ من علم الحقائق.

رسالة جلاء العقول وزبدة المحصول[2]، وهي تنقسم ثلاثة أبواب تحتوي على ثمانية وعشرين فصلاً. الباب الأول في التوحيد والخلقة الجسمانية وكيفيتها، والباب الثاني في الخلقة النفسانية وكيفية تربيتها، والباب الثالث في تسلسل الولادة الدينية وتأويل بعض الآيات من القرآن يتضمن ذكر الثواب والعقاب.

الرسالة المفيدة في إيضاح ملغز القصيدة [3]. وهي شرح القصيدة التي يروى أنه قالها الحكيم أبو علي سينا مطلعها:

هبطت إليك من المحل الأرفع   ورقاء ذات تعزُّز وتمنّع

وأورد فيها من رسائل إخوان الصفا فصلاً في علة كراهية الجميع الموت ومحبتهم البقاء بتمامه وكماله.

كتاب ضياء الألباب المحتوي على المسائل والجواب [4] ويشتمل على اثنتين وثلاثين مسألة والجواب عنها. وهذه المسائل أثارها الفقيه محمد بن إبراهيم بن أبي عمر من أهل الدعوة المخلصين في عهد الحرة الملكة الصليحية. وقد ذكر الداعي يحيى بن لمك بن مالك الحمادي «هذا الفقيه ذات يوم وفود عدة المؤمنين بصنعاء شاهداً بفضله ورتبته السامية في الدعوة» [5]. ويتضمن الكتاب على بيان التوحيد والإبداع والسابق والتالي ومعرفة الابتداء والانتهاء ودوري الكشف والستر وما شاكلها من مسائل علم الحقائق الخاصة بالدعوة. وقد عالج فيه بعض المسائل التي ردها الشيخ أحمد حميد الدين الكرماني على صاحب المحصول، وشرح فيه ما أورد الشيخ أبو تمام [6] من المسائل في أرجوزته المسماة بالشجرات.

(١) نفسه ٢١٠؛ م.م.هـ.؛ نشره ستروطمان (Strothmann) تحت عنوان «أربعة كتب اسماعيلية».
(٢) نفسه ٢٧٧؛ م.م.هـ.
(٣) فهرست إسماعيل ٢٧٨؛ م.م.هـ.
(٤) نفسه ٣٤١؛ م.م.هـ.
(٥) نفسه ٣٤١.
(٦) من الدعاة المعاصرين للداعي علي بن محمد بن الوليد.

ديوان شعره (١) في مدائح الداعي حاتم بن إبراهيم الحامدي وأستاذه الشيخ محمد بن طاهر الحارثي. وفيه أشعار في الردِّ على الفرقة المجيدية وفي عتاب المشائخ اليعبريين لما وقع بينهم من التنافر وفي مديح الأئمة وإمام زمانه الطيب بن الآمر وفي أجوبة الكتب المرسلة من أهل الدعوة وفي المراثي وغيرها.

كتاب دامغ الباطل وحتف المناضل (٢) في الردِّ على الغزالي في كتابه المستظهري (٣).

كتاب مختصر الأصول (٤)، ويشمل شرح المقالات وكيفية انقسامها، والرد على فرق الحشوية والجبرية والمعتزلة والفلاسفة.

كتاب تاج العقائد ومعدن الفوائد (٥) يتضمن مئة مسألة في معتقدات مذهب الدعوة، «فإنها قواعد الدين، وما وجد خارجاً عن هذه العقيدة فإنما هو اختلاف على هذا المذهب». هذا قوله.

كتاب مجالس النصح والبيان (٦)، والموجود منه أربعون مجلساً من المجلس الأول والمئة إلى الأربعين والمئة، وسمي به لأنه ابتدأ في كل مجلس منها أولاً بالنصائح ثم بالبيان وهو صميم الموضوع. وتشمل الابتداء والانتهاء وغيرها من مسائل علم الحقيقة والدعاء والمناجيات إلى الله وتأويل الآيات من التنزيل الكريم.

رسالة الإيضاح والتعيين في كيفية تسلسل ولادتي الجسم والدين (٧) في علم المبدأ والمعاد وإثبات إمامة الطيب بن الآمر.

---

(١) فهرست إسماعيل ٥٠؛ م.م.هـ.

(٢) نفسه ١٢٩؛ م.م.هـ.

(٣) نشره غولد تصير (Goldziher) في كتابه Streitschrift des Gazali gegen die Batinīja - Sekte ١٩٦.

(٤) م.م.هـ.

(٥) فهرست إسماعيل ١٧٣ - ١٧٩؛ م.م.هـ.

(٦) نفسه ١٩٥؛ م.م.هـ.

(٧) نفسه ١٠؛ م.م.هـ؛ نشرها ستروطمان (Strothmann) في مجموعة «أربعة كتب إسماعيلية».

رسالة لب المعارف [1]، وهي سبع مسائل: الأولى عن القائم وعن الشريعة في دوره، والثانية عن الهيولى والصورة، والثالثة عن قول الله تعالى يخرجون من الأحداث الآية، والرابعة عن قول الإمام المعز إذا كانت هذه السموات والأرض فانية فما ظنك بما دونها، والخامسة عن قول الإمام المستنصر في القائم بأنه سابع النطقاء، والسادسة عن الإمام وحدوده الداعين إليه، والسابعة عن قول القاضي النعمان في كتاب أسرار التأويل إن النطقاء يأخذون عن الحدود وعن قول الشيخ أحمد حميد الدين الكرماني في كتاب راحة العقل إن النطقاء يأخذون من حد جسماني، فكيف المخلص من كلامهما.

رسالة لباب الفوائد وصفو العقائد [2] في المبدأ والمعاد.

كتاب الذخيرة [3] يتضمن بحوثاً عن التوحيد والإبداع والانبعاث والنبوة والإمامة والقائم والانتهاء والمعاد وغيرها من المسائل في عقائد الدعوة. ويعتبر هذا الكتاب من أمّهات الكتب في هذا الفن.

وله بحوث ورسائل أخرى مثل رسالة ملحقة الأذهان أوردها أستاذه الشيخ محمد بن طاهر في كتاب مجموع التربية، ونظام الوجود في ترتيب الحدود في أسماء حدود الدعوة باليمن في عهده. وقد تنسب إليه رسالة في معنى الاسم الأعظم. ووصلت الدعوة اليمنية إلى أوجها في النشاط العلمي في مؤلفات الشيخ علي بن محمد بن الوليد القرشي، وتمتاز بسعة الاطلاع، والتحقيق الذي لا يخلو من الجدة والابتكار.

الداعي علي بن حنظلة بن أبي سالم المحفوظي الوادعي (٦١٢ - ٦٢٦).

قام بالدعوة بعد الداعي علي بن محمد بن الوليد، وله في الدعوة الاجتهاد القديم. وكان يقصده القصاد طلباً للعلم المشهور. ولا يختلف في تقدمه من همدان اثنان.

---

(١) فهرست إسماعيل ١٣٦٥؛ م.م.هـ.

(٢) نفسه ١٣٨٣؛ م.م.هـ.

(٣) لم يذكره الشيخ إسماعيل بن عبد الرسول في الفهرست؛ م.م.هـ.

وكان مقامه في صنعاء أو في ذمرمر. وكان عالي المنزلة عند بني أيوب وبني حاتم اليامبين. وقد بعث إلى أصقاع اليمن والهند والسند الدعاة وأقام فيهم شريعة الإسلام [١]. واتبع في عهده السياسة المرسومة وهي عدم تدخل الدعاة في شئون البلاد السياسية.

وكان الأتابك ابن فليت تمكن من عقد الصلح في سنة ثلاث عشرة بين الملك المسعود الأيوبي والإمام عبد الله بن حمزة المنصور على أن يقدم الإمـام للسلطان عشرين حصاناً وعشرين جملاً. وقد توفي الإمام بعد ذلك في سنة أربع عشرة في حصن كـوكبان ودفن في ظفـار. فقام ولـده محمـد عـز الـدين بن عبـد الله ابن حمزة فحارب ابن فليت أياماً لأن ابن فليت مات في السنة المذكورة. ثم إن الملك المسعود تقلّد إمرة الجيوش وطلع بعد وفاة قائد قواته ابن فليت إلى حصن كوكبان وتسلمه وصالح الأشراف ثم عاد إلى اليمن الأسفل. وكان تارة يحارب الأشراف وطوراً يصالحهم. وخرج الملك المسعود إلى مصر لـزيارة والـده الملك الكامل في سنة ثماني عشرة وست مئة وولّى على البلاد رجلاً يدعى الحسام لؤلؤ أقامه في زبيد، وفي صنعاء الأمير الحسن بن علي بن رسول. وقد قامت الحرب بين قوات ابن رسول والأشراف مدة حتى حطّ الأشراف في صنعاء، فخرج الحسن ابن علي بن رسول إليهم من باب السَّبحة [٢]، ووقع القتال وغشيهم المماليك بالدبابيس، وانهزم عسكر الأشراف وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأصيب عز الدين محمد بن الإمام عبد الله في علية وعقر حصان أخيه شمس الدين أحمد بن الإمام، فعاد الأشراف مهزومين. وكان الغز إذا ملكوا صنعاء، كما ذكر الداعي إدريس [٣]، شملوا أهل الدعوة بالأمان. وكان لهم لديهم المرتبة والمكان. ووصل عز الدين إلى ثلا وافترق عسكره. وفي ذلك يقول عز الدين (ع) [٤] وأخوه شمس الدين (ش) ارتجالاً وقد تعارضا:

---

(١) نزهة ١ / ١٢٣.

(٢) نفسه ١ / ١٢٤. وكان الباب في الجانب الغربي من صنعاء وتسمى هذه المنطقة السبحة والمتداول على الألسن الآن باب السبح الموصل بين صنعاء وبئر العزب.

(٣) نزهة ١ / ١٢٦.

(٤) نفسه ١ / ١٢٧.

ع: فلو نظرتنا يا بنة العمِّ أعين ... ونحن بيوم ابْنِ الرسول اسْتهلَّتِ
ش: عشيَّة أرمي جمعهم بلبانة ... ونفسيَ قد وطَّنتها فاطمأنَّتِ
ع: فقل لأمير الدين صبراً فإنها ... صروف الردى مهما ادْلهمَّتْ تجلَّتِ
ش: وما دام عزُّ الدين فينا فإنَّنا ... على ذروة في المجد أشرف ذروة

وسأل الأمير الحسن بن علي بن رسول السلطان مدرك بن بشر بن حاتم اليامي الهمداني شعراً في هذه الوقعة. فقال مدرك على لسانه. فكتب بها إلى الملك المسعود في مصر [1]:

سلا ذات سمط الدرِّ والمارن الأقنَى ... لدى عَصُرٍ من أصْدَق الضرب والطعْنَا[2]
ومن شهدت صنعاء لولا بلاؤه ... لما فارقت رعباً ولا رافقت أمنا

إلى قوله:

فلا زالت الأخبار عنكم تسرُّنا ... كما سرَّكم في مصر مخْبِركم عنَّا

فقال السلطان الكامل لابنه الملك المسعود: يا يوسف! من هذا الذي يخاطبك بنون العظمة؟ فقال: هذا أمير لي. قال أبوه: ما هو أمير، بل هو نظير، إن لم تثب عليه وثب عليك. فأسرّها الملك المسعود في نفسه حتى دخل اليمن في سنة أربع وعشرين وست مئة. فنزل الأمير بدر الدين الحسن بن علي

(١) نزهة ١ / ١٢٨.
(٢) عصر بفتح العين وضم الصاد، اسم قرية وجبل غربي صنعاء على مسافة أربعة كيلومترات تقريباً.

ابن رسول للقاء الملك ومعه أخواه شرف الدين موسى بن علي وفخر الدين أبو بكر ابن علي فقبض عليهم الملك وأرسلهم إلى مصر [١]. وقرر خاطر أخيهم نور الدين عمر ابن علي وطمأنه قائلاً: لا بد بعد أن يصلوا مصر من إطلاقهم والإحسان إليهم. ورفع قدر نور الدين عمر. ثم عزم على السفر إلى مصر في سنة ست وعشرين وست مئة وولّى، بعد أن اعتذر الحسام لؤلؤ، نور الدين عمر بن علي على اليمن. وقال الملك المسعود لنور الدين، كما روى الخزرجي [٢]: «إني قد عزمت على السفر، وقد جعلتك نائبي في اليمن. فإن مت فأنت أولى بملك اليمن من إخوتي لأنك خدمتني وعرفت منك النصيحة والاجتهاد، وإن عشت فأنت على حالك. وإياك أن تترك أحداً يدخل اليمن من أهلي ولو جاء الملك الكامل والدي مطوياً في كتاب». وقال إدريس [٣]: «وقال (الملك المسعود) لعمر بن علي بن رسول: «قف في اليمن عاملاً حتى يأتيك أمرنا». فأجابه عمر بن علي بالقبول». ويروى أنه عاد إلى مصر، لأن عمه الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر أيوب توفي، وكان يومئذٍ صاحب دمشق، فكتب الملك الكامل إلى ابنه الملك المسعود يوسف يستدعيه إليه ليعطيه دمشق. ففرح فرحاً شديداً حتى أنه سافر وقد ابتدأ به المرض [٤].

فلما انتهى الملك المسعود إلى مكة وافته المنية بها في يوم الإثنين من جمادي الأولى من سنة ست وعشرين وست مئة. ووصل العلم بوفاته إلى أبيه الملك الكامل وهو خارج الديار المصرية. فأعلن الأمير نور الدين عمر بن علي ابن رسول استقلال اليمن لمّا أتاه خبر المسعود، وعيّن لدولته الأمراء والرؤساء والجنود، واتخذ مدينة تعز عاصمة له، وتلقّب بالملك المنصور. وابتداء مملكته

---

(١) جاء في نزهة ١ / ١٢٨ شمس الدين الحسن بن علي. وقد ذكر الخزرجي (عقود ١ / ٣٩) أن المسعود تقدم من تعز إلى الجند وأنه وثب على بني رسول وقبض على بدر الدين بن علي وفخر الدين أبي بكر بن علي وشرف الدين موسى بن علي، فقيدهم وأودعهم السجن. ولا يذكر الخزرجي أن الإخوة أرسلوا إلى الديار المصرية.

(٢) عقود ١ / ٤٠ - ٤١.

(٣) نزهة ١ / ١. أرى أن رواية إدريس أقرب إلى المنطق من تمجيد الخزرجي لآل رسول.

(٤) عقود ١ / ٤٠.

من جمادي الأخرى من سنة ست وعشرين وست مئة، فكان هذا ابتداء دولة بني رسول. فلا غرو أنهم كانوا أحق بملك بلادهم من غيرهم (١).

وكان الداعي علي بن حنظلة المحفوظي الوادعي في أثناء هذه الأحوال المضطربة قائماً بأمور دعوته، وأقام الشيخ أحمد بن المبارك بن الوليد القرشي والشيخ الحسين بن علي بن محمد بن الوليد القرشي لمعاضدته في نشر مبادىء الدعوة وعلومها وإصلاح أمو أهلها، وكان قد وجد في أثناء مدة دعوته مجالاً لتأدية واجبات منصبه وتشجيعاً وأماناً من قبل الأمراء الأيوبيين وبالخصوص من أمراء آل علي بن رسول. وكان سلاطين بني حاتم الياميين ومشائخ همدان يحمون أهل الدعوة من عدوان المخالفين. واتبع الداعي علي بن حنظلة وأعوانه سياسة عدم التدخل في الخلاف القائم بين الملك المسعود وأعوانه آل علي بن رسول وبين الأشراف، وعلى الرغم من هذا لم ينج الداعي وأهل دعوته من مخالفة الأشراف. فكان الداعي مثل من سبقه من رؤساء الدعوة مضطراً أن يلتجىء إلى حماية السلطان وأمراء آل رسول طبقاً لقانون المحافظة على البقاء.

ونذكر من مؤلفات الداعي علي بن حنظلة المحفوظي الوادعي:

قصيدته الموسومة بسمط الحقائق (٢) وهي تحتوي على ست مئة وثلاثة وستين بيتاً تبدأ بقوله:

الحمد لله العليّ السامي	عن صفة الكمال والتمام
إذ التمام والكمال صنعتُه	سبحانَه تقدَّمتْ هويَّتُه
فَوَصْفُه كما أتى تشبيهُ	وحدُّه ونَعْتُه تمويهُ
والعَجزُ عن إدراكه إدراكُ	والنفي تعطيل به الهلاك

(١) آل رسول ينتهي نسبهم إلى الملك جفنة بن عمرو الغساني الذي رحل من اليمن إلى بلاد الشام بعد خراب سد مارب. وكان جدهم رسول واسمه محمد بن هارون من أعوان الدولة الأيوبية وأعيانها. وقد وفد أولاد علي بن رسول من مصر إلى اليمن مع بني أيوب.

(٢) فهرست إسماعيل ٢٧٢؛ م.م.هـ٤؛ وقد حققها المحامي عباس عزاوي ونشرها المعهد العلمي الفرنسي بدمشق سنة ١٩٥٣.

جلَّ عن البحث بَهلْ ومَنْ ولِمْ وعــزَّ أن يحصُـرَه لفظ الـكَلِمْ

ويتلو الحمد أبيات في التوحيد والصلوات والنصيحة في محاسبة النفس بالنفس وإطاعة أولي الأمر والحدود وذكر مفيديه السابقين الداعي السلطان حاتم بن إبراهيم الحامدي الهمداني وابنه الداعي علي بن حاتم والداعي علي بن محمد بن الوليد القرشي وفيهم يقول:

. . . . مستسلماً لـطاعـة الحـدود
في عصـره كحاتم في عصـرنـا حجَّـة مـولانـا وليّ أمـرنـا
داعي الإمـام الـطيِّب الـزكيِّ ونـجـله مـن بـعـده عـليِّ
طَـوْد الفخـار الشـامـخ المنيف وابْن الـوليـد الـطاهـر العفيف
عليّ ذي الفضل الشريف المحتدِ نجم الهدى نجل الرضي محمد

ثم أتى بسؤال السائل حيث يقول:

سـألـتَ وُفِّقتَ إلى الـرشـاد عن أصل بدءِ الكَـوْن والإيجاد
وكيف كـان الأمـر في البـدايَـهْ ومـا إليه ينتهي في الغـايَـهْ
ومـا الـذي أوجب للنفـوس ربـاطها في العـالم المعكـوس
حتّى اغتَـذَتْ لابِسـةً بـالجسم مَـبْـلوَّةً فـيـه بـطول الهـمِّ
ومـا الـذي ينـزع مـا عـراهـا من ظلمة الجهل الذي أنساهـا
محـلَّهـا بـالعـالم الـروحـاني فـاستغرقَت في العـالم الظلمـاني
حـتّى تَـفـي إلى جـوار ربِّهـا راجـعـة تـائبـة من ذنبهـا
راضـيـة إذ ذاك مـطمئـنَّـة مـسـرورة فـائـزة بـالجنَّـة

ثم يرد السؤال بالكلام عن التوحيد، وعالم الإبداع، والأفلاك، والأركان، والمزاج والممتزج، وأدوار الكواكب السبعة، وأهل الجنة الإبداعية، ودور الكشف وأهله، ودور الستر وأهله، والمعاد المحمود، والناسوت واتحاده

باللاهوت، والمعاد المذموم، والبعث والحساب، والخلود في الثواب والعقاب. وكأنّ هذه الأرجوزة تقدّم في نظم سلس مستساغ خلاصة ما أورده المؤلفون الدعاة في علم المبدأ والمعاد.

وله رسالة تسمى بضياء الحلوم ومصباح العلوم[1]، وقد ذكرها الشيخ إسماعيل في الفهرست من الكتب الكبار في علم المبدأ والمعاد. وهي مبوبة على أربعة أبواب: الباب الأول في التوحيد، ومعنى التنزيه والتجريد؛ والباب الثاني في مسائل المبدأ مثل إبداع العالم الروحاني لا من شيء، ووجود العالم الجسماني من الهيولى والصورة، ووجود المواليد الثلاثة، ووجود القامة الألفية، وقيام الدعوة الزكية، وتسلسل الذرية الإمامية، ودور الكشف، ودور الجرم، ودور الستر؛ والباب الثالث في المعاد المحمود، واجتماع المقامات بالأفق المبين، وظهور قائم القيامة؛ والباب الرابع في معاد الصور النافرة المضرَّة المستكبرة، وكيفية العذاب الأدنى والعذاب الأكبر وما شاكلها من مسائل المعاد المذموم. وهذه الرسالة لا تختلف في موضوعاتها عن محتويات أرجوزته سمط الحقائق إلا أنها أكثر شرحاً وإيضاحاً من المنظوم.

وتوفي الداعي علي بن حنظلة المحفوظي الوادعي في يوم السبت الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول من سنة ست وعشرين وست مئة. وذلك قبل أن يستقل اليمن عن حكم الغز تحت قيادة الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول بشهر.

الثروة العلمية الفاطمية في اليمن

نرى أن دعوة اليمن مضت من يوم وفاة السيدة الحرة الملكة الصليحية إلى انتهاء الدولة الأيوبية في اليمن في مرحلة تمتاز بنشاط علمي وجمع شتات التراث الفكري وتسجيلها في كتب ومؤلفات وحفظ ما تركه المؤلفون الدعاة في عهد الخلفاء الفاطميين. وقد بدأت هذه الحركة العلمية في حياة الملك المكرم والملكة الحرة بعد عودة قاضي قضاة اليمن لمك بن مالك الحمادي من الديار

---

(١) فهرست إسماعيل ٣٩٩؛ م.م.٠٨٠هـ.

المصرية إلى مقر الدولة الصليحية. وقد سبق أن ذكرنا أن داعي الدعاة المؤيد في الدين الشيرازي قرّر في أواخر عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي خطوط برنامج الدعوة العلمي، وكلف القاضي لمك تنفيذ هذا البرنامج؛ ونقل القاضي كتب الدعوة وما احتوته من العلوم إلى اليمن. ثم قرّرت السيدة الملكة الحرة بعد وصول القاضي إلى اليمن فصل الدعوة من شئون الملك، وعينت الملكة ويحيى بن لمك الداعي الذؤيب ابن موسى الوادعي للإشراف على تنفيذ هذا المشروع العلمي البعيد عن التيارات السياسية. فابتدأت الدعوة تعمل لهذا الغرض في عهد الداعي الذؤيب بن موسى الوادعي ومأذونه السلطان الخطاب بن الحسن الحجوري. ثم أظهر الداعي إبراهيم بن الحسين الحامدي ومأذونه الشيخ علي بن الحسين بن جعفر بن الوليد القرشي والشيخ محمد بن طاهر الحارثي نشاطاً بليغاً في هذا الصدد، وبلغ الداعي حاتم بن إبراهيم الحامدي والداعي علي بن محمد بن الوليد من إنتاجهما الأدبي مبلغاً لا يستهان به. وأثبت الداعي علي بن حنظلة خلاصة بعض علوم الدعوة في رسالته وأرجوزته. وقد واصل علماء اليمن هذا النشاط العلمي في القرون التالية إلى عهد الداعي إدريس عماد الدين الأنف القرشي المتوفى سنة اثنتين وسبعين وثمان مئة، بل إلى أيامنا هذه. ومن هذا العرض السريع نأخذ فكرة عما يوجد من الثروة الأدبية والعلمية في خزائن كتب الدعوة اليمنية.

قسم الملاحق

تضم هذه الملاحق سجلات تاريخية ووثائق ذات قيمة، ولذلك آثرنا أن نثبتها في هذا الكتاب، بعد أن بذلنا الجهد في تحقيقها، وإن لم نصل إلى القراءة الصحيحة لبعض عباراتها، لغلبة التصحيف عليها، واعتمادنا في أكثرها على مخطوطة واحدة.

ملحق رقم ١

سجل الخليفة الحاكم بأمر الله إلى هارون بن محمد القائم بالدعوة باليمن

(عيون الأخبار ٦/ ٢٧١ - ٢٧٣)

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. من عبد الله ووليه الإمام المنصور بالله أبي علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين إلى هارون بن محمد. سلام الله عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلي على جده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين وسلم تسليماً.

أما بعد، فالحمد لله الذي نعمه لا تحصى على من أطاع وعصى، فذو الطاعة لما به من نعمة يملا، وذو المعصية إلى حد ماله يملا. يستفيد هذا بشكره رحمة ورضوانا، كما يستزيد ذلك بكفره إثماً وعدوانا، وكل سوف يؤتى كتابه ثم لا شك يوفى حسابه. فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيرا، وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيرا.

وإن الذي كتبت به يا هارون بن محمد عنك وعن المؤمنين بأرض اليمن على يد المعروف بأبي الخير بن محمد بن يوسف بتاريخ يوم الإثنين لثمان ليال خلون من شهر شوال سنة تسعين وثلثمائة قد وصل، فأما ما شرحت من خبر من طلبت ما لم يكتب له ويقسَّم فأمره لا بد أن ينقم وذكره بعارٍ له سوف يوسم.

وأما ما ذكرت إنفاذه على يد رسولك من قرابين المؤمنين فهو من الذهب وزن سبعين درهماً ومن الورق ألفا درهم. فالله يتقبل لمن عمل ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون. وعليك أن تسلك بالمستجيبين الواجب، وتتجنب بهم كل طريق مجانب، لكتاب الله وسنة نبيه جدنا محمد، والمأخوذ عن آبائنا الأئمة المهديين صلوات الله على النبي ووصيه وعليهم أجمعين، والمسموع من أفواه المحققين، لا المأخوذ عن ألسن المتخرصين، وليكن فتواك للمستفيدين في الحلال والحرام من كتاب الدعائم دون ما سواه من الكتب المفتعلة.

وأما ما سألت إنفاذه إليك من الدواء المبارك فسيأتيك منه ما يجب في وقته على يد من يوثق بتأديته وأمانته. وقد كتب إلى الحضرة مظفر بن زياد كتاباً ذكر حامله أنه ضاع منه في طريقه. وسئل عما تضمنه فحكى أن الذي يحفظه منه استدعاء من يأخذ عليه من الحضرة، فأجيب إلى الرجوع إليك في هذا إذ كنت منه قريبا، ولما هذه سبيله منصوبا. فاعرف ذلك، واطلع ما عند مظفر وفقه الله، وطالع الحضرة إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله.

وكتب لعشر ليال خلون من ذي القعدة من إحدى وتسعين وثلثمائة. والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمد وآله الطاهرين وسلم عليه وعليهم أجمعين.

ملحق رقم ٢

سجل الخليفة المستنصر إلى الملك علي بن محمد الصليحي

(عيون الأخبار ٧/ ٨٦)

ولما بلغ الأمير محمد بن علي الصليحي مبلغ الرجال، ورأى فيه والده دلائل الفضل والكمال، أقامه لينوب عنه في جميع دعوته، وجعله الخلف له، واستند إليه في وصيته، وكتب بذلك إلى الإمام المستنصر بالله عليه السلام، واستورد أمره فيه، وبركة رأيه، والإذن له في ما يرتجيه، فورد إليه سجل من أمير المؤمنين المستنصر بالله عليه السلام يقول فيه:

«ومما نظر إليك أمير المؤمنين نظر مثله، ممن ينظر بنور الله لمثلك، ممن بإخلاص ولائه يستظهر، أن يتخذ ولدك منتجب الدولة وصفوتها، ذا المجدين، خليفة لك، يخلفك في حياتك، ويكون خلفاً صالحاً عند حضور وفاتك، وأن يصطنعه لنفسه، ويلبسه من لباس الأكرومة ما يرتقي إلى ذروة الشرف بلبسه، ويفيض عليه من خاص الملابس ما يفيض عليه الأقدار بإذن الله سعودها، وتنجز له أقاصي الأماني وعودها، ويسميه بالأمير الأعز شمس المعالي مضافاً إلى قديم ألقابه، ويأذن أن يدعو في تراجم كتبه ويدعى به، ويفسح أن يذكر به على فرق منابر بلادك في إعجاز ذكرك وأعقابه، وأن يلقب أخويه بلقبين زائدين في ألقابهما المتقدمة، لينالا بهما مزيداً من الاصطناع والكرامة. فالأوسط منهما الأمير المكرم، والأصغر الأمير الموفق والله تعالى يسدد كلاً منهما ويوفق».

فكان وصول هذا السجل إلى الداعي علي بن محمد الصليحي وهو في مدينة صنعاء في رجب سنة ست وخمسين وأربعمائة.

ملحق رقم ٣

سجل الخليفة المستنصر بالله إلى الملك علي بن محمد الصليحي يعزيه في وفاة ابنه الأكبر محمد الأعز وتولية ابنه الأوسط أحمد المكرم ولي عهد لأبيه.

(عيون الأخبار ٧/ ٧٩ ـ ٨٠)

«إن أمير المؤمنين يعزيك في ولدك الأكبر الأمير الأعز شمس المعالي منتجب الدولة وصفوتها ذي المجدين رحمه الله، الذي اخترت له خير الأولى، واختار الله له خير الأخرى، وألحقه بالملأ الأعلى، سوى أن أمير المؤمنين يألم بما ألم بك، وما اعترى قلبك من الحرقة بسببه، وحكم الله سبحانه الذي لا يغالب، والحتم الذي لا ينجو منه هارب، وأنت ربط الله على قلبك بالصبر، وأجزل لك حظك من الثواب والأجر، أرجح في ميزان العقل وزناً، أن يدخل عليكم الهم فيما لا ينفع الهم به وهنا، فالتق سلاح البلوى بجنة المالكين للصبر القادرين، وانتظم في سلك من عناهم الله بقوله: ﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين﴾ وقد أمر أمير المؤمنين بالرجوع إلى ولدك الأوسط كان وهو اليوم الأكبر، حفظه الله تعالى لكسر في أخيه رحمة الله عليه، يجبر في ولاية عهدك، وسد مسدك ميتاً، وأنشأ من التقليد ما يكون لفؤادك مثبتاً، فلينشر في المحافل والمحاضر، وليقرأ على فروق المنابر، ليكون لداء الناكبة دواء، أو للهب نار الحزن إطفاء، وعزز بإنفاذ تشريف من ملابسه يظهر عليه بين الأولياء رونق جماله، ويكون له جنة يوم حشره ومآله. فاعلم ذلك من رأي أمير المؤمنين ورسمه، واعمل عليه بحكمه، وطالع حضرته بذكر ثبوت مراسي صبرك، بما تعرب به عن مكانتك من الخلد ومقرك، ويسري عن نفس أمير المؤمنين فكرها بتقسيم فكرك، إن شاء الله تعالى، وكتب في شهر ربيع الأول سنة ٤٥٨».

ملحق رقم ٤

سجل الخليفة المستنصر إلى الأمير أحمد المكرم بن علي الصليحي.

(عيون الأخبار ٧/ ٨٠ ـ ٨١)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين. من عبد الله ووليه الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى الأمير المكرم شرف الأمراء منتجب الدولة وغرسها ذي السيفين أحمد بن الأمير الأوحد أمير الأمراء عمدة الخلافة تاج الدولة سيف الإمام المظفر في الدين نظام المؤمنين علي بن محمد الصليحي.

أما بعد، فالحمد لله البعيد من حيث تناوله بيد الأوهام، وهو ببدائع قدرته دان، الباقي وجهه الكريم سبحانه، وكل من عليها فان، لا إله إلا هو كل يوم هو في شأن. وصلى الله على من رفع في النبوة مكانه على كل مكان، محمد المبعوث إلى الإنس والجان، وعلى وصيه أشرف ترجمان، علي بن أبي طالب خير صاحب تأويل وبيان، وعلى الأئمة القائم منهم إمام في كل زمان، هداة يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان. وقد كان رأي أمير المؤمنين وبالله توفيقه أن ينصب أخاك رحمة الله عليه ولي عهد لوالده نصره الله، وأظفره في حياته، وارثا له بعد مماد جمعاً منه لشملكم، ووصلاً منه لحبلكم، وحفظاً لبيتكم المبارك، المتبرج بزينة الإيمان، المنتهج منهاج بيت أسس على التقوى من الله ورضوان. وكان من قضاء الله السابق في الاستئثار به ما ليس عليه معترض، ونزل به نازلة ما كل جسم له عرض. فألم أمير المؤمنين ما لم به، وضاق ذرعاً بسببه، ونزع في التسليم لمن بيده ملكة البسط والقبض، ذلكم الله سبحانه فاطر السموات والأرض. ولما كانت الصورة هذه، أجمع هذه الرتبة إليك، وطرح شعاع شمس الاصطناعة فيها عليك. فاتق الله فيما قلدك من هذه الأمانة حق تقاته. وشمر لابتغاء مرضاته، وقم بالمحافظة على سائر أركان الشريعة، وتحصن بحصونها المنيعة، وابسط بساط العدل والإنصاف، واقصص جناح الجور والاعتساف، واسهر لترقد رعيتك رقاد الأمن، وانزل عليهم من سماء عدلك شبه السلوى والمن، وكن من أبر الناس بالوالدين، واحمل الكلف عن قلوبهما بكلتا اليدين، وارقب من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، واتل قول الله تعالى: ﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾، والبس ما شرفك من ملابسه التي تحوز بها في الدارين المنى والسرور. هذا عهد أمير المؤمنين إليك فاقبله [1] بقبول حسن، وأقبل عليه إقبال أمين على شرائطه مؤتمن. والله يوفقك ويسعدك، وإلى صالح الدارين يرشدك، برحمته إن شاء الله تعالى. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وكتب في شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وأربع مئة. والحمد لله رب العالمين، وصلواته على جدنا محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وعلى آله الطاهرين، الأئمة المهديين. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) في الأصل: فقبله.

ملحق رقم ٥

سجل الخليفة المستنصر إلى الملك علي بن محمد الصليحي

(عيون الأخبار ٧/ ٨٢ - ٨٦)

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. من عبد الله ووليه معد أبي تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى الأمير الأجل الأوحد أمير الأمراء عمدة الخلافة شرف المعالي تاج الدولة سيف الإمام المظفر في الدين نظام المؤمنين أبي الحسن علي بن محمد الصليحي نصره الله وأظفره وأحسن توفيقه ومعونته.

سلام عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على جده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين وسلم تسليما.

أما بعد، فالحمد لله المقصوص جناح الفكر دونه في هبوطه وإصعاده، جاعل عالم كونه وفساده، سلما إلى محل رضوانه ودار معاده، يحمده أمير المؤمنين أن مهد له من مجد الإمامة في خير مهاده؛ ويسأله أن يصلي على غوث عباده وغيث بلاده، محمد جده المقلد من شرف النبوة أشرف نجاده، المصطفى الهادي صفوة أغواره وأنجاده، وعلى أخيه وأبي أولاده، المخضرة به روضة الحكمة اخضرار الروض بصوب عهاده، علي بن أبي طالب مفترس الفرسان يوم الضراب والطعان تحت سنابك جواده، وعلى الأئمة من ذريته أكارم الدهر وأجواده، الذين من اقتدى بهم فقد هدي لرشاده.

وكان عرض بحضرة أمير المؤمنين كتابك الوارد على أيدي رسلك، وهم عبد الأعلى بن عبد المجيد ومحمد بن علي وعبد الواحد بن بشارة، وكتاب جماعة المؤمنين قبلك، كثرهم الله، بذكر استئثار الله تعالى بولديك الأمير الأعز شمس المعالي وأخته، رحمهما الله، وأن الفجيعة بهما وهنت منك العظم، وأنحلت الجسم، فآلم أمير المؤمنين ما آلمك، وثلم في جسم نشاطه ما ثلمك، وترحم على الماضين ترحماً يفضي بهما الله معه إلى الروح والريحان، ويرفعهما إلى غرف الجنان، ودعا بإلهامك حسن الصبر والاحتساب، ربا يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب، ولبى أمير المؤمنين فيك لنداء دعوتك ودعوة المؤمنين قبلك في رد ولاية عهدك والخلافة لك في حياتك ومن بعدك إلى أخيه الملك المكرم، شرف الأمراء، عز الملك، منتجب الدولة وغرسها، ذي السيفين، أحمد. ولا شك في وصول ما أصدره أمير المؤمنين من سجله، ووقوع الإحماد لمسابقة السؤال بفعله. ويلي ذلك وصول كتابك على يد القاضي عمران بن الفضل، ونجيب بن عفير، ويوسف بن محمد، وعنتر بن غشم، المعرب عن ديانتك التي تسفر إسفار الصبح، وتقضي بمواجهتك في مساعيك لنصر الله والفتح، وانتدابك لما يرفع الله به راياتنا أهل بيت النبوة إلى منطقة الجوزاء، ويسمع منطقه سكان السماء، ووقف عليه أمير المؤمنين وقوف ملتفت إليك بقلبه، ملتف عليك بحبه ودعا بحسن التوفيق لك رباً يسمع دعاءه ويجيب نداءه، ودعا لولدك ومن في جملتك بالإسعاد والإرشاد، والتوفيق لك بصلاح المبدأ والمعاد، وهو ولي الإجابة بمنه. وأما ما أنهيته من ظهور

الفساد في الحرم المعظم والمقام المكرم، بالخلف والتحارب بين الفريقين والتنازع، حتى صارت الدماء فيه تسفك، وأستار قول الله تعالى: ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ﴾ تهتك، إذ صارت الأرواح فيه تتخطف، وعاصفات النهب والظلم تعصف،وما سألت فيه من إذن أمير المؤمنين أن تصلح فساده، وتقوم منآده، وتقيم للعدل عماده، وتعمر طرقه للسفار، وتطهرها من دنس المفسدين والزعار، فقد عرف. وعزيز على أمير المؤمنين ما يجري في ذلك البلد الأمين، وهو منسك من مناسك الدين، لاجرم أن الأرض راجفة كلها برجفانه وهو قلبها، ومتألمة بألمه وهو صفوتها ولبها. وحقيق أن يقيض الله صلاحه ـ وهو خير البقاع ـ على يديك، وأنت خير من لحظته عين الإمامة بالاصطناع، سوى أن أمير المؤمنين يشفق من وقوع جرح على جرح، وقرح على قرح، بتصدي قوم لقتلك، إذا رأوك عليه مطلاً، فيحدث حادث فساد، قتالاً وقتلاً، وما يؤثر أمير المؤمنين أن يوجد من ذلك مثقال ذرة، ولا أن ينال طالبياً خاصة وخز إبرة. وإن أمكنك ذلك المكان، بتأليف القلوب، وتجنب سورة الحروب. فوابرد ذلك على الأكباد، إنه لآية المراد، وغاية قصد القصاد. فتأمل أحسن الله توفيقك هذه الحالة تأملاً شافياً، واعمل فيها بما يكون للثقة في دينك ويقينك موافيا.

وأما ما أنهيته من حال رسل غرس الدين يوسف بن حسين الضمري، وحصولهم عندك منذ سنة، متوسلاً بك إلى حضرة أمير المؤمنين، باستخدامه في الدعوة الهادية، أدامها الله في بلاده، واعتماده في الاصطناع مكاتبة وتلقيباً وتشريفاً، بما يكون مقيماً لعباده. فقد أجاب أمير المؤمنين سؤالك، وحمد فيه أقوالك وأفعالك، وبركاتك في أقاصي البلاد وأدانيها منتشرة، ووجوه سعادتك ضاحكة مستبشرة، وعناية أمير المؤمنين فيك بتواليها وتتابعها مبشرة بمشيئة الله تعالى وعونه. أما إزعامك ـ قرن الله الخير بعزماتك، ولقاك النجح في تصرفاتك ـ التوجه إلى حضرموت لفتح أغلاقها، ونشر دعوتنا في آفاقها، فالله يمدك بالمعونة وارداً وصادراً، ويجدد لك من سيف نصرته ما يكون لأعدائك قاهراً، بمنه.

وأما تجديدك السؤال في الإلمام بنا، إذا قضيت من أمن الحرم الشريف وطرا، وانفسح لك فيه بما يكون لغرس قديم عنايتك مثمرا، فلا شيء أحب إلى أمير المؤمنين من أن يشبع إلى أوليائه مثلك نظرا، لكن الشقة بعيدة، ومتاعب النافذ فيها شاقة شديدة. وأمير المؤمنين يرجح ما يراه من الصلاح في مقامك، على ما يهواه من قدومك وإلمامك، إجماماً لنفسك أن تكدح وتتعب، وإشفاقاً على ما تخلفه وراءك أن يضطرب ويذهب. وسوى هذا فأنت بين أن ترد في كثر لا تحملهم الطريق، أو قل يمنعك عن التعرض للغرر فيه إمامك البر الشفيق. والذي تأمل بلوغه برأي العين، فإنك بالغه بحمد الله برؤية القلب، ونائله من إمام زمانك على ظهر الغيب. فاحمد الله على ما قدره في ذلك لك من الخير وقضائه، وقل: ﴿رب أوزعني أن أشكر نعمتك علي وعلى والدي، وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾.

وأما تكرير سؤالك في معنى ولدك، حفظه الله، وأن تسد به مسد أخيه، رحمه الله، فقد تقدم القول بأنه سابق فعل ذلك من أمير المؤمنين سؤالك، وإنه كتب في الكتاب بما ينعم بالك، وأصدر ذلك على أيدي رسلك مقروناً بالتشريف والتقليد له بالسجل الذي يرقيه إلى المحل الشامخ المنيف، لتعلم أن اهتمام أمير المؤمنين بشأنك مثل اهتمامك، واعتزامه على ما تنال به سعادة الدنيا والدين موف على طلبتك ومرامك. وإن أمير المؤمنين، لمكانتك من نفسه، ووقوع ما يرفعك ويعليك في أهم موقع منه وأمسه، رأى تشريفك بالتكنية في

المكاتبة، تالياً لنعوتك وألقابك الراتبة، وأن يزيد في نعوت ولدك الأكبر شرف الأمراء عز الملك، مقروناً بملابس تجدد ملابس الفخر، وتشيد مناقب عزه باقي الدهر، وفي نعوت أخيه الأصغر شرف الملك، وفي نعوت عقيلتك الصالحة أم الأمراء المنتجبين. والذي يعتقد أمير المؤمنين فيك فهو على ما ظهر زائد، وسائق إليك خير الدارين وقائد، بمشيئة الله. فاعلم ذلك من رأي أمير المؤمنين ورسمه، واعمل عليه بحكمه، وطالع حضرته بأنبائك، وما يتشوفه من تلقائك. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وكتب في شهر ربيع الأول من تسع وخمسين وأربع مئة.

والحمد لله وحده، وصلواته على جدنا محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين وسلامه، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

* * *

وقال صاحب العيون:

فوصل إليه الرسل بهذا السجل وهو في قرية من قرى حراز، تعرف ببيت جميع، وذلك في جمادي الآخرة من تسع وخمسين وأربع مئة، وما زالوا معه حتى وصل صنعاء، لست بقين من رجب من هذه السنة.

ملحق رقم ٦
رسالة من مجموعة رسائل الشاعر المنشيء حسن بن علي القِمِّي، على لسان الملك المكرم أحمد بن علي الصليحي، وهي موجهة إلى الخليفة المستنصر الفاطمي
(رسائل القمّي ٣٦ - ٧٢)

بسم الله الرحمن الرحيم. سلام الله وصلواته، وبركاته الطيبات وتحياته، على ينبوع العلم والحكمة، وولي الإحسان والنعمة، ووارث الأنبياء والأئمة، المفترض طاعتهم على الأمة، باب العصمة المقصود، ومنهل الرحمة المورود، ومطلب الفوز الموجود، ومعدن الفضل والجود، وحبل النجاة الممدود، وسدر الهداية المخضود، وبيته الذي أوحى فيه إلى والد ومولود، «وأن طهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود» ، سماء الله الواكفة على العالمين، ويده الباسطة لبريته أجمعين، وسلسبيله المعين، لسان الصدق في الآخرين، ووارث أصحاب اليمين، الثمرة المجتباة من شجرة النبيين، المكنى عنه بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، مولانا وسيدنا معد بن أبي تميم المستنصر بالله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، معالم الإيمان، ومعادن البيان، ومناهي البرهان، وأسباب الرضوان، وأمناء الرحمن، وقرناء القرآن، وسادة الإنس والجان، وعلى أبنائه الأكرمين الذين جعلهم لآفاق النبوة ضوءاً مضيئاً، ووهب لهم لسان صدق عليا، وعناهم بجنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتياً، ما أورق غصن، [و] وكف مزن [١].

والحمد لله القدير القديم، الرحمن الرحيم، المبدىء البديع، القوي الرفيع، الفرد الأحد، العزيز الصمد، الذي جل أن تدركه الظنون، وعلا أن تبلغ أدنى صفاته الواصفون، . . . . [٢] بالإلهية لنفسه وملائكته المقربون، واحتج باستحالة ما ادعاه المشركون، بقوله الذي عجز عن الإتيان بمثله القائلون: «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون»، قاصم كل جبار عنيد، وقامع كل شيطان مريد، وبالغ كل ذي أيد شديد، الذي [٣] لم يبتل أولياءه بما ابتلاهم تعنتاً ولا هضما، بل اختباراً وإن كان قد أحاط بكل شيء علما، ووسع أعداء دينه أناءة وحلما [٤]، ليحتقبوا بالاستدراج حوباً وإثما، كما قال جل جلاله تباركت أسماؤه: ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما﴾.

وصلى الله على محمد نبيه سيد المرسلين، وخاتم النبيين، ورسوله إلى الجن والإنس أجمعين، وشفيعة الشفيع يوم الدين، هادي المهتدين، ومردي المعتدين، الذي قرن بفرض طاعته [٥] فرض حبه، وختم لأوليائه الطيبين به، وغفر له ما تقدم وما تأخر من ذنبه، وأنزل الفرقان على قلبه، وأسكن من اتبعه جنات عدنه، وجعله

(١) في الأصل: وكف مريا. ولعلها محرفة عما أثبتناه.
(٢) كلمة مكشوطة.
(٣) في الأصل: الذين.
(٤) في الأصل: وحدا.
(٥) بضاعته في الأصل.

بيتاً أخص بأمنه، وداعياً إلى الله بإذنه، وأوجب ولاءه على إنسه وجنه، وعلى أخيه ووصيه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وسيد الوصيين، وأسد الدين وزيره وخليفته، ووصيه [و] محي شريعته، وأمينه ومأمونه، وصهره [١] وهارونه، ابن عمه الذي [قام] في أمره، ووزيره الذي شد به عن أزره، قمر الشريعة وشمسها، وعماد الإمامة وأسها، وذروة الملة ورأسها، ساقي شيعته من حوض عترته [٢] بكأسها، «يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها»، وعلى عرسه فاطمة الزهراء المتصلة بحر الوصائل، معقد رحمة الله الذي يعقد به كل عاقل، وسدة كل حاف [٣] وناعل، والحبة التي أنبتت سبع سنابل، وعلى ابنيها الحسن والحسين فلذتي كبد المصطفى، وثمرة شجرة طوبى، اللذين أوجب الله لهما المودة في القربى، وعلى الأئمة من ذرية الحسين المنقولين إلى محل الرضوان، والنازلين في غرف الجنان، سدنة التنزيل وخزنة التأويل، وسلام عليهم أجمعين إلى يوم الدين.

المملوك يناجي حضرة الإمامة، ويناهي سدة الخلافة، جعل الله عزهما باقياً على الأيام، ومجدهما غير منقطع الدوام، عالماً أنه يلبس بذلك شرف الدارين، ويستولي به على الحسنين، شائماً من مولاه برقاً مضيا، ومستظلاً من سحاب الإكرام ودقارويا، ومتبوئاً من رتب الاختصاص مكاناً عليا، ومتعرضاً لمنزلة من أدناه وقربه نجياً، إنه قد كان قدم خدمة يطالع بها بأنباء جزيرته، وينهي أخبار دعوته وما جرى عليه أمرها من الفتن ودارت فيها من دوائر المحن التي ملأت [٤] قلوب أعداء الدين سرورا، وازداد بها الكافر طغياناً وكفورا، وأظهر كل منافق ما كان من غد [ر] كامناً مستورا، «وقال الذين في قلوبهم مرض ما وعد الله ورسوله إلا غرورا»، حين سطر الأجل الأوحد أبو الأمراء عمدة الخلافة شرف المعالي تاج الدولة سيف الإمامة المظفر في الدين نظام المؤمنين، كان قدس الله روحه ونور برضا مولاه ضريحه، إلى مكة حرسها الله قاصداً الحج [إلى] البيت [٥] الحرام، راضياً بمشاعره العظام، وتسهيل الحج لطالبي قصده في كل عام، «ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام»، وعمارة ما درس من آثاره، وإبانة ما عفا من مناره، وأمان قاصديه وزواره، وإجراء مارقاً من أنهاره، وحط المؤن عن سفاره، ومواساة من قطن في قطن [٦] من مال مولاه، الذي أكسبه إياه وأنماه، بسعادة دولته وأثراه، طالباً بذلك رضاه، وسالكاً سبيل هداه، راغباً أن يتجر فيه بأربح المتاجر، ويحوز في الدنيا شكر الوارد الصادر، ويستولي في الأخرى على الأجر الكامل الوافر، ويكون من الداخلين بقوله سبحانه: «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر». ونهوضه في يوم الإثنين السادس من ذي القعدة، لا يقطع علماً ولا يجاوز جدداً، ولا يطوي بلداً، ولا يجوب سهلاً ولا جلداً، ولا يقبض ولا يمد يداً، إلا وعليه من خوف مولاه شعار لا ينزع، وبيده من طاعته حبل لا تثنيه الأيام ولا تقطع [٧]، وآما [٨] من رضاه غصناً مورقاً، وشائماً من نعماه نوى مغدقاً، ورائداً من رحمته روضاً مونقاً، طامعاً أن يكون من الذين استقاموا على الطريقة فـ«أسقيناهم ماء غدقا»، فنزل بقرية العمد في منقطع السهل من تهامة على جناح الدعة، وكنف السلامة، يوم الخميس تاسعه. وكان قد ورد إليه قبل نهوضه من دار دعوته ومستقر حوزته [٩] أن جماعة من

---

(١) في الأصل: صهرته.
(٢) بغير نقط في الأصل.
(٣) في الأصل: حافل.
(٤) في الأصل: مليت.
(٥) في الأصل: البيت.
(٦) كذا في الأصل. ولعلها في قطره.
(٧) في الأصل: تقطعه.
(٨) في الأصل: والما.
(٩) في الأصل: حوزتهم.

العبيد كانوا بحاضرة زبيد قد جانبوا الائتلاف، وتعرضوا للخلاف، فأقاموا فيه عبداً من بقايا دعاة الدولة الطاغوتية، وأساءوا [إلى] السيوف المستنصرية. فأعطوا صفقة إيمانهم المبايعة سراً، وأضمروا سبية من أموالهم ومكرا، ودسوا دسائس الفساد، إلى من كان معهم بصنعاء منهم من القواد، والحرابة والأجناد، وحملوهم على كاهل العناد، فصادفوا منهم لين مقاد، وسرعة انقياد. فلما نمت إليه نوامي أخبارهم، واتصلت به قبائح آثارهم، أحسن الظن فيمن كان منهم بحضرته، وبعث منهم عبداً كان مختصاً بخدمته، للقبض على ابن نجاح وجماعته، وكل من دخل ببيعته، فدخل العبد مدخلهم، وصافقهم في الضلال وعاملهم، فظهر لمن كان بزبيد من المؤمنين، وأوثقوه تقييداً [١]، وحملوه إلى العمد مصفوداً، فأمر الأجل قدس الله روحه بقتله، وأحله محل مثله ممن ساءت [٢] محافظته على عهده، وقبحت آثاره في نقض عهده.

وسار من العمد يوم الخميس ونزل سردد يوم الجمعة العاشر من ذي القعدة، ما معهم غيرهم إلا جماعة من بني عمه وذويه و[معه] [٣] الأمير الموفق رحمه الله برحمته ومواليه لثقته بهم أنهم أحب الناس لدولته، وأرغبهم في بقاء دعوته [٤]، وأشدهم ذباً عن مهجته، لما قدم لهم من نعمته، وطوقهم من إحسانه ومبرته، وقد كان قدم أمامه قبل نهضته طوائف شيعته وأنصار ملته، وأبجاد أسرته، وبني عمه وعشيرته، الباذلين [٥] أنفسهم في محبته، والمتمسكين [٦] بعهد أئمته، من رجال الدعوة ذوي البأس والشدة، والقتال والنجدة.

واختص عبيده دونهم لصحبته. فكلهم قلبه بالغش مدغول، وصدره بالغل مدخول، وزند ولائه بالحسد والبغض مغلول، «يقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول». فلما اتصل بالعبد ابن نجاح، لا بل الله رمسه، ولا رحم نفسه، أن الله عز وجل قد أبان فضيحته، وكشف سريرته، عزم على المفر، وسار معارضاً للبحر، خائفاً أن تظفر به أظفار الدين، وأن تنشب به أنياب المؤمنين، فخرج مع من ألف إليه من عصابة الغدر، وأوباش الشر، بعد أن عملوا على جماعة من المؤمنين بزبيد حيلة، فقتلوهم خدعة وغيلة. فلما اتصل بالأجل الأوحد فراره، وانزعاجه من قراره، أخرج له من كان بحضرته من عبيده، وأعلمهم بمقصوده، فحادوا عن طريق العبد عمداً، وجاروا عن مواجهته قصداً، إذ كانت أهواؤهم مائلة [إلى] هواه، جارية في الغدر مجراه. فلما صار بإزاء سردد خرج لاستقباله، وتخلف العبيد عن الخروج لقتاله، فوافوه عنها معرضاً مجنباً، ولنازل القضاء متخوفاً مترقباً، فثنوا عن الهرب همه، وردوا إلى قصد سردد عزمه، وأعلموه بانفراد الأجل الأوحد، قدس الله لطيفه، من أعوانه، واتحاده عن المؤمنين من إخوانه، وأنها فرصة إن فاتته وقع في أشراك الندامة، وعدموا أسباب السلامة، فقدم على الإقدام، وقادوه إلى الانتهاز والاغتنام، ووعـ[ـدوه عند

---

(١) في الأصل: تقييد.
(٢) في الأصل: ممن سارت.
(٣) مكشوطة في الأصل.
(٤) في الأصل: دعوتهم.
(٥) في الأصل: الباذلون.
(٦) في الأصل: والمتمسكون.

قيـ] امهم [1] وعداً جميلاً، وأوسعوه ترحيباً وتأهيلاً، وجاءوا به على ظهر التجشم والتهور محمولاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. فلما سيق الخبر إلى الأجل الأوحد بقي إلى أن يصول بيد عز قوية، أو يتحيز فينسب إلى الخوف من المنية، فبسط [إلى] الله عز وجل يده، وسأله أن ينصره بنصر مولاه ويؤيده ماضياً على يقينه الذي اعتقده، تالياً قوله عز وجل: ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾، فبرز مجاهداً عن حريمه ودينه، طالباً الرضاء من ربه، مستبشراً بوفاء بيعته عند قضاء نحبه، آخذاً بقوله سبحانه: «فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، راجياً أن ينال بجهاده أفضل ما ناله المجاهدون، ويدرك ببذل روحه في طاعة وليه ما أدركه الباذلون، مقدماً على بصيرته حيث يحجم المبطلون، ليفوز بالحياة الأبدية التي فاز بها الطيبون، ويسعى إليها الطالبون، ووعد بها أولياء الله المتقون، إذ يقول تعالى: ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين ﴾. فاستشهد رحمة الله عليه ومن معه من المؤمنين، فلما أخذ من الأرض مضجعه، وتبوأ فائزاً بالرحمة مصرعه، عاد الأمير الموفق رحمه الله تعالى ومن اتبعه، ممن لم يرزق الشهادة معه، إلى سردد لحماية والدته، أمة مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، الحرة التقية الزكية الفاضلة الكاملة الصالحة، كافلة المؤمنين، الساعية في مصالح الدين، أم الأمراء المنتجبين، ومن معها من بنات عمها الصليحيات، وقراباتها من المؤمنات، فلبث يجاهد فيهن ويمانع، ويحامي ويدافع، إلى يوم الأربعاء الخامس عشر من ذي القعدة، ثم قضى الله سبحانه بانقضاء المدة، وحكم له بالشهادة بالفرج بعد الشدة، فاستشهدوا أجمعين.

حينئذٍ أسر الحريم، وانتهب المال الجسيم، ونزل البلاء العظيم، وطارت طوائر الأخبار، في جميع الأقطار، ونمت نوامي الأنباء، إلى كافة الأحياء، فثاروا مجلبين، وقاموا متألبين، وهاجوا متحزبين، ونفروا مستكلبين، يشنون نيران الفساد، ويثيرون كوامن الأحقاد، ويخيفون أمن البلاد، ويمدون أعناق العناد، يبرقون على أولياء الله ويرعدون، ويقومون بالمنابذة ويعقدون، ويبدون ما كانوا يخفون ويكتمون، يريـدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون. وخرج أمر الدعوة كله من اليمن حزونه وسهوله، وأجلب الشيطان برجاله وخيوله، وظنوا أن الأمر غائب لا أوبة لقفوله، وأذن كل منافق بنقض عهده وبتبديله، وكيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله؟ ولم يبق غير التعكر، وقد حصره العبد بجموع كثيرة من العبيد والعشيرة (فيهم أخواه) لا يرحمهم الله؛ وحصن مسور (وفيه عم المملوك) قد أحاطت الأعداء عليه، وتجمعت العربان حواليه؛ وكحلان وهران وحواليها جمع كثير من العربان، وهي عنس وزبيد ويحصب ورعين [2]؛ وحصن مسار، وهو معقل استطار منه فجر الدعوة، وانتشر فيه ضياء الدولة، وقد مالت الأعداء إلى [حصره] [3]، واجتمعوا على اغتصابه وقسره. وبلغ الخلاف إلى مدينة صنعاء والمملوك بها مقيم، ولما يقضي الله سبحانه مستسلم مقيم. في عصابة قليلة العدد من خلصاء المؤمنين، وحنفاء المعاهدين، يثبتهم على الدين، ويذكرهم ما وعد الله به عباده الصابرين، ويبتليهم بما ابتلي به مواليهم الطيبين الطاهرين، صلوات الله عليهم أجمعين، ويتلو عليهم ما أنزل الله في كتابه المبين: ﴿ آلم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون.

---

(1) الأصل ممزق في هذا الموضع.

(2) في الأصل: رعيس.

(3) ناقصة في الأصل.

ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾. وجعل المملوك يغزوهم شرقاً وغرباً، شاماً ويمناً، والله تعالى يعطيه النصر على إعلاء الدين [١]. ويبسط يده على الجاحدين، لما علم من نيته، وأطلعه من سريرته، في المضي على سنة والده في اتباع أئمته، والذب عن دين وليه ودعوته. فأوقع في بلاد حضور وقعة، تولاها المملوك سبا بن أحمد بن المظفر الصليحي، سلم فيها منازعهم، والتزم الطاعة بها خا[لـ]ـعهم، واستقام حائدهم، وفاء شاردهم، وببلاد خولان أخرى ركب جموعهم فرقاً، وملأت أكبادهم فرقاً، وبناحية كحلان وهران أخرى تولاها إسماعيل بن أبي يعفر، تولى الله رحمته، وأناله برضا مولاه مغفرته. وبينما المملوك على مثل حاله من قلة الأنصار، وتبوء القرار، وانتظار الفرج واستبطائه، وارتقاب العون واستنبائه، إذ ورد إليه البشير بسلامة عامر بن سليمان الزواحي، ومدافع بن حسن الجنبي، وموسى بن أبي حذيفة الجنبي، ويوسف بن زائد السنحاني، وجماعة من معه من المؤمنين، الذين كانوا متقدمين أمام الأجل الأوحد قدس الله روحه. وقد أوقعوا في طريقهم سبع عشرة وقعة، في كلها يمنحون النصر على من عاداهم والظفر، ببركة مولاهم، فخر المملوك به ساجداً، وشكره ووليه صلوات الله عليه قائماً وقاعداً، وأثنى عليه بادئاً وعائداً، وقام في طاعة ولي أمره مجاهداً، وحمد من كان عنده من المؤمنين عنصرهم، وشكروا الله عز وجل على حسن عاقبة أمرهم إذ عاد لهم إخوانهم ونصرهم، وثبتهم على دينه ووقرهم، وشد أزرهم ، وكانوا قليلاً فكثرهم، وشكروه عز وجل إذ كف عنهم كرباً وجعل بلاده إلى مرضاته لهم سبباً، وتبوأ من أخبارهم عجباً، وقالوا: «لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً».

فسير المملوك عامر بن سليمان الزواحي إلى بلاد حمير، فاستصلح بعضها سلماً، واقتسر الباقين عضباً، وعاد ناجحاً أمله، كاملاً عمله. فحين أسفر تواترت الأخبار ونمت [٢]، وتواصلت عن صحة وتواترت وتناصرت أن رجلاً يسمى حمزة بن هاشم ادعى النسب إلى ولد الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام والإمامة على رأيه، ورأى من التف إليه من الطغام، الذين بايعوه على القيام، وتابعوه على هدم شريعة الإسلام، واستحلال الحرام، وارتكاب الآثام. فقام متحلياً بالتوحيد، وهو معتقد للتعطيل ومدع للإمامة، وليس هو من أهل بيت الرسول. لما أراد الله به من حلول عذابه الوبيل، وزحف إلى مدينة صنعاء في خمس مئة فارس وخمسة عشر ألف رجل من همدان وغيرها من العربان حتى إذا كانوا بالملوى [٣] في سواد المدينة، برز إليهم جند الله، وظهرت لهم أنصاره كالأسود الضارية والذئاب العادية، وهم دون ثلثهم في العدة، وأكثر من ضعفهم في البأس والشدة، فما كان أسرع من لمح العين حتى ولوا مدبرين، وأنزل الله سكينته على المؤمنين. وعثر بعض الأولياء بالمدعي بما ليس له واحتازه وقتله ووافى به صنعاء، وقتل ولده، وتفرق عنه عدده. وأحل الله به ما أحل بسواه من المعتدين، الذين ادعوا مراتب الخلفاء المهتدين، وهموا بما لم ينالوا من ميراث النبيين، وازداد المؤمنون بذلك يقيناً وتبصيراً، وثلجت قلوبهم فرحاً وسروراً، «وكان يوماً على الكافرين عسيراً»، وكانت أفئدة الطغاة له متوقعة، ونفوس الغواة لما يكون متطلعة، ولما يحدث متوفرة معتدة، وأعناقهم إلى استشرافهم ممتدة. فلما أحل به ما استوجبه، وأحاط به ما احتقبه، انجدع أنف الضلال وسكن شيطانه، وهدأ ضلال الباطل وخمدت نيرانه، وانفصم فقار البغي وأنبتت أقرانه، وانقطع [٤] شره وتفرقت أعوانه، وثلت عروشه وانهدت أركانه.

---

(١) في الأصل: يميناً . . . من على إعلاء الدين.

(٢) في الأصل: تمت.

(٣) في الأصل: المنوي.

(٤) في الأصل: انقطعت.

وسير[1] المملوك حده. أحمد بن المظفر الصليحي وعامر بن سليمان الزواحي إلى حصن مسار، ففلوا من فيه من الحصار، وحملوا إليه عدد المعاقل، واستصلحوا من حوله من القبائل. وساروا على وجهتهم تلك إلى ناحية بكيل، وكانت شوكتهم تلك على المنابذة حديدة، وصولتهم على المحاربة شديدة، وشدتهم على الجلاد عتيدة، وآمالهم في الضلال بعيدة. فأوقعا فيهم وقعة اعتبر بها من شابههم من المخالفين، وتنكل بسببها من كان بعيد الإنابة من المعاندين. واتصل بابن عم المملوك في التعكر نبأ هذه الوقائع المشهورة، وعلو رايات المنصورة، فقويت على قتال من تحت حصنه منته، وأجمعت لنزالهم عزمته. فواقعهم بذي أشرق (قرية من قرى المخلاف)، وهم في جموع كثيرة، وكراديس خيل كبيرة، وأعداد جمة غفيرة، من عبيد وفوارس وعشيرة، فولوا عنه منهزمين، وانقلبوا خائبين، بنصر الله عز وجل ووليه أمير المؤمنين. ونجا أخوا العبد اللعين، وانقلبا مطرودين، لا يلويان على أحد ولا يعرجان على حال ولا مال[2] وقد عاد عزيزهم بقدرة الله ذليلاً، وكثيرهم[3] بنصر العزيز قليلاً، وجمعهم بعد القوة مهزوماً مفلولاً، وأينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً. واتصل بالمملوك وبالمؤمنين نبأ هذا الفتح العظيم الذي ضعضع ركن الشرك وهده، وأعز دين الحق وأذل ضده، فأكبر المؤمنون شكراً لله سبحانه وحده، وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده.

فجد عزم المملوك بعد خيرة الله تعالى وخيرة وليه صلوات الله عليه على المسير للعبيد إلى مدينة زبيد، حين علم أنه قد أصلح صنعاء وحاط أكنافها، وحصن من الفساد مخالفها، وهذب أشباحها وأطرافها، وألزم الطاعة من ارتكب خلافها. واتفق عند مسيره وصول عمر [ان] بن الفضل اليامي وحسين بن عمرو السنحاني ومنصور بن محمد[4] اليامي بجماعة كثيرة من العرب استصرخوا بهم للمملوك. فسار منها يوم الجمعة التاسع عشر من شهر صفر سنة ستين وأربع مئة، وسار معه المؤمنون أجمعون غير من استخلفه[5] على صنعاء مع إسماعيل بن أبي يعفر[6] رحمه الله تعالى. فورد مدينة زبيد يوم الإثنين التاسع والعشرين منه. وقد سبق النذير إلى العبد، وألقاه المملوك صافاً على باب الشبارق[7] أحد أبواب المدينة، قد نفخ الشيطان ريح الطغيان في أنفه، وأراه الحياة في حتفه، قد عصب برأسه من الكبرتاجا، ظن أن الله لا يستطيع له نزعاً، وتجلبب من الجبروت بثوب لا يروم له، ما عاش، خلعاً، فقطع بالدابرة لنفسه على الله قطعاً، ولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكبر جمعاً، فدلف[8] إليه المملوك في جماعة من المؤمنين قاموا لله أنصاراً، واتخذوا الصبر شعاراً، والله عز وجل جار المتمسكين بسبب الله الذي لا ينقطع من تمسك بسببه، جائدين بأنفسهم في ابتغاء رضاه وطلبه، وخوف سخطه وغضبه، حنفاء لله غير مشركين. فلما تراءى الجمعان، وتدانى الفريقان، ماجت الصفوف، وسالت الزحوف، ولمعت السيوف، ووكفت الحتوف، وتزلزلت الأقدام، وصال الحمام، وأغبر القتام، وجثا القيام، وتداعت الأبطال، وتدانت الآجال، وكثبت الرجال، وانقطعت الآمال، وأحمر الحدق، وفاض العرق، وشخصت الأبصار، وألحمت الشفار، وطلبت الأوتار، ونقم الثار، وأعوز

(١) في الأصل: وميز.
(٢) الأصل مضطرب.
(٣) في الأصل: كثير.
(٤) في الأصل: عمر.
(٥) مكشوطة في الأصل.
(٦) بن جعفر في الأصل.
(٧) في الأصل: الشارق.
(٨) في الأصل: فرأف.

الفرار، فأطعنا بالرماح، واضطربنا بالصفاح، وتجاودنا بالأرواح، وتدافعنا بالراح، ودعونا نزال، فأنزل الله سكينته على المؤمنين، وأوقع الرعب في قلوب الكافرين، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم». وطفقت سيوف الحق تلتحمهم، وأيدي المؤمنين تقتسمهم، فتركوهم بين ضريج بدمه، وهاو ليديه وفمه، وشارد لم ينجه سعي قدمه، ونادم لم ينتفع بندمه، وطريح قد أنفضته الرماح المعدية، وجريح قد خذلته [الـ]سيوف المستنصرية، ومعفور نطيح، ومطعون جريح. قد عادوا فرصة لكل واثب، وأكلة لكل ناهب، مصرعين مصارع أمثالهم الكافرين، وواردين موارد أعمالهم خاسرين، قد قطع الله أوصالهم، وبت من حبله [1] حبالهم، وسلط عليهم أولياءه ليبيدهم بعنادهم، وحل بهم نكالهم ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾. وفلت اللعين بمن معه وقد أذن الله قمعه، ورد كيده ودفعه، وألبسه الخزي والعار ومن اتبعه بشلو مأكول، وجسم مبذول، وجمع مفلول [2]، وعسكر مخذول. وكان سبب نجاته، والموجب في ذلك لحياته، أن المملوك جعل أكثر همته، من كان في الدار من حرمة والدتـ[ـه، أ]مة مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه عبدته، فلم يتبع العبد أحداً، ولا أزمع له طرداً، ولا أقام له في ذلك صداً، فطلع المملوك إلى والدته ببركة مولانا أمير المؤمنين وسعادة دعوته، ونصر رايته، وإقبال دولته. وعاد المملوك شاكراً لله ولوليه، صلوات الله عليه، على ما أهداه من النصر إليه، وفتح له من الظفر على يديه، حامداً له عز وجل على نصر أوليائه الأبرار، وقتل أعدائه الفجار، ﴿ والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾، وبرز المملوك من الدار بوالدته والمؤمنات، لأنه قد كان أحرقها بالنار، على جماعة من الكفار، لجأوا فيه إلى الحصار، وغنم المملوك من الغنائم ما لا يمكن نعته ولا يتأتى وصفه. وجعل العبد لا رحمه الله يدنو بمن بقي معه من المدينة ويبعد، ويبرق بغير قوة بأس ويرعد، ويقوم في غير عائدة ولا تأثير ويقعد، يوهم أنه انهزم عن المملوك قصداً، وحاد عن لقائه عمداً، وأنه قد أحل المملوك بحيلته سجناً، ويظهر أنه قد امتلأ بذلك فرحاً وقد ملأه الله حزناً، ويركب في الإجلاب سهلاً وحزناً، والمملوك يسمع جعجعة ولا يرى طحناً. وأقام المملوك رسم الدعوة الهادية، بمدينة زبيد على العادة الجارية. وسار إلى العبد وهو على مسافة يوم والعساكر بالغنائم موقرة مثقلة، وطريقهم بالأنفال والأفياء منتظمة متصلة، فحين دنا منه المملوك راغ منه يمنة، وقصده حيث هو فراغ يسرة.

وورد إلى المملوك كتاب وهو في تلك الحال من مخلفيه بصنعاء، يذكر أن إسماعيل بن أبي يعفر رحمه الله برحمة مولاه أمير المؤمنين قد أشفى على ضريحه، وآنس من سلامة روحه، وأن رجلاً آخر ادعى النسب إلى ولد الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام والإمامة على رأيه ورأى من التف إليه ممن يعتقد اعتقاد الحشوية وينتحل نحلة الزيدية، ويدعي موالاة أهل البيت عليهم السلام وهو لهم حرب، ويعتزي إلى شيعتهم وهو عليهم ألب، اسمه قاسم بن جعفر قد جمع جموعاً من أتباعه ودعاته، واغتر بحلم الله وأناته، وادعى مراتب كتبه وآياته، والله [أعلم] حيث يجعل رسالاته، فيرى المملوك بعد خيرة الله تعالى وخيرة وليه صلوات الله عليه أن يصرف وجهه إلى أشدهما عادية، وأسرعها بادية وترك ثغراً قد أذن بصلاحه إلى ثغر يخاف من افتتاحه، فصار إلى صنعاء قاصداً، وخالفه العبد إلى زبيد شارداً، فقدم المملوك صنعاء أول يوم في شهر ربيع الآخر سنة ستين

(١) في الأصل: صلة.
(٢) في الأصل: مفولول.

وأربع مئة، فحين استقر بها توفي إسماعيل بن أبي يعفر، رحمة الله عليه برحمة مولاه، ورزقه برضا وليه رضاه، وخلف المملوك بها عامر بن سليمان الزواحي، وسار لقاسم بن جعفر الرسي ومن معه وهم بسيره لا يشعرون، فدنا منهم والمؤمنون ، فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون. فأقام المملوك بناحيته أياماً يصلح منها ما أفسده، ويجمع من سيل الطاعة ما بدده، حتى استقام المائل، وارتدع الجاهل، وأطاع الخالع، وسلم المانع. وعاد المملوك من هنالك إلى جبل حملان، وهو معقل للعرب قديم، وحصن يلجأون إليه عظيم، فوجد أهل المغرب جميعاً معتصمين فيه، لازمين لصياصيه، فحل المملوك لجوارهم، وقصد إلى عقر دارهم، فأوقع فيهم وقعة كانت قطعاً لأدبارهم، وحسماً لآثارهم، وعاد المملوك إلى مدينة صنعاء، وقد أكمد الأعداء، وسر الأولياء، وسكن الدهماء، وحقن سفك الدماء، فأقام بها ونهض أول يوم من جمادي الآخر إلى بلاد عنس وزبيد ويحصب ورعين ليصلحها إصلاحاً يأمن بعده الخلاف، ويثقف أمرها تثقيفاً يبعد بعده الاختلاف، فألفاهم بين متحصن في ذروة جبل صعب، ومتوطن في وادٍ ضيق المسلك أو شعب، فأوقع فيهم وقعات عظيمة اشتدت بها النكاية فيهم، وفاء من كان من أقاصيهم إلى الطاعة وأدانيهم. وأسر المملوك التبعي والسخطي والكلالي والحوالي واستوثق منهم بالأيمان العاصمة، على الطاعة اللازمة، وأقر من آمن بناحيته، ولم يخش من نكبته، وتابعيه على مثل حالته، وهرب التبعي بعد عهوده وأذمته، وإعطائه أكيد صفقته، فلحق بالعبد وشيعته، وتقدم المملوك إلى مخاليف جند. فلقيه ابن عمه بالتعكر فقوى الملك عضده، وشديده، وكثر عدده، وأصلح له بلده. وعاد إلى صنعاء فدخلها في اليوم الخامس من شعبان، والعبد في هذه الأشغال يستصرخ في السهول والجبال، ويجمع حشود الخيل والرجال، ويعد من معه من الأباطيل والمحال. فكان [في] يوم من هذه الأيام من أبي السعود بن أسعد بن شهاب الصليحي، وهو ابن خال المملوك، غارة على العبيد المخاذيل [١]، فقتل منهم رجالاً، وصرع منهم أبطالاً.

فلم ير المملوك بعد خيرة الله وخيرة وليه صلوات الله عليه إلا أنه جد عزمه، وأجمع همه، على قصد العبد المخذول حيث استقر، وأتباعه والضلال من أشياعه أينما مروا ومر، حين لم يبق وراء المملوك ثغر ينفيه، ولا أمر يخاف العاقبة فيه. فلما كان في يوم الخميس أول يوم من شهر رمضان، نهض المملوك بأيمن طائر رآه، ونهض عند إطاعته لمولاه، وشمر تشميراً رجاء أن يقبله وليه منه ويرضاه، ويرفعه به إلى رتبة من اختاره واصطفاه، ويحبوه بأثرة ممن [٢] اختصه واجتباه، فسار المملوك إلى زبيد قاصداً العبيد. وقد سبق النذير إليه قبل نهوض المملوك بأن المملوك عازم عليه، فخرج اللعين من زبيد بمن معه لصنعاء بزعمه، وأخذ طريق الجبل مغتراً بسخيف وهمه، قد غره التبعي بغروره، ووعده بمواعيد زوره، وأن العرب كلها [٣] تقبل بالطاعة والنصرة إليه، وتسير إلى صنعاء لديه. وصح عند المملوك ذلك وهو بقرب مدينة زبيد، فطوى المراحل، وطبق المناهل، سالكاً طريق المخلاف، راكباً ظهر الإعناق والإيجاف، يصل الأصيل بالغروب، وينظم التهجير بالدءوب. لما أراد الله عز وجل ووليه صلوات الله عليه من لطف الصنع لأوليائه، ومن الهلاك لأعدائه، يطوي الأخبار دونهم طياً، ويلوي أعناق الأنباء عنهم لياً، حتى كان يوم السبت السابع عشر من شهر رمضان، ووقع أول العسكر المقصور على نفلهم فغنموه وانتهبوه، ومن وجدوا مع الأثقال من الرجال قتلوه وسلبوه. وجاء إلى العبد اللعين الخبر، فظن أنه عسكر

(١) في الأصل: للخاذيل.
(٢) في الأصل: من.
(٣) في الأصل: كلها.

ابن عم المملوك من التعكر، فلم يثن إليه وجهه استقلالاً، ولا رد إليه عزمه استخفافاً واسترذالاً. وتواترت الأخبار إلى المملوك من غير أصل أنه مضى هارباً بطريق [1] صيد، غير الطريق إلى صنعاء، يريد تهامة، فأمر المملوك عامر بن سليمان الزواحي وسبا بن أحمد الصليحي ومقدمات رجال الدعوة من جنب، عليهم مدافع ابن حسن الجنبي، وسنحان وعليهم حسين بن عمر [و] السنحاني، وحمير وهمدان بالمسير إليه في ليلة السبت من طريق أخرى ليقطعوا عليه. فلما أصبح المملوك بكرة يوم الأحد إذا وهو في جماعة دون ألفي راجل أو يزيدون ووراءهم خمسمائة فارس يذودون. ما يرى منهم غير العيون، صفوفهم زاحفة، وعقبانهم عاكفة، والأرض بهم راجفة، فجمع المملوك من بقي معه من المؤمنين وحرضهم على الجهاد، وأمرهم بالصبر والجلاد وحرضهم على الاستظهار والاستعداد، وأعلمهم أن الله سبحانه قد وفى لهم بالميعاد، وأوثق أعداءهم في مرابط للهلاك والفقاد، «ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد» فحين بصروا بالمملوك زحفوا زحفة الجلاد، وزأروا زئير الأساد وجالوا على ظهور الجياد، فكانوا أطواداً على أطواد، فلم يكن إلا ريثما دعى المملوك باسم مولاه مستعيناً مستنجداً، متضرعاً إلى وليه صلوات الله عليه مستنصراً مستعداً، حتى لحق أولنا بآخرهم، فولوا شذر مذر [2]. عباديد طير، قد [ازدحمت] بهم الشعاب، وامتلأت منهم الرحاب، والتحمتهم سيوف الحق، واقتسمتهم أنصار الصدق، وملئت منهم بطون الأودية، ومتون الأصفية، وظهور المغارب، ونجود المقارب. وتناولتهم أيدي الحتوف بمواضي السيوف، فمن هاوٍ من قبة جبل وعر، ومغشي عليه من شدة ذعر، ومنطوحاً على صخرة صماء، يرتكس في حرة رجلاء، قد عادوا للسيوف جزراً، ولأولياء الله عبراً، دماؤهم جارية وأجسادهم عارية، وديارهم خاوية، وأرواحهم في الجحيم هاوية، قد ذاقوا عاقبة مكرهم وخاتمة غدرهم، ذلك بما قدمت أيديهم، «وأن [الله]ليس لظلام للعبيد». وولى العبد اللعين يروم سلامة نفسه بسعيه، وما علم أنه موثق عليه بحبال بغيه، يروم النجاة والله طالبه، ويحاول الفلت والله غالبه، قد أسلمه أعوانه، وأزله شيطانه وأحاط به طغيانه، وأوثقه بهتانه. فلما أدركته سيوف الدين، وتناولته أيدي المؤمنين، وأحاطت عليه محيطات ضلاله، فأوبقته في مهاوي أعماله، استكان ضارعاً، واسترحم خاضعاً، وجعل يعتصم بغير عصمة، ويستذم ولات حين ذمة، فوفاه الله ما اجترمه، ولقاه ما قدمه، ونشبته المنية، وحلت به [3] وانقضت أنفاسه، واحتز رأسه، وعاد مقسماً بين أقسام ثلاثة: جثة ماثلة للأبصار، ورأس يطاف به في الأمصار، وروح تهوي به إلى النار، عبرة للسامعين، وآية للناظرين، ونكالاً للظالمين، وخبراً في الغابرين، وقتل ممن معه من إخوانه أربعة. وأمر المملوك بإشاعة هذه الأخبار، وإذاعة هذا النبأ السار. في كافة المدن والأمصار، وجميع النواحي والأقطار. وعاد المملوك من هنالك إلى مدينة زبيد، فدخلها يوم العيد، بعد أن أقام بها الدعوة الهادية، على العادة الجارية، وسار يوم الثلاثاء رابع العيد إلى الشام ليستأصل شأفة من بقي منهم، فلم يزل يتبعهم ويغزوهم ويطردهم ويتلوهم حتى أخرجهم إلى أقصى البلاد، وأبعدهم عن مطافهم [4] والبلاد، وشتت الله شملهم، وفرق جمعهم. وعاد المملوك فدخل زبيد يوم الجمعة الثالث عشر من ذي القعدة وقد توطأت الأحوال، وسكن البال، وقرت عيون المؤمنين، وسخنت

---

(١) في الأصل: طريق.
(٢) في الأصل: حيذر.
(٣) في الأصل: طافهم.
(٤) في الأصل: بهم.

عيون الملحدين، فلله الحمد أن صار [١] الدين إلى رب العالمين. ومن عجائب صنع الله سبحانه أن جميع من قتل من المؤمنين، واستشهد من أنصار الدين في هذه الوقائع أحد وثلاثون رجلاً منهم في وقعة زبيد ثلاثون، وفي وقعة الشعر التي قتل فيها الأحول رجل واحد لا غير، بسعادة مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، ويمن دعوته، وعز دولته، لا زالت دائمة السعادة، باقية الزيادة.

وقد كان ورد من الحضرة القدسية أدام الله جلالها، وحرس سعدها، وكبت ضدها التشريف بالملطفات، عن يد الأمير حسام الدولة نادر المستنصري، بما شد أزره وقواه، وجدد عزمه في جهاده عن دين مولاه. وقرأه على المؤمنين أجمعين، وعلى والدته الساعية في مصالح الدين، فتسلت بما فيه من المواعظ النافعة السابغة، والحكم الجلية البالغة، وأجاب المؤمنون أمر مولاهم بالسمع والطاعة، وبذلوا في نصره جهد الاستطاعة، والمملوك يشكر موصلها، وحسن سعيه في أداء أماناته، وحرصه في الخلوص برسالته، ومخاطرته بمهجته، يشق الأعداء شقاً، ويخوض المتالف غرباً وشرقاً [٢]، والله عز وجل يضفي [٣] عليه بما أطلعه من نيته ستراً، ويجعل له من كل عسر يسراً، حتى ورد بما زاد القلوب مسرة، وأهدى إلى العيون قرة، والمملوك يسأل من مولاه ولي النعم ومعدن الكرم إمداده بدعائه، المألوف من معروفه المعروف بأن ينصره الله على أعدائه، ويؤيده تحت ظل لوائه، فبدعائه صلوات الله عليه كشف الكرب، وتسهيل كل صعب، ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات قبله من مضى بالعفو والرضوان، ومن بقي منهم بالسعادة في ظل دعوة الإيمان، والنصر على أعداء الرحمن، وأحزاب الشيطان، لا أزال الله عن كافة المماليك ما مده عليهم من ظل مولاهم الظليل، ولا سلبهم ما قسم لهم من فضله العامر الجليل، فلولا علم المملوك تطلع الأولياء إلى ما يرد من جزيرته من الأنباء لاختصر ما شرحه وقبض ما بسطه. ولرأى الحضرة حرس الله عزها على الأيام، وجعل علوها مقروناً بالدوام، في تمهيد عذر المملوك بتطويله وإطنابه وبسطه وإسهابه، مزيد العلو. والمملوك متطلع إلى ما يرد عليه من تشريفه بإعادة أجوبته، وإكمال سعادته بها ومسرته، ليغتبط بمزية جلالها، ويجرر أذيال جمالها. وقد ورد المطلعات إلى المملوك، عن يدي أبي القاسم بن أبي النور وسجاح بن أبي العسكر، فناله من الاغتباط بها والفرح بسببها، ما جاوز صفته، وتعدى تحديده ومعرفته. وجمع من قبله من المؤمنات إذا كان يَستنجد بها قوة قلب وعضد، وكثرة عز وعدد، ولم يحدث بعد ورودها أمر يجب المطالعة به فينهيه. ولا خبر ينبغي تقديم الإنهاء فيه. وقد كان ورد مملوك مولانا صلوات الله عليه، الأمير حسام الدولة نادر المستنصري، اليمن إلى المملوك وإلى الأجل الأوحد قدس الله لطيفه، فوجد له خبرة شريفة لتربيته بالحرم النبوي، وخدمته بالموقف الأشرف الزكي. وصدرت على يده شفاعة مع مكاتبة، تقتضي السؤال له في الارتقاء إلى أشرف الرتب وأعلى المحال [٤]. فشرف لذلك السؤال بالتنقيب والتأمير والتلقيب، والمملوك

(١) في الأصل: أنصار.
(٢) في الأصل: شرقاً وغرباً. والتعديل يقتضيه سياق السجع.
(٣) في الأصل: يصفي.
(٤) في الأصل: للمحال.

يضرع إلى ولي أمره في أن يزاد مرتبة على ما تقدم من حاله، وتميز على أمثاله وأشكاله، ليكون لسؤال المملوك تأثير، كما[1] لسؤال المملوك أبيه، ونباهة تظهر لموضع تشفعه فيه، ولولي الأمر صلوات الله أسنى[2] الآراء وأمضاها، وأعلى الأوامر وأقصاها. والمملوك يرتقب الأجوبة الشريفة عن يده بما ينتهي إليه، ويستكمل السرور بالوقوف عليه، وعن أيدي سفرائه المقيمين تحت ظل الحضرة الطاهرة، ضاعف الله أنوارها، وأعلى منارها مقروناً بمراسمها العالية، وأحكامها الماضية، لا زالت الأيام جارية بأرسامها، متصرفة على مقتضى أحكامها.

والمملوك ينهي أن رسل داعي الهند عنده مقيمون، ، كانوا في هذه الفتنة قد عادوا من بلدهم بالأجوبة عن التشريف الصادر إليهم من الحضرة، قدسها الله، عن يد الأجل الأوحد، فأخذت الأجوبة والزكوات من أيديهم، وكان مضمون الأجوبة السؤال في الإذن بالقيام وإظهار الدعوة بالقهر، وأما باللسان فقد سبق لهم الإذن. والمملوك لرغبته في انتشار أمر مولاه وعلو دعوته يسأل تشريفهم بكتاب يتضمن ما طالع به والإذن لهم في القيام بإظهار الدعوة جهراً. والله سبحانه يؤيدهم بتأييد وليهم وينصرهم على عدوهم.

والسلام على مولانا وسيدنا أحمد أبي تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين، عليه وعلى آبائه الطيبين الطاهرين، وأبنائه الأكرمين المنتجبين، أفضل الصلاة والتسليم.

صدر غرة ذي الحجة سنة [إحدى و] ستين وأربعمائة. والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد النبي وعلى مولانا علي بن أبي طالب وليه ووصي نبيه. وعلى الأئمة من ذريته الطاهرين، وسلامه عليهم أجمعين. حسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) في الأصل: كمال لسؤال.
(٢) في الأصل: أسناء.

ملحق رقم ٧

سجل الخليفة المستنصر إلى الملك المكرم أحمد بن علي الصليحي
(عيون الأخبار ٧ / ١٥١ ـ ١٥٣)

[الظاهر أن هذا السجل يبشّر بميلاد أبي القاسم أحمد «الخليفة المستعلي» وذلك لأن تاريخ ميلاده أي سنة سبع وستين وأربع مئة يتفق مع التاريخ المعروف المجمع عليه. وأما السجل رقم ٦ الذي ورد في مجموعة السجلات المستنصرية فيختلف عن هذا السجل في محتوياته، وفي اسم المرسل إليه، وفي تاريخ ولادة المولود «أحمد أبي القاسم». ولا يبقى لنا بعد هذا السجل، الوارد في العيون، إلاّ أن نعتبر ما جاء في السجل رقم ٦ من اسم المولود خطأً من الناسخ. وقد يكون مولوداً آخر غير المستعلي، أراد المستنصر فيه إبلاغ خبر ميلاده إلى الملك علي بن محمد الصليحي. ويؤيد ذلك ما ورد في السجل رقم ٨ من بشرى ميلاد المحسن أبي الفضل في سنة ٤٥٨، وفي السجل رقم ١١ (المقصود به الجزء الأخير) من خبر ولادة ابنه الحسن أبي محمد. لذلك يمكننا أن نعتبر هذا السجل قد أرسله الخليفة ليزف إلى الملك المكرم بشرى ميلاد أحمد أبي القاسم (المستعلي بالله) في سنة سبع وستين وأربع مئة ـ حسين الهمداني].

وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. من عبد الله ووليه معد المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى الملك الأجل الأوحد المنصور العادل المكرم عمدة الخلافة تاج الدولة سيف الإمام المظفر في الدين نظام المؤمنين عماد الملة وغياث الأمة شرف الإيمان مؤيد الإسلام سلطان أمير المؤمنين وعميد جيوشه أبي الحسن أحمد بن الأجل الأوحد أمير الأمراء عمدة الخلافة أبي الحسن علي بن محمد الصليحي، أدام الله تمكينه وعلوه، وكبت حاسده وعدوه.

سلام عليك. فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو، ويسأله أن يصلي على جده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين، وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين.

أما بعد، فالحمد لله موالي نعمه بحضرة أمير المؤمنين وآلائه، ومظاهرها بالطاهرين النجباء من أبنائه، ومظهر دينه على الدين كله بتكثير عدد أوليائه، الذين هم دعائم بيت النبوة والرسالة، ووسائل من ابتغى إلى ربه سبحانه بهم الوسالة. يحمده أمير المؤمنين أن زين سماء مجده بزهر النجوم، فرجم بها الشياطين كل الرجوم، ويسأله أن يصلي على جده المصطفى، الشجر الطيب الزكي الذي هم أغصانه، والجبل الشامخ العلي الذين هم أركانه، محمد الفاخر به كل مفاخر، والطاهر من نجس الشرك به كل طاهر، والظافر منه بقائم النجاة كل ظافر،

وعلى وصيه علي بن أبي طالب، الذي آتاه الله ما لم يؤتِ أحداً من العالمين من فضله، فجعل ذرية الأنبياء من نسلهم وذرية محمد من نسله، وعلى الأئمة من ذريته ينابيع العلوم والحلوم، وحملة سر الله المكتوم، وتحقيق قوله سبحانه: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾.

وسجل أمير المؤمنين إليك: وقد وهب الله له غلاماً زكياً شدبه أزر الإمامة، ودل على بقاء كلمته في عقبه إلى يوم القيامة، مولوداً أصبح بمولده كوكب الهدى مضيئاً مسفراً، وعود المنى مورقاً مثمراً أكمل الله بمطلعه المغانم، وجمل بحلوله المواسم، سماه أحمد، وكناه أبا القاسم، فالمسرة به تعم الدنيا والدين، وتخص بحضرة أمير المؤمنين. والحمد لله الذي وهب له ذرية طيبة يطول لهم برأفته الأعمار، ويجعلهم لحرمه العمار، ويقصم بأسهم الفجار، ليكونوا «كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار».

وكانت ولادته في المحرم سنة سبع وستين وأربعمائة في أسعد ساعة من ساعات الليل والنهار وأصحها، ليسري الخير بمساعدة الأقدار، وبمضاعفة العز والإقتدار. أتحفك أمير المؤمنين بهذه البشرى لتأخذ بحظك بها من السرور، وتواصل لله تعالى ذكره الشكر على ما جدد فيها من إحسانه الموفور. والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

ملحق رقم ٨

سجل الخليفة الآمر بأحكام الله إلى السيدة الملكة الحرة الصليحية
عيون الأخبار ٧/ ١٩٢ - ١٩٣
عمارة/ كاي ١٠٠ - ١٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. من عبد الله ووليه الآمر، المنصور، أبي علي الآمر[١] بأحكام الله، أمير المؤمنين، إلى الحرة، الملكة، الطاهرة[٢]، الزكية، وحيدة الزمن، سيدة ملوك اليمن، عمدة الإسلام، خالصة الإمام[٣]، ذخيرة الدين، عمدة المؤمنين، كهف المستجيبين، عصمة المسترشدين، ولية أمير المؤمنين، وكافلة أوليائها المؤمنين[٤]، أدام الله تمكينها ونعمتها، وأحسن توفيقها ومعونتها. سلام عليك. فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله[٥] الذي لا إله إلاّ هو، ويسأله أن يصلي على جده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين، ﷺ وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين[٦] وسلم تسليما.

أما بعد، فإن نعم الله عند أمير المؤمنين لا تحصى بعد، ولا تقف عند أمد[٧]، ولا تنتهي إلى الإحاطة بها الظنون، لكونها كالسحاب الذي كل ما انقضى منها سحاب أعقبه[٨] سحاب هتون. فهي كالشمس الساطعة الإشراق، الدائمة الإنتظام والاتساق، والغيوث المتتابعة الاتصال، المتوالية في الغدو والآصال، ومن أشفها[٩] لديه قدراً، وأعظمها صيتاً[١٠]، وأسناها جلالاً وفخراً، الموهبة بما جدده الآن بأن رزقه مولوداً زكياً رضياً[١١] مرضياً براً تقياً. وذلك في الليلة المصبحة بيوم الرابع[١٢] من شهر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين وخمس مئة

---

(١) في رواية عمارة (عم): وليه المنصور أبي علي الآمر.
(٢) عم: الملكة السيدة الرضية الطاهرة.
(٣) عم: خاصة الإمام.
(٤) عم: أوليائه الميامين.
(٥) عم: يحمد الله.
(٦) عم: المهتدين.
(٧) عم: لا تحصى لها بعد، ولا تقف عند أمد ولا حد.
(٨) عم: أعقبها.
(٩) عم: من أشرفها.
(١٠) عم: صيتاً وذكراً.
(١١) رضيا ناقص في عم.
(١٢) عم: بيوم لأحد الرابع.

ارتاحت إلى طيب ذكره المنابر[١]، وتطلعت إلى مواهبه آمال كل باد وحاضر، فأضاءت بأنوار غرته[٢] وبهجته طلعة ظلم الدياجر، وانتظمت به الدولة[٣] الزاهرة الفاطمية عقود الفضائل[٤] والمفاخر، استخرجه من سلالة النبوة كما يستخرج النور من النور، ومنح أمير المؤمنين منه ما[٥] قدح به[٦] زناد السرور. وسماه الطيب لطيب عنصره، وكناه أبا القاسم كنية جده نبي الهدى المستخرج جوهرة من جوهره. وأمير المؤمنين يشكر الله تعالى على [ما][٧] من به من اطلاعه كوكباً منيراً في سماء دولته، وشهاباً مضيئاً في فلك جلاله[٨] ورفعته، شكراً يقضي باستدامة نعمته، وإدرار سحائب طوله ورأفته، ويسأله أن يبلغه فيه كنه الآمال، ويصل به حبل الإمامة ما اتصلت الأيام والليال[٩]، ويجعله عصمة للمسترشدين، وحجة على الجاحدين، وغوصاً للمصطرخين[١٠]، وغيثاً[١١] للمنتجعين، ووزراً للخائفين، وسعادة للعارفين، لتنال الدنيا بسعادته أوفى حظوظها وقسمها، وتصبح الأيام مفترة عن ناجذ مبسمها. ولمكانك من حضرة أمير المؤمنين المكيـن، ومحلك عنده الذي ارتفع[١٢] عن المماثل والقرين، أشعرك هذه البشرى الجليل قدرها، العظيم فخرها، المنتشر صيتها وذكرها، لتأخذي من المسرة بها بأوفى نصيب، وتذيعيها فيمن قبلك من الأولياء المؤمنين[١٣] إذاعة يتساوى[١٤] بالمعرفة[١٥] بها كل بعيد منهم[١٦] وقريب، لينتظم بها عقد السرور، ويتضوع عرفها تضوع المندل الرطب في البادين[١٧] والحضور. فاعلمي هذا وأعلمي به إن شاء الله.

والسلام عليك ورحمة الله[١٨]. وكتب في اليوم المذكور[١٩]. والحمد لله وحده[٢٠] وصلى الله على جدنا محمد رسوله وآله الطاهرين وسلم تسليماً. حسبنا الله ونعم الوكيل[٢١].

---

(١) عم: أسرة المنابر.
(٢) عم: عزته.
(٣) عم: للدولة.
(٤) عم: المفاصل.
(٥) عم: بما.
(٦) به ناقص في عم.
(٧) كذا في عم.
(٨) عم: جلالته.
(٩) عم: الأيام بالليالي.
(١٠) عم: عوناً للمضطرين.
(١١) عم: غوثا.
(١٢) عم: ومحلك الذي امتنع.
(١٣) عم: من الأولياء والمستجيبين.
(١٤) كذا في عم، وفي الأصل: تساوى.
(١٥) عم: في المعرفة.
(١٦) عم: منها.
(١٧) في البادين: ناقص في عم.
(١٨) ناقصة في عم.
(١٩) عم: كتب بالتاريخ المذكور.
(٢٠) ناقصة في عم.
(٢١) وفي عم: وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وعلى آله الأئمة الطاهرين وسلم وشرف وكرم إلى يوم الدين.

ملحق رقم ٩

نص وصية الملكة الحرة الصليحية أروى بنت أحمد بن محمد بن القاسم

(عيون الأخبار ٧ / ٢٠٩ ـ ٢٢٠)

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وآله الطاهرين. هذا ما أوصت به أمة الله تعالى وأمة أوليائه السيدة ابنة أحمد بن محمد بن القاسم، وعهدت أنها تحمد الله تعالى على آلائه المتواترة ونعمه الباطنة والظاهرة، وتشهد أن لا إله إلاّ الله تعالى مبدع المبدعات وخالق المخلوقات، جل وعلا أن تناله صفة أو تدركه معرفة، وأن الخلائق في قبضته، والأشياء صادرة عن أمره وإرادته، لا معقب لحكمه، ولا راد لأمره، وأنه العدل الذي لا يجور، والحكم الذي لا يحيف، والصادق الذي لا يخلف، والعفو الذي لا يؤاخذ، خالق السموات والأرضين، وإله الأولين والآخرين، ذو الأسماء الحسنى والكلمات التامات صدقاً وعدلاً، وتشهد أن له ملائكة انتخبهم من بريته، وانتخبهم للسفارة بينه وبين المصطفين من أمته، يسبحون الليل والنهار ولا يفترون، ولا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى، وهم من خشيته مشفقون، وتشهد أن الجنة حق، خلقها الله للمطيعين من بريته، الخائفين من سطوته، المؤ[منين] به المصدقين لوعده، الموفين بعهده، المتبعين لرسله، العاملين بمتضمن آياته وكتبه، وتشهد أن النار حق، أعدها الله لمن جحد أنبياءه وخالف أولياءه، وأنكر آياته وتعدى حدوده، وألحد في سبيله وتمادى في غيه، وأسرف في أمره وأصرّ على كفره، وأدى معه سبحانه إلهاً آخر، لا إله إلاّ هو، تبارك وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وتشهد أن البعث حق وأن القيامة حق والحساب حق والصراط حق وأن الله يبعث من في القبور، ويحصل ما في الصدور، وأن كل شيء هالك إلاّ وجهه، له الحكم وإليه ترجعون، وتشهد أن من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد، وتشهد أن الله أرسل الأنبياء وبعث الرسل والأصفياء بكتب أنزلها وآيات فصلها رحمة لعباده وأمناً لبلاده وإقامة للحجة وإيضاحاً للمحجة، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً، جعلهم أسباباً للنجاة من الضلال، وعرى وثيقة لمن تمسك بهم في المبدأ والمآل، لا تفرق بين أحد من رسله وأنبيائه، ولا تجحد واحداً من خلفائه وأوليائه، وتشهد أن أشرف الأنبياء عند الله قدراً وأعظمهم خطراً وأجلهم مكاناً وأسناهم شأناً هو النبي العربي الهاشمي الأبطحي والسيد الأواه محمد بن عبد الله صلى الله وملائكته عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين صلاة متصلة إلى يوم الدين، وتشهد أن الله عز وجل اختصه بالإصطفاء وختم به عدة الرسل والأنبياء، بعثه إلى أمة قد غلب عليها الخبال، واستولى عليها الضلال، واستحوذ عليها الهوى، وغاب عنها الهدى، فصدع بأمر الله جاهداً، وقام بنصرة الحق مجاهداً، فحطم الأوثان، وأخمد بيوت النيران، وأظهر أمر الله وهم كارهون، وتشهد أن أمير المؤمنين عليا بن أبي طالب صلوات

الله عليه وصيه والخليفة من بعده، نصبه عن أمر الله سبحانه يوم الغدير، وأحله منه في ذلك المقام محل الظهير والوزير، وجعله لدينه قاضياً، وعلى أمته والياً، فقضى صلى الله عليه دينه، وأحسن في الأمة تدبيره، وحذا حذو رسول الله في سيرته، وقام مقامه في إحياء سنته، وتشهد أن فاطمة البتول الزهراء، الإنسية الحوراء، خامسة أصحاب الكساء، والدوحة المباركة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، لا يجحد حقها إلّا مارق، ولا ينكر شرفها إلّا منافق، وتشهد أن ولدها الحسن بن علي مفترض الطاعة بالنص الجلي من جده وأبيه، وأنه مستودع مرتبة الحسين بن علي أخيه، وأن الحسين بن علي تلوه في نص الإمامة، وأن الكلمة باقية في عقبه إلى يوم القيامة، وتشهد أن الأئمة الطاهرين من ذرية الحسين بن علي قرناء القرآن وحجج الرحمن، وأنهم نجوم أهل الأرض والدين بهم يقتدون، وبعلومهم الواضحة يهتدون، وأن الأول منهم ينص على الآخر، والماضي منهم يشير إلى الغابر، «سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا» ولن تجد لسنة الله تحويلاً، وأن ذلك النص بتأييد الله وأمره لما سبق في سابق علمه إختياراً وانتجاباً وإصطفاء وانتخاباً، وأن أول الأئمة بعد الحسين بن علي صلوات الله عليه زين العابدين علي بن الحسين، ثم باقر علم الدين محمد بن علي، ثم الصادق الأمين جعفر بن محمد، ثم الكلمة الباقية في عقبه إلى يوم الدين إسماعيل بن جعفر، ثم ذو الشرف الأصيل الإمام الحق محمد بن إسماعيل، ثم الأئمة الثلاثة المستورون خوف أعداء الله الظالمين، ثم الإمام المهدي بالله، ثم الإمام القائم بأمر الله، ثم الإمام المنصور بنصر الله، ثم الإمام المعز لدين الله، ثم الإمام العزيز بالله ، ثم الإمام الحاكم بأمر الله، ثم الإمام الظاهر لإعزاز دين الله، ثم الإمام المستنصر بالله، ثم الإمام المستعلي بالله، ثم الإمام الآمر بأحكام الله، ثم الإمام الطيب أبو القاسم أمير المؤمنين نجل الإمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين صلوات الله وبركاته وتحياته وكراماته عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين.

على ذلك عاشت وعليه تموت وعليه تبعث وبه تلقى الله. وأوصت به من بعدها وبتقوى الله تبارك وتعالى وإيثار طاعته وبما أوصى إبراهيم نبيه ويعقوب: «يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلّا وأنتم مسلمون». وأوصت، متى حدث بها حدث الموت، الذي جعله الله حتماً على عباده وساوى بين القوي والضعيف والمشروف والشريف، عدلاً في قضيته، ونفاذاً لحكمه في بريته، أخرج عنها من جميع تركتها جميع الأشياء المسلمة الموصوفة في هذا الكتاب، وهي الأشياء التي:

منها عصابة ذهب كبيرة مفصصة واسطتها ياقوتة حمراء، ويليها من يمين ويسار درتان، ويليها ياقوتتان زرقاوان، ويلي هاتين درتان لطيفتان، ويلي هاتين فصا ياقوت أحمران، ويليهما في الطرفين أيضاً درتان لطيفتان يحيط بالجميع من ذلك خيطا لؤلؤ، أحدهما لؤلؤه لؤلؤ لطيف عدده مائتا حبة وحبة واحدة، والآخر لؤلؤ كبار عدده مائتا لؤلؤة ولؤلؤتان، وزن جميع ذلك سبعون مثقالاً.

ومنها عصابة ذهب بيضاء، فيها مائة حبة لؤلؤ وست وعشرون حبة لؤلؤ مفصصة، واسطتها لؤلؤة لطيفة، ويليها من يمين ويسار فصان أحمران، ويلي هذين الفصين فصوص حمر وزرق وخضر، وزن الجميع من ذلك ثلاثة وأربعون مثقالاً.

ومنها عصابة ذهب أيضاً منجمة بلؤلؤ، فيها واسطتها فص ياقوت أزرق، وثلاثة فصوص عن يمينه

ويساره، حتى انتهى إلى فصين أخضرين في الطرفين، عدد لؤلؤه مائة لؤلؤة واحدة وإثنتان وثلاثون لؤلؤة. وزن الجميع من ذلك تسعة وثلاثون مثقالاً.

ومنها عصابة ذهب أيضاً مفصصة بفصوص منجمة بلؤلؤ قد انقطع من فصوصها فص، عدد لؤلؤها مائة لؤلؤة واحدة وست وعشرون لؤلؤة، وزن الجميع من ذلك ثمانية وثلاثون مثقالاً.

ومنها قبلة لؤلؤ، عدد لؤلؤها مائة لؤلؤة واحدة، وتسع عشرة لؤلؤة بفرائد ذهب، وزن الجميع منها أحد عشر مثقالاً.

ومنها ست وتسعون درة، من جملة ذلك عشرون درة علامية، وإحدى وتسعون فريدة ذهب، وزن الجميع من ذلك أربعة وثلاثون مثقالاً.

ومنها ست عشرة ضبة بفرائد ذهب، وخيوط ذهب عدد لؤلؤها مائتا لؤلؤة وثمان وأربعون لؤلؤة، وزن جميع ذلك ثلاثة وثلاثون مثقالاً ونصف مثقال.

ومنها إثنان وعشرون لوح ذهب ولاجستان في الجميع من ذلك مائة حبة واحدة، وثمان وتسعون حبة لؤلؤ بفرائد ذهب، وزن جميع ذلك خمسون مثقالاً.

ومنها ثلاث وعشرون ضبة أيضاً بفرائد ذهب مفكن بخرز أخضر، عدد اللؤلؤ ثلاثمائة وثمان وستون لؤلؤة، وزن جميع ذلك أربعة وعشرون مثقالاً.

ومنها أربعة أزواج أفلال ذهب ولؤلؤ ثمان وثمانون لؤلؤة، وزن جميع ذلك عشرون مثقالاً ونصف مثقال.

ومنها تركيتان لؤلؤ، فيها ثمان حبات لؤلؤ، في أحدهما حبة ياقوت حمراء وفي الآخر حجر بلخش أحمر، الوزن لجميع ذلك أربعة مثاقيل إلاّ ربع مثقال.

ومنها زوج مداري، فيه عشرة ألواح ذهب، وهلال ذهب، ورباعية ذهب، ولؤلؤ عدده ألفا لؤلؤة وتسعمائة لؤلؤة وثمان وثمانون لؤلؤة، وزن الجميع من ذلك مائة مثقال وواحد وتسعون مثقالاً.

ومنها زوج شماريخ لؤلؤ أيضاً، فيه عشرة خيوط لؤلؤ، وأربعة ألواح ذهب، وست رباعيات ذهب، وخرصا ذهب وثلاثة مناوط، وزن جميع ذلك إثنان وستون مثقالاً ونصف مثقال.

ومنها زوج شماريخ لؤلؤ أيضاً، عشرة خيوط ذهب مدار عليها لؤلؤ وعشرة مناوط، وعشرة ألواح ذهب، في أطراف المناوط حب ياقوت لطاف ما بين أزرق وأصفر، وزن جميع ذلك مائة مثقال واحدة، وأحد عشر مثقالاً.

ومنها زوج شماريخ أيضاً، فيه ثمانية خطوط لؤلؤ، وعشر رباعيات ذهب، وخرصا ذهب فيهما خيطا قطن مجدولان، وزن جميع ذلك خمسة وأربعون مثقالاً.

ومنها ذبابتان لؤلؤ، فيهما إثنا عشر منوطاً، وزن الجميع ثمانية وسبعون مثقالاً ونصف.

ومنها جديلة فيها عقود، الأول منها عقد واسطته ياقوتة صفراء، ويليها فريدتا ذهب، وفيها أربع بيوت

لؤلؤ في كل بيت سبعة خيوط، وفي طرفيه ياقوتتان زرقاوان بفرائد ذهب، والثاني خرز لؤلؤ واسطته ياقوتة زرقاء، والثالث عقد واسطته ياقوتة صفراء ويليها من يمين ويسار زمردتان خضراوان وأربع فرائد ذهب، وفيه أربع بيوت في كل بيت سبعة خيوط لؤلؤ، والرابع خرز لؤلؤ واسطته ياقوتة زرقاء، والخامس عقد واسطته ياقوتة صفراء ويليها من يمين ويسار في الطرفين زمردتان خضراوان وفيه أربع بيوت في كل بيت تسعة خيوط لؤلؤ، والسادس خرز لؤلؤ واسطته ياقوتة زرقاء بفريدتيّ ذهب. والسابع عقد واستطه ياقوتة صفراء، ويليها من يمين ويسار ياقوتتان صفراوان وفريدتا ذهب، وفيه واسطة زمردة خضراء، وفي جرباني الجديلة ثماني خيوط لؤلؤ، في كل طرف أربع خيوط برباعيتها، وزن الجميع من ذلك مائتا مثقال وخمسة وثلاثون مثقالاً.

ومنها خمسة قماري لؤلؤ مضموم بعضها إلى بعض: الأول منها قمري لؤلؤ واسطته زمردة خضراء، ويليها في الطرفين من يمين ويسار، ياقوتتان حمراوان، وفيه سبع وأربعون لؤلؤة. والثاني قمري لؤلؤ واسطته ياقوتة حمراء، ويليها من الطرفين عن يمين ويسار ياقوتتان زرقاوان، وست فرائد ذهب، وفيه ثلاث وخمسون لؤلؤة. والثالث قمري لؤلؤ واسطته زمردة خضراء، ويليها في الطرفين عن يمين وشمال حجرا بلخش أحمران، فيه أربع وخمسون لؤلؤة. والرابع قمري لؤلؤ واسطته ياقوتة حمراء، يليها من يمين ويسار ست فرائد ذهب، فيه خمس وخمسون لؤلؤة، والخامس قمري لؤلؤ واسطته زمردة خضراء، ويليها في الطرفين عن يمين ويسار حجرا بلخش أحمران وست فرائد ذهب، فيه خمس وخمسون لؤلؤة. وزن جميع ذلك سبعة عشر مثقالاً.

ومنها ست قماري: الأول قمري لؤلؤ واسطته ياقوتة حمراء، ويليها عن يمينها ويسارها في الطرفين زمردتان خضراوان وست فرائد ذهب. فيه إثنتان وثلاثون حبة لؤلؤ. الثاني قمري لؤلؤ واسطته حجر بلخش أحمر ويليها في الطرفين عن يمين ويسار ياقوتتان زرقاوان وست فرائد ذهب فيه ثلاث وثلاثون حبة لؤلؤ. والثالث قمري لؤلؤ واسطته ياقوتة صفراء ويليها في الطرفين عن يمين ويسار ياقوتتان صفراوان وسبع فرائد ذهب، وثلاثون حبة لؤلؤ. الرابع قمري لؤلؤ واسطته ياقوتة صفراء ويليها في الطرفين عن يمين ويسار زمردتان خضراوان وست فرائد ذهب فيه إثنتان وثلاثون حبة لؤلؤ. الخامس قمري لؤلؤ واسطته زمردة خضراء ويليها في الطرفين عن يمين ويسار حجر بلخش وثماني فرائد ذهب فيه سبع وثلاثون حبة لؤلؤ. السادس قمري لؤلؤ واسطته ياقوتة صفراء ويليها في الطرفين عن يمين يسار ياقوتتان صفراوان فيه خمسون حبة لؤلؤ. وزن الجميع من ذلك ستة وعشرون مثقالاً وربع.

ومنها تسعة قماري لؤلؤ أيضاً: الأول واسطته زمردة خضراء بفريدتي ذهب. الثاني واسطته ياقوتة زرقاء بفريدتيّ ذهب. الثالث واسطته حجر بلخش أحمر بفريدتيّ ذهب. الرابع واسطته زمردة خضراء بفريدتيّ ذهب. الخامس واسطته حجر بلخش بفريدتيّ ذهب. السادس واسطته زمردة خضراء بفريدتيّ ذهب. السابع واسطته حجر بلخش أحمر بفريدتيّ ذهب. الثامن واسطته حجر خضراء بفريدتيّ ذهب. التاسع واسطته حجر صفراء بفريدتيّ ذهب. وزن الجميع تسعة عشرة مثقالاً.

ومنها لازما لؤلؤ، في أحدهما تسعة ألواح ذهب، وفي الآخر سبعة ألواح ذهب وزنهما إثنان وعشرون مثقالاً.

ومنها لازم لؤلؤ أيضاً فيه ثمانية عشر لوح ذهب منظمة بلؤلؤ، وزنه ستة عشر مثقالاً.

ومنها دملجا لؤلؤ برأسيّ ذهب، وزنهما إثنان وخمسون مثقالاً.

ومنها إثنا عشر سوار برءوس ذهب، وزنها مائة مثقال واحدة وستة وخمسون مثقالاً.

ومنها خلخالا لؤلؤ برأسيّ ذهب، وزنهما ثمانية وتسعون مثقالاً.

ومنها شبكة إبريشم منظومة بلؤلؤ مكللة بأهلة ذهب. وزنها مائة مثقال واحدة وثلاثة مثقاقيل.

ومنها لازم لؤلؤ ساذج فيه ياقوتة حمراء صغيرة، وزنه ثلاثة عشر مثقالاً إلاّ ربع مثقال.

ومنها لازم لؤلؤ أيضاً فيه ثمانية ألواح ذهب، وزنه خمسة مثاقيل.

ومنها شيالا لؤلؤ فيهما أربع جدائل ذهب وجديلتا ذهب، وزن الجميع أربعة وعشرون مثقالاً.

ومنها تاج ذهب مرصّع بيواقيت ملوّنة ودرر مختلفة، وزنه مائة مثقال واحدة وثمانية مثاقيل.
ومنها تسعة أسورة ذهب مزروعة.
ومنها عشرة أسورة ذهب مفتولة، وزنها مائتا مثقال وإثنان وتسعة مثاقيل.
ومنها سوارا ذهب لطيفان مزروعان، وزنهما ثمانية عشر مثقالاً ونصف وربع.

ومنها زوجا خوص ذهب، وفرد سوار ذهب مفصص بفصوص ملونة، وزن الجميع ثلاثة وسبعون مثقالاً.
ومنها خوصتا ذهب، وزنهما ثلاثون مثقالاً.
ومنها دملجا ذهب، وزنهما مائتا مثقال.

ومنها أربع عشرة دقة ذهب: الأولى منها قاقلية بفرائد، الثانية مار ذهب، الثالث دقة ذهب مشبكة، واسطتها ياقوتة حمراء بأربع فرائد ذهب ولؤلؤة فيما بينها، الرابعة دقة ذهب سفرجلية، الخامسة والسادسة دقتا ذهب متداخلتان، السابعة دقة ذهب حسكية بفرائد، الثامنة دقة ذهب قاقلية دقيقة، التاسعة دقة ذهب حسكية بفرائد، العاشرة دقة ذهب عمل الهند في طرفيها خمس عشرة حبة لؤلؤ، الحادية عشرة دقة ذهب حسكية بفرائد ذهب أيضاً، الثانية عشرة دقة سفرجلية بفرائد. الثالثة عشرة والرابعة عشرة دقتا ذهب أخريان. وزن الجميع من ذلك ثلاثة وثمانون مثقالاً.

ومنها ست عشرة دقة ذهب أيضاً يضمها جربان[1] حرير، في طرفيّ الجربان أربعة خيوط لؤلؤ في طرف

---

(١) جربان القميص والدرع: جيبه، وقد يقال بالضم، وهو بالفارسية كريبان. وجربان القميص لبقته فارسي معرب. وفي حديث قرة المزني: أتيت النبي ﷺ فأدخلت يدي في جربانه. الجربان بالضم هو جيب القميص (ل / جرب).

كل خيط رباعي ذهب. الأول من ذلك قمري لؤلؤ بواسطة ياقوتة صفراء وثمان فرائد ذهب وأربع يواقيت صفر فيه أربع وعشرون حبة لؤلؤ، ويتلوه مار ذهب، ويتلوها دقة حسكية ذهب بفرائد، ويتلوها دقة ذهب قاقلية بفرائد، ويتلوها دقة ذهب قاقلية أيضاً، ويتلوها دقة ذهب مشبكة فيها ثماني عشرة حبة لؤلؤ واسطته ياقوت أحمر وأربع فرائد ذهب، ويتلوها مار ذهب، ويتلوها دقة ذهب قاقلية أيضاً. ويتلوها دقة ذهب مثمرة، ويتلوها دقة ذهب حسكية فيها واسطة ياقوتة صفراء وإحدى عشرة حبة لؤلؤ، ويتلوها دقة ذهب مداخلة عمل الهند ويتلوها أيضاً دقة مداخلة عمل الهند، ويتلوها دقة ذهب مشبكة بواسطة زمرد، ويتلوها دقة ذهب قاقلية، ويتلوها دقة ذهب مثمنة. وزن الجميع من ذلك مائة مثقال وثمانية وأربعون مثقالاً بالجربان.

ومنها ست دقق أيضاً: الأولى منها دقة ذهب مشبكة واسطتها ياقوتة زرقاء، وفيها ثمان حبات لؤلؤ وأربع فرائد ذهب وثمان حبات لؤلؤ، ويتلوها مار ذهب، ويتلوه دقة ذهب قاقلية بفرائد، ويلتوها دقة ذهب حسكية بفرائد، ويتلوها لازم ذهب فيه أحد عشر لوح ذهب في كل لوح حبة لؤلؤ. وزن الجميع من ذلك ثلاثة وخمسون مثقالاً.

ومنها ثمان دقق صغار: الأولى منها دقة ذهب مشبكة بواسطة حجر بلخش حمراء وثمان حبات لؤلؤ وأربع فرائد ذهب. والثانية دقة ذهب مشبكة بواسطة خضراء وثمان حبات لؤلؤ وأربع فرائد ذهب وفي الطرفين ثمان لآلىء. والثالثة دقة ذهب حسكية بفرائد. والرابعة دقة ذهب بفرائد، والخامسة دقة ذهب مشبكة في الطرفين منها سبع حبات لؤلؤ. السادسة مار ذهب. السابعة دقة ذهب قاقلية في طرفيها حبتا لؤلؤ. الثامنة مار ذهب. الوزن من ذلك تسعة عشر مثقالاً.

ومنها ثلاثة لوازم ذهب دخنية. وزنها خمسة وثلاثون مثقالاً.

ومنها عشرة خواتيم ذهب: منها أربع بفصوص ياقوت زرق، ومنها إثنان بفصيّ ياقوت أحمرين إحداهما مصراني، ومنه إثنتان بفصيّ ياقوت أصفر مصرانيتين، ومنها إثنان إحداهما بفص ياقوت أصفر مربع، والأخرى بفص ياقوت أحمر مربع.

ومنها حلقتا ذهب إحداهما بفص ياقوت أحمر بهرمان، والأخرى بفص ياقوت أزرق مربع.

ومنها حلقتا ذهب إحداهما بفص عين الهر مدور، والأخرى بفص أزرق.

ومنها ثلاث حلقات صغار: إحداهما بفص ياقوت أحمر لطيف، والثانية بفص ياقوت أزرق مربع، والثالثة بفص بقران.

ومنها خاتم عمل الهند بفص ياقوت أحمر صغير ويطيف به فصوص ما بين صغار[1] وزن الجميع من ذلك مائة مثقال واحدة وخمسون مثقالاً.

ومنها ثلاث خواتيم ذهب أيضاً: إحداها بفص ياقوت مربع أصفر. والثانية بفص أحمر مربع. والثالثة

---

(١) كذا في الأصل، ولعلها: ما بين صغار وكبار.

بفص أخضر مربع. وزن الجميع من ذلك إثنان وعشرون مثقالاً.

ومنها إثنتان وعشرون رباعية ذهب معراة وخمسة مفاتيح ذهب لطاف. وزن الجميع أربعة وعشرون مثقالاً.

ومنها خلخالا ذهب، وزنها خمسمائة مثقال.

ومنها مار ذهب، وزنه ثلاثة عشر مثقالاً.

ومنها فص ياقوت أصفر مصراني، وزنه ثلاثة مثاقيل وربع مثقال.

ومنها فص ياقوت أزرق مصراني أيضاً، وزنه مثقال واحد وسدس وثلث ثمن مثقال.

ومنها حبة ياقوت زرقاء مستديرة، وزنها مثقالان وربع.

ومنها حبة ياقوت زرقاء علامية، وزنها مثقال واحد وسدس مثقال.

ومنها حق صغير فصه فيه علامة شريفة.

ومنها عقد أيضاً واسطته ياقوتة صفراء، ويليها من جنبيها ياقوتتان زرقاوان بست فرائد ذهب، وفيه أربع بيوت في كل بيت أربعة خيوط لؤلؤ عدد اللؤلؤ مائة واحدة وثمان وعشرون لؤلؤة، وفي طرفيه خرزتا مرجان حمراوان. وزن الجميع من ذلك تسعة وعشرون مثقالاً ونصف وربع.

* * *

ويقول صاحب العيون (٧ / ١٨ - ٢٢٠) نقلاً عن مصدر معاصر لم يذكره:

أخرجت الحرة الملكة السيدة الرضية الطاهرة الزكية، وحيدة الزمن، سيدة ملوك اليمن، عمدة الإسلام، خالصة الإمام، ذخيرة الدين، عمدة المؤمنين، عصمة المسترشدين، كهف المستجيبين، ولية أمير المؤمنين، وكافلة أوليائه الميامين، السيدة ابنة أحمد بن محمد بن القاسم الصليحي، مد الله في عمرها، جميع هذه الأشياء المسماة الموصوفة في هذا الكتاب بعد عينها. وقد عاينها شهود هذا الكتاب وقت وقوع هذه الشهادة، عن الحرة الملكة السيدة الرضية ولية أمير المؤمنين، السيدة ابنة أحمد بن محمد بن القاسم الصليحي، أنسأ الله في أجلها، قرباناً تقربت به إلى ولي الله الإمام الطيب أبي القاسم أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، لما ترجوه من ثواب الله، وتأمله من رضوانه، والزلفة لديه، ولأن تكون يوم الفزع الأكبر من الآمنين، «يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلاّ من أتى الله بقلب سليم».

وجعلت الحرة الملكة السيدة ابنة أحمد بن محمد بن القاسم، أنسأ الله في أجلها، ولي وصيتها هذه، والقائم بها والمنفذ لها بعد غيبتها، السلطان الأجل أحمد بن أبي الحسين بن إبراهيم بن محمد الصليحي، أدام الله عمره، وأسندتها إليه، وحملته في ذلك عهد الله سبحانه وعهد رسوله وعهد وليه، وقلدته فيها أمانة الله عز وجل، التي عرضها على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، أنه إذا حدث فيها حادث الموت واستأثر الله بها ونقلها من محل الفناء إلى محل البقاء، أن يتولى إمضاء هذه الوصية والإنفاذ بها صحبة رجل عدل من المسلمين ثقة مأمون، يوصلها بجملتها على ما سمت ونعتت ووزنت إلى باب ولي الله المذكور صلوات الله عليه، إلى من يخرج الأمر المطاع الإمامي أعلاه الله بقبض ذلك منه، ويأخذ هذا العدل المأمون بحملها إلى الباب الطاهر الإمامي

صلوات الله عليه، الخط الشريف الإمامي، بوصول جميع ذلك مما هو مذكور في هذا الكتاب، ويستمطر الدعاء لها، والترحم عليها. وقبل السلطان الأجل أحمد بن أبي الحسن بن إبراهيم بن محمد الصليحي أدام الله عزه ما أسند إليه في هذا الكتاب. وصار ذلك أمانة في رقبته، وميثاقاً في عنقه، لا يفكه منه إلاّ الإنفاذ بجميع ما ذكر في هذا الكتاب إلى باب ولي الله المذكور صلوات الله عليه.

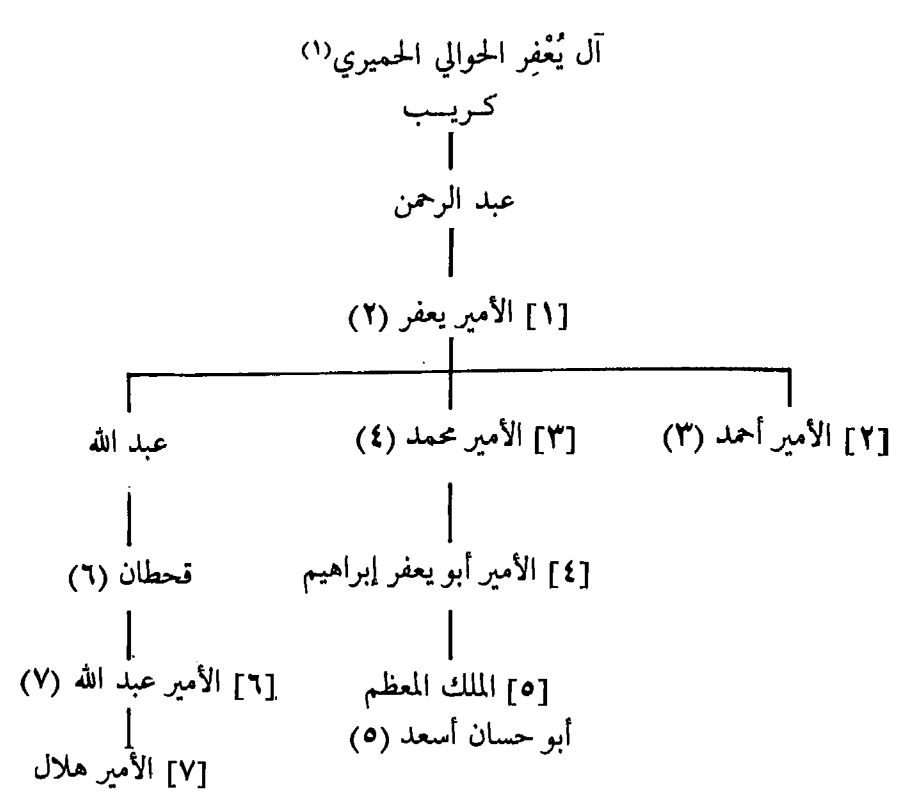
وحرمت الحرة الملكة السيدة ابنة أحمد بن محمد بن القاسم الصليحي، طول الله في عمرها، وصيتها هذه ان تغيّر عما ذكرته في كتابها هذا أو تبدل أو تنقص أو تحول عما شرطته في كتابها هذا، بما حرم الله به دماء المسلمين وأموالهم وصدقاتهم، وبما حرم الله به الكعبة البيت الحرام. «فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم». ومن سعى في إبطال هذه الوصية أو في شيء منها أو تأول في بعضها او في شيء منها بغامض علم أو لطيف مدخل أو خفي حيلة، أو عمل في شيء منها بتبديل أو تحويل أو أشار إلى غفلة عنها أو تهاون في التوجيه بها، «فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير».

شهد على إقرار الملكة الحرة... بما في هذا الكتاب، على ما كتب فيه ونسب، وعلى إلزامها ذلك نفسها، في صحة منها وجواز أمر، جميع من حضرها من الشهود، وذلك بعد أن قرىء عليها هذا الكتاب من أوله إلى آخره. فأقرت بفهم ذلك جميعه ومعرفته، وإتقانه، وألزمت نفسها ما أقرت به من ذلك.

وقد عاين هذا الكتاب شهود في غرة رجب من سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وهؤلاء الشهود هم: إسماعيل بن عبد الله بن عمرو الصحالي وكتب عنه بأمره وبحضره، ومحمد بن علي بن عبد الله بن محمد الهندي وكتب بخطه، وسبا بن أحمد بن شهيد بن محمد وكتب بخطه، وحاتم بن علي بن حاتم وكتب بخطه.

والحمد لله وحده، وصلى الله على رسوله سيدنا محمد نبيه، وعلى أهل بيته الأئمة الطاهرين الهداة المهديين وسلم تسليماً.

(جدول رقم ١)



(١) يعفر بضم الياء وكسر الفاء، وفي غير حمير يعفر بفتح الياء وضم الفاء مثل يشكر، كما رواه أبو محمد الهمداني في باب المشتبه من الإكليل ٦٠٧ و٦٠٨.

(٢) أول من تولى الإمارة سنة ٢١٤ (إكليل ج ٢).

(٣) تنازل (نفسه).

(٤) قتل سنة ٢٧٠ (نفسه).

(٥) توفي سنة ٣٣٣ (نفسه).

(٦) تزوج بمعاذة بنت علي بن الفضل الجدني الجيشاني.

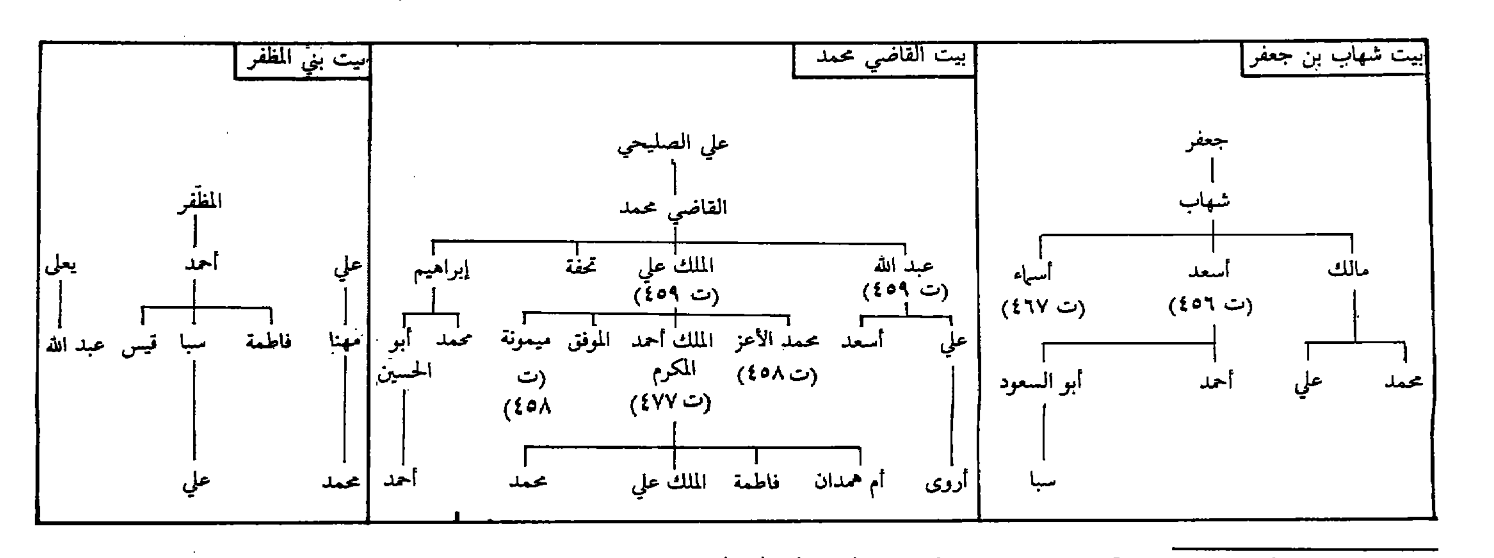
(٧) قام بالدعوة الفاطمية، وغزا زبيد سنة ٣٧٩، وتوفي سنة ٣٨٧.

(ملحوظة) هذا ما تحقق لدينا من نسب أمراء آل يعفر، حينما اطلعنا على ما ورد في الجزء الثاني من الإكليل (تحقيق القاضي حسين السياغي) من أخبار دولة بني يعفر، بعد أن نقلنا كلام عمارة الحكمي في ص ٢٨ (هامش ٣). والمعتمد هو رواية أبي محمد الهمداني.

(جدول رقم ٢)

بنو الصُّلَيحي

[ببيت الأخروج، وهم من بني عبيد بن أوام بن حجور بن أسلم بن عليان بن زيد بن عريب بن جُشم بن حاشد. بن حيران بن نوف بن همدان]



ملاحظات: وردت أسماء الصليحيين الآتية في الكتاب ولم نتمكن من إلحاقهم في الجداول

(١) السيدة الملكة الحرة أروى بنت أحمد بن محمد بن القاسم الصليحي.

(٢) السيدة الرداح بنت الفارع بن موسى الصليحي والدة السيدة الملكة أروى.

(٣) سويد بن زيد الصليحي والد السيدة الحرة الجمانة زوجة السلطان أبي حمير سبا بن أحمد.

(٤) علي بن سويد بن زيد الصليحي.

(٥) السيدة الحرة الجمانة بنت سويد بن زيد الصليحي زوجة السلطان سبا بن أحمد الصليحي.

(٦) إسماعيل بن أبي يعفر بن عبد الله الصليحي كان والياً على صنعاء. وتوفي سنة ٤٦١.

(٧) حاشد بن كديس الصليحي عامل مسور في عهد الملك المكرم أحمد.

(جدول رقم ٣)

الزواحيون

الشيخ سليمان بن عبد الله بن عامر الزواحي الحميري[1]

|

أبو الربيع عامر[2]

|

سليمان[3]

|

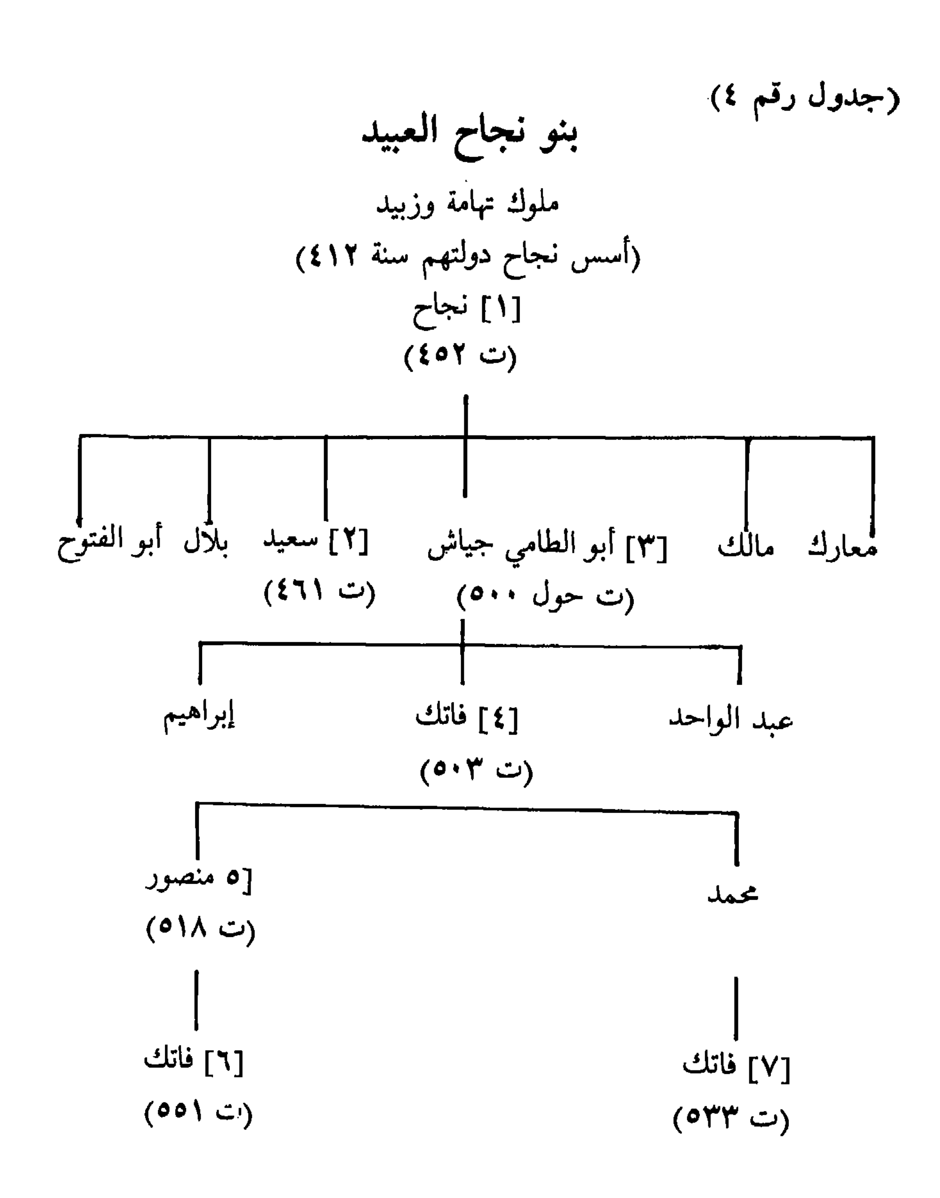
أحمد[4]

(١) القائم بالدعوة وهو الذي أقام علي بن محمد الصليحي في الدعوة.

(٢) أحد قواد الصليحي والمكرم الكبار، تزوج من الرداح أم السيدة الملكة الحرة أروى بنت أحمد (ت ٤٩٢).

(٣) أخو الملكة أروى من جهة أمه، وهو الذي أشار على السلطان سبا أثناء النزاع بينه وبين الملكة بأن يلجأ الى الخليفة المستنصر في مصر، وأغلب الظن أنه قتل في موقعة ثلا سنة ٥١١.

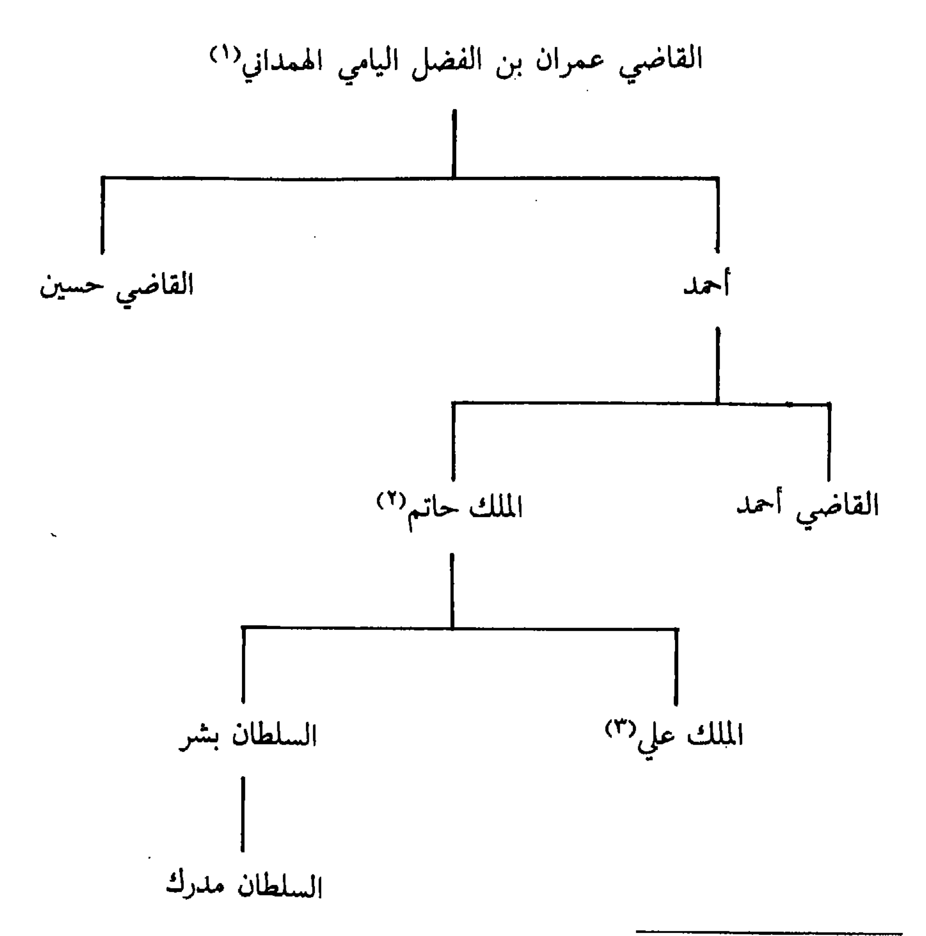
(٤) هو زوج أم همدان بنت الملكة أروى من الملك المكرم، وقد أنجب منها عبد المستعلي.



ملحوظة: وزر منصور [٥] بن فاتك بن جياش أبا منصور من الله الفاتكي من مواليهم، وقام من الله بالوزارة في عهد فاتك [٦] بن منصور بن فاتك، ثم قام زريق، ثم سرور الحبشي.

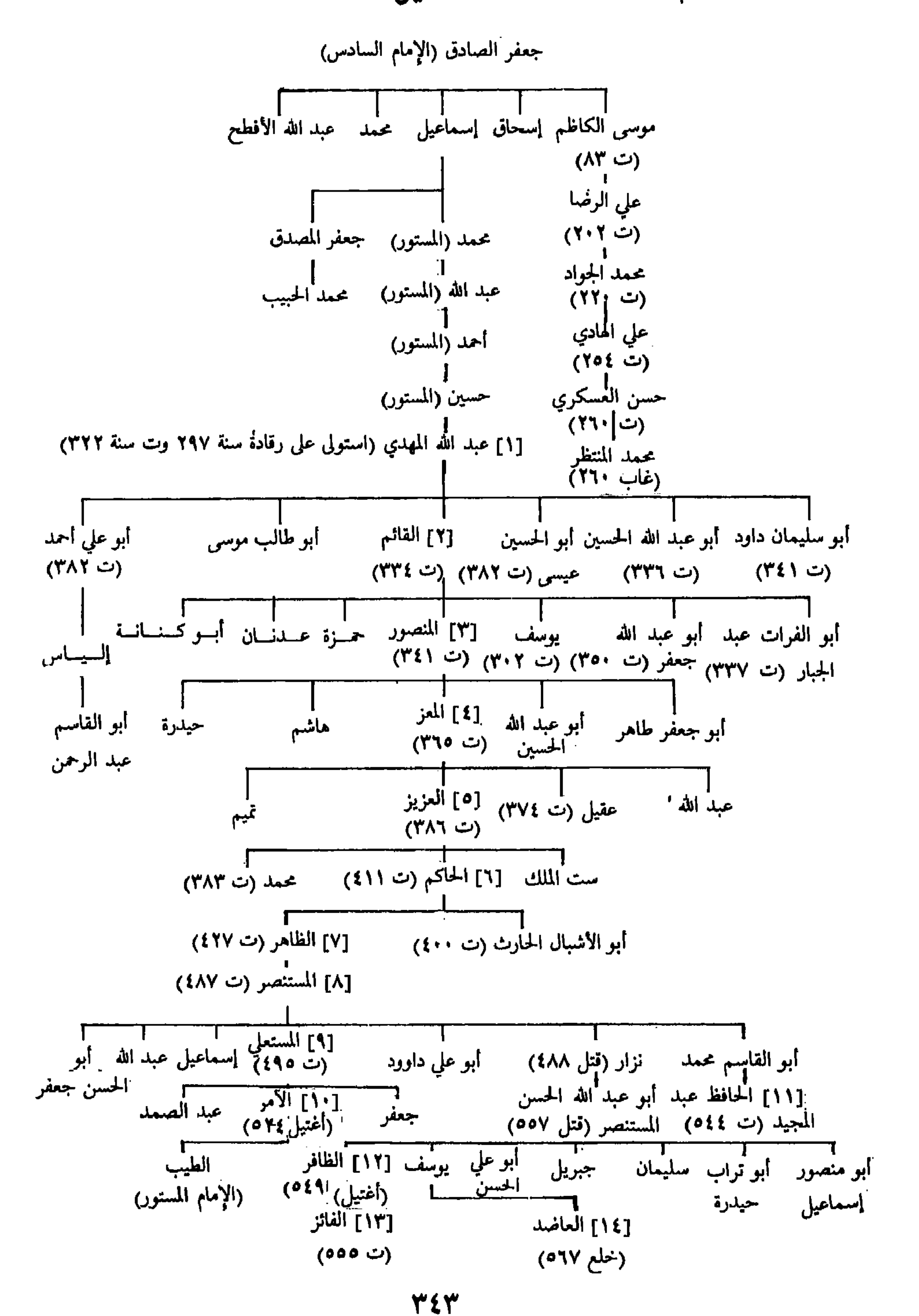
(جدول رقم ٥)

آل عمران اليامي الهمداني



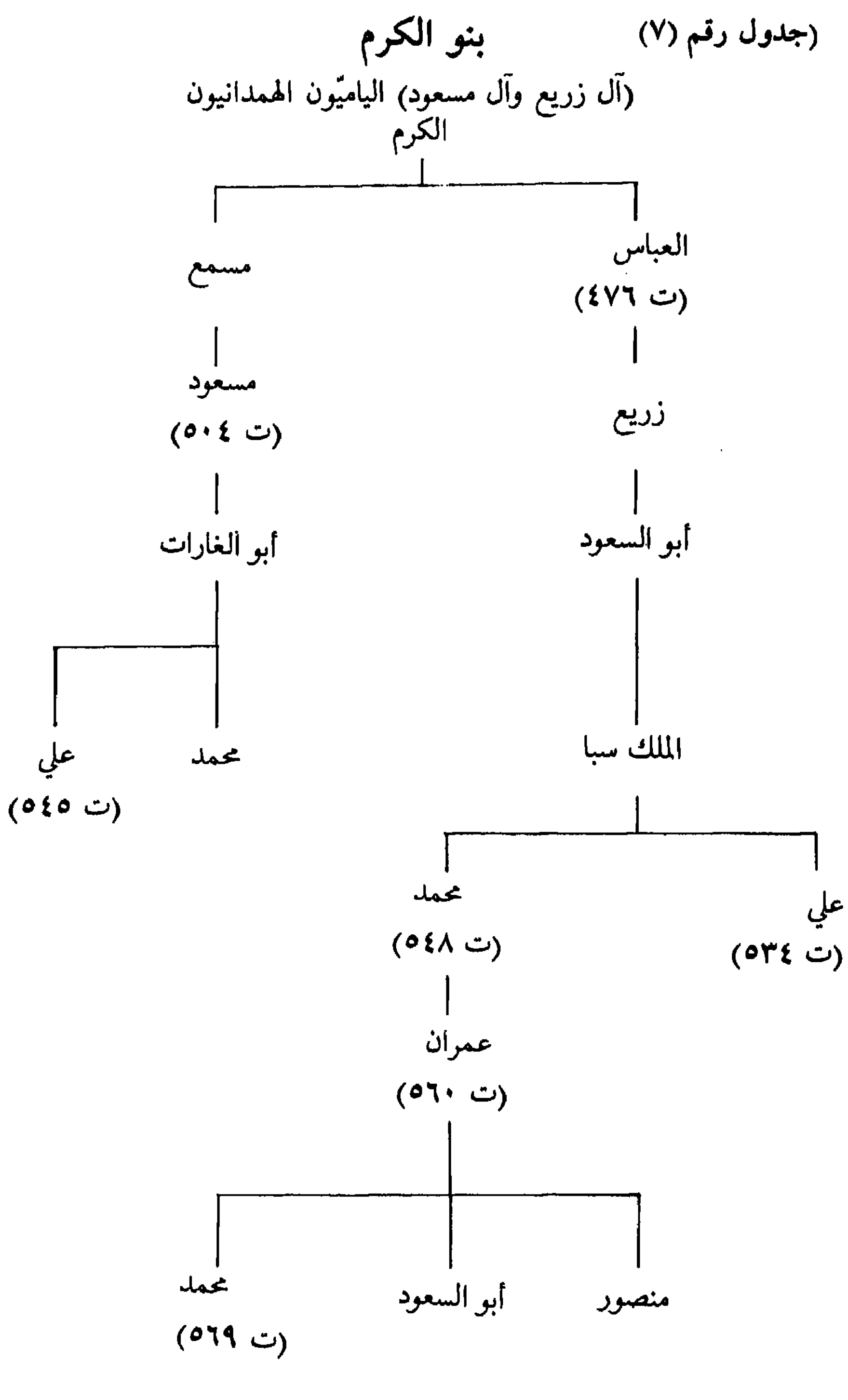
(١) قتل في موقعة الكظائم سنة ٤٧٩.
(٢) اختارته همدان بأمر صنعاء سنة ٥٣٣.
(٣) أزاله عن ملكه طغتكين بن أيوب.

(جدول رقم ٦) الفاطميون



(جدول رقم (٧) **بنو الكرم**

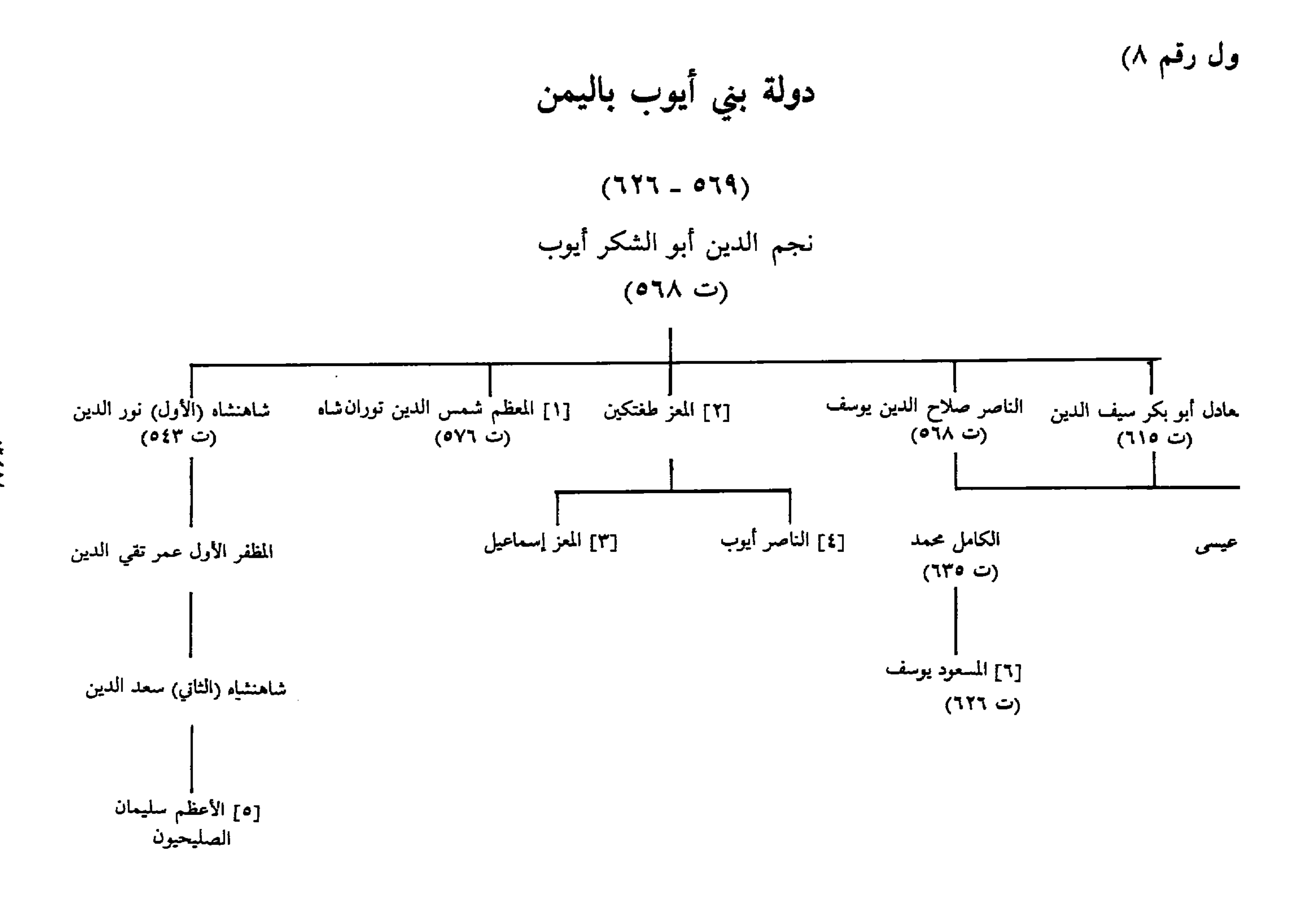
(آل زريع وآل مسعود) اليامّيون الهمدانيون



ول رقم ٨)

دولة بني أيوب باليمن

(٥٦٩ ـ ٦٢٦)



قائمة المصادر

(نورد في هذا الثبت أسماء المصادر التي اعتمدنا عليها واستقينا معلوماتنا عنها في هذا البحث مرتبة حسب أحرف الهجاء بالنسبة للمؤلفين ـ المؤلف).

الآمر بأحكام الله الخليفة الفاطمي (ت ٥٢٤):

الهداية الآمرية. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية. تحقيق آصف فيضي (بومبائي ١٩٣٨).

إبراهيم بن أبي قيس الحضرمي الإمام:

ديوان الإمام إبراهيم الحضرمي المسمى بالسيف النقاد. مخطوط بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية رقم ١٢٧٠ ومطبوع بمصر ١٣١٤.

ابن الأثير، علي بن أحمدبن أبي الكرم (ت ٦٣٠):

الكامل في التاريخ ١٢ جزء (بولاق ١٢٩٠).

أحمد بن زيني دحلان (ت ١٣٠٤):

خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام. مخطوط بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية رقم ٥٨.

إخوان الصفا:

رسائل إخوان الصفا في أربعة مجلدات. نسخ خطية بالمكتبة المحمدية الهمدانية. وطبعتيّ بمبائي والقاهرة.

الرسالة الجامعة. جزءان مخطوطان بالمكتبة المحمدية الهمدانية. الجزء الأول منها تحقيق جميل صليبا (دمشق ١٩٤٨).

إدريس عماد الدين بن الحسن القرشي (ت ٤٧٢):

عيون الأخبار. ٧ أجزاء في ٧ مجلدات. نسخ خطية بالمكتبة المحمدية الهمدانية.

نزهة الأفكار. جزءان في مجلدين. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.

روضة الأخبار. مخطوط بمكتبة جامعة ليدن (Leyden) رقم ١٩٧٢.

زهر المعاني. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.

الإدريسي، الشريف محمد بن محمد الصقلي (ت ٥٦٠):

نزهة المشتاق في إختراق الآفاق (روما ١٨٨٣).

الأزدي بن ظافر، جمال الدين أبي الحسن علي (ت ٦٢٣):

أخبار الدول المنقطعة. مخطوط مصور عن المتحف البريطاني بدار الكتب المصرية رقم ٨٩٠ تاريخ.

إسماعيل بن عبد الرسول (القرن الحادي عشر):
فهرست كتب الدعوة. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
الأصبهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦):
الأغاني. عشرون جزءاً (بولاق ١٢٨٥).
الأصفهاني، أبو عبد الله محمد بن أبي الرجاء (ت ٥٩٧):
خريدة القصر وجريدة العصر. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٤٢٥٥ آداب.
ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠):
بدائع الزهور (بولاق ١٣١١ - ١٣١٤).
إيفانو، فلادمير (V. Vanow):
A Guide to Ismaili Literature (لندن ١٩٣٣).
The Alleged Founder of Ismailism (بومباي ١٩٤٦).
بدر الجمالي (ت ٤٨٧):
المجالس المستنصرية. المخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية. تحقيق محمد كامل حسين (القاهرة بدون تاريخ).
أبو البركات بن بشر الحلبي (ت في عهد الخليفة الآمر الفاطمي):
مجالس سيدنا أبي البركات. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر (ت ٤٢٩):
الفرق بين الفرق (القاهرة ١٩١).
بكتول (M. Pickthall):
The Knights of Araby (لندن).
البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت ٤٤٠):
الآثار الباقية عن القرون الخالية (لندن ١٨٧٩).
الجرافي، القاضي عبد الله بن عبد الكريم:
المقتطف في تاريخ اليمن (القاهرة).
جعفر الحاجب:
سيرة جعفر الحاجب. تحقيق إيفانو، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة (القاهرة ١٩٣٦).
جعفر بن منصور اليمن (ت نحو القرن الرابع):
الفرائض وحدود الدين. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
الشواهد والبيان. مخطوط بالمكتبة التيمورية بالقاهرة.
سرائر النطقاء. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
أسرار النطقاء. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
تأويل الزكاة. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية؛ ونشرها ستروطمان في بومباي.

الكشف. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
المراتب والمحيط. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
العالم والغلام. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
رسالة في معنى الاسم الأعظم. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
رسالة الرضاع في الباطن. مخطوط بالمكتبة التيمورية (عقائد ١٨٤).
الجندي، أبو عبد الله بهاء الدين يوسف بن يعقوب (ت ٧٣٢):
السلوك في طبقات العلماء والملوك مختصر كاي (H. C. Kay) (لندن ١٨٩٢).
الجوذري، أبو علي منصور العزيزي:
سيرة الأستاذ جوذر، وبه توقيعات الأئمة الفاطميين. تحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة (القاهرة ١٩٥٤).
حاجي خليفة، مصطفى المسمى بـ كاتب شلبي (١٠٦٧):
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. النسخة العربية وترجمها إلى الألمانية فلوجل (G. Flugel) (ليبسك ولندن ١٨٣٥، ١٨٥٨).
الحارثي، محمد بن طاهر (ت ٥٨٤):
مجموع التربية. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
الرسالة الحاتمية في الرد على بعض المارقين. مخطوط بالمكتبة المحمذية الهمدانية
حدائق الألباب. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
الحامدي، إبراهيم بن الحسين (ت ٥٥٧):
كنز الولد. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
تسع وتسعون مسألة في الحقائق. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
الحامدي، حاتم بن إبراهيم (ت ٥٩٦):
تنبيه الغافلين . مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
جامع الحقائق. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
خمسة عشر مجلساً. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
رسالة التذكرة. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
تحفة القلوب: مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
مفاتيح االكنوز. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
الشموس الظاهرة. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
الحامدي، علي بن حاتم بن إبراهيم (ت ٦٠٥):
روضة الحكم الصافية. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
ابن حجر، الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢):
الإصابة في تمييز الصحابة (مصر ١٩٠٧).
رفع الإصر عن قضاة مصر. مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٠٥.

الحجري، القاضي محمد بن أحمد:
خلاصة تاريخ اليمن قديماً وحديثاً (القاهرة ١٣٦٣).
ابن حزم، أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي (ت ٤٥٦):
جمهرة أنساب العرب. تحقيق ليفي بروفنسال (L. Provencal) (القاهرة ١٩٤٨).
حسن إبراهيم حسن:
الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص (القاهرة ١٩٣٢).
عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية (القاهرة ١٩٤٩).
حسن سليمان محمود:
الصليحيون وعلاقاتهم بمصر. رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة ١٩٥٢.
علاقات الفاطميين بالدول الإسلامية. رسالة ماجستير بجامعة القاهرة ١٩٤٦.
الحسن بن نوح البهروجي (ت ٩٣٩):
كتاب الأزهار. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
الحمادي، محمد بن مالك بن أبي الفضائل اليماني (أواسط القرن الخامس):
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة (القاهرة ١٩٣٩).
ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠):
المسالك والممالك (طبعة ليدن).
الخزرجي، أبو الحسن علي بن الحسن (ت ٨١٢):
تاريخ الكفاية والإعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من أهل الإسلام
مخطوط بمكتبة جامعة ليدن (Catalogus Codicum Arabicorum Leyden 46 - 59. Warn Or 302,).
العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية (القاهرة ١٩١١).
الخطاب بن الحسن الحجوري (ت ٥٢٣):
غاية المواليد. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
رسالة النفس. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
منيرة البصائر. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
رسالة النعيم. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
ديوان الخطاب. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨):
العبر وديوان المبتدأ والخبر. (القاهرة ١٢٨٤).
العبر، مختصر كاى (H. C. Kay) (لندن ١٨٩٢).

ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد (ت ٦٨١):
وفيات الأعيان، جزءان (بولاق ١٢٩٩).
دي خويه (De Goeje):
Memoires sur les Carmates du Bahrain et les Fatimites (ليدن ١٨٨٦).
ابن الديبع، وجيه الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الشيباني (ت ٩٤٤):
قرة العيون في أخبار اليمن الميمون. مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٤ تاريخ.
بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد. مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٥١٦ تاريخ.
ديبور (De Boer):
Wigsbesgeerte in den Islam (آمستردام ١٩٢١).
الرازي، أحمد بن حمدان الليثي الورسناني (ت ٣٢٣):
كتاب الزينة في الأحرف ومعانيها. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية. ونسخ مصورة من مكاتب اليمن بدار الكتب المصرية.
أعلام النبوة. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية. نشر جزءاً منه كراوس (Kraus) في Raziana II . Orient. V
راشد البراوي:
حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين (القاهرة ١٩٤٦).
رينو (Renaud):
Les Fragmants Arabe J. A. (1945).
زامباور (Zambour):
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، جزءان. تعريف زكي محمد حسن وزميله (القاهرة ١٩٥٢.
زبارة، محمد بن محمد بن يحيى الحسني الصنعاني:
إتحاف المهتدين بذكر الأئمة المجددين، ومن قام باليمن الميمون من قراء الكتاب المبين وأبناء سيد الأنبياء والمرسلين (صنعاء ١٣٤٣).
سبط بن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر بن قيروغلي (ت ٦٥٤):
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان. مخطوط مصور من الإستانة بدار الكتب المصرية رقم ٥٥١ تاريخ.
ستروطمان (R. Strothmann):
مقال في Miscellany نشرته جمعية البحوث الإسلامية ببومبائي.
أربعة كتب إسماعيلية. تحقيق ستروطمان (غوتنغن ١٩٤٣).

السجستاني (السجزي)، أبو يعقوب إسحاق بن أحمد (ت ٢٣١):

اليانبيع. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.

إثبات النبوة. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.

الموازين. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.

الإفتخار. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.

المقاليد. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.

سرور، محمد جمال الدين:

النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب (القاهرة ١٩٥٠).

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١):

حسن المحضارة في أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ١٣٢٧).

شرف علي بن ملاولي:

عيون المعارف ورياض لكل متبصر عارف (بومباي ١٢٩٧).

الصيرفي، أمين الدين تاج الرياسة أبي القاسم علي بن منجب (ت ٥٤٢):

الإشارة إلى من نال الوزارة (القاهرة ١٩٢٤).

ابن طباطبا، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي (ت في القرن الثامن الهجري):

الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية. تحقيق أهل ورد (Ahlwardt) (غريفزولد ١٨٥٨).

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠):

تاريخ الأمم والملوك. تحقيق دي خويه (De Goeje) (ليدن ١٨٧٦ - ١٩٠١).

طه أحمد شرف:

دولة النزارية أجداد أغا خان (القاهرة ١٩٥٠).

الطيباوي، عبد اللطيف:

جماعة إخوان الصفا (بيروت ١٩٣٠ - ١٩٣١).

عباس العقاد:

أبو الشهداء (القاهرة ١٩٥٤).

ابن عبد الحكيم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧):

فتوح مصر والمغرب (ليدن ١٩٢٠).

عبد الكريم خليفة:

إخوان الصفا (حلب ١٩٤٩).

العرشي، حسين بن أحمد الزيدي (القرن الرابع):

بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملوك اليمن من ملك وإمام. تحقيق الأب أنستاس الكرملي (مصر ١٩٣٩).

عمارة، نجم الدين بن محمد الحكمي اليمني (ت ٥٦٩):
تاريخ اليمن. مختصر كاي (H. C. Kay). (لندن ١٨٩٢).
النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية (شالون باريس ١٨٩٩).
عمر الدسوقي:
إخوان الصفا (القاهرة ١٩٤٧).
عمر فروخ:
إخوان الصفا (بيروت ١٩٤٥).
العمري، شهاب الدين بن أحمد بن فضل الله (ت ٧٤٩):
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٦٨.
العيني، بدر الدين بن محمود بن أحمد بن موسى (ت ٨٥٥):
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. مخطوط مصور من الأستانة (ولي الدين) بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤.

غيب (Sir Hamilton Gibb):
مقال معنون المستنصر بالله الفاطمي في EI.

الفاسي، تقي الدين بن محمد بن أحمد بن علي (ت ٨٣٢):
تحفة الكرام في أخبار البلد الحرام. مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٦٤٦ تاريخ.
شفاء الغرام. مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٤.
الفاكهي، أبو عبد الله محمد بن إسحاق (القرن الثالث):
المنتقى في أخبار أم القرى تحقيق وستنفلد (Wuestenfel) (ليبسك ١٨٥٩).

فان آرندوك (C, Van Arendonk):
De Opkomst van het Zaiditische Imamaat in Yemen (ليدن ١٩١٩).
أبو الفدا، إسماعيل بن علي عماد الدين (ت ٧٣٢):
المختصر في أخبار البشر (القسطنطينية ١٢٨٦):
فيضي، آصف:

مقال عن القاضي النعمان في JRAS (سنة ١٩٣٤).
ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦):

الإمامة والسياسة (القاهرة ١٣٢٠).
القرشي، علي بن محمد بن الوليد الأنف (ت ٦١٢):
ديوان سيدنا علي بن محمد بن الوليد. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
دامغ الباطل. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.

مختصر الأصول. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
تاج العقائد. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
مجالس النصح والبيان. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
رسالة الإيضاح والتبيين. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية. ونشرها ستروطمان تحت عنوان أربع كتب إسماعيلية (غوتن غن ١٩٤٣).
رسالة تحفة المرتاد. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية. ونشرها ستروطمان تحت عنوان أربعة كتب إسماعيلة (غوتن غن ١٩٤٣).
لب المعارف. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
لباب الفوائد. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
الذخيرة. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.

القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت ٨٢١):
صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة ١٩١٢ ـ ١٩١٧).
القمي، الحسين بن علي (القرن اسادس):
رسائل القمي. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
ديوان شعر. صورة خطية من الصفحات المنتزعة من ديوانه المحفوظة بالمتحف البريطاني رقم ٤٠٠٤.
كاي (Henry Cassels Kay):
Yemen, its Early Mediatval History (لندن ١٨٩٢).
الكبسي، محمد بن إسماعيل بن محمد بن يحيى:
اللطائف السنية في أخبار المماليك اليمنية. مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤١٦٣ تاريخ.
ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤):
البداية والنهاية (القاهرة ١٣٤٨).
الكرماني، أحمد حميد الدين (ت في القرن الخامس):
المصابيح. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
الرياض. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
الأقوال الذهبية. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
تنبيه الهادي والمستهدي. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
راحة العقل. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية. تحقيق محمد كامل حسين ومصطفى حلمي (القاهرة ١٩٥٢).
كرنكو (F. Krenkow):
الصليحيون. مقال في E I.

الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠):
كتاب الولاة والقضاة. تصحيح روفن غوست (Guest) (بيروت ١٩٠٨).
لويس، برنارد (B. Lewis):
The Origins of Ismailism (كيمبرج ١٩٤٠).
المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازي(٤٧٢):
سيرة المؤيد. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية. ونشرها محمد كامل حسين (القاهرة ١٩٤٩).
المجالس المؤيدية. ثمان مجلدات. نسخ خطية بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
ديوان المؤيد. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية. تحقيق محمد كامل حسين (القاهرة ١٩٤٩).
الأدعية والخطب. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
الإبتداء والإنتهاء. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
نهج الهداية للمهتدي. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
المبرد، أبو العباس (ت ٢٨٥):
الكامل. تحقيق رايت (W. Wright) (ليبسك ١٨٧٤).
ابن المجاور، جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب الدمشقي (ت ٦٩٠):
كتاب المستبصر. مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٠٧٧ تاريخ. وتحقيق لوفغرين (O. Loefgren) (ليدن ١٩٥١ و ١٩٥٤).
أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤):
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (مصر ١٩٣٠ وما بعدها).
محمد حسن:
قلب اليمن (بغداد ١٩٤٧).

محمد كامل حسين:
في أدب مصر الفاطمية (القاهرة ١٩٥٠).
محمود قاسم:

في النفس والعقل (القاهرة ١٩٥٤).
بامخرمة، أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد (القرن العاشر):

قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر. ثلاثة أجزاء. مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٦٧ تاريخ.
تاريخ ثغر عدن. جزءان (ليدن ١٩٣١).

المستنصر بالله (ت ٤٨٧):
السجلات المستنصرية. مخطوط بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن. ومقال حسين الهمداني في Bsos) (١٩٣٤). ونشرها عبد المنعم ماجد (القاهرة ١٩٥٤).

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٠٣):
مروج الذهب ومعادن الجوهر (بولاق ١٣٨٣).
المعهد الفرنسي العلمي بالقاهرة:
Repertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe الجزء السابع.
المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٣٨٧):
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن ١٩٠٦).
المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥):
إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا. تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٤٨).
المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار (بولاق ١٢٧٠).
البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب. تحقيق وستنفلد (غوتن غن ١٨٧٤).
المنصوري، ركن الدين بيبرس الدواداري المصري (ت ٧٢٥):
زبدة الفكرة. المجلد الخامس المأخوذ بالفوتستات من مخطوطة محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس (رقم ١٥٧٢ عربي) موجود بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٧.
ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف بن جلب (ت ٦٧٧):
تاريخ مصر. طبعة هنري ماسيه (Henry Massé) (القاهرة ١٩٤٩).
ابن النديم، محمد بن إسحق (ت نحو ٣٨٣):
كتاب الفهرست. تحقيق فلوغل (Fluegel) (ليبسك ١٨٧١).
نشوان الحميري، أبو سعيد بن سعيد (ت ٥٧٣):
منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم.
تصحيح عظيم الدين أحمد (ليدن ١٩١٦).
الحور العين (القاهرة ١٩٤٨).
القاضي النعمان بن محمد بن منصور التميمي المغربي (ت ٣٦٣):
دعائم الإسلام، في جزءين. نسخ خطية بالمكتبة المحمدية الهمدانية. ونشر آصف فيضي الجزء الأول من الكتاب.
الينبوع. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
مختصر الآثار. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
الأخبار. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
الاقصار. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
المنتخبة. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
إفتتاح الدعوة الزاهرة وابتداء الدولة. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
شرح الأخبار. نسخ خطية بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
الهمة في آداب الأئمة. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية. تحقيق محمد كامل حسين (القاهرة بدون تاريخ).

مفاتيح النعمة. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
أساس التأويل. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
تأويل الدعائم. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
التوحيد. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
المجالس والمسايرات. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
اختلاف أصول المذاهب. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
المناقب والمثالب. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣):
نهاية الأرب. طبعة دار الكتب (مصر ١٩٢٣ وما بعدها).
النيسابوري، أحمد بن إبراهيم (ت في أوائل القرن الخامس):
إثبات الإمامة. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
رسائل استتار الإمام. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية. نشرها إيوانو (القاهرة ١٩٣٩).
ابن هشام، أبو محمد عبد الملك الحميري المعافري (ت ٢١٨):
سيرة رسول الله ﷺ في ثلاثة أجزاء. تحقيق وستنفلد (غوتن غن ١٨٥٨ - ١٨٦٠).
الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤):
الإكليل في أخبار اليمن وأنساب حمير. الكتاب العاشر في معارف همدان. تحقيق محب الدين الخطيب (القاهرة ١٣٦٨).
صفة جزيرة العرب. تحقيق مولر (D. H. Mueller) (ليدن ١٨٩١).
المشتبه في كتاب الإكليل (Suedarabische Mushtabih). تحقيق لوف غرين (Leofgren) (أوبسالا ١٩٥٣).
الهمداني، حسين بن فيض الله اليعبري:
بحث تاريخي في رسائل إخوان الصفا (بمباي ١٩٣٥).
مقال عن الملكة أروى الصليحية في JRCAS XVII (١٩٣١).
مقال عن السجلات المستنصرية في BSOS VII (١٩٣٤).
مقال عن النظام الفكري الخاص بالدعوة الفاطمية في IC (١٩٢٧).
مقال عن مؤلفي الإسماعيلية JRAS (١٩٣٣).
مقال عن تاريخ الدعوة وآدابها في أواخر عهد الفاطميين في JRAS (١٩٣٣).
مقال عن المؤيد في الدين الشيرازي في EI.
كتاب الرياض. مقال في مؤتمر دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد (١٣٥٨).
الهمداني، عباس بن حسين بن فيض الله اليعبري:
رسالة دكتوراه بجامعة لندن سنة ١٩٥١ The Sira of al - Muayyad fid - din ashs - Shirazi.

الوادعي، اللؤيب بن موسى (ت ٥٣٦):
رسالة النفس. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
الوادعي، علي بن حنظلة المحفوظي (ت ٦٢٦):
القصيدة الموسومة بسمط الحقائق. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية. تحقيق عباس عزاوي، نشرها المعهد الفرنسي دمشق سنة ١٩٥٣.
رسالة ضياء الحلوم. مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية.
الواسعي، عبد الواسع بن يحيى اليماني:
تاريخ اليمن (القاهرة ١٩٤٧).
يحيى بن الحسين بن الإمام القاسم بن محمد (ت ١١٠٠):
أنباء الزمن في أخبار اليمن. مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٣٤٧.
أنباء الزمن (من سنة ٢٨٠ - ٣٢٢). تحقيق محمد عبد الله ماضي (برلين ١٩٣٦).
ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله (٦٢٦):
معجم البلدان في أربعة أجزاء. تحقيق وستنفلد (ليبسك ١٨٦٦ - ١٨٩٩).

الله ونعم الوكيل فسر الداعي الملك الاجل الاوحد [illegible] ورد مسجلا امامه ووصل [illegible]
اتاح لولده من النظر الى ولده بقيامه في مقامه وانال عدوه من الخزي على ولده الاعز
كثيرا مما كان يحذره وعلم انه بالمكرم قد استقام ما اناد اوده وعاد الى صنعا
فدخلها وامر بتقليد ولده المكرم فعقد على منبر صنعا في اليوم الثامن من جمادى
الاولى من السنة المقدم ذكرها وانتشر في اقطار اليمن فضائل المكرم انتشارا
يليق بشرفه ولو زوجه الحرة التقية الزكية السيدة بنت احمد بن محمد الصليحي وهي
ام اولاد المكرم وزوج ابنه الموفق فاطمة بنت احمد بن المظفر الصليحي وقد كان
ازمع ان يزوجها الاعز وكان الداعي الاجل الاوحد قد اصدر القاضي عمران
بن الفضل وجماعة معه الى الحضرة المقدسة المستنصرية بعد الذين ذهبوا
بوفاة الاعز يستاذنه في الحج وزيارة الحضرة المطهرة ويسال اقامة الامير المكرم
عوضا عن اخيه ويستورد في ذلك امر ولي زمانه ليعمل بما امره ويقتضيه فاجيب
الداعي الاجل بجواب هذه نسخته بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين
من عبد الله ووليه معد ابي تميم الامام المستنصر بالله امير المومنين الى الامير الاجل
الاوحد امير الامراء عمدة الخلافة شرف المعالي تاج الدولة سيف الامام المظفر في
الدين نظام المومنين ابي الحسن علي بن محمد الصليحي نصره الله واحسن توفيقه
ومعونته سلام عليك فان امير المومنين يحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ويساله
ان يصلي على جده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين الائمة
المهديين وسلم تسليما اما بعد فالحمد لله [illegible] جناح الفكر دون [illegible]
واصعاده [illegible] الكون وفساده [illegible] الى المحل [illegible]
المومنين انه [illegible] الامامة في خير مهاده ويساله ان يصلي على غوث عباده
وغيث بلاده محمد جده المقلد من شرف النبوة اشرف نجاده المصطفى الهادي

(صورة من السبع السابع من كتاب عيون الأخبار المحفوظ بمكتبتنا المحمدية الهمدانية.
انظر الملحق رقم ٥ ص ٣٠٥).

على مقتضى الحكم بهما والمملوك ينبغي ان ينزل داعي
الهند عنده لمن يكونوا في هذه الفتنة قد رجع
من بلدهم بالاجوبة عن التشريف الصادر اليهم من
الحضرة قدسها الله من يد الاجل الاوحد فاخذت
الاجوبة والمزكوات من ايديهم وكان مضمون الاجوبة
السؤال في الاذن بالقيام واظهار الدعوة بالقهر
اما باللسان واما باللسان فقد سبق لهم الاذن
المملوك لرغبته في انتشار امر مولاه وعلو دعوته يسال
تشريفهم بكتاب يتضمن ما طالع به والاذن لهم في القيام
باظهار الدعوة جهرا والله سبحانه يؤيدهم بتاييده لهم
وينصرهم على عدوهم والسلام على مولانا وسيدنا
ابي تميم الامام المستنصر بالله امير المؤمنين عليه وعلى
آبائه الطيبين الطاهرين وابنائه الاكرمين اجمعين
افضل الصلوة والتسليم صدر في غرة ذي الحجة سنة ستين
واربعمائة الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا

محمد النبي وعلى مولانا علي بن ابي طالب وليه ووصي
نبيه وعلى الائمة من ذريته الطاهرين وسلامه
عليهم اجمعين حسبنا الله ونعم الوكيل

من نسخة وجدها بخط الشيخ الفاضل الكامل المنيف خط سيدنا
حسين بن ادريس بن حسن بن عبد الله بن محمد بن حاتم
بن حسين بن علي بن محمد بن علي بن احمد بن جعفر بن الحسن
بن علي بن ابراهيم الانف ابي سلمة بن محمد بن
ابراهيم بن احمد بن الوليد بن المعز بن عمران بن عاصم
بن ابي عاصم ابن الوليد بن عتبة بن ربيعة بن عبد
شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب
بن لوي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن

(صورة من مجموعة رسائل القمي المحفوظة بمكتبتنا المحمدية الهمدانية . انظر الملحق رقم ٦ ص ٣١٨)

ضميمة

بينما نحن نقترب من الإنتهاء من طبع الكتاب، وصلتنا رسالة من ولدنا الدكتور عباس الهمداني تحوي تعليقات مفيدة. ونحن نقدم هذه التعليقات لأنها تفسّر بعض الأحداث الواردة في هذا المؤلف تفسيراً يختلف اختلافاً أساسياً عن تفسيرنا إياها. وبعد وصول رسالته قررنا أن ننشر بإذن الله في الطبعة الثانية لهذا السفر نقد الناقدين وآراء الباحثين الحرة مهما اختلفت آراؤهم عن وجهة نظرنا، فقد تكون الأخيرة مصيبة أو مخطئة، لأننا نرى أن لا شيء أضرّ للعلم من المجاملات، وأن النقد البنائيّ الحرّ مفيد للتقدم العلمي.

المؤلف

يقول في سبب امتناع المهدي عن المسير إلى اليمن (ص ٣١ - ٤٩):

«وفيما يختص بثورة فيروز أشعر أنها يجب أن تقرن بالحركة القرمطية، ذلك لأن حليفه علي بن الفضل الجدني أعلن جهرة تأييده لأبي سعيد الجنّابي عندما خالف منصور اليمن، واستقل عن الدعوة. وإنني أرى أن الخلاف القرمطيّ واليمنيّ للمهديّ كان مبنياً على أسس نشرحها فيما يلي:

كان حسين الأهوازي داعي الدعاة للمهدي في سَلَمْية، فكان مسؤولاً عن تعيين الدعاة في الكوفة والبحرين، الذين ثاروا بعد ذلك، وعرف حزبهم بالقرامطة، وقد طالبوا المهدي بقيادة ثورة في الأمبراطورية العباسية، ولكن عندما قرر المهدي الذهاب إلى اليمن ثاروا عليه.

وعندما توفي حسين أصبح فيروز داعي الدعاة، وكان من المعروف بين جميع الدعاة تحت زعامة فيروز أن الخلافة الفاطمية سيتم إنشاؤها في اليمن. وبقي هذا

الإعتقاد حتى وصل المهدي إلى مصر. ولما اتضح لفيروز أن المهدي قد غيّر رأيه، وأنه سيتجه إلى المغرب، سار فيروز إلى اليمن لينظم جبهة الدعوة ضد سياسة الإمام الجديدة، لأن معظم الدعاة المبرزين العاملين كانوا قد اجتمعوا في ذلك الوقت باليمن. وقد تخلّف ابن حوشب عن تنفيذ برنامج رياسة الدعوة، وانضم إلى جانب المهدي. فقد اضطر فيروز وعلي بن الفضل إلى الانضمام نحو المعارضة، وقد اتحدا مع القرامطة في الكوفة والبحرين على برنامج مشترك.

«ولم يكن سبب ثورتهم أن اتجه المهدي نحو المغرب، ولكن على العكس من ذلك كان إتجاه الإمام المهدي نحو المغرب هو السبب في ثورتهم. ولم يكن هذا الحادث مسألة هيّنة، ولكن كان أمراً له خطره، وعليه اختلف المهدي وحماة الدعوة المحنكون أشد الخلاف. فقد كان المهدي يرعب في إنشاء خلافة وأمبراطورية، بعيدة عن سلطان العباسيين. وكان يرغب بذلك رغبة شديدة في تأمين وتقوية مملكته الجديدة. وكان لا يفكر في إحداث أي تغيير إجتماعي، وأن المجتمع سيبقى على حاله السائد تحت حكم العباسيين، باختلاف وحيد، هو أن الأمبراطورية الجديدة سيرأس عليها خليفة من الأسرة العلوية. وفي نظر المهدي كل ما في الأمر كان نزاعاً على الأسرة التي ستحكم فقط.

ولكن بالنسبة إلى هيئة الدعوة من جانب آخر كان النزاع على أساس المبادىء الاجتماعية. وقد بدأت الحركة الفاطمية تهدف إلى محاربة الظلم القائم تحت حكم العباسيين. ولم يكن الدعاة يميلون إلى القيام بتجاربهم في أماكن متعددة، ولم يكونوا يفكرون في الهرب، بل كانوا يريدون البقاء حيث كانوا، ليقوموا بما يرغبون فيه من تغييرات في النظم الاجتماعية تحت حكم العباسيين. وكانوا يريدون إقامة الخلافة الفاطمية مقام الخلافة العباسية- خلافة ودولة جديدة تقوم بهذا الإصلاح الإجتماعي.

وحقاً فإن القرامطة وبعدهم حزب فيروز كانوا يمثلون إتجاهات الحركة الفاطمية الأصلية، وهي الإتجاهات التي رغب عنها الإمام، وكان ابن حوشب وفياً للمهدي دون أن يرتكز على مبادىء إجتماعية. وكان أبو عبد الله الشيعي أيضاً وفياً

لإمامه فترة طويلة من الزمن حتى خاب ظنه، فبعد أن قام المهدي بأمره في رقادة وسجلماسة اكتشف أبو عبد الله ما اكتشفه الدعاة، أمثال القرامطة وفيروز وعلي بن الفضل الحميري منذ زمن بعيد. ولا شك أن أبا عبد الله كان مصادقاً سليم النية (Naive) إلى حدٍّ ما.

وإن أساطين الدعوة العلماء، كالنسفي والسجستاني والرازي، كانوا بعيدين عن المركز الرئيسي كل البعد لكي يدركوا المناورات الخفية التي كانت تجري في سَلَمْية. وفوق ذلك كان هؤلاء العلماء مفكرين ونظريين، لم يكونوا مطلعين على حقائق الحالة السياسية التي تنطوي عليها الدعوة. فقد بقوا وهم في عزلتهم أوفياء لإمامهم. أما أبو حاتم الرازي فقد كان محافظاً، وبقي كذلك حتى بعد حدوث الإنقسام ووضوح الأمر، واستمر في ولائه للإمام. وقد ظهرت في النسفي والسجستاني أمارات الإستقلال وعدم التحزب (Non - Conformism) التي ربما دفعتهما إلى معسكر القرامطة، لو أن هؤلاء بقوا أقوياء، ولم ينحطوا إلى أساليبهم الإرهابية، وحافظوا على ثورتهم في أساليب سليمة معقولة. فالمفكرون دائماً يمقتون القتل ويشمئزون عنه، ولذلك بقي كل من النسفي والسجستاني تجاه المهدي في ولائهما المقرون بالشك. ولا أقصد بهذا التقليل من المقدرة الفكرية لهؤلاء الدعاة، فقد كانوا عظماء في علومهم وكتاباتهم».

* * *

ويبين الغرض الحقيقي من زيارة قاضي قضاة اليمن لملك الحمادي للقاهرة (ص ١٧٥ - ١٧٧) قائلاً:

«إن رواية الداعي حاتم بن إبراهيم الحامدي التي نقلها الداعي إدريس عن زيارة القاضي لملك للقاهرة لا تعطي صورة صحيحة عن دوافع هذه الزيارة. كلما حاولا إخفاءها بطريقة «التأويل والتفسير والباطن» - وهي تقديم القاضي لملك سبعة وعشرين سؤالاً إلى الإمام المستنصر الذي خلع عليه سبعاً وعشرين خلعة عند السؤال، ورده تكريماً له بعد أن انتظر خمس سنوات - وضحت حقيقة هذه الدوافع، وفقاً لدلائل قرائن الأحوال.

وإيفاد القاضي لمك ربما أدى إلى عدة أمور نحو:

١ ـ إن الدعوة في اليمن حتى هذا الوقت لم تكن موروثة، ولكنها كانت موجهة من هيئة الدعوة المركزية بمصر. ومن ثم كان المحتمل أن يطالب الملك علي بن محمد الصليحي أن تستمر الدعوة بعد وفاته في أسرته. وكان من المرجح أنه ترك هذا الأمر للقاضي لمك لتسويته مع الخليفة الفاطمي.

٢ ـ والأمر الثاني هو مسألة نقل التراث الأدبي، كما ذكرتم في مقالكم المعنون «تاريخ الدعوة وآدابها خلال المرحلة الأخيرة من الخلافة الفاطمية» (JRAS, 1932) وفي مقالكم عن «مؤلفي الدعوة ومؤلفاتهم» (JRAS, 1933).

٣ ـ والأمر الثالث كان مسألة تقرير تفاصيل انتشار تجارة المرور المتزايدة بين مصر والهند خلال اليمن.

٤ ـ والأمر الرابع أن تكون الإجراءات قد اتخذت فيما يختص بتعزيز الدعوة في الهند، وإرسال دعاة جدد إلى غجرات ـ الأمر الذي حدث سنة ٤٦٠هـ بعد عودة القاضي لمك إلى اليمن مباشرة.

«ولم تكن هذه هي الأسباب الرئيسية لسفارة القاضي لمك إلى مصر، ولكنها كانت على الأكثر مجرد نتائج ضمنية لمفاوضات أطيلت مدتها. والدافع الأصلي كما أعتقد هو رغبة الملك علي بن محمد الصليحي في الذهاب إلى مصر لينقذ الخليفة من مشاكله. وليختبر التواريخ.

«بين عاميّ ٤٥٤ و ٤٥٩ وقعت مصر فريسة لأسوأ مجاعة وأشد وباء للطاعون وأقسى تخريب في تاريخها. وقد أجمعت مصادرنا على رسم صورة مخيفة لهذه الكارثة. وكانت الدولة الفاطمية على شفا الإفلاس، ولم يكن ناصر الدولة في حال أسوأ من أحواله هذه؛ فقد جعل بإسرافه في القتل والنهب بقاء الدولة الفاطمية أمراً مستحيلاً، وأصبح من المتوقع أن ينتهي حكمها بين آونة وأخرى».

«ومرة أخرى كانت السنوات بين عاميّ ٤٥٤ و ٤٥٩ هي نفسها التي أوفد فيها

القاضي لمك. وكانت هي نفس سنوات المجد والقوة للدولة الصليحية في اليمن. وبينما كانت مصر في أشد حالات ضعفها في عام ٤٥٤ كانت اليمن في أوج عظمتها وجبروتها، لأول مرة متحدة تحت حكم الصليحي. وبالتأكيد خلال مدة هذا التناقض لم يكن هناك داعٍ لزيارة قاضي قضاة اليمن للقاهرة إلّا لأن يعرض مساعدة ملك اليمن للإمام الخليفة المستنصر، بمعنى أن يطلب الإذن لعاهله في القدوم إلى مصر بجيش اليمن، لكي ينقذ البلاد المصرية من المتاعب والبقاء فيها كقوة عاملة نافذة».

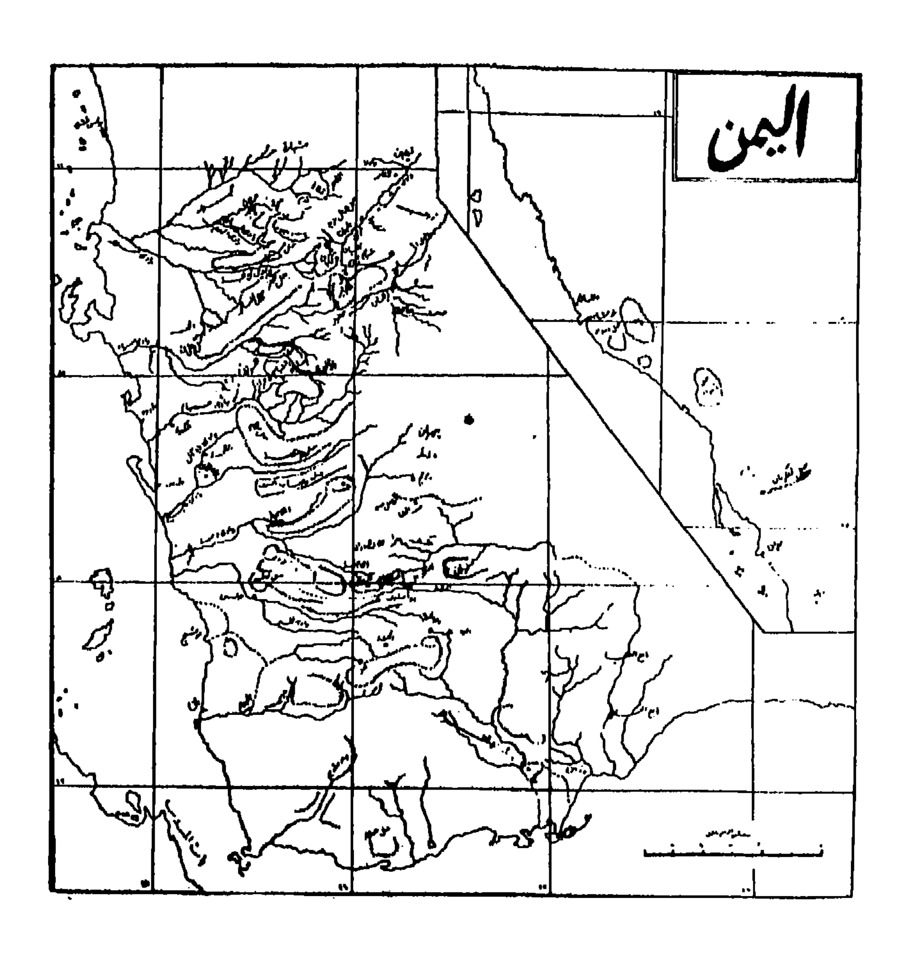
«وعلى الأرجح نظراً للصلات الطيبة بين دعوة اليمن بالهيئة المركزية، ونظراً لبقاء لمك مع داعي الدعاة المؤيد، كان الأمل كبيراً في أن يؤدي توسط المؤيد إلى تحقيق رغبات ملك اليمن، ولكن يبدو أن الإمام المستنصر كان معارضاً لهذا، واستمر في تأجيل سفره.

«ولكن الصليحي قد نفذ صبره، ولكي يعزز ضغطه أرسل القاضي عمران ابن الفضل اليامي وسفراء أخر إلى الإمام المستنصر يسأله الإذن له بأداء فريضة الحج، وزيارة مصر بعد ذلك.

وأصر أيضاً على إحتلال مكة. ولما كان الإمام على الأرجح قد اعتبر ذلك خطوة أولى إلى التقدم نحو مصر فقد أصرّ بدوره على رفض السماح له بالزيارة، وطلب منه أن يوسع ملكه من ناحية حضرموت.

ولكن الصليحي لم يستطع إنتظاراً. وفي سنة ٤٥٩ تقدم نحو مكة في طريقه إلى مصر، دون أن يتلقى إذناً من إمامه، وضد رغبة هذا الإمام، ولكن لسوء الحظ قتل بأيدي آل نجاح أثناء رحلته. ولولا ذلك لوصل إلى القاهرة، ولقام بما شاء القدر أن يقوم به بدر الجمالي بعد ذلك.

وهكذا كان من الواجب أن تنتهي سفارة القاضي لمك في سنة ٤٥٩، ولم يتحقق الغرض الرئيسي منها، وعاد إلى اليمن بعد أن حقق الأغراض الفرعية لهذه الرحلة».



[مصور تقريبي لبعض المناطق التي وردت أسماؤها في الكتاب رسمه تلميذنا الدكتور حسن سليمان محمود مدرّس الجغرافيا واستعان في تقرير الأماكن بسعادة السيد علي المؤيد وزير اليمن السابق بالقاهرة ـ المؤلف].

الأعلام

(أ)

(خ)

(هـ)

(و)

(ي)

القبائل

الأماكن والبلدان

محتويات الكتاب